العودة إلى الأصل

إلى آل محمد(ص)

العودة إلى الأصل

إلى آل محمد (ص)

نسخة منقحة

غسان نعمان ماهر

مؤسسة الفجر

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر

يتقدم المؤلف بخالص الشكر إلى الأخوين العزيزين
خضير فاضل عباس والدكتور محمد الحكيمي على
مراجعتهما الكتاب وإبداء الملاحظات القيمة حوله.

جميع الحقوق محفوظة

لا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب ، ولا خزنه في
أي وسيلة استرجاعية ، ولا إرساله ، بأي شكل أو واسطة ،
سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل
أو غيرها ، بدون الموافقة المسبقة من الناشر .

الطبعة المنقحة الأولى

1433 هـ - 2012م

الناشر: مؤسسة الفجر للنشر / بيروت – لندن

هاتف: 384499 7810 (0044)

بريد إلكتروني: alfajr.publishing@gmail.com

المحتوى

إهداء 7

مقدمة 9

الباب الأول: الرحلة

الفصل الأول: ما قبل العودة 19

الفصل الثاني: إشارات 31

الفصل الثالث: على شاطئ الحقيقة 41

الفصل الرابع: العودة عملياً 49

الباب الثاني: القرآن والسنة والعلم والسيرة

الفصل الخامس: القرآن الكريم 61

الفصل السادس: الحديث الشريف 83

الفصل السابع: الزهراء(ع) أحاديث وقضية 111

الفصل الثامن: حديث الغدير 125

الفصل التاسع: العلم 147

الفصل العاشر: السيرة 167

الفصل الحادي عشر: لا يقاس بهم أحد 211

الباب الثالث: المدرستان

الفصل الثاني عشر: الله تعالى	227
الفصل الثالث عشر: العدل الإلهي	233
الفصل الرابع عشر: النبي(ص)	239
الفصل الخامس عشر: الحُكم	247
الفصل السادس عشر: الصحابة	261
الفصل السابع عشر: الفقه	275
الفصل الثامن عشر: التاريخ الإسلامي	285
الفصل التاسع عشر: أهل البيت(ع)	309

الباب الرابع: الشيعة ومذهب أهل البيت(ع)

الفصل العشرون: متى بدأ التشيع؟	337
الفصل الحادي والعشرون: هل الشيعة على مذهب أهل البيت(ع)؟	359
الفصل الثاني والعشرون: العودة إلى الأصل	381
خاتمة	391
ملحق	393

إهداء

إلى روح العم السيد عبد القادر ماهر

الذي تعلمت منه أن الولاء الحقيقي

يستطيع عبور جميع الحواجز . . .

وإلى روح العم الأستاذ عبد الرزاق الهلالي

الذي تعلمت منه أن حرية الفكر

هي الأساس للوصول إلى الحقيقة . . .

مقدمة

لماذا الكتاب

هناك دواع مختلفة جعلتني أقرر كتابة هذا الكتاب. أولها أنه تجربة إنسانية تستحق الذكر والتبيان للآخرين لأن فيها آثاراً متنوعة فهي تمسّ الجوانب النفسية والفكرية وما يتفرع عنها من آثار على العلاقات وعلى المصالح. ونحن نرى أن الناس وعلى مختلف العصور سجّلوا تجاربهم على تنوّعها، حتى التجارب التي تشكّل جانباً بسيطاً من حياتهم أو التي لم تؤثر تأثيراً كبيراً عليهم أو على الآخرين.

أما عندما تتعلق التجربة بالعقائد، فإنها تأخذ مدى أوسع وترتفع إلى مستويات أعلى بما تمسّه في النفس والفكر والعلاقات وما يتبع من تفاعلات بينها.

الداعي الثاني هو أن كتابة هذه التجربة ونشرها بين الناس نوع من التحدث بنعمة الله. فإن ما أفهمه من الأمر: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى:11) هو أولاً الإعلان عن حصول النعمة؛ ثانياً التعبير عن الفرح بها؛ ثالثاً الشكر على النعمة، فإن الشكر في قوله ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم:7) لا ينحصر باللسان، بل إن من جوانبه الثناء على المولى المنعم بإخبار الآخرين بها، ويتبع ذلك الزيادة في هذه النعمة وفي غيرها؛ بل إن من مصاديق الشكر بذلها لمن يستحقها.

الأمر الثالث في دواعي هذا الكتاب هو أني أحسبه مفيداً للقارئ. ذلك أن أي تجربة إنسانية تحمل جوانب لا بد أن يكون فيها ما يمكن الاستفادة منه في اكتشاف هنا أو التفاتة هناك أو انفتاح على الحق هنا أو اتباع للحق هناك أو موقف صادق أو تحمّل للأذى أو غير ذلك.

الأمر الرابع هو دعوة ذوي الأصل العلوي ممن يشعرون بتميّز أجدادهم من آل محمد(ص)، بينما هم يتبعون في مذاهبهم الإسلامية أئمة آخرين، لا يصلون – كما ثبت عندي – إلى المستوى السامي للأئمة من آل محمد(ص) في علم أو عمل أو منزلة إلهية منصوص عليها. وهذا لا علاقة له بالعصبيات، وإنما السبيل الصحيح الذي وجدته يأخذ بالألباب إثباتاً من الكتاب والسنة والسيرة وأقوال السلف. وبالتالي فإنها مفارقة أن يشعر الإنسان العلوي بتميّز أجداده – ولعل هذا موجود في جميع من لهم النسب

الكريم – وفي نفس الوقت يتّبع غيرهم، ربما لأنه لم يلتفت إلى أن هؤلاء الآباء الطاهرين كانوا أصحاب مذهب فكري ولم يكونوا فقط أفراداً أتقياء ممدوحين في التاريخ.

لماذا الآن

في البدء أقول أن هذا الكتاب تأخّر لأكثر من خمس عشرة سنة، وبالتالي لم تتولّد الفكرة من ورائه قريباً. وكان سبب تأجيل كتابته هو وضع بلدي العراق أولاً، وظروفي الشخصية ثانياً. على أني أحسب التأخير مفيداً لنضج التجربة من خلال الإطلاع والتفكير والكتابة، ومن خلال بعض ما شهدته الساحة الإسلامية عموماً.

ولكن ربما يقال أننا نعيش الآن أجواء فتنة مذهبية، ولعلّنا نعيشها منذ سنين طويلة، فلماذا الخوض في مواضيع ربما تسهم في تأجيج هذه الفتن؟

نقول: أولاً إن الفتنة التي يُشار إليها يصح أن تسمى فتنة طائفية أكثر من كونها مذهبية، لأن الناس يتعلقون بانتمائهم إلى الطائفة كمجموعة تتعرض إلى عوامل متشابهة أو مشتركة من الأفعال وردود الأفعال، وأن هذه الطائفة تُعنى بما عندها من شعائر ومصالح أكثر من التفكير بأن المسألة تتعلق بالمذهب بأطره العقائدية والفكرية والأخلاقية. وهذا فارق كبير يؤثّر بشكل مباشر على الطرح سواء في هذا الكتاب أو في غيره. حيث أن الكلام في المذاهب هو كلام علمي يتعلق بما يفكر فيه الإنسان وما يؤمن به وما يستتبع ذلك من أمور تتعلق بالعبادات والمعاملات والتصرفات، وليس هو شعائر أو طقوس أو مصالح. نعم، إن الإنتماء المذهبي هو أيضاً انتماء طائفي لأن الإنسان سيوضع شاء أم أبى تحت هذا العنوان أو ذاك، وربما يتعرض لما تتعرض له تلك الطائفة وأفرادها بغض النظر عن طريقة تفكيره أو ممارساته.

إذاً، هذا الكتاب يسهم في مواجهة الفتن من خلال توضيح بعض الأمور – يلتفت الإنسان إلى جماعته أولاً فيكون أكثر عدلاً وصدقاً في توضيح الفارق بين ما يتضمنه إتباع أهل البيت(ع) والتشيّع لهم من فكر عميق وإطار إنساني وأخلاقيات وخط مبدئي وبين ما يمكن أن يحدث من جوانب سلبية أو تصرفات غير مناسبة من بعض من ينتسب إلى هذا الخط المبدئي الصادق. فلم يكن من فراغ أن يدعونا الأئمة(ع) بالقول «أحبونا حب الإسلام، فما زال حبكم لنا حتى صار شيناً علينا» (الإرشاد

للمفيد ج2 ص141)، وقولهم «كونوا لنا زيناً ولا تكونوا علينا شيناً» (مشكاة الأنوار ص134)، فإن من أكثر ما يصيب أي فكرة وأي خط من مشاكل يأتي ممن يسيء أو ممن لا يظهر الوجه المشرق لمن ينتسب إليه. وهذا عام في جميع النظريات والمجتمعات وليس حصراً على جهة دون أخرى، إلا أننا ينبغي أن نلتفت إلى أنفسنا أولاً كيلا نلطخ، بأمور من اختراع عقولنا القاصرة، الطريق المرتبط بأهل البيت(ع) الذين هم حرّاس العقيدة الخاتمة التي أراد الله تعالى أن تكون النظرية والتطبيق في آخر الأمر.

كما يمكن لنا أن نسهم في مواجهة الفتن عن طريق الرد على طروحات البعض من مشايخ وغير مشايخ بأن لا يكون هناك تبشير – كما يصفونه – للمذهب الشيعي في المناطق أو البلدان السنيّة المذهب ولا التبشير السنيّ في المناطق أو البلدان الشيعية على أساس أن ذلك يثير الاحتقانات الطائفية والفتن. ونحن هنا نرد على هؤلاء بالقول:

أولاً، إن هذا ينطبق على الدعوة إلى الإسلام نفسه، بمعنى أن نؤمر بالتوقف عن الدعوة الإسلامية في الغرب لأن ذلك يثير المشاكل، كما هو حاصل من بعض من ينتسب إلى الإسلام.

ثانيًا، أتساءل: لم الخوف من الدعوة إلى مذهب أهل البيت(ع)؟ وذلك لأن المناطق الشيعية أو التي تنتسب إلى التشيّع أقل بكثير من مثيلاتها التي تتبع المذاهب الأخرى. كذلك فإن الإعلام السنيّ أكبر وأقوى بكثير من الإعلام الشيعي، مع تحفظنا على مدلولات هذا العنوان، ولكننا نقول بأن الإعلام السنيّ أقوى ويحظى بدعم أوسع بكثير من الإعلام الذي ينتمي إلى مذهب أهل البيت(ع). فلمَ الخوف إذا كان الطرح علمياً هادئاً ويتجنب الإثارات الجماهيرية؟

ثالثًا، أليس مما يقتضيه الانتماء الدفاع عنه إزاء الهجوم الظالم الذي يتعرّض له؟ وأي انتماء تعرّض ولا يزال إلى هجمات متواصلة ملؤها الكذب والافتراء والتحريف، ناهيك عن التكفير والتفسيق والشتائم، مثلما تعرّض له مذهب أهل البيت(ع) وشيعتهم؟ إذاً ينبغي على من ينتمي إلى هذا الخط أن يدافع عنه، بشرط أن يكون قادراً على ذلك، وأن يكون حريصاً على عدم صب الزيت على النار لأن ذلك مما لا يرضي أئمته(ع) في خطهم المعروف.

رابعًا، أقول لهؤلاء ما فائدة الحفاظ على العقائد بالكتمان والتحريف؟ فما أفهمه من دعوات التوقّف عن التبشير كما يسمونه ليس فقط إيقاف وصول الأفكار

الموجودة في مذهب أهل البيت(ع)، وهي أفكار العدل والحق والسيرة الطيبة، وإنما هو للحفاظ على سيطرة المذاهب الأخرى في غالبية العالم الإسلامي؛ أي أنه دفاع عن العقيدة وليس فقط صد عقيدة أخرى. فأسأل ثانية: إذا كانت عقائد هؤلاء من القوة بحيث أنهم متمسكون بها ويدافعون عنها فلم الخوف من التعاطي مع حالة الحوار والبحث العلمي في نقاط الضعف فيها أو نقاط القوة في غيرها من المذاهب؟

ولكن لطريقة الطرح أثر واضح على النتائج، ولذلك كان الأئمة(ع) كانوا يمنعون بعض هؤلاء الأصحاب من الولوج في هذا المعترك بينما يشجعون آخرين على ذلك من أجل إيصال دعوة الحق وفي نفس الوقت تجنب أي خسارة. فإن كانت الدعوة إلى الحق بطريقة أو يقوم بها أشخاص أو في ظروف تؤدي إلى زيادة الفرقة بين المسلمين وإلى زيادة الابتعاد عن خط أهل البيت(ع) فإنها تصبح وبالاً بدلاً من أن تكون طريقاً إلى الهداية وإلى نفع الداعي والمدعو.

خامسًا وأخيراً، إن الدعوة إلى النظر والاعتبار ودراسة التاريخ هي من أهم الأسباب التي قادت إلى التطور الذي حصل في المجتمعات الغربية في مجالات حقوق الإنسان التي استفاد منها المسلمون ولمسوها أكثر مما لمسوها في بلدانهم الأصلية، وهي من أبرز الأسباب التي أدت إلى التطور حتى في المجالات العلمية والإقتصادية هناك. ونجد هنا حالة فصام عند المسلمين بين الدعوة إلى أن ننجح مثلما نجح الغرب والدعوة إلى انتهاج منهج يرفضه الغرب جملة وتفصيلاً لأنه رأى فيه تكبيلاً للطاقات البشرية وأنه يحمل من المظالم أكثر مما يحمل من العدل.

وإن المسلمين ما فتئوا يقولون بأن هذا المنهج الذي نجح في الغرب إنما هو منهج إسلامي حيث أنه يدعو إلى العدل والمساواة والعلم والحوار ولكنهم عندما يأتون إلى بحث أهم الأمور التي تستند إليها عقائدهم فيما بينهم فإنهم يحجمون عن ذلك ويعودون فيتخذون نفس المنهج الكَنَسي الذي تخلص منه الغرب لينطلق، وهو ما يذكره هؤلاء المسلمون الدعاة باستمرار. فبينما يدينون سلطة الكنيسة التي تخلص منها الغرب وانطلق ليبني حضارة قائدة إذا بهم يسلكون نفس النهج الكنسي عندما يأتي التعامل مع أمور كهذه والتي تشكل بالنسبة لأمتنا القاعدة الأساسية الأولية لكي ننطلق كما انطلقوا، بل ولكي ننطلق كما انطلقنا من قبل وبنينا حضارة رائدة.

إن هذا المنهج ليس منهجاً غريباً، بل هو منهج إسلامي قرآني في الصميم. فقد حث القرآن كثيراً على إعمال النظر ودراسة التاريخ وتجارب الأقوام: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ... أفلا يتفكرون... أفلا يعقلون... فاعتبروا يا أولي الأبصار... لآيات لأولي الألباب...﴾. وفي جميع الأمور التي تعرض إليها من تاريخ الأمم وتاريخ الإسلام فإنه ذكر جانبيها المشرق والمظلم، بدءاً من قصة ابني آدم(ع) والتي نزلت آياتها بصيغة أمر للنبي(ص): ﴿وَاتْلُ عَلَيهِمِ نَبأَ ابنَي آدمَ بالحَقّ﴾ (المائدة:27)؛ وكذلك عندما يأتي على ذكر الممدوحين والمذمومين من الرجال والنساء في الأمم السابقة؛ وكذلك فيما جرى في العهد النبوي، ولاسيما في العهد المدني، وما كان من أفعال وردود أفعال المسلمين في بدر وأحد وحنين والأحزاب، بل وحتى في أمور خاصة ربما بقضية ما تلقي ضوءاً على واقع المجتمع لتعرف منه كيف كانت الأحوال وبالتالي لترى لماذا كان هذا الضعف ولماذا كانت هذه القوة لتأخذ منها الدروس وتتبع ما أدى إلى هذه المواقف المشرقة وتتجنب ما أدى إلى تلك المواقف السلبية.

فليس من قبيل الكلام المثير للفتن أن يتعرض القرآن إلى تزلزل المسلمين زلزالاً شديداً يوم الأحزاب، أو هروبهم في أُحد ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْراكُمْ﴾ (آل عمران:153)، أو حُنَين ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ (التوبة:26) ثم ولّوا مدبرين منهزمين، أو خروجهم من المسجد إلا اثني عشر رجلاً تاركين النبي(ص) يخطب على المنبر وقد زهدوا في مواعظه وخرجوا إلى التجارة خارج المسجد، فخلّد القرآن ذلك في سورة الجمعة. كل هذا ليس من قبيل القصص الذي يقرأه المسلم ويعتبر به لوحده فحسب، وإنما هو منهج ينبغي أن نأخذ به في تعاملاتنا مع العقائد والأفكار والأخلاقيات وفي ما نقوم به في مجالات الحياة المختلفة.

أبواب الكتاب

عرضت في الباب الأول قصة انفتاحي على مذهب أهل البيت(ع) من خلال بعض ما كان من حديث أو حوار مع والدي وعمي الأصغر رحمهما اللّه تعالى، والذي تضمن تساؤلاً لم أجد عنه جواباً مقنعاً يتعلق بمدى علاقة المذهب الشيعي

الذي عليه الشيعة الإمامية الإثنا عشرية بأهل البيت(ع)، أي الأئمة الإثني عشر من آل محمد(ص)، وهو ما بقي مفتوحاً ينتظر الجواب حتى جاءه بشكل تدريجي عن طريق البحث في هذا المذهب.

ذلك البحث كان عمدته البحث في قضية الإمامة، إمامة الأئمة من آل محمد(ص)، وهو الذي عرضته في الباب الثاني من الكتاب، بالإشارة إلى النصوص القرآنية والحديثية التي يستند إليها الشيعة في إثبات دعواهم، أيضاً ما ثبت من العلم والسيرة لأولئك الأئمة الإثني عشر(ع) بحيث يعطي الصورة الخارجية الواقعية لهم التي تتوافق مع ذلك النص عليهم في الكتاب والسنة. وقد استغرق هذا الباب ما يزيد عن نصف هذه النسخة من الكتاب كونه يعرض ما يلتزم به المسلمون جميعاً من وجوب التسليم لما أمر اللّه به ورسوله(ص)، هذا أولاً. ولكن، بما أن العناد لا سقف له، بحيث يمكن للكثيرين القول – كما هم يقولون – بأنهم يسلمون لهذه النصوص ولكنها لا تعني أن هناك فرقاً كبيراً بين المنصوص عليهم، أي أهل البيت(ع)، وغيرهم ممن تقدم عليهم في الواقع التاريخي، وجدت من الضروري الإشارة السريعة إلى ما كان من علم أهل البيت(ع) وسيرتهم للتنبيه إلى الفارق بين هؤلاء وأولئك.

إن موضوع الإمامة وإن كان هو المدخل إلى التعرف على المذهب، وربما الاقتناع به كما حصل معي ومع الكثيرين من غيري، إلا أن المواضيع الأخرى، في الأصول والفروع، تثبت من باب آخر غير باب الإمامة صحة مذهب أهل البيت(ع). في الباب الثالث من الكتاب ملخص شديد يبين الاختلافات، في العقائد والتشريعات، التي يطلع عليها من يدرس مذهب الإمامية الإثني عشرية مقارنة مع المذهب السنّي.

وتجدر ملاحظة غاية في الأهمية، وهي أن الالتزام بمبدأ معين من خلال أمر أساسي أو أكثر يؤدي إلى دفع الشخص الملتزم إلى الاقتناع بالأمور الأخرى، ولكن لا من باب القناعة التامة وإنما من باب القبول بما يقوله أتباع ذلك المبدأ وعلماؤه؛ وهذا أمر يحصل للناس جميعاً وإلا لما بقي أكثر البشر على قناعاتهم منذ الصغر دون تدقيق. إلا أني وجدت نفسي أقتنع وألتزم بتلك الأمور الأخرى من خلال:

1- الالتزام المذكور أعلاه، ولكن بعد مضي بضع سنين بحثت خلالها في الفارق بين ما يقوله هؤلاء وأولئك فوجدت الإطار الصحيح.

2- الالتزام بالعقائد والتشريعات لأنه ثبت لي وجوبها بوجوب اتباع أهل البيت(ع).

3- القناعة التامة بالحجج المنطقية التي يسوقها أتباع مذهب أهل البيت(ع) في جميع الأمور الخلافية، سواء في الأصول العقدية أو الفروع التشريعية.

إن البحث المتأني، وإعطاء الموضوع حقه من البحث والتفكر خلال مدة كافية، كفيل بأن يقنع الإنسان المخلص في بحثه، سليم النية في مقصده، الذي لا يرضى بغير الله ورسوله(ص) بدلاً، بجميع الأمور العقدية والتشريعية التي نقلت عن أئمة الهدى من آل محمد(ص)، بحيث يشعر المرء أنه في البناء الثابت بالدليل والقائم على عمد لا تتزعزع، وذلك لارتكاز حجج شيعة أهل البيت(ع) على كتاب الله تعالى أولاً، وفي فهم دقيق وجدته أعلى بكثير مما عند غيرهم، وعلى سنة النبي(ص) ثانياً في رد غير خائف مما يصادم العقل أو يصادم محكمات الكتاب العزيز، ثم على المنطق السليم المتألف من بديهيات تبدو أحياناً غائبة بشكل لا يصدق عند الآخرين.

هذا البحث المتأني الذي يطلب الدليل في كل شيء من شأنه أن يؤمن الباحث من الانزلاق في القبول بكل شيء حتى وإن كان ضعيف الدليل أو مهزوز الحجة لمجرد أن أتباع المذهب الذي هو عليه أو الذي انفتح عليه يقولون به أو يقومون به.

الباب الرابع من الكتاب يمثل الإجابة على التساؤل الأصلي: هل أن الشيعة على مذهب آل محمد(ص) حقاً؟ ذلك التساؤل الذي لم يجد جواباً شافياً مقنعاً في حواراتي مع عمي رحمه اللّه تعالى، فكان البحث في العقيدة، خصوصاً الإمامة، أي الباب الثاني، ثم في الشريعة، أي الباب الثالث، هو الذي قاد إلى معرفة فيما إذا كان الشيعة الإمامية على مذهب آل محمد(ص)، والذي كان من ضروريات الوصول إليه معرفة متى بدأ المذهب الشيعي، أو التشيع، أي فيما إذا كان للأئمة من آل محمد(ص) مذهب محدد مميز أم لا؛ أيضاً، التأكد من التواصل التاريخي غير المنقطع بين أولئك الأئمة(ع) والمذهب الشيعي الموجود اليوم وقبل اليوم. هذان الأمران: نشأة التشيع، والتزام الشيعة بمذهب آل محمد(ص)، عرضتهما في الباب الرابع.

أخلص إلى القول بأن هذا الكتاب هو طرح لتجربتي التي مررت بها والتي ترسخت ونضجت، رغبةً في فائدة الآخرين، وتحدثاً بنعمة الله تعالى، وتنبيهاً إلى من يريد أن يرجع إلى أصوله، وإسهاماً في مواجهة الفتن، وإسهاماً في تغيير الواقع

المؤسف لهذه الأمة، عسى أن يتحقق ذلك الإنطلاق الذي هو المأمول من هذه الدعوة الخاتمة التي هي دعوة العقل والفكر قبل أن تكون دعوة المشاعر والعواطف.

تنبيـــه: موقفنا تبع لأئمتنا

إن ما نطرحه هو دعوة إلى الطريق الصحيح لفهم الإسلام أو قل الطريق الأصح. بمعنى أننا لا نكفّر ولا نُخرج من الأمة من نشاء ونُدخل النار من نشاء كما يفعل البعض من المسلمين من شتى الطوائف، بل نعتبر ذلك جرأة على الله الذي أخبرنا بأن رحمته وسعت كل شيء، ولم يعطنا الحق في أن نكون الحكام بدلاً عنه سبحانه.

إن موقفنا هذا تبع أئمتنا(ع) الذين ما أجبروا أحداً على اتّباعهم ولا على بيعتهم ولا نكّلوا ولا حاصروا ولا فعلوا ما فعل غيرهم. كانوا يؤخرون الحروب رجاء هداية الأعداء كما قال علي(ع): «فوالله ما دفعت الحرب يوماً إلا وأنا أطمع أن تلحق بي طائفة فتهتدي وتعشو إلى ضوئي، وذلك أحب إلي من أن أقتلها على ضلالها وإن كانت تبوء بآثامها» (نهج البلاغة ج1 الخطبة 55). بل كانوا يأمرون بالإحسان إلى قاتليهم كما فعل الإمام علي(ع) مع قاتله، ويؤوون عوائل أشد أعدائهم كما فعل الإمام السجاد(ع) مع الأمويين عندما ثار أهل المدينة المنورة. بل وحتى وصلوا إلى البكاء على أعدائهم في سوح المعارك كما في الموقف الذي نقله التاريخ عن الإمام الحسين(ع) يوم الطفّ في كربلاء.

لذا، أرجو أن أكون واضحاً في أن ما أطرحه من رأي مخالف لا يعني أنني أشطب على هذا القارئ الكريم، فإن اتّباعي لآل محمد(ص) هو الذي جعلني أحب الناس جميعاً ولا أبغض إلا أعداء الله تعالى. والحمد لله رب العالمين.

- **بحث موسّع**

ألفت نظر القراء الأعزاء إلى البحث الموسع لمختلف مواضيع الكتاب، ولا سيما الباب الثالث "المدرستان"، فيه مزيد من الشروح والمناقشات وبعض الإثارات الأخرى، يمكن لمن يرغب في الاستزادة منها مراجعة الموقع على شبكة الانترنت: www.return2origins.com .

ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم

لعلمه الذين يستنبطونه منهم

الباب الأول

الرحلة

الفصل الأول
ما قبل العودة

المنطقة والعائلة والتعليم

الأفكار

"ولا أدري إن
كان في مثل
هذا التنوع . . .
ما له أثر غير
مباشر ربما على
من يسكن في
مثل هذه المنطقة،
خصوصاً إذا
كان من عائلة
تتفاعل مع هذا
الجو وتتأثر به
وتؤثر فيه."

المؤلف

هذا الفصل يخص المرحلة منذ ولادتي في عام 1955 وحتى تخرجي من الجامعة في عام 1977. الغاية من الفصل هو التعريف المختصر جداً بالمنطقة والنشأة والأفكار التي ترعرعت عليها في تلك المدة.

المنطقة والعائلة والتعليم

فقد نشأت في منطقة تابعة إلى قضاء الأعظمية المعروف في بغداد والمأخوذ إسمه من الإمام الأعظم وهو الإمام أبو حنيفة النعمان رحمه اللّه إمام المذهب المعروف، المدفون في المسجد الجامع المسمّى بإسمه على شط دجلة عند الجسر المعروف بجسر الأئمة كونه يربط بين الأعظمية حيث الإمام أبي حنيفة رحمه اللّه وبين الكاظمية حيث الإمام الكاظم وحفيده الجواد عليهما السلام. المنطقة التي ولدت فيها ونشأت وقضيت فيها جميع إقامتي في العراق تسمى محلة نجيب باشا وتقع في الجزء الجنوبي من منطقة الأعظمية وتبعد دقائق بالسيارة عن الإمام أبي حنيفة، وهي منطقة مختلطة بالنسبة إلى التكوين المذهبي وإن كانت سنيّة في الغالب بمعنى أن أكثر ساكنيها من أتباع المذهب السنيّ، وبالخصوص المذهب الحنفي الذي هو المذهب السائد في بغداد بالنسبة لأهل السنّة.

وهذه المنطقة من المناطق المهمة في تاريخ الدولة العراقية الحديثة حيث سكنها العديد من السياسيين وضباط الجيش الذين شاركوا في الأحداث الهامة، ومن الأدباء والشعراء والفنانين وغيرهم ممن كان له الأثر، كبر أو صغر، في القرن العشرين منذ تأسيس الدولة العراقية وربما حتى السبعينيات أو الثمانينيات. فمن مشاهير هذه المنطقة من السياسيين المرحوم رفعت الحاج سرّي أحد الضباط الأحرار لثورة 14 تموز 1958 وأحد أصدقاء والدي القريبين وهناك شارع كان بإسمه في محلتنا وسوق عند بيت والده الحاج سرّي. وهناك اللواء محمد نجيب الربيعي أول رئيس لمجلس السيادة ومجلس الرئاسة بعد ثورة 14 تموز 1958. وهناك من سياسيي العهد الملكي مثل نور الدين محمود رئيس الوزراء والوزير عبد المجيد محمود وأركان العبادي قائد القوة الجوية وغيرهم. وسكن في المنطقة ممن اشتهر من الضباط

والسياسيين ومن الضباط الأربعة الذين قادوا ثورة مايس 1941 ضد الوجود البريطاني في العراق ومنهم اثنان محمود سلمان وكامل شبيب.

وسكن في محلتنا أيضاً من القادة العسكريين المعروفين الضابط الكردي المعروف عمر علي الذي كان قائد القوات العراقية التي قاتلت في المعارك المشهورة في جَنين في فلسطين سنة 1948.

كما سكنها اللواء محمد نجيب الربيعي أول رئيس لمجلس السيادة (أي المجلس الرئاسي الذي كان في الواقع صورياً لأن السلطة كانت بيد رئيس الوزراء عبد الكريم قاسم... ولعله يناسب أن أذكر أن مجلس السيادة كان يتألف من رئيس سنّي – هو الربيعي المذكور – ونائبين أحدهما شيعي والآخر كردي، وهذه مهداة لمن يقول أن هذا التقسيم جاءنا مع احتلال عام 2003!)

ومن سكنة شارعنا المرحوم محمد شفيق العاني رئيس محكمة التمييز أعلى سلطة قضائية في العراق. ومن الأصدقاء القريبين في محلتنا أيضاً أخصائي الريّ والجغرافية والتاريخ اليهودي، وصاحب المؤلفات في هذا المجال مثل "العرب واليهود في التاريخ"، المرحوم الدكتور أحمد نسيم سوسة (والذي كان أحد شاهدي عقد زواجي قبل وفاته بثلاث سنوات عام 1980).

وفي شارعنا من الناحية الثانية كان هناك بيت عمي، أخ والدي، مزاحم ماهر الذي عمل في فترة العهد الملكي محافظاً (كان يسمى في ذلك الوقت متصرفاً) في السليمانية في شمال العراق ومديراً لشرطة السليمانية ومديراً لشرطة البصرة. وفي نفس الشارع كان يسكن ابن عمة والدتي المرحوم الدكتور جلال العزاوي طبيب العيون الشهير وعميد كلية الطب في الأربعينيات.

والذي نذكره من هؤلاء هو فقط في الشوارع الخمسة من المحلة والذي يطلق عليها "شارع طه" والتي كتب عنها بشكل مقارنة بينها وبين منطقة هَمَرسمِث في لندن المعمار العراقي الشهير رفعت الجادرجي، الذي هو أيضاً من سكنة محلتنا، وفي الشارع الواقع في ظهر شارعه بيت والده كامل الجادرجي الذي يسميه البعض أبو الديمقراطية في العراق، الذي أسس مع آخرين الحزب الوطني الديمقراطي في العهد الملكي.

وبذكر المعماريين، فقد سكن محلتنا أيضاً المعماران الشهيران قحطان المـدفعي وقحطان عوني.

وسكنها العديد من الأدباء ورجالات الفكر مثل المرحوم عبد الرزاق الهلالي (والد زوجتي الذي سأشير إليه في فصل قادم)، والمؤرخ جواد علي، والدكتور علي الوردي المؤرخ المعروف الذي سكن المنطقة فيما بعد. وممن سكنها الخطاط المعـروف هاشم محمد الخطاط البغدادي، ومن الفنانين إسماعيل فتاح الترك النحات المعروف.

وسكنها من الرياضيين المرحوم فاروق الخطيب لاعب كرة السلة المعروف، وزوج أختي الكبرى أحمد الحجّية رئيس الفريق العراقي في كرة السلة ورئيس اللجنة الأولمبية العراقية بعد 2003، ولاعب كرة القدم الأشـهر جميـل عبـاس، أو جمـولي، رئـيس الفريق العراقي في كرة القدم، وعامر ناجي بطل الملاكمة. وهناك أيضاً حسين الخضيري صاحب محلات الخضيري أشهر متجر للأجهزة والمعدات الرياضية في شارع الرشيد.

والكثير من غير هؤلاء في مختلف الاختصاصات من المشاهير في ذلك الوقت.

ولعلّه مما يناسب ذكره في مثـل هـذا الكتـاب الـذي يتحـدث عـن التحـوّل المذهبي أن الشيخ الوحيد في العراق الذي كـان يتمـذهب بالمـذهب الوهـابي كـان يسكن في منطقتنا وهو المرحوم الشيخ بهجت الأثري.

ولا أدري إن كـان في مثـل هـذا التنـوع الـذي يضـم في داخلـه تنوعـاً في الاختصاصات وفي المهن وفي الإتجاهات السياسية والفكرية وفي الإنتماء المـذهبي بـل والقومي ما له أثر غير مباشر ربما على من يسكن في مثل هذه المنطقة، خصوصاً إذا كان من عائلة تتفاعل مع هذا الجو وتتأثر به وتؤثر فيه.

أما العائلة فإن والدي، نعمان ماهر الكنعاني (رحمه اللّه)، معروف في العراق كونه من الضباط القوميين العروبيين ومن شعراء العراق المعـروفين، ولكـن للظـروف الخاصة التي مررنا بها لم أتعرف على أفكاره إلا لاحقاً. ذلك أنه بعد أن طـرد مـن الجيش لاكتشاف تآمره على الحكم الملكي في عام 1957 وعودته إلى الجيش في يـوم ثورة 14 تموز 1958 وعمله بشكل لصيق في وزارة الدفاع مع الـزعيم عبـد الكـريم قاسم، أخذ موقف الضـباط القـوميين بقيـادة صـديقه العقيـد رفعـت الحـاج سـرّي

والزعيم ناظم الطبقجلي الذين رفضوا الاتجاه غير القومي للزعيم عبد الكريم قاسم مما اعتبروه خروجاً على مبادئ الثورة ومما اعتبروه نهجاً شعوبياً معادياً للعروبة، فبدأوا بالتآمر عليه، ثم اكتشف الأمر بعد أن تحرك العقيد عبد الوهاب الشواف في الموصل وفشل وقُتل وأُلقي القبض على الكثير من الضباط، فهرب والدي إلى سوريا، ثم حوكم غيابياً وحكم بالإعدام، وذلك في ربيع سنة 1959 وأنا لمّا أبلغ الرابعة من العمر، ولماّ عاد بعد سقوط عبد الكريم قاسم عام 1963 وأنا في الثامنة لم أسكن معه في دار واحدة حيث سكن في بيت منفصل مع زوجته الثانية. لذلك لم أكن قريباً منه أو أتعرف على أفكاره، ولاسيما تلك التي تخص الناحية المذهبية، إلا بعد أن وصلت إلى الجامعة بل وتخرجت منها كما سأشير إلى ذلك في الفصل القادم. ولكني أستطيع القول أني في تلك المرحلة حيث ألتقي به أو نذهب سوية إلى سامراء حيث بيت عمي الكبير أو إلى المزرعة هناك لم يكن ثمة طرح لهذا الموضوع حيث لم يكن يخطر لي ببال ولم يكن موضوعاً مطروحاً أصلاً.

وأما والدتي فهي الحاجة جميلة عبد الوهاب (رحمها اللّه) من الجيل الثاني من المدرسات في العراق، بعد الجيل الأول الذي بدأ ببعض المدرّسات من لبنان وفلسطين حيث بدأ التعليم الحكومي الحديث في العراق، وهي التي نشأتُ وعشت في بيتها وتزوجتُ وسكنتُ في ذلك البيت حتى خروجي من العراق عام 1982. والدتي من منطقة الأعظمية فهي من بغداد، فتكون ذات نشأة بغدادية، بخلاف والدي الذي نشأ في سامراء. وفيما يخص موضوعنا هذا فقد كانت والدتي محبة لأهل البيت(ع) لدرجة كبيرة جداً وكانت تشارك في مجالس الحسين في عاشوراء التي تقام في بيوت الأصدقاء أو المعارف من الشيعة في محلتنا كل عام دون انقطاع في انتماء عاطفي واضح دون الانتماء المذهبي الحنفي. ومما يجده كل من يلتقي بها أو يعرفها عن قرب أنها تمقت الطائفية وتمقت إثارة الفتن بين المسلمين وتحث على الوحدة ولا يصدها لا عن هذا المنهج ولا عن اشتراكها السنوي في مراسم عاشوراء ما يمكن أن تسمعه من نيل لبعض المقدسين عندها أو غير ذلك مما يمكن أن يطرح عادة.

بالإضافة إلي فإن أخوتي وأخواتي الأشقاء الأربعة كلهم أكبر مني تربّوا في هذا الجوّ في هذه المنطقة فنشأوا في نفس تلك الفضاءات على مستوى التعليم والنشأة

والأفكار والقيم في تلك المنطقة وفي تلك المرحلة وفي مثل تلك العائلة (هناك ثلاثة غير أشقاء، في منطقة أخرى غير بعيدة، ولكن في زمان متأخر نسبيًا).

أما التعليم فقد كان في روضة الأطفال وتسمى روضة الجمهورية وبعدها التعليم الابتدائي في مدرسة الحريري الإبتدائية وهي مدرسة نموذجية معروفة في المنطقة، وكنت فيها متفوقاً حائزاً على المركز الأول منذ دخولي في السنة الأولى وحتى تخرجي منها في الصف السادس الإبتدائي، ولعل صورتي ما تزال معلّقة هناك مع صور الأوائل في كل سنة عند مدخل المدرسة. في تلك الفترة إضافة إلى التفوق في الدراسة كنت نشطاً في الرياضة وفي الفن بنوعيه التشكيلي والمسرحي. ربما يبدو ذلك كلاماً أكبر مما تحتمله المرحلة، ولكنه بلحاظ العمر ومحدودية النشاط في المدرسة يمكن أن يستحق الذكر بأني كنت من المتفوقين في الرسم كما كنت من المشاركين في المسرحيات والأناشيد والألعاب الرياضية التي تقدمها المدرسة في حفلة المدرسة السنوية، والتي أذكر أنه في آخر سنة قدمنا مسرحية في المدرسة ثم قدمناها مرة ثانية في قاعة الشعب وهي قاعة معروفة في بغداد وتم نقل هذا العرض من قاعة الشعب في تلفزيون بغداد وذلك في ربيع سنة 1967 (لعله مما يبعث على السرور إلى الآن أني قمت بالدور الأول في المسرحية، دور "العراق").

كان التعليم المتوسط والثانوي في الثانوية المسماة كلية بغداد في منطقة الصليخ التي هي شرق منطقة الأعظمية. هذه المدرسة، التي لا تزال موجودة، أسسها الآباء اليسوعيون الأمريكيون في الثلاثينيات ثم انتقلت إلى هذا الموقع فيما بعد وبقيت تحت إشراف الكنيسة اليسوعية وبالإدارة الأميركية ولكن بتدريس بعض من الأمريكيين القساوسة أو من غير السلك الديني وبعض من المدرسين العراقيين وذلك حتى سنة 1969 أي بعد سنتين من دراستي فيها، حيث أمّمت وخرج الآباء والإدارة الأميركية منها وأصبحت إدارة عراقية وذلك في السنوات الأربع من الدراسة حتى تخرجي سنة 1973. في هذه المدرسة أيضاً كنت من المتفوقين من البداية إلى التخرّج، وكنت من المتفوقين في الرياضة ولاسيما في لعبة كرة القدم. وقد كانت هذه الفترة هي الفترة التي تبتدئ فيها سنوات التكليف الشرعي وبداية تكوّن الوعي. وعندما أنظر إليها الآن أتساءل عما كان عليه الكثير من الأمور في تلك السنوات التي كانت من أجمل

السنوات التي عشتها، في تلك المدرسة المعروفة في مساحاتها الواسعة وفي حدائقها وفي ملاعبها وصفوفها ومختبراتها في تلك المنطقة الجميلة من بغداد؛ أتساءل عما كانت عليه أحاسيس ومشاعر الآخرين من غير المذهب الغالب في الحكم (وهو المذهب السنيّ) بل ومن غير المسلمين. أقول ذلك لأن المدرسة بسبب كونها تحت إشراف كنيسة يسوعية تبشيرية توفّر التعليم الديني للطلاب المسيحيين فإنها كانت تتميز عن المدارس الحكومية (تشبه مدارس كمدارس الراهبات الفرنسيات بالنسبة إلى مدارس البنات) بأنها تجذب الطلاب من العوائل المسيحية المتمكنة مالياً، ومثل ذلك العوائل المسلمة المتمكنة مالياً والتي كان الكثير منها من التجار الشيعة في بغداد؛ فأتساءل الآن: كيف كانت نشأة زملائي وأصدقائي من الشيعة ومن المسيحيين ومن الأكراد أيضاً في تلك المرحلة التي مهما قال البعض وحاول أن ينفي فإنها كانت مرحلة الدولة العراقية التي أسست بين 1921 وحتى سنة 2003، دولة تتميز بسيطرة السياسيين أو الضباط أو حتى المغامرين من المذهب السنيّ على الآخرين كائناً من كانوا، فكان لا بد أن يكون لذلك أثر على تنشئة الأولاد وهم ينشأون بطريقة فيها بعض الاختلاف عن بعضهم. مثلاً لا يجد الطالب السنيّ من فارق بين ما يعلمه أهله في البيت من العبادات والعقائد وما يتعلمه في منهاج التربية الدينية في المدرسة، في حين يجد الطالب الشيعي أن أهله يعلمونه كيفية ممارسة هذه العبادات ويعلمونه جملة من العقائد والأفكار التي لا يجد لها ذكراً، ربما يجد ما يناقضها، في منهاج التربية الدينية والتي يجد أنه مجبر على أن يتعلّمها ويجيب في الإمتحانات على وفقها. إن هذا وأمثاله مما يكوّن مادة تستحق الإهتمام لمعرفة السبل للحؤول دون التمييز بين المواطنين وتكوين الفجوات والعقد بدلاً من مدّ الجسور.

أما فترة الجامعة فقد شهدت نشاطاً علنياً للحزب الشيوعي العراقي بعد أن دخل فيما يسمى الجبهة الوطنية والقومية التقدمية مع حزب البعث الحاكم والحزب الديمقراطي الكردستاني، وفي فترة تكويني الفكري هذه ترسّخت نظرتي السلبية إلى حزب البعث، ربما من جانب شخصيتي التي تمقت التسلط بأي شكل كان ومن جانب آخر لما تعرض له أخي الأكبر من السجن والتعذيب بعد أن اعتقل في المسيرات التي كانت تتوجه صوب السفارة المصرية للتعزية بوفاة الرئيس جمال عبد الناصر في

اليوم التالي لوفاته يوم 29 أيلول 1970. أيضاً ترسّخ الشعور المجانب للفكر غير الناهض الذي كنت ألمسه عندما تجري بعض النقاشات بين الطلبة الشيوعيين والطلبة البعثيين حيث كان التفوق الثقافي للشيوعيين على أولئك واضحاً. ولعل من أوكد الأسباب على هذا هو أنه في أي بلد يحكمه حزب واحد فإن الكثيرين وربما الأكثرين ممن يدخل في ذلك الحزب سيكون دخولهم لأسباب نفعية ولا يقومون ببذل الجهد لتحصيل حتى ولا القدر الأدنى من الثقافة السياسية.

أما في التعليم الجامعي فقد دخلت في كلية الهندسة قسم الهندسة الكهربائية في جامعة بغداد وذلك في مقرها في باب المعظم، وبالحقيقة الحد الجنوبي لقضاء الأعظمية، وذلك من سنة 1973 وحتى سنة 1977، ولم أدخل في كلية الطب كما كان يأمل والدي كثيراً، وكما كانت تأمل والدتي كثيراً، على الرغم من أن خطأ حصل في التوزيع المركزي للطلاب على الجامعات فظهر اسمي في الكليتين لأن معدلي في الثانوية العامة كان 92 مما يؤهلني لدخول أي كلية ومنها طب جامعة بغداد فكان أن ظهر اسمي في جريدة الجمهورية مع الداخلين إلى الطب ففرح والدي واتصل بي يتصور أني قد أعددتها مفاجأة له ولكني خيّبت أمله بأن أظهرت تعجبي من ذلك! في كلية الهندسة كنت أيضاً نشطاً في الرياضة إلى حد ما، فدخلت في فريق كرة القدم حيث كنا نلعب على مستوى جامعة بغداد، وهذا في السنة الأولى فقط ثم عندما حصل لي سقطة في لعبة كرة مع فريق المحلة أثناء العطلة الصيفية بعد السنة الأولى وحصل لي انزلاق في الغضروف فمنعت من ممارسة هذه الرياضة أو غيرها.

وفيما يخص موضوع الكتاب لعل في المرحلة الجامعية هناك بعض ما يلامس بعض جوانب الكتاب بشكل غير مباشر وهو مسألة الأفكار العامة التي ربما تخص العدل والظلم مما له علاقة بالحكام، وليس ما له علاقة مباشرة في التمذهب لأنه استمر بكونه شيئاً غير مطروح بالنسبة لي أو ممن هم حولي من الأصدقاء من المذاهب المختلفة.

أما الأصدقاء فكان معظمهم من تلك المحلة وتلك المنطقة وبالتالي كانت نشأة متشابهة إلى حد ما، وإن كان هناك أثر أيضاً للحالة المالية أو للتفوق في التعليم وبعض الأمور الأخرى.

الأفكار

لا شك في أن الأفكار لا تتكون بشكلها النهائي في السنوات الأولى من حياة الإنسان ولكن من المؤكد هو أنها تبدأ بالتكون في المرحلة الثانوية من الدراسة ومن ثم تتطور وتبدأ بالتبلور في المرحلة الجامعية وما بعدها. وبلحاظ طبيعة العائلة التي نشأت فيها والحقبة التي مر بها العراق والأحداث التي مرت بها الأمة العربية ولاسيما فيما يتصل بقضية فلسطين وما حولها فإني أستطيع أن أقسم هذه الأفكار إلى ثلاثة أقسام. القسم الأول ما يخص الأفكار والعقائد الدينية بشكل عام، والثاني ما يخص النظرة إلى الحاكم والحرية والعدل والإسلام، والثالث ما يخص النظرة إلى الشيعة والتشيع الذي يتعلق بشكل أخص بموضوع كتابي هذا.

أما الأفكار الدينية فكانت هي الأفكار التي نجدها عند المسلمين عموماً وعند أتباع المذاهب السنّية خصوصاً. ويمكن تلخيص هذه الأفكار بأننا مسلمون أتباع الدين الخاتم والشريعة الخاتمة، دستورنا القرآن، وهو أمر يصادم الواقع على الأرض فيما يخص الحكومات، وأننا يجب أن نتبع القرآن أو الكتاب والسنة، وهو أمر آخر يصدم ما كان موجوداً على الأرض من اقتراف المحرمات ومن الانحراف بشكل عام، وأن المسلمين كانوا يعيشون أسياد أنفسهم وتحت ظل دولة الخلافة الإسلامية التي كان لها تاريخ رائع لا يكاد يشوبه شيء منذ بداية هذه الخلافة وحتى سقوط الخلافة العثمانية واحتلال المنطقة العربية بعد الحرب العالمية الأولى. وبالتالي فإن هذه الأفكار تقود بالضرورة إلى الاعتقاد بأنه لم يكن هناك إلا الخير وإلا السير على الكتاب والسنة منذ وفاة رسول الله(ص) وحتى بداية القرن العشرين، وهي دعوة عريضة جداً لا تكاد تُصدَّق حتى من الأطفال محدودي الفهم والوعي ولكنها كانت هي السائدة في أوساط أتباع المذاهب السنّية عموماً.

وهذا يقودنا إلى النظرة إلى الحكام، حيث نشأتُ على أن الحكام المسلمين كانوا إما من القداسة بحيث لا يمكن أن يخطئوا كما العقيدة في الخلفاء الراشدين، أو أنهم كانوا يجمعون بين بعض مفاسد السلطان والحكم والصلاح والخير الذي جاء به جهادهم وفتوحاتهم ونهجهم بشكل عام كما في خلفاء بني أمية والعباس وآل عثمان الأتراك. وحتى النظر إلى الحكام الذين جاءوا بعد سقوط الخلافة العثمانية فإن

التنشئة في الوسط السنيّ هي بالضرورة في صالح مساندة الحاكم إلا أن يأتي بكفر واضح صريح. وهذا ما كان يعد السلاح الأمضى في يد الأحزاب القومية كحزب القوميين العرب والناصريين وحزب البعث لإسقاط الأحزاب الشيوعية ومنها الحزب الشيوعي العراقي من أعين الناس ومن التفافهم حوله كونه الحزب الذي لا يقيم للدين وزناً، وبالتالي فكأنه، لو تسلم الحكم، سيكون أول حكم في تاريخنا لا يطبق الإسلام. بل وجرّوا التهمة إلى الزعيم عبد الكريم قاسم كجزء من الحملة العامة لإسقاطه.

بكلمة أخرى فإن التنشئة السنيّة تضع لإسلام الحاكم الأسبقية على عدله، وهي نقطة اختلاف كبيرة بين السنة والشيعة في تقييم أيهما أهم في إدارة المجتمع والحفاظ على مصالح العباد.

على أنني شخصياً كنت أشعر بالميل نحو الحرية بشكل عام وكراهية الظلم بشكل عام بحيث لم أجد نفسي ميّالاً إلى هذا الحكم أو إلى هذا الحاكم أو إلى هذا الحزب أو ذاك، ربما لأني لم أكن قد وجدت ضالتي بعد في نهج العدل الذي عند أئمة أهل البيت(ع). أيضاً فإن تلك النظرة إلى الإسلام في مؤسسته السلطوية الحاكمة على امتداد التاريخ الإسلامي كانت تشكّل تناقضاً مع الإسلام الذي نُدرَّس ونُعلَّم كيف هو من حيث الخير والعدل، في صور وردية اكتشفت فيما بعد أن الكثير منها في عالم التطبيق لم يكن واقعياً حيث يصوّر المجتمع النبوي وكأن الناس في ذلك المجتمع كانوا ملائكة لا يخرج منهم إلا الخير والصلاح، كأن الناس في ذلك المجتمع كانوا قد انقلبوا انقلاباً كاملاً بمجرد أن تشهدّوا الشهادتين ودخلوا في الإسلام، مما يشكّل تناقضاً واضحاً مع الطبيعة الإنسانية التي عشتها في المجتمع والتي لا بد أن يعيشها أي إنسان في أي مكان آخر.

أردت أن أقول أن هذا التناقض في النظرة إلى الخلافة الإسلامية مع ما يُتوقع فطرياً، وتلك النظرة إلى الحاكم ووجوب طاعته إلاّ أن يخرج بكفر واضح مع ما علمناه من العدل والرحمة التي في الإسلام وفي القرآن ومع ميلي الشخصي نحو ذلك، ربما شكّل بعض الأرضية لذلك التحوّل الذي جرى بعد ذلك.

تبقى النظرة إلى الشيعة والتشيّع، وأظن أن هذه كانت نظرة غير مثقلة بطائفية بعض الأوساط السنيّة، والتي من العدل القول بأنها غير موجودة في العراق كما

وجدتها في بعض دول الخليج العربي أو مما نسمع عنه في بعض الدول الإسلامية، ولكن يبقى أن هناك اختلافاً بين النظرة التي ينشّأ عليها الفرد السنيّ في العراق بين منطقة وأخرى، كما هو الحال فيما يخص كيف ينشأ عليه الفرد الشيعي أو المسيحي في مناطق مختلفة. ولكن خلاصة نظرتي إلى الشيعة كانت تتلخص في أنهم من المسلمين لهم طقوس خاصة ولهم أفكار معينة ولهم اعتقاد مبالغ فيه في علي بن أبي طالب، وربما لهم اعتقاد في النبي(ص) أقل من اعتقادنا نحن أهل السنة والجماعة. هذا من جانب، من جانب آخر هو أن الشيعة هم ما بين إيراني أو موال لإيران، بمعنى أن هناك رابطة ما بين الشيعي والتشيع وإيران. هذا الأمر الذي نشأت عليه وأخالُه السائد عند جميع أهل السنّة والجماعة، ليس في العراق فحسب بل وفي مناطق أخرى، لم يكن ليبلغ هذا المستوى من الشدة في النظرة السلبية لولا أنه مرتبط – أصلاً – بتعبئة الإنسان السني في العراق بمشاعر الكراهية والعداء لإيران. نعم أكرر بأن جميع أهل السنة في العراق، وربما معظمهم (لكي لا يقال بأني أعمم من دون عمل إحصاء علمي)، ولكن الأحداث ولاسيما الآن تبين هذه النظرة المترسخة منذ التنشئة الأولى، بأن إيران عدو تاريخي أو على الأقل هي جار غير مرغوب فيه، بحيث كنا نقرأ أو نسمع عن ذلك الخليفة الراشدي الذي يقول "ليت بيني وبين فارس جبلاً من نار" وأمثالها بحيث تشكل حاجزاً عالياً معبأ بالكراهية لإيران. ولما كانت النظرة أو الفكرة القائمة السائدة عن الشيعي بأن له علاقة ما مع إيران فبالتالي سيوضع هذا الشيعي – أي شيعي – في زاوية غير إيجابية مطلقاً.

وهنا ينبغي الإشارة إلى نقطة لعل لها أثراً في تقوية مثل هذه الحواجز وهي أن الشعور القومي العربي، وقد نشأت في بيت شديد الإحساس بالانتماء القومي العربي، مع تربية عامة عند العرب العراقيين على تسمية الشعوب الأخرى بأسمائها، فالتركي هو تركي والصيني هو صيني والفرنسي هو فرنسي والروسي هو روسي وما شئت سمِّ، ولما يأتي الدور إلى الإيراني يسمى أعجمياً أو "عِجْمي" حسب اللهجة العامية العراقية. هذا يقول للسامع من طرف خفي بأن الفرنسي هو فرنسي وكفى والصيني هو صيني وكفى والتركي هو تركي وكفى له خصوصياته كونه كذلك، ولكن الإيراني ليس هو إيرانياً وكفى إنما هو غير عربي أيضاً، وبالتالي فإنه يختلف

عنك في هذه النقطة، وهذا حسبما أرى يشكل حاجزاً نفسياً خفياً له أبلغ الأثـر في عدم الانفتاح على ما يمكن أن يأتي من ذلك الجانب بحيث لو جاءت كلمة الصـدق من هناك لا تقبل ولو جاء الكذب والافتراء من مكان آخـر مـن الممكـن أن يقبـل لوجود الحاجز النفسي هناك وعدم وجوده هنا (الأحداث الأخيرة أوصلت الكثيرين إلى اعتبار إيران العدو الأول وإسرائيل عدواً أقل ضراوة، بل صديقاً محـتملاً، أو صديقاً متحققاً بالفعل عند البعض). هذا، مع أنه لا يوجد حاجز نفسي تجاه تركيا والأتراك على الرغم من أنهم حكموا العراق لما يقرب من أربعة قرون مظلمـة لاقـى فيها العراقيون أصنافاً من العسف والذل والهوان والتمييز العرقي والقـومي، وعلـى الرغم من أنهم لم يعينوا، في أي من الولايات الـثلاث التـي تشـكل العـراق اليـوم: بغداد والموصل والبصرة، والياً عراقياً واحداً، بل كان جميع الولاة دون استثناء من الأتراك العثمانيين! وتصبح المفارقة مدعاة للدراسة حقاً عندما تجد نفس الموقف من البلدين، تركيا وإيران، حتى عند القوميين العروبيين الـذين يقولـون بـأن الوجـود العثماني في البلاد العربية كان احتلالاً أجنبياً – على أن هذا موضوع آخر.

أخلص إلى القول في هذا الفصل أن نشأتي كانـت في هـذا الخصـوص، أي في مسألة المذهبية، هي نشأة في صالح ما جرى معي بعد ذلك، بمعنى أني نشأت في منطقـة مختلطة منفتحة متنوّرة، وفي عائلة لا يوجد فيها مـن ملامـح الطائفيـة الكـثير كمـا في غيرها، ولم أخرج من ذلك كله مـثقلاً بتلـك الأغـلال التـي يجـد الكـثيرون أنفسـهم مثقلين بها فيعانون الأمرّين مع الحواجز النفسية التي بُنيت في دواخلهم رغماً عنهم.

الفصل الثاني

إشـارات

في المدرسة الخالصية

مع عمّي الأصغر

"لو كان الأمر
مهماً عندي
لتشيّعت
ولأعلنت
ذلك!"
نعمان ماهر
الكنعاني

هذا الفصل يتعرض إلى المرحلة القصيرة ما بين سنة 1977 وسنة 1979، حيث شهدت هاتان السنتان الإشارات الأولى إلى دور أهل البيت(ع) وذلك من خلال شخصين، الأول هو والدي والثاني هو عمي، أخ والدي الأصغر.

ففي هذا الصيف سنة 1977 حيث تخرجت من الجامعة وكنت أستعد لدخول الخدمة العسكرية، وأنا لا أدري ما الذي سيحصل لأني كنت أريد الإعفاء منها بسبب مشاكلي الصحية ولكن لم أستطع أن أحقق ذلك عن طريق اللجنة الطبية عندما كنت لا أزال في السنة الأخيرة من الدراسة الجامعية، ولذلك كان القرار أن أبدأ بالخدمة العسكرية وأعرض نفسي من خلالها على اللجنة الطبية مرة أخرى. إلى ذلك الحين كان نشاطي الديني، إن صح التعبير، في إقامة الفروض وصلاة الجمعة بشكل أساسي في جامع مصطفى العمري (وفي العراق نسمي جميع المساجد والجوامع بإسم جامع حتى لو كانت مساجد صغيرة)، الواقع في شارع أبي طالب الذي يمثل الحد الشرقي من منطقتنا، وذلك بإمامة المرحوم الشيخ محمود الحاجم السامرائي، وفي بعض الأحيان القليلة في جامع الدهان، الواقع في شارع الإمام الأعظم الذي يمثل الحد الغربي من المنطقة.

يكون النشاط العبادي أكثر في شهر رمضان كما هو معلوم حيث صلاة التراويح وبعض الدعاء، والذي وجدته فيما بعد أقل بكثير كمّاً وأقل تفصيلاً وعمقاً مما وصل إلى يد الشيعة من أئمتهم(ع)، ما يقرأونه في رمضان وغيره.

على أية حال، في تلك السنة كان هناك مما أذكره هو أني قمت بعدة ختمات من القرآن الكريم في شهر رمضان، والذي حصل أنه في بعض الأحيان كانت ترد في ذهني آية ليست من الآيات التي أحفظها مثلاً أو أرددها ثم عندما أعود وأقرأ فإذا بي أقرأ هذه الآية في تلك الساعة مثلاً. ومن هذه التي بقيت عالقة في ذهني، والتي ربما تشير إلى ما سيحصل لي كما أظن، هو أنني كنت واقفاً في الشارع الرئيسي في منطقة الكمب حيث السوق وكانت والدتي في داخل محل الحلويات على ما أذكر وأنا كنت واقفاً إلى جانب السيارة أنتظرها وأنظر إلى

الأفق من بعيد وإذا بالآية الكريمة ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحجر:99) تقفز إلى ذهني، وعندما عدنا وبدأت أقرأ في تلك الختمة فإذا بهذه الآية هي الآية الأخيرة في ما كنت قد قررت قراءته. تكرر هذا الأمر أكثر من مرة مما أعطاني شيئاً من الراحة الروحية والفرح الداخلي من هذا القدح في الذهن الذي يتوافق مع القراءة فيما بعده مباشرة.

في المدرسة الخالصية

في هذه الأجواء صحبت والدي إلى المدرسة الخالصية في منطقة الكاظمية بمناسبة الاحتفال الذي يقيمونه بمناسبة جرح الإمام علي(ع) والذي يصادف في إحدى ليالي القدر من شهر رمضان المبارك كما هو معلوم.

أما والدي فهو:

نعمان بن ماهر بن حُمّادي بن الحسن بن خليل بن ابراهيم بن علي بن كنعان بن الخضر بن الشريف عباس (الجد الأعلى لعشيرتي ألبو عباس وألبو نيسان في سامراء) بن جمعة بن عبد الله بن علي بن الحسن بن رضاء الدين بن محمد بن عمر بن عبد اللطيف بن مرتضى بن محمد الأمين بن حُميضة (أمير مكة) بن محمد أبو نُميّ بن الحسن بن علي الأكبر بن قتادة بن إدريس بن مُطاعن بن عبد الكريم بن عيسى بن الحسين بن سليمان بن علي بن عبد الله بن محمد بن عبد اللّه الأكبر بن محمد الأكبر بن موسى الثاني بن عبد الله الشيخ الصالح بن موسى الجون بن عبد اللّه المحض بن الحسن المثنى بن الإمام الحسن السبط بن الإمام علي بن أبي طالب(ع).

نعمان ماهر الكنعاني يوصف دائماً بالشاعر الضابط القومي حيث عرف عنه أنه أحد الضباط القوميين الذين شاركوا في معارك الجيش العراقي في ثورة 1941 ضد الانجليز، ثم في حرب فلسطين، ثم في التخطيط للإطاحة بالنظام الملكي الذي تم فعلاً في 14 تموز 1958؛ كما كان الشاعر المعروف، بل من أحد أشهر الشعراء

العراقيين الذين ظلوا ملتزمين بالشعر العمودي منذ بداياته الشعرية في الثلاثينيات وحتى وفاته في صيف 2010.

كنا في السيارة أبي وأنا وأخي يقظان (أستاذ ومفتش دروس الفنون في وزارة التربية، يكبرني بأقل من ست سنوات)، وفي الطريق كان أبي يتحدث وإذا به يتحدث عن الإمام علي سلام اللّه عليه وبعض ما تعرّض له من مشاكل أثناء خلافته بالخصوص، ثم اندفع يتحدث، بشكل شكّل صدمة لي، عن أم المؤمنين عائشة قائلاً ما نصه: "أنتِ أرملة محمد، ما أنتِ وإشعال الحروب والخروج على الإمام علي الخليفة المبايَع الذي يعرف الناس جميعاً دورَه وحقه؟!"

بالنسبة لأي سنيّ هذا الكلام يشكّل صدمة ومفاجأة لأن عند أهل السنّة الباب مقفول تماماً أمام مناقشة أي شيء جرى في ذلك العهد الذي صوّر لنا بأنه كان عهداً وردياً جميلاً، وكما قلت في الفصل الأول يعطي الإنطباع وكأن الناس الذين كانوا في ذلك الزمان من صحابة وتابعين كالملائكة لا يخرج منهم إلا كل خير وإذا خرج منهم شيء فهو من قبيل الاجتهاد الذي يُثابون عليه وبالتالي يجب أن لا نتحدث ولا ننبسّ ببنت شفة في نقدٍ أو تساهل حتى. أما بخصوص عائشة أم المؤمنين، وزوج النبي(ص)، فالأمر أشد وأشد.

في احتفال المدرسة الخالصية (وهي مدرسة أسسها الشيخ مهدي الخالصي أحد قادة الجهاد العراقي في ثورة العشرين، واستمرت مع ولده الشيخ محمد الخالصي الذي عُرف بموقفه القوي من الشيوعيين في أثناء ما سمّي بالمدّ الشيوعي عام 1959، ثم آلت المشيخة إلى ولده الشيخ مهدي الخالصي). في الاحتفال كان هناك، بالإضافة إلى كلمة الشيخ الخالصي، قصيدتان إحداهما لشاعر لا أذكر اسمه والثانية لوالدي. قصيدة والدي كانت قصيدة قوية مطلعها:

أبا الحُسينِ وَحَسْبُ المَرءِ ذِكرُكُما أباً يَشُقُّ الذّرى وَابْناً أَبى الذّاما

قصيدة قوية نالت استحسان الحضور الذين كانوا يطالبون بإعادة الكثير من أبياتها.

وبعد القصيدة بدأت الأدعية، وإذا بهم في أحد الأدعية يرفعون نسخاً من القرآن الكريم على الرؤوس في منظر غريب بالنسبة لي لم أشاهده من قبل وبدأوا بالدعاء والتوسل والبكاء بالنحو المعروف لدى الشيعة عموماً وممن شارك وحضر في مثل هذه الأجواء الروحانية في ليالي القدر خصوصاً. أذكر أني جلست أستمع، يعني لم أضع القرآن على رأسي ولم أدر ماذا أقول، كنت جالساً إلى أن انتهى الاحتفال ونحن ضيوف شرف الاحتفال في صدر المجلس عند الشيخ الخالصي، الذي كان على الرغم من أنه أصغر من والدي بكثير ولكنه كان من أصدقائه القريبين وبينهما زيارات بين الحين والآخر.

بعد ليلة المدرسة الخالصية جرت دردشة بيني وبين والدي، كنا نتحدث عن تلك الليلة وكان يثني على كلمة أو خطبة الشيخ الخالصي وأنه كان متمكناً من الكلام وغير ذلك. وهنا سألته بأني انتبهت إلى أنه يذهب في كثير من الأحيان ربما مسافة ثلاثة أو أربعة أضعاف المسافة إلى المدرسة الخالصية ليصلي الجمعة خلف الشيخ الخالصي ولا يذهب إلى مسجد قريب من مساجد أهل السنّة قرب بيته في منطقة الصرّافية التي هي عند جسر الصرافية، فقال لي أنه لا يجد أنه يحصل على شيء من خطب الجمعة في هذه المساجد وذلك لأن علماء الشيعة طرحهم أعمق وأهم، وقال ما نصّه:

"لو كان الأمر مهماً عندي لتشيّعت ولأعلنت ذلك!" هذا كلامه بنصه.

كان هذا شيئًا يبعث على التساؤل والتفكر.

على أنه ينبغي القول بأن من الجوانب القوية جداً في شخصية والدي هي تلك النزعة العربية القومية، كما قلت، والتي تمتزج مع الشعور بالفخر والاعتداد بنسبه العلوي مما يجعله، حسبما أظن، لا يجد معنى لاتّباع غير هؤلاء الأجداد أصحاب المذهب المعتد به ويذهب إلى اتباع مذاهب أخرى ولاسيما تلك المذاهب التي أسّست من غير العرب من الفقهاء، (مع أن أهالي سامراء يتبعون المذهب الشافعي لمحمد بن إدريس الشافعي الذي ينتسب إلى هاشم ولا يتبعون المذهب الحنفي الذي

هو المذهب الرسمي في العراق المنسوب إلى الإمام أبي حنيفة النعمان الذي هو من أصل فارسي كما هو معروف).

مع عمّي الأصغر

في تلك السنة بدأت علاقتي أيضاً بعمي الأصغر تتوطد ولو بشكل أقل مما حصل بعد ذلك بسنة.

عمي هو عبد القادر ماهر (أصغر أشقاء والدي)، وكان قد تقاعد من آخر عمل له في الشرطة العراقية وهو مدير شرطة الأعظمية. الأمر الذي تميز به عن والدي وأعمامي الآخرين هو أنه دخل في الإلتزام الديني عن طريق التصوّف وذلك في إحدى المراحل التي كان فيها معاوناً لشرطة سامراء حيث تنقّل في أماكن مختلفة من العراق. وكما هو معروف من المتصوفين أنهم يقولون بأن طريقتهم تمتد من شيخ إلى آخر ومن المريد إلى الشيخ إلى شيخه حتى تصل إلى الإمام علي بن أبي طالب(ع)، وأنهم يميلون ميلاً واضحاً نحو أهل البيت وإن كان انتماء هذه الطرق الصوفية إلى المذاهب السنّية المختلفة. (وفي العراق هناك الطرق المختلفة الرفاعية والجيلانية، وفي سامراء التكايا الرفاعية بشكل خاص والتي يقومون فيها بمجالس الذكر المعروفة وحسب طرقهم.)

عمي هذا كان حلو المعشر جداً ومحببًا إلى النفس وسريع البديهة، ولكونه خدم عشرات السنين في سلك الشرطة فهو يعرف من الناس وعن الناس وعن المناطق وعن الأحداث ما لا يعرفه غيره في المهن الأخرى. وكان يتردد بين بغداد وسامراء حيث بستانه في قرية العباسية، المسماة على إسم عشيرتنا، شمال مدينة سامراء بحوالي 14 كم، ويحب الخلوات هناك، ولا ينقطع طبعاً كحال أهل سامراء عن زيارة الإمامين الهاديين العسكريين اللذين يشكّلان، ولاسيما الإمام الهادي(ع)، الشخصية التي تأتي بالنسبة إليهم بعد النبي(ص). بمعنى أنك لو تسأل شخصاً منهم فإنه يقول لك – عقلياً – أنه بعد النبي يوجد الخلفاء الراشدون

الأربعة إلخ، ولكنه - نفسياً وعاطفياً - يجد نفسه متعلقاً بالإمام الهادي(ع) بعد النبي(ص) بشكل لا نظير له، فهو(ع) محور سامراء - المدينة والناس.

بهذا، كان في عمي هذه الصفات الثلاث: الجانب الصوفي الذي يميل إلى أهل البيت(ع)، والمشترك السامرائي الذي يميل إلى الإمام الهادي بالخصوص وإلى باقي الأئمة بشكل أقل، وشخصيته المرحة المنفتحة التي لها أثر جميل عند من يحضر عنده. هذه الصفات التي امتزجت في هذه الشخصية جعلتني أميل إلى ما يقوله والذي كان في أغلبه ينحى المنحى الصوفي في العلاقة بالله والأفكار والأوراد وقصص الأولياء وبعض من شيوخه، ولاسيما الشيخ الأول وهو السيد يحيى الأعرجي من السادة الأعرجية في الموصل والذين هم فرع من السادة الأعرجية في النجف وفي الكاظمية، والسيد خضر السامرائي وكان شرطياً تحت إمرة عمي في معاونية شرطة سامراء ولكنه في التصوّف كان شيخه. هذا إضافة إلى القصص الأخرى عن كبار المتصوفين في سامراء سواء الذين كانوا من المعاصرين أو من أسلافهم.

وبعد أن دخلت في الخدمة العسكرية الإلزامية في عام 1977 ثم أُعفيت منها لأسباب صحية في ربيع عام 1978 وقرّرت أن أسافر إلى إنكلترا لإكمال الدراسة أو للعمل أو للإثنين جميعاً صادف أن كان عمي قرر الذهاب للعلاج حيث شُخّص بمرض سرطان الرئة، الذي نتج - فيما يبدو - عن التدخين لمدة ثلاثين سنة، فصحبته إلى هناك وكنا في معظم المدة في فندق واحد فلا شك في أن العلاقة صارت أقوى، نقضي ساعات سوية كل يوم في حديثه الشيّق عن قصص المتصوفة وعن الأفكار والأوراد، وبدأ يأمل في أن أكون أنا الذي أتبعه في ذلك وبدأ يعطيني أوراداً يومية لأقوم بها مع ملاحظات وإرشادات وغير ذلك.

في ذلك الوقت عندما كان يتحدث وكأي صوفي تجد أن الحديث يأتي إلى ذكر الإمام علي أو الإمام الحسن أو الإمام الحسين، أو بالنسبة إليه كسامرائي إلى الإمام الهادي، وأئمة العراق أو المدفونين في العراق الكاظم والجواد، وليس هناك من ذكر للصحابة الكبار الذين عُلّمنا ونُشّئنا ودُرّسنا على أنهم مقدّمون على عليّ وأولاده، حيث القناعة والإيمان في المذهب السنيّ أن أفضل الناس بعد رسول

الله(ص) هو أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم يأتي علي رابعاً. كذلك فإنه ليس هناك من ذكرٍ لخلافة الإمام الحسن السبط(ع) وكأنها لم تكن حيث تعتبر الخلافة قد انتقلت من الخلافة الراشدة إلى الدولة الأموية وثم إلى الدولة العباسية وهكذا. وأما هؤلاء الأئمة، الذين نسمع عنهم في العراق بالتأكيد ويذهب إليهم الناس من سنّة وشيعة للنَّذر وطلب الحاجات، فهم أفراد كانوا على درجة عظمى من التقوى ومن القرب من الله تعالى وكفى، بمعنى ليس هناك إشارة أو ربط بينهم وبين مذهب فقهي. وحتى عندما يقال عن الشيعة أنهم أتباع المذهب الجعفري فإننا كنا نفهم أن المذهب الجعفري أسسه جعفر الصادق أسوةً برؤساء المذاهب الأخرى، مع فارق هو أن هذه المذاهب الأخرى تُتّبع ومذهب جعفر الصادق لا يُتّبع بالنسبة إلى أهل السنّة والجماعة.

هذا الأمر أصبح يزداد وضوحاً عندي في حديث عمي بين الكلام عن هذه المنازل العظيمة لأهل البيت وعدم ذكر الصحابة الكبار ولاسيما الخلفاء الثلاثة: أبو بكر وعمر وعثمان وبين الحال المختلف بالنسبة إلى المذهب السنيّ الذي يتّبعه هو نفسه من تقديم هؤلاء الصحابة الكبار الثلاثة على أهل البيت وعدم اتّباع المذهب الجعفري الذي يُنسب إلى أحد عظماء أهل البيت.

بدأتُ أسأل عمي عن هذا وأنه كيف يكون ذلك وألحّ في السؤال وهل أن هناك تفسيراً لذلك على أساس أنه لا يمكن الجمع بين هذه المتناقضات، ألحُّ عليه في السؤال وهو يقول بأنه لا يتحدث في هذه المواضيع، وأزداد إلحاحاً وهو يجيبني بنفس الجواب.

وهكذا كان عمي رحمه اللّه تعالى لا يريد أن يفصح عن رأيه في قضية الخلافة وذلك من منطلق التزام لا أدري إن كان قطعه على نفسه مع اللّه تعالى أو مع شيخه من ذلك الطريق بأن لا يتكلم في هذه الأمور. ولكني لم أتركه إلى أن استطعت أن أنتزع منه رأيه الصريح.

ففي أحد الأيام ألححتُ عليه حيث قلتُ بأننا أمام مفترق طرق: إذا كان ما يقوله الشيعة صحيحاً فإن علياً هو المقدم بعد النبي(ص)، وإذا كان ما كان يقوله السنّة صحيحاً فإن الأمر على ما جرت عليه الخلافة بحسب الشائع عند أهل السنّة؟

أجاب: أنظر! سأقول لك رأيي بإختصار ولكن على أن لا تسألني بعد ذلك أبداً!

قلت له بلهفة: نعم، قُل رأيك؟

فقال لي ما نصّه: إبن أَخُوي نِهبُوهَه!

قلتُ له: ما هي؟ ما نهبوا؟!

قال لي: الخلافة، نهبوها من أمير المؤمنين!

طبعاً كان هذا قبل أن أقرأ كلمة أمير المؤمنين(ع) في نهج البلاغة في الخطبة الشهيرة بالشقشقية التي يقول فيها «**أرى تُراثِي نَهْباً**».

وجدت نفسي أسأله مباشرة: إننا هنا أمام مفترق طرق، لأننا إما أن نتولّى صاحب الحق الشرعي ونتخذ موقفاً من الذين نهبوا حقّه وإما أننا نستمر فيما نحن عليه فنتّبع من نهبوا الحق ونترك صاحب الحق على ترتيبه الرابع، فما تقول؟

قال: قلتُ لك بأن هذا جوابي ولن أكلمك في الموضوع مطلقاً.

قلتُ له: إذاً هناك سؤال لا بد من أن نفكّر فيه، وهو أنه إن كان علياً(ع) هو صاحب الحق في الخلافة وإن كان هو وأولاده كما أنت يا عمي ومن مثلك من أهل السنّة التفضيليين، وأيضاً من الشيعة، يقولون أن هؤلاء وصلوا الغاية في التقوى والعلم فعلى هذا يكون المذهب الذي عليه الشيعة والذي يُسمّى المذهب الجعفري هو المذهب الأحق بالاتباع من غيره؟

فأجابني بجواب لا يسمن ولا يغني، قال: نعم، هؤلاء هم المقدّمون على غيرهم، ولكن الشيعة لا يتّبعون أئمة أهل البيت بالشكل الصحيح.

قلتُ: إذاً هذا يعني أن هؤلاء الأئمة قد انتهوا وانتهى معهم علمهم لأن لا السنّة يتبعونهم ولا الشيعة يتبعونهم، فنكون نحن أمام حقيقة مُرّة وهي أن الأفراد الذين أخذوا العلم من رسول اللّه(ص) ووصلوا القمّة في العلم والتقوى باتفاق الفريقين إذا بهم ينتهون ومعهم علمهم إلى زوايا النسيان ولا يعود هناك من يتبعهم، أي ما من أحد يتبع إسلامهم الأكثر صحة!

بقي هذا سؤالاً مفتوحاً بيني وبينه، ولكن هذا السؤال لم يستمر طويلاً حتى بدأت الإجابات عليه تأتي بشكل تدريجي عندما بدأتُ أطلع وأبحث في ما كتبه الشيعة لإثبات رجوع مذهبهم إلى الأئمة(ع).

أخلص إلى القول في هذا الفصل بأن فترة السنتين هذه كانت فترة بداية التحوّل ليس في المعرفة بقدر ما في الإهتمام بهذا الأمر الذي ليس هناك ما هو أهم منه، ويعود الفضل في ذلك إلى اللّه تعالى طبعاً، ولكن من الأسباب هذه الإشارات من والدي ولكن بدرجة أكبر إلى عمي رحمه اللّه تعالى.

"كنت في
وضع غير محدد
المعالم تماماً،
ولكن كان
هناك توافق بين
القراءات وبين ما
يجري على
الأرض وبين
الجوانب الأصيلة
في نفسي من
بغض التسلط
والرغبة في
العدل"

المؤلف

الفصل الثالث
على شاطئ الحقيقة

مع والد زوجتي

رحلة مشتركة مع صديق

مغادرة العراق إلى الكويت

في المدة ما بين الأعوام 1979 و1983 إطّلعت فيها على ما يقوله الشيعة عن أنفسهم، وذلك بأكثر من طريق، طريق قراءة الكتب وطريق الممارسة وأيضاً طريق التطبيق في جانب الثورة على الظلم، في فترة من الفترات المهمة جداً في تاريخ العراق والمنطقة بل والعالم. وإني على الرغم من أني تركت العراق عام 1982 فإني أحسب السنة ما بين 82 و83 جزءاً من هذه الفترة لأن الاطلاع استمر وتضمن تحديات أكبر بعد تركي العراق وذهابي إلى الكويت وعملي هناك.

لم يكن عندنا في بيتنا ببغداد كتب في هذا الصدد اللهم إلا كتاب ربما عن ثورة الإمام الحسين أو بعض الكتب التي فيها من الأشعار في هذا الجانب، ولكني عندما دخلت في مكتبة المرحوم عبد الرزاق الهلالي وجدت فيها كتباً متنوعة منها كتب مهمة كتبها علماء ومؤلفون شيعة تتصل بموضوعنا ههنا.

مع والد زوجتي

والمرحوم عبد الرزاق عبد المجيد الهلالي هو والد زوجتي، من الأدباء المعروفين في العراق، وُلد ونشأ في البصرة ثم انتقل بعد ذلك إلى بغداد وعمل في وظائف مختلفة منها في التشريفات الملكية في البلاط الملكي من نهاية الأربعينيات وبداية الخمسينيات فترة سبع سنوات، وبعد ذلك عمل في المصرف الزراعي وغير ذلك، مما أعطاه الفرصة للاطلاع على الواقع السياسي من جهة والواقع الزراعي وواقع المشاكل الاجتماعية الأخرى فكتب مؤلفات مهمة كان بعضها ولا يزال المرجع الوحيد لطلبة الجامعات أو للدراسات العليا أو البحوث، ونخص بالذكر كتاب "التعليم في عهد الإنتداب البريطاني" و"التعليم في العهد العثماني" وبحوث أخرى عن مشكلة الأرض والفلاح، وبحوث أدبية كالبحث الذي قدمه في مهرجان إبن زيدون في المغرب. واستمر هذا الرجل بالعطاء الفكري حتى وفاته عام 1985.

كان مما ساعد في مجال بحثي عن الحقيقة هو أن هذا الرجل، الذي أفضل وصف له بأنه كان رجلاً فاضلاً بكل ما تعنيه الكلمة، كان هادئاً في طرحه عندما كنت أستعير منه الكتب وأقرأها ثم أعود وأطرح ملاحظات، ربما كانت ملاحظات تثير الضحك، ملاحظات شاب لا يعرف كثيراً عن ذلك المذهب أو عن الفقه أو غير ذلك ويطرح ملاحظات على مؤلفات لأناس هم في القمّة من الفقاهة أو العلم أو المعرفة في مختلف العصور – كالمحقق الحلّي مثلاً – ولكنه كان يتقبّلها برحابة صدر بل ويبدي تأييداً عندما أطرح إشكالاً هنا أو إشكالاً هناك. وحتى في الكتب التي كنت أقرأها أو أستعيرها منه كان أحياناً يقترح عليّ بعضها وأحياناً أخرى يتركني وما أختار. هذا التعامل هو التعامل الذي ينبغي لرجل العلم ولمن يعرف بأن هذه الأمور وغيرها لا تأتي إلا بالبحث والمشاهدة والاقتناع، فترك إقامة الحجة على أولئك المؤلفين الكبار ولم يدخل في هذه المعمعة إلا في بعض الأحيان حينما كنا نجلس سوية لبحثه بشكل بسيط.

إشارة سريعة إلى القراءات التي استفدتها من مكتبته والتي أتذكرها الآن من أهمها كتب العامليين كتب "السيد عبد الحسين شرف الدين" و"السيد محسن الأمين العاملي" و"السيد هاشم معروف الحسني"، كتب من أمثال "المراجعات" أو "النص والاجتهاد" أو "نقض الوشيعة" أو كتب الشيخ مغنية مثل "الشيعة في الميزان". أيضاً كتب مؤلفين عراقيين كالمؤلفين من آل المظفر أو آل ياسين أو آل الصدر في تبيان حقيقة التشيّع وحقيقة الشيعة وهو تبيان يُفتَقَد في كتب المذاهب السنيّة وذلك لأن المذهب الشيعي يشعر دائماً بأنه مهاجم مفترى عليه من جانب، ومن جانب آخر يشعر بالواجب لتعريف الناس بدور أهل البيت(ع)، أو لِنقُل هو استجابة لأمرهم عندما قالوا(ع): «رَحِمَ اللّهُ عَبداً أَحيا أمرَنا» (الكافي ج2 ص175)، وفي رواية سُئل الرضا(ع): "وكيفَ يُحيِي أمرَكُم" قال: «يَتَعَلَّمُ عُلومَنا ويُعلِّمُها الناس، فإنَّ الناسَ لو عَلِموا مَحاسِنَ كلامِنا لاتَّبعُونا» (عيون أخبار الرضا ج2 ص275)؛ وفي رواية عن الصادق(ع) أجاب: «بالتَّذاكُر لَه – أي الأمر –» (مناقب أمير المؤمنين(ع) للكوفي ج2 رواية 770)، وفي رواية أخرى عنه(ع): «تَذكُرُونَهُ عندَ أهلِ العِلْم والدِّين واللُّبّ» (مستدرك الوسائل للنوري ج8 رواية

9565)؛ وفي جواب آخر للباقر(ع): «أنْ تُذاكِرَ به أهلَ الدِّينِ وأهلَ الوَرَع» (الفصول المهمة للحر العاملي ج1 رواية 667)؛ وفي رواية عن الصادق(ع): «يتألّفُوا في البُيوتِ ويتَذاكَروا عِلْمَ الدِّين، فَفِي ذلكَ حَياةُ أمرِنا، رَحِمَ اللهُ مَنْ أحيا أمرَنا» (بحار الأنوار ج78 ص219).

ومما أحب أن أشير إليه هو أن ذلك الجو العائلي غير الطائفي الذي نشأتُ فيه وتلك المحلّة والمنطقة المتنوعة المنفتحة، التي أشرتُ إليها باختصار في فصل سابق، كانت إحدى الأسباب وراء السهولة النسبية لتقبّل ما كنت أقرأ. ذلك أنني وجدت بعد ذلك بسنوات أن هناك جدراناً من الرفض عند الكثير من الناس بحيث يصعب عليهم تقبّل ما يُقام الدليل عليه بشكل واضح، وهو أمر سأبحثه في كتاب "ما بعد العودة" عندما أحاول أن أسلّط الضوء للقارئ على ضرورة البحث في داخل النفس عن أسباب الرفض أو أسباب القبول عندما يتّضح أن الفكر والعقل يؤيدان ولكن النفس ترفض. ولكني ولله الحمد كنت أتقبّل ما يُقام عليه الدليل وأبحث فيه فيما هو موجود من تفسير للقرآن أو للأحاديث الشريفة، ولكنه بالتأكيد يزيد من نهمي في محاولة معرفة المزيد من أجل تفسير هذه المفارقات التي مرّت على المسلمين في مذاهبهم وفي مجتمعهم وفي دولهم وما وصلنا إليه من أفكار ولاسيما في موضوع قبول الأمر الواقع في السابق وفي اللاحق. وهذه تقودني إلى أن أذكر أن الوضع في العراق ساهم في تقوية الإيمان بما يقوله الشيعة في جوانب العدل والظلم الذي تميّز به خط أمير المؤمنين وأولاده(ع) في قبالة الخط الآخر الذي كان يعتمد المصالح إلى جانب المبادئ، لأننا لا نريد أن نحكم كم كان للمبادئ من وزن في قبالة المصالح.

رحلة مشتركة مع صديق

في تلك الأثناء لعلّه ساعد على البحث أن أحد أصدقائي الأعزاء بدأ هو الآخر يشتد التزامه الديني وهو الآخر يقرأ ما يقوله الشيعة، ومن حسن الحظ أن هذا الصديق العزيز كان من أنقياء القلب، بل ربما لم أصادف مثله في نقاء القلب

ونقاء السريرة إلا القليل جداً من غيره من أمثاله ممن هم حقاً نعمة من نعم الله الكبرى في حياة الإنسان.

صديقي اسمه بنان ناجي الزهاوي، والده المرحوم الدكتور ناجي عبد القادر الزهاوي عميد كلية الهندسة جامعة بغداد لمدة 11 سنة، وفي أثناء دراستنا في تلك الكلية بعد ذلك كان يأتي لإعطاء بعض الدروس لطلبة الدراسات العليا ويعمل في مكتبه الهندسي في بغداد، وصديقي هذا كان معي في الدراسة المتوسطة والثانوية وصرنا نلتقي بشكل أكثر ونتناقش فيما نقرأ ونلقي الإشكالات ونحاول الإجابة عليها، وكنا نجد نفسينا يداً بيد تتجه نحو قبول هذا الطرح من دنيا التشيّع. ولعله من قبيل التوافق الفكري أنني تركت العراق وصارت الاتصالات بيننا شبه معدومة ثم عادت في منتصف التسعينيات ، بعد أن غادر العراق هو الآخر، وكلّ منا في مكانه شيئاً فشيئاً أخذ بالتشيّع حتى أخذه بشكل كامل تام والحمد للّه رب العالمين.

تزامنت القراءات والاطلاع على الفكر والفقه، وإن كان بدرجة أقل، والتاريخ الإسلامي من وجهة النظر الشيعية مع الأحداث السياسية الكبيرة التي كانت تجري في إيران وآثارها على العراق والمنطقة والعالم. فكنت أنتظر ما يؤول إليه الأمر بعد الاطلاع اليومي على شعارات ومظاهرات المعارضة الإيرانية التي كانت تنطلق في لندن في السنة 1978 عندما كنت هناك أي في الأشهر القليلة قبل انتصار الثورة في إيران، وعندما عدت إلى العراق كنت منهمكاً في العمل ولكن كان هذا الاطلاع المستمر والقراءات تتزامن مع ثورة يقودها عالِم شيعي في بلد شيعي تطرح الشعار الإسلامي وهدف الثورة هو إقامة العدل والتخلّص من الظلم. هذا بالمقارنة مع الواقع الإسلامي في البلدان الأخرى ولاسيما في العراق الذي يقوده حزب علماني يتجرع المواطنون مرارات ظلمه كل يوم وكل ساعة شكّل هو الآخر جانباً دافعاً باتجاه المذهب الذي يجد طريقه إلى التطبيق على مستويات أكبر وأوسع من المذاهب الأخرى التي تنادي ليل نهار وتأمر مواطنيها بطاعة الحاكم كائناً من كان وعلى طريقة الحديث الذي يُتلى وهو "أطِعِ الأميرَ وإنْ جَلَدَ ظَهركَ وأخَذَ مالَك".

بغض النظر عن رأي الآخرين في الثورة الإسلامية في إيران فإن الذي حصل في وقتها هو انبهار بتلك الثورة في مفرداتها الجهادية والاستشهادية وفي قيادتها العلمائية التي لم تتنازل مطلقاً، وهو أمر كان ولا يزال متوافقاً مع ما أراه صحيحًا. في تلك المرحلة كان حب تلك الثورة والرغبة في انتصارها والدعاء لها في الوقت الذي كنت لا أزال أقوم بالعبادات على الطريقة السنيّة الحنفية التي تعلمتها من أمي ومن المدرسة. بل وفي الوقت الذي كنت مقتنعاً بالكثير من الطروحات الشيعية مما قرأت لو أن شخصاً ما سألني هل أنت سنيّ كنت سأجد صعوبة بأن أجيب بنعم، ولو سألني هل أنت شيعي كنت سأجد صعوبة أيضاً بأن أقول نعم، يعني كنت في وضع غير محدد المعالم تماماً، ولكن كان هناك توافق بين القراءات وبين ما يجري على الأرض وبين الجوانب الأصيلة في نفسي من بغض التسلط والرغبة في العدل والنظرة السلبية بشكل كامل للحكم في العراق.

مغادرة العراق إلى الكويت

بعد تأجيل لما يزيد عن السنة قررتُ ترك العراق عندما أصبح الوضع صعب التقبل بالنسبة لشخص مثلي بهذه المواصفات (كان هناك إلحاح من بعض الأهل على المغادرة، على أساس الذهاب للعمل ولكن يبدو أن الخشية كانت من بقائي في العراق في تلك الظروف وهم يرون أفكاري واتجاهي). فإنه بعد سنة ونصف من اندلاع الحرب مع إيران والمظالم التي كانت قد بدأت قبلها واستمرت في تسفير مئات الألوف من العراقيين على أساس كونهم من أصول إيرانية ومن الإعدامات المستمرة ومن الخوف المطبق على أنفاس جميع العراقيين، مع شخص مثلي لا يستطيع أن يقول كلمة مجاملة لهؤلاء وعيونهم المبثوثة في كل مكان، كان سيكون من الصعب جداً إن لم يكن من المستحيل أن شخصاً مثلي سيبقى على قيد الحياة، لولا الأجل المكتوب. لذا تركت العراق في عام 1982 للعمل في الكويت.

وأذكر أن الطائرة كانت عن طريق عمّان لمدة أقل من 24 ساعة ثم إلى الكويت، وأني في عمّان ذهبتُ إلى كشك يبيع الصحف والمجلات ويبيع بعض

الكتب وحالما وقعت عيني على كتابي "فلسفتنا" و"اقتصادنا" للشهيد محمد باقر الصدر اشتريتهما، ومعهما كتاب ثالث وهو "حرب أكتوبر" للواء سعد الدين الشاذلي هذا القائد العسكري المصري المعروف، ذلك لأني لم أجد أثراً لكتب الشهيد الصدر في مكتبة عبد الرزاق الهلالي حيث على ما أظن الآن كان قد تخلص منها لأنها كانت تعني أشد العقوبات التي تصل إلى الإعدام في ذلك الوقت. وحالما وصلت الكويت بدأت أقرأ فيها وكنت كلما أقرأ مزيداً من الصفحات في هذين الكتابين كان يزداد حنقي وغيظي على من قتل هذا المفكر العملاق، وهذا ربما زاد من الانحياز النفسي إلى جانب هؤلاء الشيعة الذين يشرون الدنيا بالفكر ويخرجون إلى المواجهة مع أعتى الظالمين، مما كان متوافقاً، وكما قلت عدة مرات، مع النزعات التي في داخلي ومع الأفكار التي أحملها وأفهمها عن الإسلام كونه دين العدل والعزة ورفض الظلم.

في الكويت كان هناك المجال الأرحب للقراءات الكثيرة الأخرى، ولإعادة قراءة بعض الكتب التي قرأتها في العراق حيث كان الجوّ جوًّا آمناً وكان هناك الحرية المفقودة في العراق، وإن كانت قد تأزّمت الأوضاع بعدها إثر تفجيرات مشبوهة في الكويت وبعد اشتداد الحرب بين العراق وإيران، وهو أمر لم يكن مستغرباً أن يلقي بظلاله على الساحة الكويتية لأن الذي وجدته في المجتمع الكويتي، وهو ما لم يكن في المجتمع العراقي، هو الجوّ الطائفي الواضح عند الطائفتين دون استثناء.

ذلك أن النظرة التي يجدها الذي يعيش هذه الأمور عن قرب هناك سواء في المساجد أو في بعض ما يطرح في بعض المجلات هو رفض كامل من كل طائفة لأفكار الطائفة الأخرى ومجانبة واضحة حتى على الصعيد الشخصي عند الكثيرين بل الأكثرين، وليس هناك من تزاوج أي زواج بين الطائفتين كما هو في العراق بشكل موجود في كل مكان وانتشار التكفير تكفير أتباع كل مذهب لأتباع المذهب الآخر بشكل واضح. وقد ساهمت الحرب العراقية الإيرانية في تعميق الفجوة بين الطائفتين وهذا مما أدخل عوامل التشكيك في إخلاص المواطنين إلى هذه الجهة أو تلك وتسفير بعض العلماء الشيعة وحتى المراقبة الشديدة لمساجدهم كما في مسجد

النقي في منطقة الدسمة الذي كنت أصلي فيه الجمعة حيث هو نقطة المراقبة الأولى كونه يعتبر المسجد الأول للشيعة هناك. وإن كنا نصلي أكثر أيضاً في أماكن أقرب إلى السكن كما في منطقة العُمَرية وميدان حَوَلّي وغيرها.

خلاصة القول أن هذه الفترة كانت فترة اطّلاع على عالم جديد، عالم يعرض نفسه بحجج قوية مستندة إلى الكتاب والسنّة وإلى التفسير والتحليل الواضح والمنطقي لما جرى في التاريخ وبأسلوب يبتعد عن أسلوب الخطابة وبأسلوب فيه الكثير من الندى الأدبي والشعري والعاطفة، وهو ما يجعله متكاملاً في جوانبه الفكرية والعقلية، فإذا جمعته مع ما كان يجري على الأرض من ثورة كبيرة تعلن عن الرغبة في تطبيق هذه الأفكار وليس بقاءها في الكتب فإني وجدتُ نفسي فعلاً كأني أبحر باتجاه شاطئ الحقيقة، أو باتجاه ما يدعيه ويثبته بشكل واضح هؤلاء الناس بأن ما عندهم هو الحقيقة وهو الطريق الأصح إلى الكتاب والسنّة.

بقيت نقطة هامة في هذا المجال وهي أن الكثير من الكتب التي قرأتها كالمراجعات أو النص والإجتهاد أو في الكتب الأخرى كانت تتميز بلغة ونَفَس أخويّ يمدّ اليد إلى جهة أخرى تبدو معارضة على الرغم من أنها هي الجهة المسيطرة التي لا يفترض أن تشعر بالتهديد، فكان هذا الموقف الفكري الذي يتخلّق بأخلاق أدب الحوار والبحث العلمي الأكاديمي الواضح والذي لا يستعمل أساليب اللف والدوران والذي يفضح المفتريات التي سمعنا بعضها ونحن في عمر التنشئة أو ما سمعناه وكانت تضج به وسائل الإعلام الظالمة كان هذا كله له أثر في أن يكون دافعاً شخصياً لي بأن أنحاز إلى هذه الجهة التي تنتهج هذا النهج الصحيح الكريم المباشر الصادق مع جوهر الموضوع وهي هذه الحجج التي تطرحها.

الفصل الرابع
العودة عمليًا

صديق جديد

التحوّل العبادي

مجمل التغير في النظرة إلى الشيعة والتشيع

دخول نواح جديدة

محاولة تقديم شيء ما

"بدأت رحلة
العودة إلى الأصل،
وأقول بدأت لأنها
مستمرة طولاً
وعرضاً
حيث أن مثل هذا
الأمر من السعة
ومن الأهمية ومن
العمق . . .
ما لا يمكن أن
يُقال . . . بأن
هذا شيء
يمكن أن ينتهي،
وإنما هي رحلة
تصاعدية بإذن
الله."

المؤلف

هذا الفصل يتعلق ببداية الانتماء فيما يخص العبادات والانتماء إلى الجماعة مما أستطيع أن أضعه خلال العام 1983. ففي ذلك العام كنتُ قد تعرّفت على بعض الأخوة الجدد هناك من عراقيين وغيرهم وذلك في نهاية سنة 1982 ولا شك في أن الكلام حول العراق وحول القضايا الإسلامية يدور ويمس هذه المواضيع، والذي ساهم جوّ الكويت في الأمان المتوفر وعدم وجود الخوف المطبق على الأنفاس في العراق من جهة، أيضاً الخروج من بيت العائلة في بغداد والتي أحد أبعادها البعد المذهبي والذي لم يكن طافياً على السطح بشكل واضح كما كان الواقع السياسي فيما يخص الحرب العراقية الإيرانية في النقاشات اليومية التي تدور في بيتنا حيث استبدلنا النقاش المحتدّ اليومي بخصوص فلسطين بإيران والثورة الإيرانية والحرب العراقية الإيرانية. إذاً كان هذا الجوّ ملائماً لبداية الانتماء إلى الجماعة الموالية لأهل البيت وذلك في إطار الإسلام وفي إطار العلاقات الأخرى العائلية التي ربما تتأثر من قريب بقليل أو كثير.

إلى ذلك الوقت كنتُ لا أزال أقوم بالعبادات على الطريقة السنيّة، وبشكل أخص فيما يخص الوضوء والصلاة على أساس أنهما من العبادات اليومية، وبدرجة أقل فيما يخص الصيام وهو قضية تتجدد سنوياً. أما الأفكار التي لها علاقة بالعقائد فكنت في ذلك الوقت قد قطعت شوطاً كبيراً في الأخذ بمذهب أهل البيت(ع) بحيث كنتُ في ذلك الحين متفقاً مع الشيعة فيما يعتقدون ويقولون، ربما فيما عدا بعض الأمور التي لم تكن قد ترسّخت والتي لي عليها ملاحظات أو تساؤلات إما بسبب ضعف الأساس العلمي لها أو بسبب ارتباطها بأمور إجتماعية لا علاقة لها بالمذهب كما أُسّس على يد الأئمة(ع)، وهو في حقيقته وكما صرت أعتقد منذ ذلك الحين أنه هو الإسلام الذي نزل على رسول اللّه(ص) في أصوله وفروعه ولكن صار يُنظر إليه كمذهب أو طائفة تأخذ به طائفة في قبالة المذاهب التي تأخذ بها الطائفة الكبيرة في العالم الإسلامي.

صديق جديد

من الأصدقاء الذين لهم علاقة بهذا الموضوع ما ينبغي ذكره هم: الأخ العزيز "خضيّر فاضل عباس" وهو عراقي من البصرة وخرّيج اللغة العربية من جامعة البصرة، كان في الكويت يعمل في جريدة القبس الكويتية، وكان لسكننا في محلّتين متقاربتين في الكويت – حيث كنتُ في محلّة الفروانية وكان هو في محلة خيطان المقابلة لها على الطرف الآخر من الطريق السريع – فقد كنّا نتزاور لعدة مرات في الأسبوع، ووجدنا كعائلة أنا وزوجتي مع هذا الأخ وزوجته ومن ثم الأولاد راحة مع بعضنا وانفتاحاً ومحبة كبيرة اشتدت بشكل سريع، ويمكن أن أقول أنه أحد أولئك الأخوة القلّة الذين وجدت فيهم ذلك النقاء في القلب والصفاء في النفس والبساطة في العلاقة الذي افتقدته مع الأخ الذي ذكرته سابقاً.

أذكر أني أول مرة دخلت فيها مسجداً للشيعة في الكويت كان مع الأخ خضيّر في مسجد الإمام الحسين(ع) في منطقة ميدان حَوَلّي، وأذكر إلى الآن أني كنتُ أصلّي متكتّف اليدين وعلى الطريقة السنيّة الحنفية ولم أتناول تربة من صندوق الترب لأسجد عليها، صلّينا سوية جماعة أنا وهذا الأخ العزيز وخرجنا.

وأذكر أني كنت لا أزال على هذه الحال حتى أخذت رأي العلاّمة المرحوم السيد "أمير محمد الكاظمي القزويني"، وكان علاّمة البصرة والكويت، في هذا الموضوع حيث كنت أرى أن هذا يشكّل ربما علامة فصل بيني وبين من يمكن أن أتكلم معه في هذا الموضوع في نطاق مكان العمل أو غيره، فالسيد رحمة اللّه عليه قال لي بأن هناك من السنة وهم أتباع الإمام مالك من يصلّون مُسبلي اليدين، وهذا هو فعلاً الذي نجده في معظم أتباع المذهب المالكي في شمال إفريقيا وفي جنوب شرق آسيا، وقال لي بأن من الضروري أن تكون الصلاة وفق مذهب أهل البيت(ع).

وبعد ذلك أذكر جملة من الأخ العزيز خضيّر عباس قال لي: "خذ راحتك، من الآن فصاعداً أنت صلِّ كما ينبغي أن يصلي من يتبع مذهب البيت(ع)".

كانت تلك هي نقطة التحوّل في هذه المسألة اليومية التي لو يُنظر إليها بشكل بسيط يجد أنها ليس فيها الكثير من الفروقات إلا في الشكل، ولكن في حقيقة الأمر هناك بالإضافة إلى الإختلافات الفقهية في تفاصيل الأركان (حيث أن الأركان هي نفسها الأركان السبعة في الصلاة عند الفريقين ولله الحمد) ولكن القضية في عمقها هي قضية عبور حاجز آخر وهو حاجز بدأ يخرج عن نطاق الفكر والنظر العقلي في الأمور إلى تطبيقات ذلك على أهم أمر وهو العبادات بل وعلى الشكل الأهم من ذلك وهو في الصلاة التي هي عمود الدين.

وهكذا أستطيع أن أقول أنه بدأت رحلة العودة إلى الأصل، وأقول بدأت لأنها مستمرة طولاً وعرضاً حيث أن مثل هذا الأمر من السعة ومن الأهمية ومن العمق وما يحوي من التفاصيل الكثيرة ما لا يمكن أن يُقال – بالنسبة لي على الأقل – بأن هذا شيء يمكن أن ينتهي وإنما هي رحلة تصاعدية بإذن الله تعالى، ينفتح فيها المرء على جوانب جديدة وعلى تفاصيل جديدة وحتى على رؤى جديدة، خصوصاً عندما يواجه تحديات فكرية جديدة.

التحوّل العبادي

التحوّل في العبادات يمكن أن نضعه في نقاط وأذكره بشكل سريع كالآتي:

أولاً: التقليد، أي تقليد مرجع شيعي في أمور العبادات والمعاملات، وهو أمر غير موجود عند المذاهب السنيّة فيما يخص العلماء الموجودين المعاصرين على أساس أن التقليد هو لمؤسسي المذاهب الذين سُدّ معهم باب الإجتهاد. بمعنى أن الحنفي يقلّد أبا حنيفة، وإنما يرجع إلى العالم من علماء المذهب الحنفي فيما يتوقف عنده من مشاكل في المعاملات أو فيما يريد التوضيح فيه من العبادات وفقاً لما قد انتُهي منه في زمن أبي حنيفة، وهكذا فيما يخص المذاهب الأخرى. أما هنا فقد وجدتُ نفسي أمام أمر لا مناص منه حيث تسالم الشيعة الإثني عشرية جميعاً على وجوب تقليد مجتهد جامع للشرائط أصبح الكثيرون يرجعون إليه فصار مرجعاً للتقليد. وهذان المصطلحان، المرجعية والتقليد، هما مصطلحان

جاءا من نصوص عن أئمة أهل البيت(ع)، وبالتحديد النص الذي ورد عن الإمام الحادي عشر الحسن العسكري(ع): «فأمّا مَنْ كانَ مِنَ الفُقَهاء صائِناً لنَفسِه، حافِظاً لدِينِه، مُخالِفاً لهَواه (روي أيضاً: مخالفاً على هواه)، مُطيعاً لأمرِ مَولاهُ فلِلعَوامِ أنْ يُقَلِّدُوه» (الوسائل ج27 ص131)، وفي رواية (تفسير العسكري(ع) ص300): «... مُخالفاً لِهَواه»، والحديث عن الإمام الثاني عشر الإمام المهدي(ع): «وأمّا الحَوادِثُ الواقِعة فارجِعوا فِيها إلى رُواةِ أحادِيثِنا فإنَّهُم حُجَّتِي عَلَيكُم وأنا حُجَّةُ اللهّ» (الوسائل ج27 ص140)، وفي رواية (كمال الدين وتمام النعمة للشيخ الصدوق ص483) ففي آخرها «... وأنا حُجَّةُ اللهّ عَلَيهم». هذا الأمر ربما من أهم الأمور التي تجعل الصلة بمذهب أهل البيت مسألة مفروغاً منها بمعنى أن الارتباط مع مرجع معين ينهي العلاقة المذهبية السابقة والتي كانت على كل الأحوال بطبيعتها علاقة مع مرجع قديم مات منذ قرون متطاولة فتكون أقل أثراً فيما يخص ذلك القيد على الإنسان.

ثانياً: الصلاة وقد ذكرنا أن الصلاة أصبحت تأخذ شكلها بحسب مذهب أهل البيت(ع)، وذلك بتفاصيل الأركان، وأيضاً في ذلك الأمر الهام الآخر وهو أوقات الصلاة حيث هناك فرق في مواقيت بدء صلاة العصر وصلاة العشاء وأيضاً صلاة المغرب مما له الأثر على الترقب والقيام بهذه الفريضة ذات الأهمية القصوى والتي هي مسألة يومية لا بد من القيام بها.

ثالثاً: الصيام، وهذا بالإضافة إلى بعض الأحكام المختلفة، وهي ليست كثيرة، هناك مسألة تُرسِّخ الانتماء إلى الطائفة وهي مسألة رؤية الهلال وإعلان شهر رمضان أو شوال أو ذي الحجة بالخصوص، حيث أن المسلمين السنّة في البلدان الإسلامية وبالتأكيد في العراق حيث نشأتُ وكبرتُ يتّبعون الدولة فيما تعلن عنه من ثبوت الرؤية أم عدم ثبوتها، وذلك وفقاً للهيئات الدينية الحكومية التابعة لوزارات الأوقاف أو أي هيئة شرعية هي المعتمدة في هذا المجال. أما فيما يخص المسلمين الشيعة فهم ينتظرون الإعلان من مرجع تقليدهم، وهو أمر يؤدي

أحياناً كثيرة إلى أنهم هم أنفسهم لا يبدأون الشهر الجديد سوية. هذه النقطة رؤية الهلال صارت بالنسبة لي أمراً جديداً يُنتظر ولا يُحسم إلا في ليلة الشهر ربما في وقت متأخر بعد أن كانت مسألة غير موجودة أصلاً لأنها مسألة متروكة للإعلام الرسمي الذي يعلن عنها من خلال الهيئات الشرعية الرسمية. الأهم في ذلك هو الارتباط وزيادة الارتباط بالمرجعية واشتداد البعد عن الهيئة الرسمية أو عن الدولة أو على السلطة، وهو أمر لم يكن ليزعجني بعد أن بيّنت في فصول متقدمة من الكتاب بأني لم أكن أثق بالجهات الرسمية ولم أكن معجباً بحالها على أقل تقدير، ولكنه أمر يؤدّي إلى بعض التساؤلات أو المفارقات أو الحرج حتى أحياناً لشخص مثلي ذي علاقات متنوعة مذهبياً ولاسيما إذا كان المتوقع مني أن أكون متمذهباً بالمذهب السنّي.

كما وجدت من خلال تجربتي فإنه على الرغم بأني لم أجد تلك الصعوبة في نفسي للانخلاع من جملة من الأفكار في إطار معين والأخذ بجملة أخرى من الأفكار في إطار آخر إلا أن هذا الانخلاع النفسي يبقى تدريجياً يستغرق فترة غير قليلة من الزمن، ثم يجد الإنسان نفسه وقد صار مؤمناً بأمور لم يكن يؤمن بها، ويكتشف أنه قد جرى تغيير كبير جوهري في جملة من أفكاره ولاسيما التي تتعلّق بالطائفة الأخرى.

مجمل التغير في النظرة إلى الشيعة والتشيع

من ذلك:

أني بعد أن كنت أرى أن الشيعة طائفة لها طقوس غير مقبولة صرت أعتقد أنها هي الطائفة المحقة التي تتبع الطريق الأصوب نحو إصابة تفسير الكتاب العزيز والسنّة الشريفة وما الطقوس إلا شيء جانبي في حقيقة التشيّع (وسأتناول في كتاب "ما بعد العودة" مدى نجاح أو فشل الطائفة الشيعية في التعبير عمّا عندها).

وبعد أن كنتُ أعتقد أن الخلافة الصحيحة هي حسب ما جرى في التاريخ من تقدّم ثلاثة من الصحابة البارزين على أمير المؤمنين(ع) ومن ثم بإمكانية أن تصبح وراثة تؤخذ بالغلبة والقوة كما حصل فعلاً، صرتُ أرى أنها أمر ليس له علاقة بذلك التاريخ وإنما هي إمامة ونص من اللّه ورسوله(ص).

وبعد أن كنت أرى وأعتقد أن الشيعة شيء له علاقة بإيران، صرتُ أرى أنهم عراقيون – فيما يخص شيعة العراق – لهم نفس مذهب إيران ليس إلا.

وعندما كنت أرى أن هؤلاء الشيعة يكرهون ويحبون لأسباب غير واضحة لي، أصبحت أعرف أنهم إنما يفعلون ذلك على أساس الموقف من أهل البيت(ع) ومن الشريعة.

وبعد أن كان لدي أفكار غير واضحة مفادها أن هؤلاء الشيعة يحبون ويقدمون علياً(ع) على النبي(ص)، صرتُ أرى بوضوح أنهم على العكس من ذلك لا يخدشون صورة النبي(ص) كما يفعل غيرهم.

وبعد أن كنت أرى أنهم يبكون على رجل مات قبل أربعة عشر قرناً، صرت أعرف أن الأمر أعمق من ذلك وأن له امتدادات في النفس وفي ترسيخ العقيدة وفي ترسيخ التعامل مع الظلم بأشكاله المختلفة.

وبعد أن كان عندي بعض الحساسية من كلمة هنا أو كلمة هناك أو بعض الممارسات، أصبحت أتفهم كيف يمكن أن تنشأ هذه الممارسات أو هذه الكلمات حتى وإن كان عندي تحفظات على بعضها لأني لا أراها مستمدّة من سيرة النبي(ص) والأئمة الأطهار(ع).

بالجملة فإني لا أتذكر أنه كان هناك يوم شعرت فيه فجأة بأني صرت منتمياً إلى هذا المذهب وهذه الطائفة، وإنما الأمر حصل شيئاً فشيئاً وبعد مكابدة ومجاهدة ودراسة وبحث كما أشرتُ هنا وما سبق من الفصل إلى مراحله.

دخول نواح جديدة

الإنتماء إلى هذه الطائفة من خلال هذا المذهب الشريف الذي أخذتُ به أدخل نواحي جديدة في الحياة فيما عدا القضايا العبادية. من ذلك ما يخص العلاقات وما يخص بدء الإحساس بما يجري على أفراد هذه الطائفة من ملاحقة أو تنكيل أو تمييز ما كنتُ أشعر به ولا أعرفه عندما كنتُ في الطائفة الأخرى. فبعد أن كان خبر يخص اعتقال شخص أو إعدام شخص أو هرب شخص لا يأتي إلا بين الحين والآخر أصبحت أسمع عن مئات من المصائب النازلة للناس ولاسيما في العراق من سجن وإعدام وملاحقة وهرب والذي يصل إلى الهرب على الأقدام إلى خارج العراق، وهو أمر عرفته فيما حصل مع والدي عندما هرب إلى سوريا عام 1959 وحكم عليه بعد ذلك بالإعدام غيابياً وبعدها بسنتين عندما تم تهريب أخي الكبير إليه إلى سوريا مشياً على الأقدام، في حالات فردية هنا وهناك. ولكن عندما صرت في وسط الطائفة الشيعية وإذا بهذه المسألة لا تكاد تجد شخصاً من شيعة العراق إلا وله فيها قصة معه أو مع أهله أو أصدقائه أو أقربائه، وهو أمر جعلها مصداق لما تدّعيه من اتباع أولئك الصفوة من أهل البيت(ع) وغيرهم من أبطال أهل البيت في التاريخ الذين وجدوا أن على عاتقهم تقع مسؤولية إنقاذ الأمة والوقوف مع المظلومين ضد الظالمين، وبالتالي كان هذا أمراً آخر يضاف إلى سلسلة الأمور التي زادت من اندكاكي في وسط هذه الطائفة وفي جملة الأفكار والامتدادات الفكرية لمذهب أهل البيت(ع).

ولعل في الذهاب إلى الحسينية، كمكان للعبادة ولإقامة الشعائر الدينية بالإضافة إلى المسجد، من الأمور التي ميّزت هذه الطائفة بحيث جعلت وجود هذه النوادي المسماة الحسينيات المشاركة في الاحتفالات الدينية، وهي كثيرة في هذه الطائفة، جعلت منها أمراً ميسّراً مشجعاً عليه للجميع من الرجال والنساء والكبار والصغار وبدون القيود الشرعية للمسجد وآدابه، وهو أمر يبدو أنه يجد صعوبة في القبول لدى الكثيرين من أهل السنة، وربما لعدم فهم الأسباب وراء وجود مثل هذا المكان بالإضافة إلى المسجد، وربما في حالات أخرى ليس قصورًا

في الفهم وإنما كجانب من الحملات المستمرة لمحاصرة التشيّع عبر الأجيال. فإننا نجد الهجوم المستمر على الحسينيات وأنها أمر لم يكن على عهد رسول اللّه(ص) وكأنما هم يتكلمون عن ملاهٍ ليلية أو كازينوهات للقمار، ولا يتكلمون عن أماكن تقام فيها الصلوات ويقرأ القرآن ويدعى فيها اللّه تعالى بأجمل الدعاء الذي لا يعرفه هؤلاء.

لذا فإن الاحساس بهذا الانتماء ازداد في مثل هذه الأجواء الجديدة وبوجود الرفقة من هؤلاء الإخوة الأعزاء المحبين والمخلصين، وهو ما يعوّض على كل حال خصوصاً عندما يكون الإنسان في الغربة ويشعر أنه يعيش الغربة. بل لعله لو وجد نفسه وحيداً كان هذا الولاء لهؤلاء الصفوة من آل محمد(ص) مما يكفي عن الناس، كما قال دعبل الخزاعي:

وفي مَوالِيكَ لِلمَحزُونِ مَشغَلَةٌ مِنْ أنْ تَبيتَ لَمفقُودٍ عَلى أَثَرِ

محاولة تقديم شيء ما

أخيراً، ينبغي القول أنه في هذا العام أو بُعيد هذا العام، ربما في عام 1984، بدأت بالنشاطات محاولاً تقديم بعض العطاء لما أصبحت أعرفه وآخذ به وأنا مسرور به مرتاح إليه واثق منه. وقد كان من ذلك أول الطريق في مجال التأليف، حيث قمت بتأليف كتاب سمّيته "حُجَجُ النَّهج"، بمعنى حججنا من نهج البلاغة، ليس فقط من "نهج البلاغة" نفسه أي مجموع خطب ورسائل وكلمات أمير المؤمنين(ع) التي اختارها وجمعها السيد الشريف الرضي رحمة اللّه عليه، ولكن أيضاً من "شرح نهج البلاغة" لإبن أبي الحديد المعتزلي والشرح الآخر للشيخ محمد عبده مفتي مصر في بداية القرن العشرين. وكان هذا الكتاب مناسباً للتحوّل الذي حصل معي حيث هو في الحجج التي تثبت ما يذهب إليه شيعة أهل البيت مما يخص الإمامة والنص عليها ودور الأئمة في الإسلام. على أن ذلك الكتاب لم ير النور إلا بعد أربع سنوات بعد أن تركت

الكويت وانتقلت إلى إنكلترا فكان هو فاتحة الخير لمجموعة من المؤلفات في هذا الموضوع وفي غيره.

خلاصة الكلام في هذا الفصل هو أن العودة عملياً قد بدأت وذلك في اتباع المرجعية الشيعية في العبادات والمعاملات وأيضاً في تأسيس العلاقات الجديدة وفي حضور مجالس الدعاء والمجالس الحسينية في الحسينيات والمساجد وأيضاً في بداية العطاء الفكري، مما شكّل بداية الاحساس بالانتماء بشكل كامل لهذه الطائفة المسلمة من خلال اتباع مذهب أهل البيت(ع) في الأصول والفروع وفي تفسير التاريخ ومع الأمور الأخرى مما يشمل العلاقة مع اللّه تعالى والأمور الخاصة بتفاصيل أصول الدين وفروعه وفي جانب تكوين هذه العلاقة عن طريق الفكر وأيضاً عن طريق العاطفة وأيضاً عن طريق الدعاء وما تركه الأئمة(ع) من إرث لا نظير له في هذا المجال.

ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم

لعلمه الذين يستنبطونه منهم

الباب الثاني

القرآن والسنة
والعلم والسيرة

الفصل الخامس
القرآن الكريم

مقدمة

أولاً: آية التطهير

ثانياً: آية الولاية

ثالثاً: آية المودة

رابعاً: آية المباهلة

آيات أخرى

آية المنذر والهادي . آية الشاهد . آية الصادقين .

آية الصدقة عند النجوى . آية الصلاة

(فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ)

قرآن كريم

لا شك في أن أي قضية دينية لا تجد لها دليلاً من كتاب الله العزيز فإن ذلك يضعفها، بل ويجعلها قضية تدور في إطار الفكر التجريدي، لذا كانت طريقة المسلمين، من علماء وباحثين وغيرهم، النظر أولاً في كتاب الله تعالى، ثم الاتجاه نحو السنة النبوية الشريفة، لمعرفة الدليل على هذه المسألة أو تلك، ثم محاولة معرفة وزن هذا الدليل وعلاقته بالمسألة موضع البحث. ولعلهم يرجئون الدليل العقلي إلى ما بعد ذلك، ربما لأن عوام المسلمين يقتنعون بدليل الكتاب والسنة بشكل تلقائي، إيماناً منهم بهذين المصدرين الأساسيين أولاً، ولصعوبة تلقيهم، أو تلقي الكثيرين منهم، للدليل العقلي وفهمه بشكل يؤسس لقناعات راسخة ثانياً. وربما لهذا السبب أيضاً تجد القرآن الكريم، وهو الكتاب الموجه للبشر جميعاً على اختلاف مستوياتهم، يقدم الدليل على أية قضية بشكل يمكن تناوله من المستويات المختلفة، ولعل هذا من مظاهر إعجاز هذا الكتاب العجيب الذي لا تنقضي عجائبه كما ورد في الخبر.

من هنا، تجد السؤال كان ولا يزال موجهاً لشيعة أهل البيت(ع): أين ذكر علي(ع) والأئمة(ع) في القرآن؟ أين ذكرت إمامتهم في القرآن؟ أين ذكرت عصمتهم في القرآن؟ وكان الشيعة ولا يزالون يجيبون فيما يكتبون ويحاضرون وينشرون ويناقشون، وكان – بالنسبة لي – هو أول ما نظرت فيه في هذا الأمر.

وجدت أن هناك آيات كثيرة في القرآن الكريم تعلن بشكل واضح جلي عن تقديم علي(ع) وأهل البيت(ع) على غيرهم، وعن خصوصيات فيهم(ع)، وعن دورهم(ع) في دنيا الإسلام. فآيات القرآن الكريم لم تكتف بتبيان تقدم علي(ع) وأهل البيت(ع) على باقي المسلمين، مما هو مقبول وربما مأخوذ به كاعتقاد عند بعض أهل السنة، ربما بشكل عنوان عاطفي جانبي غير أساسي ولا يرتبط بدور مميز لهم، كأنما أراد الله تعالى لهؤلاء الأفراد أن يجعل لهم منزلة شريفة دون دور مميز، أي على شكل الوجاهة العشائرية والاجتماعية.

في الحقيقة فإن الأمر ليس كذلك، إذ أن آيات الكتاب العزيز ذهبت إلى تبيان أمر هام جداً يتعلق بخصوصيات فيهم(ع)، كما في تطهيرهم من الخطأ والخطيئة،

مما يجعل منهم الأفراد المناسبين لحمل أمانة القرآن الكريم؛ كما ذهبت أكثر من ذلك لتبيان دورهم القيادي في المجتمع بحيث تأخذ بيد المسلم القارئ للقرآن الناظر فيه في تسلسل جميل: تقديمهم(ع) على غيرهم، الإعلان عن نفوسهم(ع) المطهرة المنزهة عما يقع فيه الآخرون، دورهم(ع) الذي هو النتيجة الطبيعية لكل ذلك.

وجدت أن الشيعة يحتجون بالقرآن الكريم على ما يعتقدونه في الأئمة من أهل البيت(ع). إلا أن من أهم الآيات في هذا المجال هي: آية التطهير، وآية الولاية، وآية المودة، وآية المباهلة، والتي كتبوا في تفسيرها ومناقشة دلالاتها ومناقشة الذين يريدون تغيير معانيها أو يعتمون عليها الكثير الكثير، لذا أكتفي بمرور سريع على كل آية من هذه الآيات لتبيان ما اكتشفته فيها مما لا مفر من الاعتراف به ومن ثم اتباعه.

(راجع الملحق لذكر مصادر الآيات وبعض الملاحظات حولها.)

أولاً: آية التطهير

وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّما يُرِيدُ اللّهُ لِيُذهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهلَ البَيتِ وَيُطَهِّرَكُم تَطهِيراً﴾ الأحزاب:33.

الآية واضحة في أن الذين تسميهم "أهل البيت" قد خضعوا لإرادة إلهية "يريد"، في تخليصهم مما يقع فيه غيرهم من البشر من "الرجس" ويطهرهم، أي يطهر ذواتهم بلحاظ المفعول المطلق "تطهيراً" الذي يؤكد الفعل. هذه الآية هي من أهم الحجج الشيعية على المكانة البارزة لأئمتهم(ع) في قيادة الأمة، وذلك على أساس أن هذا التطهير ينتج عنه عصمة من الذنوب، وبالتالي ضمانة لعدم الانحراف، أن في التبليغ عن النبي(ص) أو في عدم الخضوع لأهواء النفس، وهي من المحتوم في حالة الحكام والقادة والأئمة، وكما حصل في التاريخ الإسلامي كله بدءاً من الخلافة الأولى، المسماة بالخلافة الراشدة.

كذلك، لا يمكن أن يكون الله تعالى فعل ذلك مع هؤلاء الذين تسميهم الآية "أهل البيت" دون حكمة. إذاً، لا بد أن تكون الإرادة الإلهية المتحققة في

هؤلاء من أجل أن يكونوا هم القادة، وإلا صاروا أتباعاً لمن لم يذهب عنهم الرجس ولم يطهرهم تطهيراً.

أما عن فعل النبي(ص) لتبيان هذه الآية المباركة فقد قال السيد شرف الدين (الكلمة الغراء في تفضيل الزهراء(ع) ص24): "وقد تكررت منه(ص) قضية الكساء حتى احتمل بعض العلماء تكرار نزول الآية أيضاً. والصواب عندنا نزولها مرة واحدة، لكن حكمة الصادق الأمين في نصحه ببلاغه المبين اقتضى تكرار تلك القضية مرة في بيت أم سلمة عند نزول الآية وتبليغها لأهلها المخاطبين فيها، وأخرى في بيت فاطمة، وفي كل مرة يتلو عليهم الآية مخاطباً لهم بها، وهم في معزل عن الناس تحت ذلك الكساء درءاً للشبهة في نحور أهل الزيف".

وقد أشار في الهامش إلى الأحاديث التي وردت عن أم سلمة رضوان الله عليها بنزول الآية في بيتها في أصحاب الكساء كما فيما أخرجه الإمام أحمد (المسند ج6 ص323) وما رواه الثعلبي في تفسيره وغيرهم. وأيضاً أشار إلى الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد (المسند ص107 من ج4) عن واثلة بن الأسقع أنه أتى فاطمة(ع) يسألها عن علي(ع) وبعد أن جلس ينتظره جاء النبي(ص) ومعه علي وحسن وحسين فأدنى علياً وفاطمة وأجلسهما بين يديه ثم أجلس حسناً وحسيناً كل واحد منهما على فخذه ثم لفّ عليهم ثوبه ثم تلا آية التطهير وأعلن قائلاً: ‹‹اللهم هؤلاء أهل بيتي..›› وأخرج هذا الحديث آخرون منهم إبن جرير في تفسيره والطبراني والبيهقي وغيرهم.

الأمر الثاني نبّه إلى أن النبي(ص) سلك في إعلان هذه الآية واختصاصها بأهل بينه مسالك ينقطع معها شغب المشاغب، فذلك كان بعد نزول الآية كلما خرج إلى صلاة الفجر يمرّ ببيت فاطمة فيقول: ‹‹الصلاة يا أهل البيت ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾››، وقد استمر على هذا ستة أشهر كما في رواية أنس (مسند أحمد ج3 ص259)، أو سبعة أشهر كما في رواية إبن عباس (الشرف المؤبد للنبهاني ص8)، أو ثمانية أشهر حسبما قال غيرهما.

وقد وجدت أنه فيما عدا ابن تيمية (ومن تابعه في زماننا بعدما انتشره) لم يكن هناك من علماء أهل السنة من يتبنى الرأي الشاذ أن "أهل البيت" في الآية

هم نساء النبي(ص)، على أساس أن آية التطهير جاءت في سياق آيات نسائه(ص). ووجدت أن رأي ابن تيمية إنما استند إلى حديث رواه عكرمة أو مقاتل، الذي كان معروفاً بنصرته لمبدأ الخوارج، وهم من هم في معاداتهم لعلي(ع)، فلا يعود رأيه – بغض النظر عن شذوذه – معتداً به. وقد ناقش السيد شرف الدين في كتاب "الكلمة الغراء في تفضيل الزهراء(ع)" (راجعه من ص24).

ردّ السيد شرف الدين هذا الرأي من عدة وجوه:

أولاً: أنه اجتهاد في مقابل النصوص الصريحة والأحاديث المتواترة الصحيحة.

ثانياً: لو كانت خاصة بالنساء لكان الخطاب بما يصلح للإناث أي بـ "نون النسوة".

ثالثاً: أن الكلام البليغ يدخله الاستطراد والاعتراض، وذكر مثلاً لذلك قصة يوسف ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيدِكُنَّ إنَّ كَيدَكُنَّ عَظيم . يوسُفُ أعرِضْ عنْ هذا واستَغفِري لذَنبِكِ﴾ (يوسف:29) فقوله ﴿يوسف أعرض عن هذا﴾ مستطرد بين خطابيه معها. وبالتالي فآية التطهير جاءت مستطردة بين آيات النساء لعناية الله تعالى بأهل البيت (أعني الخمسة) لئلا ينالهم، ولو من جهة نساء النبي(ص) سوء أو يكون عليهم للمنافقين، ولو عن طريق النساء، سبيل، في نكتة شريفة للإعجاز القرآني.رابعاً: أن القرآن لم يرتب عند جمعه حسب ترتيبه في النزول، ولذلك فإن حمل الآية على ما يخالف السياق غير مناف للبلاغة ولا مخلّ بالإعجاز حتى لو سُلّم ظهوره بما يزعمون.

شبهة شمول الآية لجميع بني هاشم

وفي مورد آخر ناقش السيد شرف الدين الشبهة التي تقول أن بني هاشم كلهم مشمولون بلفظة "أهل البيت"، وذلك استناداً إلى الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه برواية زيد بن أرقم (رواية 4425) عندما سئل: "من أهل بيته؟ نساؤه؟ قال: لا، وأيم الله إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها؛ أهل بيته (أهله وعصبته) الذين حرموا الصدقة بعده"، وذلك بما يلي:

أولاً: أن رد زيد كان عندما سئل عن مراد النبي(ص) بأهل بيته الذين ذكرهم في قوله: «إني تارك فيكم ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي» فأجاب عن هذا السؤال بما سمعت ولم يتعرض لبيان المراد بأهل البيت المذكورين في الآية... فهذا مغالطة. ولو سئل زيد عن الآية لأجاب بالصواب كما فعل أبو سعيد الخدري ومجاهد وقتادة وغيرهم، وما كان ليخفى عليه حديث الكساء ولا ليخالف بتفسيرها سيد الأنبياء(ص).

ثانياً: لو فرض أن زيداً فسّر الآية بهذا فإنما هو مفسر لها برأي قد رآه فكيف نعارض به الأدلة القاطعة والنصوص الصريحة والأحاديث المتواترة.

شبهة شمول الآية لنساء النبي(ص) مع أهل البيت(ع)

وهذه شبهة وجدتها منتشرة – ولا تزال إلى اليوم – وذلك لأنه لما لم يكن ممكناً إنكار حديث الكساء الذي جعل الآية نازلة في الخمسة الأطهار – محمد(ص) وعلي وفاطمة والحسنين(ع) – جاء الالتفاف من ناحية القبول بذلك ولكن بضم نساء النبي(ص) إلى أهل البيت على أساس سياق الآية. وقد ردّ السيد شرف الدين ذلك بالقول أنه(ص) منع أم سلمة من الدخول تحت الكساء فهو أقوى دليل على خروج النساء. والأمر الثاني أنه لو كان غير علي وفاطمة وابنيهما مراداً لقال(ص) حين جللهم بالكساء "اللهم هؤلاء من أهل بيتي" ولم يقل: «اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً». وذكر في ذلك أيضاً حديث أم سلمة (مسند الإمام أحمد ج6 ص296)، قال: "قالت: بينما رسول الله(ص) في بيتي يوماً إذ قال الخادم: إن علياً وفاطمة بالسدّة، قالت: فقال لي: «فتنحّي لي عن أهل بيتي»، فقالت: فقمت فتنحيت في البيت قريباً، فدخل علي وفاطمة ومعهما الحسن والحسين وهما صبيان صغيران، فأخذ الصبيين ووضعهما في حجره فقبلهما واعتنق علياً بإحدى يديه وفاطمة باليد الأخرى فقبل علياً وقبّل فاطمة فأغدق عليهم خميصة سوداء فقال: «اللهُمَّ إليَكَ لا إلى النارِ أنا وأهلُ بَيتي»".

أخيراً، العصمة والإمامة

نبّه السيد شرف الدين إلى أمرين: الأول، أن الآية دلّت على عصمة الخمسة لأن الرجس عبارة عن الذنوب كما في الكشاف وغيره، وقد تصدرت بأداة الحصر

وهي ﴿إنَّما﴾ فأفادت أن إرادة الله تعالى في أمرهم مقصورة على إذهاب الذنوب عنهم وتطهيرهم منها، وهذا كنه العصمة وحقيقتها.

ثانياً، أنها دلت بالالتزام على إمامة أمير المؤمنين، لأنه ادعى الخلافة لنفسه وادعاها له الحسنان وفاطمة ولا يكونون كاذبين لأن الكذب من الرجس الذي أذهبه الله عنهم وطهّرهم منه تطهيراً.

ثانياً: آية الولاية

وهي قوله تعالى: ﴿إنَّما وَلِيُّكُم اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينُ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُم راكِعُون . وَمَنْ يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الغالِبُون﴾ المائدة:55-56.

يكاد يجمع المفسرون أنها نزلت في علي(ع) عندما تصدق بخاتمه أثناء الصلاة في حال الركوع لسائل دخل يسأل الناس في مسجد النبي(ص)، فما حصل على شيء حتى أشار له علي(ع) أن ينتزع منه خاتمه، ففعل الرجل ونزلت الآية. والآية واضحة في حصر الولاية بأداة الحصر "إنما" في اللّه تعالى وفي رسوله(ص) وفي مؤمنين معينين قاموا بفعل محدد واضح المعالم. وإلا، ما معنى إعطاء الولاية العظيمة، ولاية اللّه ورسوله(ص)، لكل مؤمن يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة؟ وكيف يكون هذا المؤمن ولي على غيره ممن يقوم بنفس الأمر؟ فإن ولاية الأخوة الإيمانية جاءت في آية أخرى ﴿والمؤمِنُونَ والمؤمِناتُ بَعضُهُم أولياء بعض﴾ وهي ليست الولاية الحصرية ههنا. ثم ما معنى إعطاء الولاية لمن هو في حالة الركوع؟! إذاً، لا بد أن الآية نازلة في خصوص حالة معينة لا تتعدى إلى غيرها.

أما المحدثون فقد قال الآلوسي (تفسير روح المعاني ج6 ص186): "والآية عند معظم المحدثين أنها نزلت في علي كرم اللّه وجهه"، منها ما رواه السيوطي (الدرّ المنثور مجلد 2 ص293) الذي أخرج عدة روايات أنها نزلت في علي(ع) مروية عن ابن عباس وسلمة بن كهيل وعمار وغيرهم أن علياً(ع) تصدّق بخاتمه وهو راكع في الصلاة فسأل النبي(ص) ذلك السائل من أعطاه الخاتم فأشار إلى علي فأنزل الله هذه الآية. وأخرج مثله الطبراني في الأوسط وابن أبي حاتم وابن عساكر أيضاً

روايات مشابهة وسؤال النبي(ص) للسائل إن كان قد أعطاه أحد شيئاً فعندما أخبره بأنه أشار إلى علي وأنه أعطاه إياه وكان راكعاً كان النبي(ص) يكبّر ويتلو الآية ويتلو الآية بعدها ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُم الغالِبُون﴾ (المائدة:56).

ورويت في ذلك الأحاديث (كما في كفاية الطالب للكنجي الشافعي ص106) ومعها أبيات لحسان بن ثابت:

أبا حَسَنٍ تَفدِيكَ نَفسي ومُهجَتي ... وكُلُّ بَطيءٍ في الهُدى ومُسارِعِ
ويذهَبُ مَدحي في المُحَبَّرِ ضائعاً ... وما المدحُ في ذاتِ الإلهِ بضائعِ
وأنتَ الذي أعطَيتَ إذْ أنتَ راكعٌ ... فِداكَ نُفوسُ القَومِ يا خَيرَ راكِعِ
فأنزلَ فِيكَ اللّهُ خَيرَ وِلايةٍ ... فَأَثبَتَها في مُحكَماتِ الشَّرائعِ

(هذه الأبيات لعلها غير موجودة في ديوان حسان المطبوع اليوم، فيرفضها البعض لذلك، وكأن علياً(ع) محتاج لحسان وغير حسان، لا العكس: إنها فضيلة لحسان أن يمدح علياً(ع).)

وكما مع غيرها، أثيرت حول الآية شبهات، أجاب عنها المرحوم الشيخ محمد مرعي الأنطاكي (الذي كان مفتي المذهب الشافعي في حلب ثم تحول إلى مذهب أهل البيت) في كتابه "لماذا اخترت مذهب أهل البيت".

شبهة التعبير بالجمع

ناقش القول بأنه إذا كان المراد علياً وحده فكيف كان التعبير بالجمع بكلمة الذين آمنوا؟ (وهو إشكال يورده منكرو فضائل أهل البيت إلى اليوم) فأجاب:

أولاً: أن ذلك ورد كثيراً في كلام العرب، ومن ذلك ما ورد في القرآن الكريم: ﴿الَّذينَ قالَ لَهُم الناسُ إنَّ النّاسَ قَد جَمَعوا لَكُم فَاخْشَوهُم﴾ (آل عمران:173) مع أن المراد بالناس هو نُعيم بن مسعود الأشجعي وحده.

ثانياً: إن وصف الذين آمنوا غير شامل للجميع – يؤتون الزكاة وهم راكعون.

ثالثاً: أن أهل اللغة يعبّرون بلفظ الجمع عن الواحد لأجل التعظيم والتفخيم.

رابعاً: إذا كان المقصود هو الجميع فإنه يلزم اتحاد الولي والمتولي، وهذا لا معنى له.

خامساً: ذكر قول الزمخشري (الكشاف ص 422) بأن لفظ الجمع جيء به ليرغب الناس في مثل فعله وأن سجية المؤمنين تكون على هذه الغاية من الحرص على البرّ بحيث إذا لزّهُم أمر لا يقبل التأخير وهم في الصلاة لم يؤخّروه.

ولعله يناسب أن نذكر هنا بعض مكامن الروايات المناقضة لهذه الروايات الكثيرة التي تؤكد نزول الآية المباركة في أمير المؤمنين(ع)، كما فيما رواه الرازي (التفسير الكبير ج12 ص23) "... روى عكرمة أن هذه الآية نزلت في أبي بكر... "، ثم ذكر روايتين في تصدق علي(ع) على الفقير عن عبد اللّه بن سلام وأبي ذر. وهكذا فإن الذي صرفها من علي(ع) إلى أبي بكر هو عكرمة الخارجي الناصبي.

ثالثاً: آية المودّة

وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ لا أسأَلُكُم عَلَيهِ أَجْراً إلاّ المَوَدَّةَ في القُربى﴾ الشورى:23

اللّه تعالى يأمر نبيه(ص) أن يقول للمسلمين أنه لا يريد منهم أجراً على تبليغه القرآن، أو الدين، سوى "المودة في القربى". وهنا مباحث عديدة: لماذا استفتحت الآية بكلمة "قل"؟ ما هي "المودة"؟ من هم "القربى"؟ لماذا قال "في القربى" ولم يقل "للقربى"؟

هذه المباحث كانت من ضمن ما قرأت بتمعن بحيث توصلت إلى أن أي تفسير لها بغير المودة لأهل البيت(ع) إنما هو تكلّف أو محاولة غير محمودة لصرف الآية عن دلالتها.

أما دلالة الآية فإنه يكفي القول أنه طالما أن اللّه تعالى لم يأمر المسلمين بأداء أجر أعظم نعمة في حياتهم، وهي الإسلام، غير مودة أهل البيت(ع) فلا بد أن

لأهل البيت(ع) منزلة خاصة فريدة. فهل كانت هذه المنزلة تشريفية، كالوجاهة الاجتماعية، أو لكي يسر نبيه(ص)؟ هل أن اللّه تعالى يتعامل مع خلقه بهذا الشكل؟ لا بد أن منزلتهم تلك إنما هي لدورهم المميز في حمل الأمانة بعد النبي(ص)، وإلا تصبح المسألة وكأنها مجاملات مع النبي(ص)، واللّه تعالى لا يتعامل بالمجاملات ولا بمنطق القرابات.

لأجل صرف الآية عن دلالتها فإنهم جاءوا بأقوال عديدة في تفسيرها، نذكرها هنا ومناقشتها من بعض العلماء، وذلك باختصار شديد.

القول الأول: أخرج البخاري ومسلم والترمذي وأحمد وابن جرير وابن مردويه أن ابن عباس سئل عن معنى قوله تعالى: (إلا المودّة في القربى) فقال سعيد بن جبير: "هم قربى آل محمد، فقال ابن عباس: عجلِتَ، إن النبي(ص) لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة". أي أن الخطاب لقريش والأجر المسؤول هو مودتهم للنبي(ص) لقرابته منهم.

القول لا يستقيم لأنهم إن كانوا مكذبين وكافرين بدعوته فهم لم يأخذوا منه(ص) شيئاً فكيف يمكن أن يستحقوا أجراً؟ وأما على تقدير أنهم كانوا مؤمنين به، بمعنى المؤمن منهم أو الذي سيؤمن فيما بعد، فإنهم لا بد وأنهم يحبونه ولا يبغضونه لأن من ضروريات الدين محبة المرسل به.

القول الثاني: مثل القول الأول ولكن الخطاب للأنصار وليس لقريش. فقد قيل أن الأنصار أتوا النبي(ص) بمال ليستعين به على ما ينوبه فنزلت الآية فردّه إليهم.

وهذا فيه اتّهام الأنصار في شعورهم نحو النبي(ص)، فإن حبهم أوضح من أن يرتاب فيه ذو ريب وهم الذين سألوه أن يهاجر إليهم ويأووا له الدار وفدوه بالأنفس والأموال والبنين، وقد مدحهم الله بمثل قوله: ﴿والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ الحشر:9، وهذا مبلغ حبهم للمهاجرين إليهم لأجل النبي(ص) فما هو الظن في حبهم له؟ إذاً، لا معنى أن يؤمر النبي(ص) بالتوسل إلى مودتهم بقرابته منهم.

القول الثالث: الخطاب لقريش أيضاً، ولكن المودة المسؤولة ليست مودة قريش له بل العكس، أي مودة النبي(ص) لهم. فيكون لسان حاله(ص) على هذا التفسير: أني لا أطلب منكم جزاء لكن حبي لكم بسبب قرابتكم مني دفعني إلى أن أهديكم إليه وأدلّكم عليه.

وهو مردود بأن الأمر في الهداية إليه سبحانه وليس للنبي(ص) من الأمر شيء وأن ليس له أن يحزن بكفرهم وردّهم دعوته، وإنما عليه البلاغ فلم يكن له ليندفع إلى هداية أحد لحب قرابة أو يعرض عن هداية آخرين لبغض أو كراهة.

القول الرابع: أن المودة لقرابة المخاطبين بمعنى: لا أسألكم أجراً إلا أن تودّوا أقرباءكم.

وفيه أن مودة الأقرباء على إطلاقهم ليست مما يندب إليه في الإسلام حيث قال تعالى: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون باللّه واليوم الآخر يوادّون من حادّ اللّه ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم﴾ المجادلة:22. وسياق الآية لا يلائم كونها مخصصة أو مقيدة لقوله: ﴿إلا المودة في القربى﴾ أو إطلاقه حتى تكون المودة للأقرباء هي أجر الرسالة، بمعنى أن الآية تطلب المودة مهما كان حال القربى المعنيين، في حين أن آية سورة المجادلة تذل من يوادد الأقرباء إن لم يكونوا مؤمنين.

القول الخامس: ومعنى القربى هو التقرّب إلى الله تعالى والتودد إليه بالطاعة والتقرّب.

وهذا معنى مبهم لا يصلح مخاطبة المشركين به لأنهم ما كانوا ينكرون التقرب إليه سبحانه، بل كانوا يرون عبادتهم الآلهة تودداً إليه بالتقرب منه: ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى اللّه زلفى﴾ الزمر:3، فسؤال التودد إلى الله للتقرب إليه من غير اشتراط عبادته وحده لا يعين النبي(ص) في دعوتهم إذ سيردونها بأنهم يفعلون ذلك أصلاً.

القول السادس: وقد أورده جميع علماء الشيعة دون استثناء، والكثير من علماء أهل السنة، أن المراد بالمودة في القربى هي مودة قرابة النبي(ص) وهم عترته من أهل بيته عليهم السلام. والمعنى: لا أسألكم عليه أجراً إلاّ أن تودّوا أهل بيتي.

وهنا تجدر ملاحظة، إن كل من يقرأ القرآن الكريم يجد أن الأنبياء(ع) السابقين لم يطلبوا أجراً على تبليغ رسالاتهم، حيث كان كل منهم يقول لقومه ﴿ما أسألُكُم عَلَيهِ مِنْ أجْرٍ إنْ أجْرِيَ إلاّ عَلَى رَبِّ العالَمينِ﴾، فلماذا يطلب خاتم الأنبياء(ص) أجراً على التبليغ؟ تجيب عن ذلك آيات أخرى – والقرآن بعضه يفسر بعضاً –، فقد أمره ربه أن يقول للناس: ﴿قُلْ ما سَأَلْتُكُم مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُم إنْ أَجرِيَ إلاّ عَلى اللّه﴾ سبأ:47، وأمره أن يقول: ﴿قُلْ ما أَسأَلُكُم عَلَيهِ مِنْ أَجْرٍ إلاّ مَنْ شاءَ أنْ يَتَّخِذَ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ الفرقان:57. إذاً، طلب الأجر في آية المودّة إنما هو لمصلحة الذين يعملون بالآية، وليس للنبي(ص) الذي ضمن جزاءه من ربه الذي أرسله؛ وإذاً، طلب الأجر، وهو المودة، هو طريق مفتوح لمن يشاء أن يصل إلى اللّه تعالى من خلال عمله بآية المودة.

بعض الأحاديث في تفسير الآية

ذكر السيد شرف الدين (الكلمة الغراء في تفضيل الزهراء(ع)) بعض الأحاديث، منها ما أخرجه أحمد والطبراني والحاكم وابن أبي حاتم كما في تفسير الآية 14 من الآيات في الصواعق لابن حجر أن النبي(ص) سئل بعد أن نزلت الآية: "يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال(ص): ‹‹علي وفاطمة وابناهما››".

وهو الحديث الذي أخرجه الثعلبي والبغوي في تفسيريهما والجلال السيوطي في الدر المنثور وغيرهم.

وذكر أحاديث أخرى في هذا الشأن منها الحديث الذي أخرجه الثعلبي في تفسيره الكبير عن جرير البجلي وهو قول النبي(ص): ‹‹من مات على حب آل محمد مات شهيداً، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفوراً له، ألا ومن مات على حب آل محمد مات تائباً، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان، ألا ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة ثم منكر ونكير، ألا ومن مات على حب آل محمد يزف إلى الجنة كما تزف العروس إلى بيت زوجها، ألا ومن مات على حب آل محمد فتح له في قبره بابان إلى الجنة، ألا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة، ألا ومن مات على

حب آل محمد مات على السنة والجماعة، ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله، ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافراً، ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة›› (تفسير الكشاف ج3 هامش تفسير آية مودة القربى، والقرطبي في تفسيره ج13 ص23 بهذه الرواية وبرواية أخرى مختصرة فيها ‹‹ومن مات على بغض آل بيتي فلا نصيب له في شفاعتي››، والثعلبي في تفسيره ج5 ص157 مختصراً على قوله(ص): ‹‹من مات على حب آل محمد مات شهيداً، ومن مات على بغضهم لم يشم رائحة الجنة››).

مكانتهم(ع)

ونبّه السيد شرف الدين إلى أن هذه المنزلة السامية ثبتت لهم لأنهم خلفاء الله في أرضه وأولياؤه وحججه البالغة فصار المحب لهم محباً لله والمبغض لهم مبغضاً لله، بحيث قال الفرزدق في ميميته الشهيرة :

مِنْ مَعشَرٍ حُبُّهُمْ دِينٌ وبُغضُهُمُ كُفرٌ وقُربُهُمُ مَنجى ومُعتَصَمُ
إنَّ عُدَّ أهلُ التُّقى كانوا أئمَّتَهُمْ أوْ قِيلَ مَنْ خَيرُ أهلِ الأرضِ؟ قِيلَ هُمُ

وتتمة الآية

وذكر أيضاً ما أخرجه الطبراني (المعجم الأوسط ج2 ص336) وغيره (الحاكم في المستدرك ج3 ص172) من كلام خطبة الإمام الحسن(ع): ‹‹وإنا من أهل البيت الذين إفترض الله عز وجل مودتهم وموالاتهم فقال فيما أنزل على محمد(ص): ﴿قُلْ لا أسألُكُمْ عَلَيهِ أجراً إلاّ المَوَدَّةَ في القُربى ومَنْ يَقتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فيها حُسناً﴾ قال: واقتراف الحسنة مودتنا أهل البيت››، وهو ما يجعل تتمة الآية متممة لها بحيث أن الاستجابة لطلب النبي(ص) في مودة القربى هي الحسنة التي سيزيد الله تعالى في حسنها، بمعنى أن لها مكاناً مميزاً عن سواها من الحسنات.

وهذا ذكره صاحب الصواعق من حديث علي(ع) قال: ‹‹فينا آل حم لا يحفظ مودتنا إلا كل مؤمن، ثم قرأ: ﴿قُلْ لا أسألُكُمْ عَلَيهِ أجراً إلاّ المَوَدَّةَ في القُربى ومَنْ يَقتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فيها حُسناً إنَّ اللهَ غَفورٌ شَكور﴾.

والآية التي تليها

ثم أخرج رواية تخص الآية 24، عن ابن أبي حاتم عن ابن عباس وعن أبي حمزة الثمالي، عن ابن عباس أن النبي(ص) قرأ هذه الآية على الأنصار فقال لهم: ‹‹تَوَدُّونَ قَرابَتي مِنْ بَعدِي››، فخرجوا مسلّمين لقوله، وقال المنافقون: إن هذا لشيء افتراه في مجلسه أراد به أن يذللنا لقرابته من بعده، فنزلت ﴿أَمْ يقولُونَ افتَرى على اللهِ كَذِباً﴾. وهذه الرواية أخرجها أيضاً القرطبي في تفسيره (ج16 ص26) وتفسير الجلالين (هامش 686) وتفسير الآلوسي (ج25 ص38) وشواهد التنزيل للحسكاني ج2 ص200.

شبهة التعبير بـ "في" وليس "لـ"

ذكر السيد شرف الدين اعتراضاً للمخالفين أنهم قالوا أن لو كان الله تعالى يريد مودة القربى لقال "إلا مودة القربى"، أو "إلا المودة للقربى" (أي وليس ﴿المودة في القربى﴾)، وأجاب بأن الإضافة أي "مودة القربى" واللام أي "المودة للقربى" لا يفيدان ما أفادته من المبالغة بمودة القربى بجعلهم موضع الود والموالاة كما يعرفه أئمة البلاغة والكلام العربي. وأيّد ذلك بقول الزمخشري في تفسير الكشاف بأنهم "جعلوا مكاناً للمودة مقرّاً لها كقول القائل: لي في آل فلان مودة، ولي فيهم هوى وحب شديد، تريد أحبهم وهم مكان حبي ومحله....

شبهة مكية السورة

وذكر (رحمه الله) اعتراضاً آخر، وهو أن الآية في سورة الشورى مكية والحسنان ولدا في المدينة فلا يمكن إرادتهما منها. وأجاب على ذلك أن الآية وما بعدها إلى آخر ثلاث آيات مدنية قطعاً بحكم الأخبار عن أهل البيت كما ورد في الأحاديث التي ذكرها. من ذلك ما ذكره الواحدي في أسباب النزول في القول الثاني الذي ذكرناه – وذكرنا رده – آنفاً من أن الآية تعني الأنصار.

وذكر رواية الكشاف أن "الأنصار فاخروا بعض بني هاشم فعاتبهم النبي(ص) بذلك، فجثوا على الركب وقالوا: أموالنا وما في أيدينا لله ولرسوله، فنزلت الآية فقرأها عليهم".

على أنه لا مانع من تناول الآية للحسنين(ع) قبل ولادتهما لأن المودة فيها غير مقصودة على من كان من القربى موجوداً حين نزولها بل هي ثابتة فيهم وهم على الإطلاق مكانها.

ثم نبّه إلى أن النبي(ص) يجوز أن يكون قوله ‹‹هم علي وفاطمة وأبناؤهما›› متأخراً عن نزولها أو أنه خبّر عن الله عز وجل بالغيب فيكون من أعلام النبوة. ثم ضرب الأمثال لذلك بإخباره عن خلفائه الإثني عشر وعن يوم الجمل وكلاب الحوأب والفئة الباغية التي تقتل عمار بن ياسر والناكثين والقاسطين والمارقين وغير ذلك.

الأمر الآخر أن تفسير القربى بعلي وفاطمة وأبنائهما هو الذي ذهبت إليه جماهير أهل السنة، وحسبك قول إمام الخلف منهم والسلف محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله:

يا أهلَ بَيتِ رَسُولِ اللهِ حُبُّكُمُ ... فَرضٌ مِنَ اللهِ فِي القُرآنِ أنزَلَهُ
كَفاكُمُ مِنْ عَظيمِ القَدرِ أَنَّكُمُ ... مَنْ لَمْ يُصَلِّ عَليكُمْ لا صَلاةَ لَهُ

وقول القطب الصوفي إبن عربي:

رأيتُ وِلائي آلَ طهَ فَريضَةً ... على رَغمِ أهلِ البُعدِ يُورِثُنِي القُربى
فما طَلَبَ المَبعُوثُ أجراً على الهُدى ... بتَبلِيغِهِ إلاّ المَوَدَّةَ فِي القُربى

رابعاً: آية المباهلة

وهي قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللّهِ عَلَى الْكَـاذِبِينَ﴾ آل عمران:61.

الآية المباركة في سياق الكلام عن حقيقة المسيح(ع) التي كان النبي(ص) في خضم بحثها مع وفد من نصارى نجران (جنوب غرب الجزيرة العربية)، والتي أكد اللّه تعالى فيها أن المسيح(ع) عبد مخلوق للّه وأن خلقه من أم فقط وليس من أم وأب لا يعني

ألوهيته، ثم يضع لذلك البحث نهاية قاطعة بأن يأمر نبيه(ص) أن يدعو الوفد المسيحي إلى المباهلة، أي الملاعنة، وذلك بأسلوب معين، وبالوقوف في مجموعة معينة من الأبناء والنساء والأنفس. يجمع المفسرون دون استثناء على نزول الآية في علي وفاطمة وابنيهما(ع). من ذلك ما ذكره الزمخشري (الكشاف ج1 ص482) أن وفد نصارى نجران جاءوا وتحدثوا مع النبي(ص) ماذا يقول في عيسى(ع) وبعد أن أوضح لهم العقيدة الحقة فيه، ثم نزلت الآية تأمر النبي(ص) بأن يتوقف عن المحاججة فيه وأنهم إذا أرادوا الإستمرار في ذلك يدعوهم إلى المباهلة، فضرب لهم موعداً وجاء وهو محتضن الحسين وآخذا بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعلي خلفها وهو يقول: ‹‹إذا أنا دعوت فأمّنوا››، فعندما رآهم الأسقف وهو رئيس وفد النصارى قال: "يا معشر النصارى إني أرى وجوهاً لو شاء الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة!" فقالوا: "يا أبا القاسم رأينا أن لا نباهلك وأن نقرّك على دينك ونثبت على ديننا"، قال: ‹‹فإذا أبيتم المباهلة فاسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم›› فأبَوا ولكنهم انتهوا في الأخير إلى المصالحة والسلم بين الطرفين، إلى آخر الرواية.

هذه من الآيات التي لا يعرفها أهل السنة، أعني عوامهم، حيث يعتم علماؤهم عن هذه الآية وغيرها كي لا ينفتحوا على الحقيقة. وإلا، فإن النبي(ص) بفعله على أرض الواقع يفسر الأبناء بأنهم الحسن والحسين(ع) والنساء بأنها الزهراء(ع) وبالأنفس أنه علي(ع)، ما يرفع هؤلاء الأربعة إلى أعلى منزلة ممكنة. فإن قيل أنه(ص) أتى بالحسنين(ع) لأنه لم يكن عنده ولد (كون ولديه من خديجة(ع) توفيا رضيعين في مكة وولده إبراهيم(ع) من مارية توفي صغيراً)، فماذا يقولون عن الإتيان بفاطمة(ع) وليس بإحدى بناته الأخريات (أو ربيباته كما يذهب البعض) أو بإحدى نسائه، ولا سيما من يضعها أهل السنة في أعلى منزلة؟

وبعيداً عن كل هذا، ما معنى أن يأتي بعلي(ع)؟ بل ما معنى أن تأمر الآية بالإتيان بالأنفس؟ المتوقع أن يأمر المولى سبحانه نبيه(ص) بشيء مثل "نأتي نحن وأنتم"، لا "ندعو أنفسنا وأنفسكم"، إذ ما معنى أن يدعو شخص نفسه؟ بل لا يوجد هناك حاجة لهذا لأن النبي(ص) هو بلا شك من سيقود هذا الطرف فتكون

دعوة الأبناء والنساء مفهومة أن اللّه يأمر بأن يضم الطرف المباهل هذا هؤلاء الأبناء والنساء. إذاً، ليس أمر اللّه تعالى في هذه الآية المباركة بالقول ﴿وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ﴾ إلا لإظهار المنزلة الكبرى لابن عمه علي بن أبي طالب(ع)، تلك المنزلة التي لا منزلة فوقها وهي نفس النبي(ص) خير البشر أجمعين. ولا شك في أنه لا علي(ع) ولا غيره يمكن له أن يصل إلى منزلة النبي(ص)، لا بمعنى الاتحاد بين شخصين، ولا بمعنى المساواة في الفضل، فإن النبي(ص) لا يوازيه أحد في فضل، ولكنها تقول للناس جميعاً بأن هذا العبد الصالح وصل عند اللّه تعالى منزلة عبر عنها بهذا التعبير بحيث كأنه وصل الغاية في الكمال الإنساني الذي وصله النبي(ص).

وقد وجدت بعد ذلك أن النبي(ص) أكد هذه الحقيقة عندما أرسل رسالة إلى قوم يسمون بني وُليعة يهددهم بأنه سيرسل إليهم من هو كنفسه، وبعدها أرسل علياً(ع) فعلاً لتأديبهم.

ولأني أعتبر هذه الآية أعظم فضيلة لعلي(ع) – كونها تجعله نفس النبي(ص) – فإني أحب أن أذكر ههنا بعض الروايات التي تذكر كيف أن النبي(ص) أكد هذا المعنى في الآية، كما هي عادته(ص) في التنبيه إلى مكانة أخيه وابن عمه ووزيره(ع).

منها ما رواه الحاكم في المستدرك ج2 ص120 من حديث عبد الرحمن بن عوف بعد فتح مكة ومحاصرة الطائف أن النبي(ص) قال: «أيها الناس إني لكم فرط وإني أوصيكم بعترتي خيراً، موعدكم الحوض، والذي نفسي بيده لتقيمن الصلاة ولتؤتن الزكاة أو لأبعثن عليكم رجلاً مني – أو كنفسي – فليضربن أعناق مقاتليهم وليسبيّن ذراريهم». ذكره ابن حجر في ص75 من الصواعق والهيثمي في المجمع ج9 ص134 وغيرهم.

واستخدم النبي(ص) نفس اللفظة بقوله في قضية بني المصطلق: «لتنتهنّ أو لأبعثنّ إليكم رجلاً هو عندي كنفسي يقاتل مقاتلكم ويسبي ذراريكم» ثم ضرب بيده على كتف علي(ع). ذكره الزمخشري في تفسير الكشاف في تفسير قوله تعالى: ﴿يا أيُّها الَّذينَ آَمنوا إنْ جاءَكُم فاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ (الحجرات:6).

واستخدمها النبي(ص) في بني وُليعة كما أخرجه النسائي في خصائصه ص19 والهيثمي في المجمع ج7 ص110 بسند عن جابر بن عبد اللّه الأنصاري، ورواية أُبيّ

أن النبي(ص) قال: "«لينتهينّ بنو وُليعة أو لأبعثن عليهم رجلاً كنفسي ينفذ فيهم أمري فيقتل المقاتلة ويسبي الذرية» فما راعني إلا وكف عمر في حجزتي من خلفي، وقال: من يعني؟ قلت: إياك يعني وصاحبك! قال: فمن يعني؟ قلت: خاصف النعل، قال: وعلي(ع) يخصف النعل..." (ويبدو أن أُبيّ بن كعب احتمل أن عمر ربما داعبه الأمل أن يكون هو أو أبا بكر من يعنيهم النبي(ص)، أو ربما يريد أن يصدق أو لا يصدق المراد الذي فهمه ولا شك، فقال له "إياك يعني وصاحبك" على نحو الاستهزاء، بحيث أن عمر عرف أنه يستهزئ فسأله ثانية عن مراد النبي(ص).)

ماذا نستفيد من آية المباهلة؟

وكعادته في الإحاطة بالموضوع من جميع جوانبه، فإن السيد شرف الدين نبّه في كتابه (الكلمة الغراء) إلى بعض الأمور المهمة، وهي على سبيل الاختصار كالآتي:

أولاً: أن النبي(ص) "لم يدع للمباهلة لا أمهات المؤمنين ولا صفية بنت عبد المطلب وهي عمته ولا أم هاني بنت أبي طالب ولا غيرهن من الهاشميات ولا واحدة من نساء الخلفاء الثلاثة أو غيرهم من المهاجرين والأنصار. كما لم يدع أحداً من أبناء الهاشميين ولا واحداً من أبناء الصحابة، على كثرتهم ووفور فضلهم، مع سيدي شباب أهل الجنة. ومن الأنفس لم يدع مع علي(ع) لا عمه العباس ابن عبد المطلب ولا أحداً آخر من عشيرته الأقربين أو من السابقين الأولين رضوان الله تعالى عليهم".

ثانياً: أن "مباهلته(ص) بهؤلاء الأربعة علي وفاطمة والحسنين(ع) والتماسه التأمين على دعائه بمجرده فضل عظيم بانتخابهم لهذه المهمة العظيمة".

ثالثاً: نبه إلى نقطة "يعرفها علماء البلاغة والراسخون في العلم العارفون بأسرار القرآن وهي أن الآية الكريمة ظاهرة في عموم الأبناء والنساء والأنفس وإنما أطلقت هذه العموميات عليهم بالخصوص تبياناً لكونهم ممثلي الإسلام وإعلاناً لكونهم أكمل الأنام وبأنهم صفوة العالم وخيرة الخلق من بني آدم وتنبيهاً إلى أن روحانيتهم الإسلامية وإخلاصهم لله في العبودية ما ليس في أحد من الناس، فصارت دعوته المباهلة بهم مغنية عن سواهم".

رابعاً: ما دلّت عليه الآية "من فضيلة لعلي(ع) تضمحل دونها الخصائص وتفنى الفضائل والمناقب ألا وهي كونه نفس النبي(ص) وهو الفضل الذي تعنو له الجبال خضوعاً وإجلالاً وتتصاغر دونه الهمم يأساً من بلوغ مداه ...".

آيات أخرى

هناك آيات من القرآن الكريم نزلت في أهل البيت(ع)، أو تجري عليهم كمصداق، يحتج بها الشيعة على إثبات مذهبهم، نذكر بعضها بشكل سريع جداً.

1- **ولكل قوم هاد**، ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَومٍ هادٍ﴾ الرعد:7.

في مستدرك الحاكم ج3 ص129 قال علي(ع): ‹‹قال رسول اللّه(ص) هو المنذر وأنا الهادي››. وأخرجه صاحب كنز العمال ج1 ص251، والهيثمي في المجمع ج7 ص41.

والقول الثالث من الأقوال التي ذكرها الفخر الرازي في تفسير هذه الآية : "قال إبن عباس: وضع رسول الله(ص) يده على صدره فقال: ‹‹أنا المنذر›› ثم أومأ إلى منكب علي(ع) وقال: ‹‹أنت الهادي، بك يهتدي المهتدون من بعدي››.

وذكر مثله السيوطي في الدرّ المنثور وابن جرير في التفسير ج13 ص72 وكنز العمال ج6 ص157.

وهي واضحة أن النبي(ص) يوكل مهمة الهداية بعد وفاته إلى علي(ع)، لكيلا يتوهم أن أداة الحصر "إنما" جعلت للنبوة مهمة النذارة فقط، بل للتأكيد على أن استخدام أداة الحصر مع استحالة كون مهمة النبي(ص) للنذارة فحسب هو للتأكيد على ما أراده القرآن من التنبيه إلى دور علي(ع)، دور الهداية بعد النبي(ص).

2- **ويتلوه شاهد منه**، ﴿أَفَمَنْ كانَ على بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتلُوهُ شاهِدٌ مِنْه﴾ هود:17.

ذكر السيوطي في الدر المنثور رواية عن علي(ع) حيث سأله رجل: "ما نزل فيك من القرآن؟" قال: ‹‹أما تقرأ سورة هود ﴿أَفَمَنْ كانَ على بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتلُوهُ شاهِدٌ مِنْه﴾؟ رسول اللّه(ص) على بيّنة من ربه وأنا شاهد منه››.

وأيضاً في كنز العمال ج1 ص251. وأيضاً الوجه الثالث من وجوه التفسير التي ذكرها الفخر الرازي في التفسير الكبير أن المراد من الشاهد هو علي بن أبي طالب(ع)، أي هذا الشاهد من محمد(ص) وبعض منه، والمراد منه تشريف هذا الشاهد بأنه بعض من محمد(ص).

3- **وكونوا مع الصادقين**، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ التوبة:119.

ذكر السيوطي في الدر المنثور قول ابن عباس: "مع علي بن أبي طالب(ع)". وذكرها ابن حجر في الصواعق المحرقة من ضمن آيات أهل البيت(ع)، وهو يتحدث عن الإمام الرابع علي بن الحسين زين العابدين(ع).

من يقرأ الآية يجد فيها نصيحة عامة أن يكون المؤمن مع الصادقين، ولكن من يدقق فيها يجد أمرين: الأول هو أن الأمر فيه بعض الصعوبة التي تناسبها النصيحة ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي أن الأمر ليس بهذه السهولة أن يكون الإنسان مع الصادقين كما هو يتوقع كتصرف عاقل من أي مؤمن؛ الثاني هو أن الآية لا يمكن القطع بأنها تعني أي صادقين في جماعة المؤمنين، بل يمكن جداً أن تعني جماعة مشخصة منهم وصلوا إلى درجة من الصدق – في النية والعمل والتعامل – ما يجعلهم لائقين بوصف "الصادقين"، دون شروط لا في وصفهم بالصادقين ولا في وجوب أن يكون المؤمنون معهم.

4- **بين يدي نجواكم صدقة**، ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَينَ يَدَي نَجواكُم صَدَقَةً ذلِكَ خَيرٌ لَكُم وَأَطهَرُ فإنْ لَمْ تَجِدوا فإنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . أَأَشفَقْتُم أَنْ تُقَدِّمُوا بَينَ يَدَي نَجْواكُم صَدَقاتٍ فَإذْ لَمْ تَفعَلُوا وَتابَ اللّهُ عَلَيكُم فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَأَطِيعُوا اللّهَ وَرَسُولَهُ وَاللّهُ خَبِيرٌ بِما تَعمَلُون﴾ المجادلة:12-13.

رويت روايات عديدة أن علياً(ع) هو الوحيد من بين الصحابة الذي عمل بهذه الآية حتى نسخت. ففي سنن الترمذي ج2 ص227 في أبواب تفسير القرآن روى رواية عن علي(ع) أنه لما نزلت الآية سأله النبي(ص): «ترى ديناراً؟ قلت: لا

يطيقونه! قال: فنصف دينار؟ قلت: لا يطيقونه، قال: فكم؟ قلت: شُعيرة، قال: إنك لزهيد! قال فنزلت: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ قال علي: فَبي خفّف اللّه عن هذه الأمة››.

ورواه أيضاً إبن جرير في تفسيرة ج28 ص15، والمنقي الهندي في كنز العمال ج1 ص268، والنسائي في خصائصه ص39. وفسّر الفخر الرازي في التفسير الكبير قول النبي(ص): ‹‹لعلي أنك لزهيد›› "أنك قليل المال فقدّرت على حسب حالك".هذا من جانب أما من جانب آخر فإن ما بين نزول الآيتين كان علي هو الوحيد الذي عمل بالآية الأولى في التصدق عندما يريد أن يتكلم مع النبي(ص) لأمر ما، كما أورد ابن جرير ج28 ص14 من تفسيره رواية عن مجاهد قال: قال علي(ع): ‹‹إن في كتاب اللّه عز وجل لآية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي›› ثم تلا الآية قال: ‹‹فُرضت ثم نُسخت››.

وذكرها الزمخشري في تفسير الكشاف وقال في آخر حديث علي(ع): ‹‹كان لي دينار فصرفته فكنتُ إذا ناجيته تصدقتُ بدرهم››.

وذكره الواحدي في ص308 من أسباب النزول بأنه استمر على هذا الحال حتى نفذ الدينار فنُسخت الآية بقوله: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾.

وأكّد ابن عمر هذا في رواية ذكرها الزمخشري في الكشاف يذكر فيها ثلاثاً لعلي هي: تزويجه فاطمة(ع) وإعطاؤه الراية يوم خيبر وآية النجوى.

أقول: بغض النظر عما تملكني من العجب من حال المسلمين وامتناعهم القاطع عن التصدق ولو بشيء يسير من أجل سؤال النبي(ص) أو طلب مقابلته ولو للنظر إلى وجهه الكريم، فإن الواضح هو تميز علي(ع) بشكل صارخ يجلب النظر حقاً لكل من يريد معرفة الفارق الهائل بينه(ع) وغيره، بلا ذم لأحد ولكن هذا هو الحال، وهو حال قصه القرآن الكريم في آيات تتلى وستظل تتلى، حتى بعد نسخها، لتعلن الموقف المتفرد لهذا الإمام المتفرد في كل شيء، سلام اللّه عليه.

5- **الصلاة على النبي(ص)** ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ الأحزاب:56.

وهي آية عظيمة بين النبي(ص) كيفيتها عندما سئل عن كيفية الصلاة لأنهم قالوا أنهم يعرفون السلام (فهماً منهم أن المفعول المطلق "تسليماً" تعني المعنى اللفظي المباشر للسلام؛ وإن كان البعض أعطى التسليم بمعنى التسليم لأمره ونهيه)، فقال(ص): ‹‹قولوا: اللّهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد››.

نصّ على أن هذه الآية توضّح أن تمام الصلاة على النبي(ص) هي في الصلاة عليه وعلى آله: الإمام الشافعي في مسنده ج2 ص97، وإبن حجر في الصواعق ص144، والقرطبي في ج14 ص233 من تفسيره الجامع لأحكام القرآن، وإبن العربي المالكي في كتاب أحكام القرآن ج1 ص184، والبخاري في صحيحه ج6 ص12، والواحدي في أسباب النزول ص271، والحاكم في المستدرك ج3 ص148، والفخر الرازي في تفسيره ج25 ص226، وتفسير النيسابوري ج22 ص30، وتفسير روح المعاني للألوسي ج22 ص72، وإبن كثير في تفسيره ج3 ص506، وتفسير الطبري ج22 ص27، وغير هؤلاء ممن أثبت التصلية على أهل البيت كجزء لا يتجزأ من التصلية على النبي(ص).

وقال الرازي في تفسيره ج7 ص391 أن "الدعاء للآل منصب عظيم ولذلك جُعل هذا الدعاء خاتمة التشهد في الصلاة... وهذا التعظيم لم يوجد في حق غير الآل، وكل ذلك يدل على أن حب آل محمد واجب..."

أقول: إن الصلاة على النبي(ص) التي أمر بها الناس لا تدل على وجوب محبته فقط فإنه لا دليل على حصر المعنى بهذا. بل يمكن القول بأن الأمر بالصلاة على النبي(ص) إنما هو لجميع المعاني التي للنبي(ص)، كقائد ومبلغ وهاد وإمام وغيرها، بحيث يطلب لها هذه العناية الإلهية، ولما قرن النبي(ص) آله(ع) معه فقد قرنهم في جميع ذلك مما يليق بهم بعده(ص). وهكذا فهي كما علق عليها الأنطاكي (لماذا اخترت مذهب أهل البيت): "وصفوة القول ثبتت خلافة علي(ع) بعد رسول الله(ص) من هذه الآية الكريمة إذ قرنه الله تعالى مع رسوله في ذكر الصلاة عليه كما تقدم. فعليه لا يجوز تقدم أحد عليه كما لا يجوز تقدم أحد على رسول الله(ص).."

الفصل السادس
الحديث الشريف

مقدمة

أحاديث أساسية

أولاً – حديث الثقلين

ثانياً – حديث الإثني عشر خليفة

ثالثاً – حديث المنزلة

رابعاً – حديثا علي(ع) والحق والقرآن

خامساً – حديث يوم الدار

أحاديث أخرى

الحب والبغض . المؤاخاة . الولاية . سدّ الأبواب . النجوى . قاتل علي(ع) هو أشقى الناس . السفينة . الحسنان(ع) سيدا شباب أهل الجنة . الحسنان(ع) سبطان من الأسباط . في حب الحسن(ع) وفي أن النبي(ص) منه . في حب الحسين(ع) وفي أن النبي(ص) منه . المهدي من أهل البيت(ع) ومن ولد فاطمة(ع)

أحاديث متنوعة

«إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»

رسول الله(ص)

يأتي الحديث الشريف بعد القرآن الكريم مصدراً ثانياً للنص الديني عند المسلمين، سواء فيما يتعلق بالأصول، أي العقائد، أو الفروع، أي التشريعات، أو النظام الأخلاقي. هناك من الأحاديث ما هو بيان للآيات القرآنية، ومن الأحاديث ما يأتي لتبيان حقائق دينية لم تنطق بها الآيات القرآنية صراحة (على أساس أن القرآن فيه كل شيء) أو لم تنطق بها مطلقاً وترك للنبي(ص) تبيانها إذ قال: ‹‹أوتيت القرآن ومثله معه››.

من الأحاديث ما يعرف بأحاديث الفضائل، وهي لفظة فيها شيء من الخداع، لأن الكثير من أحاديث فضائل أهل البيت(ع) إنتهى من أوردها في كتبهم إلى أنها تظهر فضلهم وعظيم منزلتهم، أو وجوب حبهم، أو غير ذلك من تعبيرات تتوقف عن الدلالة في أن كل هذا الفضل والمنزلة والحب الواجب يدل على وجوب الاتباع، على الأساس الثابت أن اللّه تعالى لا يحابي أحداً، وعلى أساس أن القرآن الكريم كتاب هداية، وأن النبي(ص) هو المبين للكتاب، وبالتالي لا مجال للكلام الأدبي أو المدائحي دون هدف هو في العمق من الدين. أعني أن ما يسمى بأحاديث الفضائل بخصوص أهل البيت(ع) هي في الحقيقة أحاديث أصول الدين وفروعه وأخلاقياته، لا تنفك عن ذلك مطلقاً.

ولكن إذا كان تعامل بعض المفسرين والعلماء مع آيات الكتاب العزيز على الشاكلة التي ذكرنا بعضها، من الفشل في تبيان الدلالة، فكيف بتعاملهم مع الحديث الشريف الذي هو أدنى رتبة من آيات الكتاب؟

أدناه سآتي على ذكر بعض الأحاديث الشريفة التي وردت عن المصطفى(ص) في حق أهل بيته(ع) مما له العلاقة المباشرة بموضوع دور أهل البيت(ع) في الإسلام، ذلك الدور الذي انفتحت عليه بهداية اللّه تعالى وتوفيقه. وسأبين بشكل سريع دلالات الأحاديث كما فهمها العلماء وكما فهمتها (وسأترك الكثير إلى مؤلفات أخرى).

(يرجى مراجعة الملحق للمزيد من مصادر الأحاديث.)

وبما أن لكتابي البخاري ومسلم، صحيح البخاري وصحيح مسلم، أهمية مميزة عند المسلمين السنة فإن الأحاديث التي أخرجها محمد بن اسماعيل البخاري

في صحيحه ومسلم النيسابوري في صحيحه تكتسب أهمية أكثر من غيرها مما يعد من الصحاح (صحيح الترمذي وسنن أبي داود وسنن النسائي وسنن ابن ماجة) حتى وإن كانت أحاديثها قد أخرجها أصحابها على شروط الحديث الصحيح، وبالتأكيد أكثر من غيرها من أحاديث أخرجت في كتب حديثية أخرى (مثل سنن البيهقي وسنن الدارمي ومستدرك الحاكم ومسند الإمام أحمد بن حنبل وغيرها). هذا مع ملاحظة توفقت لمعرفتها منذ السنين الأولى في رحلتي هذه وهي أن هذا التقسيم لكتب الحديث ليس تقسيماً عليه الإجماع منذ حين تأليفها ولحد الآن، وإنما جرى عليها ما جرى على غيرها من الأمور، مثلاً مذاهب أهل السنة وكيف صارت مقتصرة على أربعة في الوقت الذي كان هناك أئمة فقه في منزلة أئمة المذاهب الأربعة المعروفين الآن بل ربما كانوا أعلى منهم شأناً وفقاهة ولكن لم يحالفهم الحظ في دنيا المذاهب إما لتقصير من جانب طلابهم في نشر آرائهم وفتاواهم أو لعدم اختيار السلطان لمذاهبهم لسبب أو آخر أو ربما لعوامل أخرى. فقد اتهمت أحاديث البخاري ومسلم – والحق كل الحق للمتهمين لأن هناك أحاديث مخالفة بشكل واضح للقرآن الكريم وأخرى مخالفة لبديهيات العقل والعلم أو السنة القطعية، بإن البخاري نفسه اعترف بعدم تمامية أحاديثه، قال: "رُبَّ حديث سمعته بالبصرة كتبته بالشام، ورب حديث سمعته بالشام كتبته بمصر، فقيل له: يا أبا عبدالله بكماله – أي كتبته تاماً كاملاً –؟ فسكت" (فتح الباري ج2 ص11) –، في نفس الوقت الذي وصفت بعض الكتب الأخرى بأوصاف الصحيحين في المرجعية الحديثية – كما وصف الإمام أحمد بن حنبل مسنده بقوله: "عملت هذا الكتاب إماماً إذا اختلف الناس في سنة عن رسول الله رُجع إليه" (أضواء على السنة المحمدية ص324) – مع أنها تعد أقل رتبة بكثير من الصحيحين.

كما توصلت إلى ملاحظة أخرى مهمة لها علاقة مباشرة بموضوعنا، مفادها أن الأحاديث التي تخص أهل البيت(ع) – وكلها فضل وعلم ومواقف كبيرة – تتعرض لما لا يتعرض له غيرها من أحاديث، خصوصاً التي التي تتعلق بمعاصريهم من المنافسين والمناوئين والمخالفين والأعداء، في شكل كتمان وتعتيم، فإن ذكرت فإلى بتر وتقطيع (بعبارة أخرى، عملية مونتاج!)، فإن ذكرت كلها فإلى تحوير وتحريف، فإن

ذكرت كلها دون تحريف فإلى اتهام بالوضع والاختلاق، فإن ذكرت دون ذلك كله فإلى صرف عن المعنى والدلالة، وبعد هذا كله تتعرض الأحاديث إلى تناس وتجاهل في الخطب والمقالات والمواعظ وجميع أشكال التواصل مع الأمة. وبهذا، فإن الحديث – أي حديث – يخرجه البخاري أو مسلم يصبح له الأهمية العظمى، فعندما يأتي الدور إلى حديث في علي(ع) أو أهل البيت(ع) في كتاب البخاري أو مسلم فإن الجهود تنصب على محاولة صرفه عن معناه والتقليل من شأنه. وأما الأحاديث الخاصة بعلي وآل علي(ع) في غير الصحيحين فإن التعامل معها يتم على أساس الاستماع السلبي ثم المطالبة بأحاديث بديلة من البخاري أو مسلم! فإن رجعت وأتيت بالأحاديث من البخاري ومسلم، عاد اللف والدوران إلى أن تصل إلى نقطة تتم المطالبة فيها بآيات من القرآن الكريم، فإن جئت بالآيات بدأ اللف والدوران حول تفسيرها ودلالاتها، فإن حاولت الإتيان بالتفسير من كتب المفسرين وفيها الأحاديث النبوية التي تؤكد نزولها في أهل البيت(ع) ودلالاتها الهامة رجعنا إلى المطالبة بأحاديث البخاري ومسلم، وهكذا دورة جديدة – البيضة من الدجاجة أم الدجاجة من البيضة؟!

صحيح أن المحدثين كانوا لا يتعاملون مع الأحاديث المتعلقة بالتشريعات كتعاملهم مع أحاديث الفضائل، قالوا: "إذا روينا في الحلال والحرام شدّدنا وإذا روينا في الفضائل ونحوها تساهلنا" (أضواء على السنة المحمدية)، ولكن لماذا يتم الالتفات إلى هذه الحقيقة عندما ينظر في فضائل أهل البيت(ع) في حين يكون التساهل على أشده عندما ينظر في أحاديث فضائل غيرهم؟!

عسى أن لا يقع القارئ فريسة هذه الطريقة البعيدة عن التفكير العلمي، دع عنك النية الصادقة في معرفة الحقيقة.

أحاديث أساسية

أولاً ـ حديث الثِّقلَين. وهو قول النبي(ص): «أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به – فحث على كتاب الله ورغب فيه – ثم قال:

وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي›› صحيح مسلم رواية 4425.

وورد الحديث بألفاظ مختلفة كقوله(ص): ‹‹يا أيها الناس إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي›› صحيح الترمذي رواية 3718، والنسائي ص96 رواية 79، ومسند أحمد الروايات 10681 و 10707 و 10779 و 11135 و 20596، وذلك بألفاظ مختلفة قليلاً، وسنن الدارمي رواية 3182، وغيرهم.

ومنها قوله(ص): ‹‹إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي: أحدهما أعظم من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما›› أخرجه الترمذي عن زيد بن أرقم رواية 3720، والمتقي الهندي في كنز العمال ج1 ص172 حديث 872 و 873.

ومنها قوله(ص): ‹‹إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وأهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض›› أخرجه الحاكم في المستدرك ج3 ص148 وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين أي البخاري ومسلم".

وقوله(ص): ‹‹إني أوشك أن أدعى فأجيب، وإني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله عز وجل وعترتي؛ كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما›› رواه أحمد في مسنده ج3 ص17-26، وابن أبي شيبة في المصنف ج7 ص418، وغيرهما.

وقد روى مسلم هذا الحديث الحاسم في روايات أربع، قال في إحداها أن النبي(ص) قال الحديث في "غدير خُم" (أنظر حديث الغدير في الفصل 8)، وهذه هي الرواية التي ذكرناها أعلاه، نذكرها الآن بتمامها.

ففي باب فضائل الصحابة باب فضل علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: حدثني زهير بن حرب وشجاع بن مخلد. جميعا عن ابن علية. قال زهير: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم. حدثني أبو حيان. حدثني يزيد بن حيان. قال: "انطلقت أنا

وحصين بن سبرة وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم، فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيت، يا زيد خيراً كثيراً، رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسمعت حديثه، وغزوت معه، وصليت خلفه، لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً. حدثنا، يا زيد! ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: يا ابن أخي! والله لقد كبرت سني، وقدم عهدي، ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما حدثتكم فاقبلوا، وما لا، فلا تكلفونيه. ثم قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فينا خطيباً، بماء يدعى خماً، بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكر، ثم قال: «أما بعد، ألا أيها الناس! فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به» فحث على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال: «وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي». فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟! أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده. قال: وهم؟ قال: هم آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس. قال: كل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم."

وأخرج مسلم الحديث في رواية ثانية عن محمد بن بكار بن الريان، حدثنا حسان (يعني ابن إبراهيم) عن سعيد بن مسروق، عن يزيد بن حيان، عن زيد بن أرقم، عن النبي صلى الله عليه وسلم، وساق الحديث بنحوه، بمعنى حديث زهير.

وأخرج الحديث في رواية ثالثة عن أبي بكر بن أبي شيبة، حدثنا محمد بن فضيل، وحدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا جرير، كلاهما عن أبي حيان، بهذا الإسناد، نحو حديث إسماعيل، وزاد في حديث جرير «كتاب الله فيه الهدى والنور، من استمسك به وأخذ به كان على الهدى، ومن أخطأه ضل».

وأخرج مسلم الحديث في رواية رابعة عن بن بكار بن الريان. حدثنا حسان (يعني ابن إبراهيم) عن سعيد (وهو ابن مسروق) ، عن يزيد بن حيان، عن زيد بن أرقم. قال: "دخلنا عليه فقلنا له: قد رأيت خيراً، لقد صاحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وصليت خلفه" وساق الحديث بنحو حديث أبي حيان، غير أنه قال: «ألا وإني تارك فيكم ثقلين: أحدهما كتاب الله عز وجل، هو حبل الله، من

اتبعه كان على الهدى، ومن تركه كان على ضلالة››. وفيه: "فقلنا: من أهل بيته؟ نساؤه؟ قال: لا، وأيم الله! إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر، ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها – أهل بيته أصله، وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده".

ويبدو أن النبي(ص) ذكر الثقلين في خطبته في غدير خم (يوم 18 ذي الحجة بعد عودته من حجة الوداع سنة 10هـ) مع إعلانه ولاية علي(ع) في قوله المشهور ‹‹مَنْ كُنتُ مَولاهُ فَعَلِيٌّ مَولاه››. فقد روى الحاكم (المستدرك ج3 ص109 و ص133) أن النبي(ص) قاله عندما نزل غدير خم بعد رجوعه من حجة الوداع قال: ‹‹كأني دعيت فأجبت، إني قد تركت فيكم الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله تعالى وعترتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض›› ثم قال: ‹‹إن الله عز وجل مولاي وأنا مولى كل مؤمن›› ثم أخذ بيد علي(ع) فقال: ‹‹من كنت مولاه فهذا وليّه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه...››، قال الحاكم: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين". وأيضاً عن عبد الله عن حنطب قال: "خطبنا رسول الله بالجحفة فقال: ‹‹ألست أولى بكم من أنفسكم؟›› قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ‹‹فإني سائلكم عن إثنين: القرآن وعترتي››.

وأخرجه الطبراني (مجمع الهيثمي ج5 ص195) والسيوطي في إحياء الميت (وغيرهما كابن الأثير في أسد الغابة ج3 ص147، وابن كثير في البداية والنهاية ج7 ص386).

إن حديث الثقلين، الذي رواه ما يقرب من عشرين صحابياً أعده شخصياً أهم الأحاديث التي ترسم دور أهل البيت(ع) بشكل متكامل. فلو قرأنا الحديث مرة واحدة، ولو بشكل بسيط، فإننا نجد أن النبي(ص) أعلن للأمة حقيقة الأئمة من أهل بيته ودورهم ومسؤولية الأمة تجاههم والموقف الذي سيكون منه(ص) في هذا الشأن.

- أترك في الأمة مما يتركه المسافر، في سفري الذي لا عودة معه، الأمرين التاليين...

- كتاب الله الذي فيه الهدى إلى الحق والنور من الظلمات، آمركم أن تعملوا به ولا تحيدوا عن أوامره ونواهيه بما هو التمسك الحقيقي

- وأهل بيتي، من تعرفونهم بينكم علي وفاطمة والحسن والحسين

- أطلب منكم أشد ما يكون الطلب أن تضعوا الله نصب أعينكم في تعاملكم معهم

والآن كيف التعامل معهم؟ تجيب عليه الروايات الأخرى...

«ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض»، «وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»، «فإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض»...

ماذا يعني أنهما "لن يتفرقا" أو "لن يفترقا"، وماذا يعني استمرار ذلك حتى يوم القيامة "حتى يردا علي الحوض"؟ هل أنهما لا يتفرقا فيزيائياً، أي مادّياً؟ لم يقل أحد بهذا لأنه لا معنى لأن يبقى أهل البيت(ع) مع القرآن في التصاق مادي حتى بعد وفاة كل منهم وإلى ما بعد البعث والنشور. إذاً، لن يتفرقا بمعنى أن أهل البيت(ع) لن يكونوا بعيدين عن القرآن مطلقاً، وهذا يعني أنهم لن يحيدوا عن القرآن قيد أنملة. أي أن عملهم بالقرآن الكريم سيكون تاماً كاملاً. فمن يقوى على ذلك غير المعصوم الذي لا يمكن أن يرتكب الخطأ ولا الخطيئة، وذلك لعصمته من الذنب ﴿يذهب عنكم الرجس ويطهركم تطهيراً﴾ ولعلمه بكل ما يحتاجه في وظيفة إمامته ﴿ولكل قوم هاد﴾.

هل يمكن لأي إنسان له أدنى معرفة باللغة أن يفهم من هذا الحديث، بصيغه المختلفة، شيئاً آخر؟ هل هناك مجال لفهم آخر غير هذا؟ وإذا كان هذا الحديث قد أخرجه مسلم في صحيحه، وأخرجه أصحاب الصحاح والأسانيد من المحدثين، ورواه المفسرون، وذلك عما يقرب من عشرين صحابياً، ناهيك عن التابعين الذين رووه عنهم، فهل يبقى هناك عذر لأي أحد أن لا يضع هؤلاء الصفوة من آل محمد(ص) في موقعهم المتميز عن غيرهم من الناس، كما هو تميز كتاب الله تعالى؟

وإذا كان التمسك بكتاب الله من الأمور البديهية عند المسلمين فإن حديث الثقلين يجعل التمسك بأهل البيت(ع) بديهياً أيضاً. ولكن النبي(ص) لم يترك ذلك للف والدوران، لذا جاءت الأحاديث بألفاظ "التمسك" كأمر واضح من النبي(ص). ففي حديث المستدرك (ج3 ص109) يقول(ص): «أيها الناس اني تارك فيكم أمرين لن تضلوا إن اتبعتموهما وهما كتاب الله وأهل بيتي عترتي»، فالأمن من الضلال هو في "اتباعهما" لا القرآن وحده. ومثل ذلك ما رواه السيوطي الشافعي (الدر المنثور ج2 ص6)، رواية عن طبقات ابن سعد ومسند احمد بن حنبل ومعجم الطبراني، أن النبي(ص) قال: «أيها الناس إني تارك فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدي، أمرين

احدهما أكبر من الآخر، كتاب الله، حبل ممدود ما بين السماء والارض، وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض».

والمسألة ليست متروكة للناس، وإنما هو أمر واضح، بلحاظ:

أولاً: الحث على التمسك بكتاب الله، وبالتالي التمسك بمن جعلهم عدلاً للكتاب

ثانياً: قوله «أنظروا كيف تخلفوني فيهم» أو «فإني سائلكم عن إثنين...»، فإنه يقول للأمة إنه سيطلع على كيفية تعاملهم مع الثقلين، وسيسألهم عنه يوم القيامة.

ثانياً – حديث الإثني عشر خليفة، وهو قول النبي(ص): «يكون بعدي إثنا عشر أميراً» أو «لا يزال هذا الدين عزيزاً إلى اثني عشر خليفة».

مما يلفت نظر كل باحث في موضوع الإمامة، ولاسيما فيما يعرضه شيعة أهل البيت(ع) من حجج يبنون عليها موقفهم العقدي من الإمامة، هو هذا العدد: 12. فإن حديث النبي(ص)، الذي رواه المحدثون في كتبهم بألفاظ مختلفة، ينص على:

إثني عشر شخصاً يكونون بعده، أمراء أو خلفاء أو قيّمين، وفي بعضها توصيف لحال الدين في ظل هؤلاء الأمراء أو الخلفاء «لا يزال هذا الدين عزيزاً» أو «الإسلام لا يزال عزيزاً» أو «لا يزال الإسلام عزيزاً منيعاً» أو «لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة»؛

وفي بعضها الآخر توصيف لحال الأمة في ظل هؤلاء الإثني عشر «لا يزال أمر الناس ماضياً» أو «لا يزال أمر أمتي صالحاً»؛

وفي هذه الأحاديث حصر لانتماء هؤلاء الإثني عشر إلى قريش، وبعضها في بني هاشم؛

وفي بعضها الإشارة إلى خذلان الناس للإثني عشر «لا يضرّهم من خذلهم»؛

وأنهم في الحصيلة النهائية منتصرون «ينصرون على من ناواهم».

وقبل أن نمر على أجزاء الحديث هذه أذكر بعض الروايات.

عدد الإثني عشر

1 -قال جابر بن سمرة: سمعت النبي(ص) يقول: ‹‹يكون اثنا عشر أميراً››، فقال كلمة لم أسمعها، فقال أبي: إنه قال: ‹‹كلهم من قريش›› (صحيح البخاري ج4 ص175).

2 -جابر بن سمرة: سمعت النبي(ص) يقول: ‹‹لا يزال أمر الناس ماضياً ما وليهم إثنا عشر رجلاً››، ثم تكلم النبي(ص) بكلمة خفيت عليّ، فسألت أبي ماذا قال رسول الله(ص)؟ قال: ‹‹كلهم من قريش›› (صحيح مسلم ج2 ص191).

3 -جابر بن سمرة: سمعت رسول الله(ص) يقول: ‹‹لا يزال هذا الدين عزيزاً إلى اثني عشر خليفة››، فكبّر الناس وضجّوا، ثم قال كلمة خفيت، قلت لأبي: يا أبه ما قال؟ قال: ‹‹كلهم من قريش›› (سنن أبي داود ج2 ص107).

4 -جابر بن سمرة: قال رسول الله(ص): ‹‹يكون بعدي اثنا عشر أميراً››، ثم تكلم بشيء لم أفهمه، فسألت الذي يليني، فقال: ‹‹قال كلهم من قريش›› (الترمذي ج2 ص45).

5 -قال(ص): ‹‹لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً إلى اثني عشر خليفة، كلهم من قريش››، قيل: ثم يكون ماذا؟ فقال(ص): ‹‹ثم يكون الهرج›› (أخرجه الأربعة إلا النسائي).

6 -قال سماك بن حرب: سمعت جابر بن سمرة يقول: سمعت رسول الله(ص) يقول: ‹‹ألا إن الإسلام لا يزال عزيزاً إلى اثني عشر خليفة"، ثم قال كلمة لم أفهمها، فقلت لأبي: ما قال؟ قال: ‹‹كلهم من قريش›› (صحيح أبي داود ج2 ص180).

فمن هم هؤلاء الإثنا عشر؟

الروايات أعلاه حددت العدد بإثني عشر، ولكنها لم تشخصهم. إلا أن هناك روايات تحدد هؤلاء بأنهم علي(ع) وأولاده. على أن هذه الروايات تعد ضعيفة عند أهل السنة فلا يعتد بها في البحث، ولكني أذكرها هنا لأن هؤلاء الإثني عشر الذين تحددهم يتوافقون بالضبط مع الإثني عشر الذين يستنتجون من روايات العدد أعلاه.

نذكر هنا ما أورده الشيخ سليمان القندوزي، وهو شيخ حنفي ولكن البعض لا يعتبره حجة على أهل السنة لأنه متصوف (وأن التصوف فرع التشيع حسبما

يقولون!)، ولكني أذكر الروايات من كتابه "ينابيع المودّة" وتعليقه عليها، لسببين: الأول هو أنها روايات مروية وبالتالي تليق بالبحث الروائي كأي روايات غيرها (فإن الروايات التي "فقأ" فيها موسى(ع) عين ملك الموت أو التي فيها ينام النبي(ص) في "حِجْر" زوجة عبادة بن الصامت (رض) وهي "تفلّي رأسه من القمل" ليست أولى بالبحث من غيرها لكونها في صحيح البخاري)، والسبب الثاني لأنها مروية في كتاب ألفه صاحبه (القندوزي) – فيما يبدو – كإعلان لتسليمه بآية المودة فسماه "ينابيع المودة".

(1) أخرج القندوزي الحنفي في ينابيع المودة (ج2 ص315 رواية 910) عن ابن عباس قال: "سمعت رسول الله(ص) يقول: ‹‹أنا وعلي والحسن والحسين وتسعة من ولد الحسين مطهرون معصومون››".

(2) حديث آخر (ج2 ص315 رواية 909) عن سلمان قال: "دخلت على النبي(ص) فإذا الحسين على فخذيه وهو يقبّل خديه ويلثم فاه ويقول: ‹‹أنت سيد إبن سيد أخو سيد، أنت إمام إبن إمام أخو إمام، أنت حجة إبن حجة أخو حجة أبو حجج تسعة تاسعهم قائمهم المهدي››.

(3) وحديث ثالث (باب 95 من المناقب) عن جابر بن عبد الله الأنصاري أن النبي(ص) قال: ‹‹يا جابر إن أوصيائي وأئمة المسلمين من بعدي أولهم علي ثم الحسن ثم الحسين ثم علي بن الحسين ثم محمد بن علي المعروف بالباقر، ستدركه يا جابر فإذا لقيته فأقرءه مني السلام، ثم جعفر بن محمد ثم موسى بن محمد ثم علي بن موسى ثم محمد بن علي ثم علي بن محمد ثم الحسن بن علي ثم القائم، إسمه إسمي وكنيته كنيتي إبن الحسن بن علي...››

قال القندوزي (ينابيع المودة ص446): "قال بعض المحققين: إن الأحاديث الدالة على كون الخلفاء بعده(ص) اثني عشر قد اشتهرت من طرق كثيرة، فبشرح الزمان، وتعريف المكان، علم أن مراد رسول الله(ص) من حديثه هذا الأئمة الإثنا عشر من أهل بيته وعترته، إذا لا يمكن أن يحمل هذا الحديث على الخلفاء من بعده من أصحابه لقلتهم عن اثني عشر، ولا يمكن أن يحمله على الملوك الأموية لزيادتهم على اثني عشر، ولظلمهم الفاحش إلا عمر بن عبد العزيز، ولكونهم غير بني هاشم في رواية

عبد الملك عن جابر، وإخفاء صوته(ص) في هذا القول يرجح هذه الرواية، لأنهم لا يحسنون خلافة بني هاشم. ولا يمكن أن يحمله على الملوك العباسية لزيادتهم على العدد المذكور، ولقلة رعايتهم الآية ﴿قُلْ لا أسأَلُكُم عَلَيهِ أجْراً إلاّ المَوَدَّةَ في القُربى﴾ وحديث الكساء. فلا بد من أن يحمل هذا الحديث على الأئمة الاثني عشر من أهل بيته وعترته(ص)، لأنهم كانوا أعلم أهل زمانهم، وأجلّهم، وأورعهم، وأتقاهم، وأعلاهم نسباً، وأفضلهم حسباً وأكرمهم عند الله. وكان علمهم عن آبائهم متصلاً بجدهم(ص)، وبالوراثة، واللدنية، كذا عرفهم أهل العلم والتحقيق، وأهل الكشف والتوفيق. ويؤيد هذا المعنى، أي أن مراد النبي(ص) الأئمة الإثني عشر من أهل بيته، ويشهد له ويرجحه، حديث الثقلين والأحاديث المتكررة المذكورة في هذا الكتاب وغيرها...ومما يؤكد إمامتهم عليهم السلام تتبع الحكام لهم في العهد الأموي والعباسي، مع عدم تصديهم لطلب الحكم والرئاسة، كل ذلك لما عرفه المسلمون لهم من الإمامة، لنص الرسول الأعظم(ص) عليهم. ومما هو جدير بالذكر: أن الإمام الحسن العسكري(ع) استشهد وهو في الثامنة والعشرين من عمره الشريف، فكان الطلب الحثيث من الدولة في التفتيش عن ولده، حتى أنهم حبسوا بعض جواريه خوفاً من أن يكون لدى بعضهن حمل، كل ذلك لما علموه من أن الأئمة اثنا عشر وأن آخرهم قائمهم، وإلا ما معنى الطلب الشديد على طفل في الخامسة من عمره، وما مقدار أثره على الدولة".

أقول: وجدت هذا الحديث في غاية الأهمية في أي بحث في الإمامة، فمن المعروف الصراعات والنزاعات والكوارث التي حصلت في الأمة جراء أمر الإمامة والخلافة والمُلك، فعندما ينص النبي(ص) على إثني عشر خليفة أو أميراً أو قيّماً من بعده فلا بد من النظر في شأن هؤلاء، أولاً لأن النبي(ص) لا يقول ذلك عبثاً فإنه ﴿وَما يَنطِقُ عَنِ الهَوى . إنْ هُوَ إلاّ وَحيٌ يُوحى﴾ (النجم:3-4)، وإنما أراد التنبيه إلى هؤلاء، ولاسيما وهو يحدد أوصافاً لحالهم مع الأمة وحال الأمة معهم، بل وحال الدين في ظلهم، وثانياً لأن إشارة النبي(ص) إلى أنهم منصورون لا يضرهم من خذلهم يجعل المرء يفتش في المعنى وفي الواجب تجاهه.

إن ما أشار إليه الشيخ سليمان القندوزي يقطع الشك في أن هؤلاء الإثني عشر لا يمكن أن يكونوا من الأمويين ولا من العباسيين (ونحن نضيف ولا ممن جاء

بعدهم من العثمانيين الذين هم ليسوا من قريش أصلاً). كما أن عدم إيمان أي طائفة من طوائف المسلمين بإثني عشر إماماً عدا طائفة الشيعة الإثني عشرية (وإسمها من هذا العدد قيد البحث) لا يجعل هناك مجالاً للخلاف فيمن هم هؤلاء. لأنه إن كان الإثنا عشر الذين تؤمن بهم الشيعة الإثني عشرية ليسوا أولئك الإثني عشر في أحاديث النبي(ص) فأين صار أولئك الإثني عشر الذين أشار النبي(ص) إليهم، وفي إشارات تحدد معالم واضحة لهم؟

ويلفت القندوزي النظر إلى نقطة في غاية الأهمية، وهي تتبّع ملوك بني أمية والعباس لهؤلاء الإثني عشر، أي محاصرتهم ومراقبتهم وسجنهم واضطهادهم، مع أنهم(ع) لم يطلبوا الملك. فهل يعقل أن ملوك الأمويين والعباسيين يفعلون كل تلك الأفاعيل المعرضة لعذاب الله تعالى لمجرد أوهام في أذهان الشيعة؟! لا بد أن أولئك الملوك كانوا يعلمون علم اليقين دور أهل البيت(ع) والخطر الدائم من التفاف الناس حولهم وهم يرون الفارق الهائل بينهم وبين الملوك الأمويين والعباسيين، فكانت الملاحقة والاضطهاد والتصفية الجسدية.

النقطة الهامة الأخرى في حديث النبي(ص) هي التي تعطي وصفاً لحال الدين وحال الأمة في ظل هؤلاء الإثني عشر. فإن الدين أو الإسلام يبقى "عزيزاً أو منيعاً أو قائماً"، وهذا غير مشاهد على المستوى الخارجي لأن الجمود والتخلف هو الصفة الغالبة منذ قرون. فلا بد أن يكون المعنى في عزة الإسلام ومنعته هو في حقيقة الإسلام والدين الذي يمثله هؤلاء الإثنا عشر، بمعنى أن عزة الدين ومنعته هي مما أعطته مدرسة هؤلاء الإثني عشر إماماً بحيث لا يخشى على الدين والإسلام شيء على الرغم من كثرة الأعداء وضعف الأمة.

نفس الشيء في وصف حال الأمة "صالحاً أو ماضياً" في ظل هؤلاء الإثني عشر، فالمعنى هو: إن الأمة إذا ما اتبعت هؤلاء الإثني عشر فإن أمرها سيكون صالحاً أو ماضياً.

أما الواجب تجاهه: هل التفرج على تعامل الأمة مع هؤلاء الخلفاء على أساس أنه صراع على السلطة، أم الاصطفاف معهم، أم مع أعدائهم؟ إنه(ص) قال: «لا يضرهم من خذلهم» و «ينصرون على من ناواهم»، فهل هم الحكام المسيطرون على السلطة؟

قلنا أن تحديد عدد الخلفاء أو الأمراء بإثني عشر لا ينطبق إلا على أئمة أهل البيت(ع)، وأن أي مراجعة سريعة خاطفة للتاريخ تثبت بشكل قاطع أن هؤلاء الإثني عشر خليفة من أهل البيت(ع) خذلهم معظم الأمة، وأنهم ناواهم الحكام والولاة وبعض العلماء وكثير من الناس، ولكن – في نفس الوقت – كانوا يزدادون ارتفاعاً واشتهاراً، دون أن "يضرهم من خذلهم"، وكان الأمر ينتهي بهم إلى حسن الذكر والحب الخالد عند الناس مثلما ينتهي بمن ناواهم إلى سوء الذكر لمن ناواهم عند الناس، من باحثين ومؤرخين وشعراء وعلماء وعوام، وهذا هو النصر الحقيقي.

وبالتالي فإن الحديث هو: سيكون الدين عزيزاً منيعاً وأمر الأمة ماضياً بوجود الإثني عشر من أهل بيتي، حتى وإن ناوأهم حكام زمانهم وخذلهم الذين ساروا في خطهم.

ثالثاً - حديث المنزلة، وهو قول النبي(ص) لعلي: ‹‹ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟››، وفي بعض الروايات إضافة ‹‹... إلا أنه لا نبي بعدي››.

وهو الحديث الذي قاله النبي(ص) عندما خرج(ص) إلى غزوة تبوك فاستخلف علياً(ع) في المدينة، فاشتكى في ذلك للنبي(ص) فأجابه بهذا الجواب. كما وردت روايات تقول أن هذا الحديث الشريف كان في مناسبات أخرى أيضاً غير غزوة تبوك.

وفيها رواية أخرى أن البعض انتهزها فرصة للطعن في علي(ع) بأن قالوا: "إنما خلّفه لشيء كرهه منه"، فذهب علي(ع) وذكر ذلك للنبي(ص) فتضاحك وقال: ‹‹يا علي أما ترضى أن تكون مني كهارون من موسى إلا أنك لست بنبي؟›› قال: ‹‹بلى يا رسول الله››، قال: ‹‹فإنه كذلك››. (فتح الباري ج7 ص60، وطبقات ابن سعد ج3 ص24، وتاريخ دمشق لابن عساكر ج42 ص186، وأنساب الأشراف للبلاذري ص96).

وذكر الأنطاكي ص163 قول الأميني في الغدير ج3 ص199: "قوله ‹‹أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى›› هو إثبات كل ما للنبي(ص) من رتبة وعمل ومقام ونهضة وحكم وإمارة وسيادة لأمير المؤمنين عدا ما أخرجه الاستثناء من النبوة، كما كان هارون(ع) من موسى(ع) كذلك، فهو خلافة عنه(ص) وإنزال

لعلي(ع) منزلة نفسه لا محض استعمال كما يظن الظانون، فقد استعمل(ص) قبل هذا على البلاد أناساً وعلى المدينة آخرين وأمّر على السرايا رجالاً لم يقل في أحد منهم ما قاله في هذا الموقف، فهي منقبة تخص أمير المؤمنين فحسب."

وفي مناسبات أخرى غير غزوة تبوك

منها روايات نصّ فيها النبي على هذه المنزلة عند المؤاخاة بين المهاجرين وذلك في مكة قبل الهجرة وأيضاً في المؤاخاة الثانية بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة بخمسة أشهر، وفي كلتا المرتين يؤاخي بين نفسه الزكية وعلي(ع) ويقول فيها: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»، على ما روي في مناقب الإمام علي في مسند أحمد الحديث 5972 وإبن عساكر في تاريخه ج13 ص150 و ج18 ص138 وغيرهم (صحيح مسلم ج7 ص120، وسنن ابن ماجة ج1 ص45 رواية 121، وسنن الترمذي ج5 ص303 رواية 3813 و3814، وفضائل الصحابة للنسائي ص13 وغيرهم).

العجب من الفارق بين المنزلة وواقع الحال

أما مسلم فإن الحديث رواه في صحيحه عن عامر بن سعد بن أبي وقاص (ج7 ص120)، وفيه يقول سعيد بن المسيب الذي حدثه عامر بهذا الحديث: "فأحببت أن أشافه بها سعداً، فلقيت سعداً فحدثته بما حدثني عامر، فقال: أنا سمعته، قلت: أنت سمعته؟! فوضع إصبعيه على أذنيه فقال: نعم وإلا استكتا!" وهو واضح في أن سعيداً يعجب لمنزلة علي(ع) من النبي(ص) كما أخبر النبي(ص) عنها بالمقارنة مع ما جرى بعد ذلك.

رابعاً – حديثا علي(ع) والحق والقرآن، وهو قول النبي(ص): «اللهم أدر الحق معه حيث دار»؛ وقول النبي(ص): «علي مع الحق والحق مع علي».

علي مع الحق والحق مع علي

روى الترمذي ص298 أن النبي(ص) قال: «رحم الله علياً، اللهم أدر الحق معه حيث دار».

أجمع المسلمون أن دعاء النبي(ص) مستجاب قطعاً، وبالتالي فإن دعاءه(ص) بأن يكون الحق مع علي(ع) دائماً يعني أن الحق سيكون مع علي(ع) في حركاته وسكناته ومواقفه وقراراته.

أما رواية الخطيب البغدادي فقد روى في ج14 ص321 من تاريخه عن أبي ثابت مولى أبي ذر دخوله على أم سلمة وأنه رآها تبكي وتذكر علياً(ع) وذكر حديث النبي(ص): ‹‹علي مع الحق والحق مع علي، ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض يوم القيامة››، فإنها ليست بصيغة الدعاء وإنما بصيغة وصف علي(ع) وعلاقته مع الحق، ويستفاد منها أمور:

- أن علياً(ع) مع الحق في مواقفه فلا يتخذ موقفاً إلا صحيحاً إلى الدرجة الكاملة.

- أن الحق مع علي(ع)، بحيث أن الحق نفسه يُعرَف من مواقف علي(ع). أي ليس فقط أن علياً(ع) لا يخطئ بل يعتبر علي(ع) المعيار لمعرفة الحق بحيث إذا أردنا معرفة الحق في أمر ما فعلينا أن نبحث في مواقف علي(ع) من ذلك الأمر.

- أن هذه العلاقة المتكاملة بين علي(ع) والحق لا نهاية لها مطلقاً لأنهما لن يفترقا حتى يردا على النبي(ص) الحوض وذلك في يوم القيامة.

وذكر الهيثمي في المجمع في ج7 ص235 وص243 وفي ج9 ص134 أحاديث مشابهة لهذا.

<u>علي مع القرآن والقرآن مع علي</u>

أما حديث أن علياً مع القرآن والقرآن مع علي فقد روى الحاكم في المستدرك ج3 ص124 عن أبي ثابت مولى أبي ذر أنه كان مع علي(ع) يوم الجمل فلما رأى عائشة واقفة حصل له بعض الشك في الأمر فكشف اللّه عنه ذلك عند صلاة الظهر فقاتل مع علي(ع)، ثم بعد ذلك ذهب إلى المدينة فجاء إلى أم سلمة أم المؤمنين وقص عليها قصته فسألته: "أين كنت حين طارت القلوب مطائرها؟" فأجاب: "إلى حيث كشف اللّه عني ذلك عند زوال الشمس"، قالت: "أحسنت، سمعتُ رسول الله(ص) يقول: ‹‹علي مع القرآن والقرآن مع علي لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض››".

وقد رواه صاحب كنز العمال ج6 ص153 وغيره. وروى مثله الهيثمي في ج9 ص134 من المجمع، وابن حجر في الصواعق المحرقة ص75.

وهذا الحديث يعضد الحديث الأول، لأن القرآن الكريم هو حق محض، فإذا كان علي(ع) مع القرآن فإن النتيجة أن علياً(ع) لا يتخذ موقفاً ولا يتحرك حركة إلا متوافقة مع القرآن الكريم. كما أن قوله «والقرآن مع علي» يستفاد منه أننا إذا أردنا معرفة القرآن، في العقائد والأحكام والأخلاق، فما علينا سوى أن نبحث في سيرة علي(ع) وحديثه وفعله لأنها ستكون المعبر الصادق صدقاً كاملاً عن القرآن الكريم.

خامساً – حديث يوم الدار، يوم قال النبي(ص): «هذا عليّ أخي ووزيري ووصيي وخليفتي من بعدي».

هذه الرواية في تاريخ الطبري ج2 ص216 تنتهي في سندها إلى عبد الله بن الحارث عن ابن عباس عن علي(ع) يحدث فيها أنه عندما نزلت الآية 214 من سورة الشعراء (﴿وأنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقرَبين﴾) دعاه النبي(ص) وأخبره بذلك وأنه يتوقع أن يسمع منهم ما يكره وأمره بأن يحضر لهم طعاماً ويجمع له بني عبد المطلب حتى يبلغهم ما أمر به، ففعل علي ودعاهم وهم حوالي الأربعين رجلاً فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب، ثم أكلوا من الطعام من اللحم وشربوا من العسل وذلك بعد أن رأوا بركة النبي(ص) في الطعام والشراب بحيث أنهم أكلوا وشربوا وشبعوا وكأنه الطعام الذي يكفي أعداداً غفيرة، ولكن قبل أن يتكلم النبي(ص) بادر أبو لهب فقال: "لقد سحركم صاحبكم!" فتفرقوا ولم يتمكن النبي(ص) من التحدث معهم؛ ويقول علي(ع) بأنه(ص) أمره أن يصنع نفس الشيء في اليوم الثاني فعندما اجتمعوا وأكلوا وشربوا قال لهم النبي(ص): «يا بني عبد المطلب إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتكم به – إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصي وخليفتي فيكم؟» قال علي(ع): «فأحجم القوم عنها جميعاً، وقلتُ – وإني لأحدثهم سنّاً وأرمصهم عيناً وأعظمهم بطناً وأحمشهم ساقاً – أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه، فأخذ برقبتي ثم قال: إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم إسمعوا له وأطيعوا. فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب قد أمرك أن تسمع لإبنك وتطيع».

غير الطبري روي هذا الحديث في مصادر عديدة مثل: تاريخ أبو الفدا ج1 ص116، وتفسير علاء البغدادي ص390، والسيوطي في جمع الجوامع ج6 ص392 نقلاً عن الطبري، وأيضاً ذكره السيوطي في ص397 عن أبي إسحق وإبن جرير وإبن أبي حاتم وابن مردويه وأبي نُعيم والبيهقي، والإسكافي المعتزلي في كتابه نقض العثمانية كما ذكره شارح نهج البلاغة في ج3 ص263.

وذكر الأنطاكي رواية أخرى مشابهة بألفاظ مختلفة أخرجها أحمد في مسنده ج1 ص159 والطبري في ج1 ص217 من تاريخه، والنسائي في الخصائص ص18، وغير هؤلاء.

فائدة:

أقول: قول أبي طالب "لن يألو ابن عمه خيراً" تصريح بأن أبا طالب يؤمن بنبوة النبي(ص) وإلا ما كانت مؤازرة علي(ع) له ستكون خيراً. فإن قيل: هو يتكلم عن النصرة العشائرية كونه ابن عمه، أقول: ولكن النبي(ص) لم يعد بجزاء دنيوي وإنما قال: ‹‹وله الجنة›› وبالتالي فإن القضية خارجة عن العصبة والعشيرة والقربى. إن هذا الموقف من أبي طالب بن عبد المطلب كان من المواقف التي تثير الحيرة في النفس قبل الاطلاع على موقفه كاملاً من خلال شعره بالخصوص، لأنه يتعارض تماماً مع الاعتقاد بكفره ورفضه اتباع ابن أخيه(ص)، ولكن تبين الحق بعد ذلك والحمد للّه رب العالمين (راجع كتابنا القادم "من ثمرات العودة" بخصوص أبي طالب).

من دلالات الحديث

- أن علياً(ع) تم تعيينه خليفة للنبي(ص) منذ أول الدعوة.

- أن علياً(ع) تم تعيينه خليفة للنبي(ص) وهو لما يزل في العاشرة من عمره، وفي أهل النبي(ص) وأصحابه الرجال والكهول والشيوخ، فكيف كان ذلك منه(ص)؟ لو لم يكن هذا بأمر الله، من خلال هذا الموقف العلوي المتميز، لكان يعد استهزاءً بالحضور، وهو الأمر الذي حصل بالفعل من بعضهم إذ صاروا يضحكون من أبي طالب.

- أن هناك شيئاً اسمه الوصية، شخص وصي النبي(ص)، وهذا الشخص هو علي(ع)، وهو شيء لم أكن قد سمعت به أسوة بأهل السنة.

تُرى كيف يتم إخفاء هذا الحديث عن المسلمين السنة وهو يتعلق بآية قرآنية محكمة نزلت في أول الدعوة؟ وكيف يتم إخفاء شيء اسمه "الوصية" من القاموس؟ إن هذا من كتمان الحق بأجلى – أو قل بأبشع – صوره.

❖ **حديث يوم الغدير**، وبيعة الغدير، أفرد له فصلاً خاصاً، هو الفصل الثامن، لاعتبارات متعددة، منها أنه كان فصل الختام في سلسلة الآيات والأحاديث النبوية المتعلقة بإعلان دور علي(ع) وأولاده(ع) في الإسلام، إضافة إلى نقاشات مهمة تتعلق بآيات قرآنية وأحاديث شريفة وتاريخ النبي(ص).

أحاديث أخرى

1 - **حديث الحب والبغض**، وهو قول النبي(ص) لعلي: ‹‹لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق›› مسند أحمد ج2 ص102 وغيره.

وروي الحديث حكاية عن النبي(ص) وذلك برواية علي(ع) نفسه: ‹‹والذي فلق الحبة وبرأ النسمة أنه لعهد النبي الأمي إليّ أنه لا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق›› صحيح مسلم كتاب الإيمان باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي(ع) من الإيمان (حديث 113).

وقد ذكر أحاديث حب علي من الإيمان وبغضه من النفاق الترمذي في صحيحه ج2 ص301، والنسائي في صحيحه ج2 ص271 وفي الخصائص ص27، وابن ماجة في سننه ص12، وأحمد في مسنده ج1 ص84 وغيرها، والحاكم في المستدرك ج3 ص129.

وقد ذُكر هذا المعنى في تفسير قوله تعالى في سورة الفتح: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ والَّذِينَ مَعَهُ أشِدّاءُ عَلى الكُفّار... يُعجِبُ الزُّرّاعَ لِيَغِيظَ بِهِم الكُفّار﴾ (الفتح:29) عن ابن عباس: "أنا كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله(ص) ببغضهم علي بن طالب". ومثله في الدر المنثور للسيوطي في تفسير قوله تعالى: ﴿إنَّ الَّذِينَ إرتَدُّوا عَلى أدبارِهِم﴾ (محمد25:). وكذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَتَعرِفَنَّهُم في لَحِنِ القَولِ﴾ (محمد:30).

أقول: صلوات اللّه وسلامه على نبيه وصفيه محمد(ص) الذي ما ترك الأمة إلا بعد أن استفرغ الوسع في تأمينها من الضلال وذلك باتخاذه وسائل عديدة، منها وضعه هذه المعايير الهامة في معرفة الحق، والتي منها هذا المعيار: لا يحب علياً(ع) إلا مؤمن ولا يبغضه(ع) إلا منافق. إذاً، فانظر في السيرة النبوية، ثم انظر في سيرة المسلمين بعدها، ثم انظر في مواقف العلماء والمحدثين والفقهاء وغيرهم، لتتبين من منهم وقف الموقف الذي لا يمكن أن يكون إلا حباً بعلي(ع) ومن منهم كان على موقف البغض لعلي(ع)، ومنها يحصل العلم بهؤلاء وهؤلاء، فتتواءم مع إيمان المحبين، وتتجنب نفاق المبغضين، حتى إذا قيل عنه هو العلم وهو السيرة وهو وهو.

2 - **حديث المؤاخاة**، وهو قول النبي(ص): «أنتَ أخِي في الدنيا والآخرة».

وهو حديث الترمذي ج2 ص299 الذي يقول أن النبي(ص) آخى بين أصحابه فجاء علي(ع) تدمع عيناه فقال للنبي(ص): «يا رسول الله آخيت بين أصحابك ولم تؤاخ بيني وبين أحد»، فقال له رسول الله(ص): «أنت أخي في الدنيا والآخرة».

ورواه الحاكم (ج3 ص14) كإخبار للناس، قال(ص): «علي أخي في الدنيا والآخرة».

المؤاخاة المتفردة

تثبت الروايات أن النبي(ص) أجرى عملية المؤاخاة مرتين، مرة في مكة قبل الهجرة بين المهاجرين وبعضهم، ومرة في المدينة بين المهاجرين والأنصار، وذلك لتأكيد اللحمة الإسلامية كي تحل محل اللحمة العشائرية، وأنه(ص) في مكة آخى بين نفسه الزكية(ص) وعلي(ع)، وفعل نفس الشيء في المدينة مع أن المؤاخاة في المدينة كانت لتأكيد اللحمة وتقوية الأواصر بين المهاجرين والأنصار فآخى(ص) بين مهاجر وأنصاري، ولم يكن المستثنى من هذا إلا علياً(ع) حيث آخاه مع نفسه الزكية(ص). أخرج ذلك ابن سعد في ج3 القسم الأول ص13 من الطبقات، والسيوطي في الدر المنثور في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾ (الأنفال:72)، فآخى النبي(ص) بين حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة، وبين عمر

بن الخطاب ومعاذ بن عفراء، وبين الزبير ابن العوام وعبد اللّه بن مسعود، وبين أبي بكر وطلحة بن عبيد اللّه، وبين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، وقال لسائر أصحابه: ‹‹تآخوا، وهذا أخي›› مشيراً إلى علي(ع).

وهكذا يستمر التفرد العلوي حتى في هذه العملية التي لا يبدو منها تعيين في منصب أو إعلان لمؤهلات معينة، وإنما فقط لتقوية اللحمة، وبالتالي كان المتوقع أن يؤاخي بين علي(ع) وأحد الأنصار، فلماذا يستثني علياً(ع) من القاعدة؟ إذاً، أن اللّه تعالى – من خلال فعل نبيه(ص) – يقول للمسلمين، يومها والآن وحتى قيام الساعة، أن علياً(ع) استثناء، فلا تضعوه في سلة واحدة مع غيره، دع عنك دفعه إلى الخلف رابعاً.

3 - **حديث الولاية**، وهو قول النبي(ص): ‹‹عليّ وليكم من بعدي››.

روي الحديث في مصادر مختلفة منها سنن الترمذي ج 2 ص297، ومسند أحمد ج 4 ص437 و ج 5 ص356، وخصائص النسائي ص24، ومجمع الهيثمي ج 9 ص128، ومسند أبي داوود ج11 ص360، وأسد الغابة لابن الأثير ج5 ص94 وغيرها، إضافة إلى أبي حاتم وابن أبي شيبة والطبراني وابن الجوزي من المحدثين والمؤرخين.

فإذا كان علي(ع) هو ولي المسلمين بعد النبي(ص) إذاً فهو وليّهم جميعاً دون استثناء، فيكون ولياً لأبي بكر وعمر وعثمان الذين تقدموه، فيصبح من غير المقبول أن يكون الولي الأولى بالتصرف في شؤونهم خاضعاً لتصرفهم هم في خلافتهم.

وهذه الولاية ليست في الأحاديث فحسب وإنما نطق بها القرآن الكريم بأوضح ما يكون كما في آية الولاية ﴿إنَّما وَلِيُّكُم اللهُ ورَسولُهُ والَّذِينَ آمَنوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ ويُؤتُونَ الزَّكاةَ وهُم راكِعُون﴾ (المائدة:55) حيث ذكرنا أن المفسرين أجمعوا على أنها نزلت في علي(ع) وتصدقه بالخاتم أثناء الصلاة في حال الركوع (راجعه في الفصل السابق). فكلمة "وليّ" هنا في الآية الكريمة لجميع المسلمين مثل خطاب النبي(ص) ‹‹هو وليّكم بعدي››، أنها تعني الولاية العامة بعد النبي(ص) مباشرة لأنها ولاية على جميع المسلمين دون استثناء.

كنت أتساءل وأنا أقرأ مثل هذه الأحاديث: إذا كان الكتمان مبرراً في سالف الزمان، أيام خلافة أبي بكر وعمر وعثمان، ثم أيام خلافة الأمويين والعباسيين، فهل هناك مبرر لاستمرار هذا الكتمان، وكيف سيجيب العلماء رب العزة يوم يسألهم عن هذه الأحاديث النبوية المبينة للآيات القرآنية، النازلة من السماء ليس كأعمال أدبية وإنما لتأسيس قواعد الدين ومرجعيات الإسلام؟ كيف تهمل هذه الأحاديث في كتب الصحاح وغيرها من الكتب المعتبرة في الأمور الأساسية للدين بينما يتمسكون بحديث واحد حول بناء القبور أو حول ما هي خير القرون ويبنون عليها أحكاماً فقهية ثم يذهبون بها بعيداً لتكفير المسلمين والمخالفين لهم؟

4 - **حديث سدّ الأبواب**، وهو أمر النبي(ص) بسدّ الأبواب المشرعة على المسجد النبوي إلا باب علي(ع).

قد روى ذلك الترمذي في صحيحه ج2 ص301، والسيوطي في تفسير قوله تعالى: ﴿وما يَنطِقُ عَنِ الهَوى﴾ (النجم:3)، والتي فيها أن الأصحاب الذين أمر بسدّ أبوابهم شقّ عليهم ذلك ومنهم حمزة بن عبد المطلب، وأن رجلاً يقول: "ما يألو يرفع ابن عمه"، فسمع النبي(ص) بذلك فدعي "الصلاة جامعة" ثم صعد المنبر وخطب خطبة بليغة، ثم قال: «يا أيها الناس ما أنا سددتها ولا أنا فتحتها ولا أنا أخرجتكم وأسكنته» ثم تلا الآية القرآنية ﴿والنَّجْمِ إذا هَوى . ما ضَلَّ صاحِبُكُم وما غَوى . وما يَنطِقُ عَنِ الهَوى . إنْ هُوَ إلاّ وَحيٌ يُوحى﴾ (النجم:1-4).

وسد الأبواب هذا يؤدي إلى الأمر الثاني الذي هو في حديث النبي(ص) لعلي: «لا يحل لأحد أن يجنب في هذا المسجد غيري وغيرك» رواه الترمذي في صحيحه ج2 ص300 والبيهقي في ج7 ص65 في سننه بسنده برواية أم سلمة(رض) حيث روت أن النبي(ص) قال: «ألا لا يحل هذا المسجد لجنب ولا لحائض إلا لرسول الله وعلي وفاطمة والحسن والحسين، ألا قد بيّنت لكم الأسماء أن لا تضلوا». ورواه بلفظ مختلف قليلاً في رواية أخرى.

وفيه يستفاد أمور، منها:

- المنزلة المتفردة لعلي(ع) وفاطمة والحسنين(ع) من بين الأصحاب، بل سائر الناس
- أن بعض الأصحاب كانوا لا يتقبلون بطيبة نفس كاملة ما يأمر به النبي(ص)
- أنهم غفلوا عن أن أمره ونهيه(ص) إنما هو وحي يوحى، فذكّرهم بآيات سورة النجم

5 - **حديث النجوى**، وهو مناجاة النبي(ص) لعلي(ع) وقول: ‹‹ما انتجيته ولكن اللّه انتجاه››.

روى الترمذي في صحيحه ج2 ص300 بسنده عن جابر قال دعا رسول الله(ص) علياً(ع) يوم الطائف فانتجاه، فقال الناس لقد طال نجواه مع ابن عمه، فقال رسول الله(ص): ‹‹ما انتجيته ولكن الله انتجاه!›› ورواه صاحب كنز العمال ج6 ص159، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ج7 ص402، وابن الأثير في أسد الغابة ج4 ص27.

وروى المتقي في كنز العمال ج6 ص499 أن أبا بكر قال يوم غزوة الطائف: "يا رسول اللّه لقد طالت مناجاتك علياً منذ اليوم، فقال: ‹‹ما أنا انتجيته ولكن اللّه انتجاه››".

أقول: فهمت من هذه الرواية...

- أن النبي(ص) فعل مع علي(ع) ما لم يفعله مع غيره
- أن بعض الأصحاب استكثروا ذلك، وهذا مؤشر على نوع من أنواع الغبطة أو الحسد
- أن النبي(ص) يعلن أن الذي ناجى علياً(ع) هو اللّه تعالى، وهذا أمر عظيم لا نستطيع أن نفهمه إلا بأن النبي(ص) كان واسطة في تلك الساعة بين اللّه سبحانه وتعالى وعلي(ع) بحيث أن العلوم أو الكرامات أو الرحمات من اللّه سبحانه وتعالى حلّت في علي(ع) عبر رسول اللّه(ص)، وهو شيء أعلى من الإلهام لأن الذي كان الواسطة هو صاحب الوحي وهو النبي(ص)، وهذا له أهمية إضافية بلحاظ أن النبي(ص) كان آخر البشر المرسلين الذين سيوحى إليهم وبوفاته سوف ينقطع الوحي تماماً.

وعلى أية حال، استمرت منزلة أمير المؤمنين(ع) بالصعود في نظري وأنا أنفتح على هذه الأحاديث الشريفة في كتب أهل السنة.. ولكن، كنت أعجب

من هذا الكتمان لهذه الأحاديث والآيات وتفسيرها ودلالتها، الكتمان الذي أدى إلى تجهيل المسلمين، وكنت واحداً منهم.

6 - **قاتل علي(ع) هو أشقى الناس**، وهو قول النبي(ص): ‹‹وأشقى الآخرين الذي يطعنك يا علي››.

أخرج السيوطي في الدر المنثور حديثاً في تفسير سورة الشمس حديثاً عن عمار بن ياسر أن النبي(ص) عرض على علي(ع) أن يحدثه عن أشقى الناس فقال(ص): ‹‹رجلان: أحيمر ثمود الذي عقر الناقة والذي يضربك على هذا – أي قرنه – حتى تبتلّ منه هذه – يعني لحيته –››.

وأخرج مثله النسائي في الخصائص ص39 حديثاً عن عمار أيضاً ولكنه يذكر تفاصيل أنه كان في غزوة العشيرة من بطن ينبع، وهو حديث أخرجه أيضاً أحمد في المسند ج4 ص362 والحاكم في المستدرك ج3 ص104 وغيرهما.

وأخرج – روايات مشابهة – الحاكم في ج3 ص113 البيهقي في ج8 ص58 من سننه، وابن الأثير في أسد الغابة ج4 ص3 ، وابن سعد في طبقاته ج3 قسم1 ص22، والخطيب البغدادي في تاريخه ج1 ص135، والثعلبي في قصص الأولياء ص100 وصاحب كنز العمال ج6 ص412 وآخرون. كما أخرجها المفسران الزمخشري في تفسير الكشاف والفخر الرازي في التفسير الكبير كل منهما في تفسير قوله تعالى: ﴿هذهِ ناقَةُ اللهِ لَكُم آيَةً فَذَرُوها تَأكُلْ في أرضِ اللهِ ولا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأخُذَكُم عَذابٌ أليم﴾ (الأعراف:73).

أقول: يسمي النبي(ص) قاتل علي(ع) بأنه أشقى الآخرين أو أشقى الناس، ولم يسم قاتل غيره كذلك. فمثلاً لم يسم قاتل عمر ولا قاتل عثمان ولا قاتل عمار (على يد الفئة الباغية) بأنه أشقى الآخرين؛ بل لم يسم قاتل سبطه الحسين(ع) بأنه أشقى الناس أو أشقى الآخرين... السؤال هو: ألا يعتبر هذا دليلاً آخر على أن علياً(ع) أفضل من عمر وعثمان وعمار والناس جميعاً، بحيث أن من يقتله يكون أشقى الآخرين، أي أن القاتل يصير أشقى الناس عندما يقتل خير الناس، أم أن هذه تحتاج إلى "لف ودوران" هي الأخرى؟!

7 - **حديث السفينة**، وهو قول النبي(ص): «مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح من ركبها نجى ومن تخلف عنها غرق وهوى».

رواه الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين ج2 ص343 برواية أبي ذر الغفاري، والطبراني في المعجم الأوسط، الحديث 18 من الأربعين الخامسة والعشرين وذلك برواية أبي سعيد الخدري، وذكره ابن حجر في الصواعق ص151 من روايات وطرق عديدة. وأخرج هذا الحديث ابن كثير في تفسيره ج4 ص123، والسيوطي في الجامع الصغير ج3 ص334.

وفي هذا الشأن رويت أبيات للإمام الشافعي يؤكد فيها أن أهل البيت(ع) هم سفينة النجاة:

ولما رأيتُ الناسَ قد ذهبتْ بِهِمْ ... مَذاهِبُهُمْ في أبحُرِ الغَيِّ والْجَهلِ
ركِبْتُ على اسمِ اللهِ في سُفُنِ النَّجا ... وهُمْ أهلُ بيتِ المُصطفى خاتَمِ الرُّسلِ

8 - **حديث الحسنان(ع) سيدا شباب أهل الجنة**

أخرج أصحاب الكتب الحديثية حديث رسول الله(ص) الشهير: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة» كما في صحيح الترمذي ج2 ص306 و307، وغيره.

وفي لفظ فيه زيادة «وأبوهما خير منهما» في سنن ابن ماجة باب فضائل أصحاب رسول الله(ص)، ومستدرك الحاكم ج3 ص139، وغيرهما.

9 - **حديث الحسنان(ع) سبطان من الأسباط**

أخرج صاحب كنز العمال ج2 ص88 قول النبي(ص): «ولكل أمة سبط، وسبط هذه الأمة الحسن والحسين» وبلفظ: «الحسن والحسين سبطان من الأسباط» في ج6 ص221.

أقول: نبه العلماء أن تسمية النبي(ص) للحسن(ع) والحسين(ع) بالأسباط لا يعني أنهما أولاد ابنته – حيث أن السبط يطلق على الحفيد، وإن كان على ولد البنت أكثر – وذلك لأن هذا من البديهيات التي يعرفها المسلمون جميعاً، لكنه أراد أن

يربط بينهما وبين الأسباط الذين يعرفهم المسلمون من كتاب الله تعالى؛ وبما أن أولئك الأسباط من بني إسرائيل كانوا أنبياء معصومين في حين أن الحسنين(ع) ليسا من الأنبياء، فقد ثبتت باقي الصفات العامة للأسباط، وهي العصمة ووصاية النبيين الخ، وهذا يقود إلى إمامتهما بالولاية العامة على المسلمين الذين لم تكن لهم هذه المنازل السامية كما لا يخفى. أي، يجب فهم كلام النبي(ص) أنه ليس من باب الفخر والمجاملات وغير ذلك لأنه(ص) لا يخرج منه شيء إلا في سبيل النصح للأمة وتعريفها حقوقها ومسؤولياتها.

10 - حديث في حب الحسن(ع) وفي أن النبي(ص) منه

من ذلك قوله(ص): «اللهم إني أحبه فأحبه وأحب من يحبه» صحيح البخاري كتاب البيوع باب ما ذكر في الأسواق، والبخاري في كتاب بدء الخلق باب مناقب الحسن والحسين، وابن ماجة في باب فضائل أصحاب رسول الله(ص) من سننه.

إن هذه المنزلة من النبي(ص) يصرح بها قول النبي(ص): «هذا مني» كما في مسند أحمد ج4 ص132، وفي رواية كنز العمال ج7 ص107: «هذا مني وأنا منه وهو يحرم عليه ما يحرم عليّ» أنه قاله للحسن أو للحسين عليهما السلام.

وكلمته(ص) «أنا منه» مهمة جداً، لأن كلمة «هذا مني» لا يمكن أن تقتصر على الامتداد النَسَبي، بل تعني أن ما يأتي به الحسن(ع) هو منه(ص)، وبالتالي حث غير مباشر على اتباعه لأن في ذلك اتباع السنّة. أما «أنا منه» فلا يمكن تفسيرها بالنسب، إذاً هي تقول وإني أوافق على كل موقف وقول وفعل له، وفي هذا التصريح بصحة أقوال وأفعال ومواقف الحسن(ع) وبالتالي الأمر باتباعها جملة وتفصيلاً.

11 - حديث في حب الحسين(ع) وفي أن النبي(ص) منه

أخرج الترمذي في صحيحه ج2 ص307 مناقب الحسن والحسين(ع) عن يعلى بن مرّة أن النبي(ص) قال: «حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسيناً، حسين سبط من الأسباط». وأخرجه أيضاً ابن ماجة في باب فضائل أصحاب رسول الله(ص).

ورواه البخاري في الأدب المفرد باب معانقة الصبي، ورواه أيضاً الحاكم في المستدرك ج3 ص177، وأحمد في المسند ج 4 ص172، وابن الأثير في أسد الغابة ج2 ص19 وج5 ص130، وصاحب كنز العمال في ج7 ص107، وغير هؤلاء.

12 - حديث المهدي من أهل البيت(ع) ومن ولد فاطمة(ع)

أخرج ابن ماجة في سننه أبواب الفتن باب خروج المهدي أن النبي(ص) قال: «المهدي منا أهل البيت، يصلحه الله في ليلة». ورواه أحمد في المسند (ج1 ص84)، وغيره.

ومن ذلك أيضاً حديث رواه ابن ماجة في صحيحه أبواب الفتن باب خروج المهدي فيه إقبال فتية من بني هاشم فلما رآهم النبي(ص) اغرورقت عيناه وتغيّر لونه، فسئل عن ذلك، فقال(ص): «إنا أهل بيت إختار الله لنا الآخرة على الدنيا، وإن أهل بيتي سيلقون بعدي بلاءً وتشريداً وتطريداً، حتى يأتي قوم من قبل المشرق معهم رايات سود فيسألون الخير فلا يُعطونه، فيقاتلون فيُنصرون فيُعطون ما سألوا فلا يقبلونه، حتى يدفعوها إلى رجل من أهل بيتي فيملؤها قسطاً كما ملؤوها جوراً، فمن أدرك ذلك منكم فليأتهم ولو حبواً على الثلج».

وهناك أحاديث مختلفة في خروجه(ع) وأنه يملؤها عدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، كما في سنن أبي داوود (ج27 كتاب المهدي)، والمستدرك للحاكم (ج4 ص557 وغيرها)، وأسد الغابة لابن الأثير (ج1 ص259)، وغير ذلك.

وفي رواية أخرجها أبوداوود في سننه (ج27 ص134) عن أم سلمة أنها سمعت النبي(ص) يقول: «المهدي من عترتي من ولد فاطمة». ورواه الحاكم في المستدرك (ج4 ص557)، وابن ماجة في سننه أبواب الفتن باب خروج المهدي، وغيرهم.

أحاديث متنوعة

1 - قال النبي(ص): «النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف، فإذا خالفتها قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا حزب إبليس» مستدرك الحاكم ج3 ص14، (قال حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم والبخاري).

2 - عن عمار بن ياسر أن النبي(ص) قال: ‹‹أوصِ من آمن بي وصدقني بولاية علي بن أبي طالب، فمن تولاه فقد تولاني، ومن تولاني فقد تولى الله، ومن أحبه فقد أحبني، ومن أحبني فقد أحب الله، ومن أبغضه فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله عز وجل›› كنز العمال (ج11 ص609 رواية 32592)، والمعجم الكبير للطبراني (ج1 ص318)، ومجمع الزوائد (ج9 ص108)، وتاريخ دمشق (ج42 ص239 و ج52 ص7).

3 - وقال النبي(ص): ‹‹إلزموا مودتنا أهل البيت فإنه من لقي الله وهو يودنا دخل الجنة بشفاعتنا، والذي نفسي بيده لا ينفع عبداً عمله إلا بمعرفة حقنا›› المعجم الأوسط للطبراني (ج2 ص359)، والسيوطي في إحياء البيت، وفي مجمع الزوائد للهيثمي ج9 ص172.

4 - وقال النبي(ص): ‹‹لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن جسده فيما أبلاه، وعن ماله فيما أنفقه ومن أين اكتسبه، وعن محبتنا أهل البيت›› أخرجه الطبراني (ج9 ص154)، والسيوطي في إحياء البيت، ومجمع الزوائد (ج10 ص346).

أقول: إن هذه الحديث مروي صحيح عند أهل السنة ولكنه مبتور يذكر أن العبد يسأل عن ثلاث ويتر منه الرابعة وهي محبة أهل البيت، أو أن الرابعة جعلوها "عن علمه ماذا عمل فيه"، كما في سنن الدارمي (ج1 ص135).

الفصل السابع
الزهراء(ع) أحاديث وقضية

«فاطمة
بضعة مني
فمن أغضبها
أغضبني»
رسول الله(ص)

مقدمة

فاطمة(ع) سيدة النساء

فاطمة(ع) أصدق الناس

سد الأبواب المشرعة على المسجد إلا باب علي(ع)

في قول النبي(ص): فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها وما أشبه

فاطمة وأبو بكر

أفردت للصديقة فاطمة الزهراء(ع) فصلاً خاصاً بها – وهي التي تستحق فصولاً وكتباً – لأسباب:

(الأول) خصوصية الزهراء(ع) لكونها ابنة سيد البشر(ص) وسيدة النساء خديجة(ع)؛

(الثاني) خصوصيتها(ع) لكونها بنت النبي(ص) التي جمعت مع الأئمة من أهل البيت(ع) دون غيرها من بناته(ص)، ما يجعل فضائلها تأتي لا من ناحية بنوتها للنبي(ص) فحسب وإنما من اصطفاء إلهي، فصارت من الذين أذهب اللّه عنهم الرجس وطهرهم من الدنس رغم أنها ليست من الأئمة(ع)؛

(الثالث) خصوصيتها(ع) لكونها الرابط بين النبوة والإمامة، وهذا لا يأتي من فراغ؛

(الرابع) تعرض الزهراء(ع) لموقف من أقرب صحابة النبي(ص) كان مؤلماً لها(ع) أشد الألم، وكان مؤلماً لي أشد الألم، بل صادماً، ثم تحول الألم والصدمة إلى تفكير في ما يمكن الاستفادة منه عند النظر في القضية؛

الخامس، قيام الزهراء(ع) بأفعال حيال ما تعرضت له، واضح أنها أرادت منّا التفكر بالأمر، فإن أهملتُ هذا فكأني أدير ظهري لها(ع)، وهذا دونه خرط القتاد.

وهنا تجدر ملاحظتان: الأولى- تنبيه القارئ أن الأمر ليس لنبش الماضي وإثارة الناس بعضهم على البعض، فهذا حرام دون ريب، وهو بعيد كل البعد عن نهج الأئمة(ع)، ولكن من أجل التوصل إلى تفهم موقف الشيعة في هذه القضية بالذات، وبالتالي تقريب الناس لا إثارتهم؛ الثانية- تنبيه بعض الشيعة إلى عدم جواز النزول بالزهراء(ع) إلى ساحات التنافس الدنيوي والمزايدات، حتى اندفع بعض الشيعة المخلصين إلى القيام بأفعال لا تجلب سوى النقد لهم وللتشيع عموماً، وإن كانت نياتهم صادقة ولكن الناس لا تعرف دوافع الفعل فتحكم على ما تراه أو تسمع به.

(1) فاطمة(ع) سيدة النساء

أخرج البخاري في صحيحه كتاب بدء الخلق باب علامات النبوة في الإسلام بسنده عن عائشة الحديث الشهير بأن النبي(ص) سارّ فاطمة شيئاً فبكت ثم سارّها

شيئاً فضحكت فسألتها عائشة عن هذا الفرح والحزن القريبين بهذا الشكل العجيب فرفضت أن تقول ما أسرّه لها النبي(ص)، فلما كان بعد وفاته أوضحت أنه أسرّ إليها: «جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة وأنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي، وإنك أول أهل بيتي لحاقاً بي فبكيت... فقال: أما ترضين أن تكون سيدة نساء أهل الجنة أو نساء المؤمنين؟ فضحكت لذلك».

وقد رواه أحمد في المسند ج6 ص282، وابن سعد في الطبقات ج2 ص40، وابن الأثير في أسد الغابة ج5 ص522، والنسائي في الخصائص ص34.

وأما الترمذي فقد أخرج في صحيحه ج2 ص306 باب مناقب الحسن والحسين(ع) بسنده عن حذيفة في حديث يقول فيه أن النبي(ص) قال: «إن هذا ملك لم ينزل الأرض قط قبل هذه الليلة، إستأذن ربه أن يسلّم عليّ ويبشّرني بأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة وأن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة». رواه أيضاً الحاكم في المستدرك ج3 ص151، وأحمد في مسنده ج5 ص391، وغيرهما.

وهناك روايات عديدة بهذا المعنى، وأيضاً بتفصيل سيدات النساء بأنهن أربع: فاطمة(ع) وأمها خديجة ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم، كما في مستدرك الحاكم ج3 ص185 و ج2 ص497، وابن عبد البر في الاستيعاب ج2 ص720، والإمام أحمد في المسند ج1 ص193 وغيرها، وابن الأثير في أسد الغابة ج5 ص437، وآخرين؛ ومنها في الترمذي ج5 ص366 رواية 3980 في فضل خديجة، وفي تفسير الطبري ج3 ص180 وتفسير الكشاف الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَريَمَ ابنَةَ عِمرانَ الَّتِي أحصَنَتْ فَرجَها﴾ (التحريم:12)، أو قوله تعالى: ﴿وإذْ قالَتِ المَلائِكَةُ يا مَريَمُ إنَّ اللهَ اصطَفاكِ وطَهَّرَكِ واصطَفاكِ على نِساءِ العالَمِين﴾ (آل عمران:42).

2) فاطمة(ع) أصدق الناس

أخرج الحاكم في المستدرك ج3 ص160 عن عائشة أنها كانت إذا ذكرت فاطمة(ع) قالت: "ما رأيت أحداً كان أصدق لهجة منها إلا الذي كان قد ولدها"

ورواه ابن عبد البر في الاستيعاب ج2 ص751، وصاحب حلية الأولياء ج2 ص41 بلفظ مختلف قليلاً.

(3) سد الأبواب المشرعة على المسجد إلا باب علي(ع)

وهو حديث النبي(ص) لعلي: ‹‹لا يحل لأحد أن يجنب في هذا المسجد غيري وغيرك›› رواه الترمذي في صحيحه ج2 ص300، والبيهقي في ج7 ص65 في سننه أن النبي(ص) قال: ‹‹ألا لا يحل هذا المسجد لجنب ولا لحائض إلا لرسول الله وعلي وفاطمة والحسن والحسين، ألا قد بيّنت لكم الأسماء أن لا تضلوا››.

وروى هذا صاحب الكنز في ج3 ص154 و ج6 ص159، والهيثمي في المجمع ج9 ص115، وكذلك صاحب فتح الباري في شرح صحيح البخاري ج8 ص16 برواية ذكرها إسماعيل القاضي في أحكام القرآن أن النبي(ص) لم يأذن لأحد أن يمر بالمسجد وهو جنب إلا لعلي بن أبي طالب.

(4) في قول النبي(ص): فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها وما أشبه

أخرج البخاري في صحيحه كتاب بدء الخلق باب مناقب قرابة رسول الله(ص) ومنقبة فاطمة سلام الله عليها أن النبي(ص) قال: ‹‹فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني››؛ ورواه النسائي في خصائصه ص35، وغيره.

وأخرج البخاري أيضاً في صحيحه كتاب النكاح باب ذب الرجل عن ابنته حديثاً آخر يقول النبي(ص) فيه: ‹‹فاطمة بضعة مني يريبني ما أرابها ويؤذيني ما آذاها››؛ ورواه أحمد في المسند ج4 ص328، وأبو داوود في سننه ج12 باب ما يُكره ما يجمع بينهن من النساء.

وأخرج مسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة باب فضائل فاطمة(ع) أن النبي(ص) قال: ‹‹إنما فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها››؛ وهو ما أورده الرازي في تفسير آية المودة وفي: ﴿وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيه﴾ (المعارج:13).

وأخرج الترمذي في صحيحه ج2 ص319 بلفظ ‹‹إنما فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها وينصبني ما أنصبها››؛ وهو رواه أحمد في المسند ج4 ص5، والحاكم في المستدرك ج3 ص159.

وقد روى أيضاً في المستدرك ج3 ص158 بلفظ ‹‹فاطمة بضعة مني يقبضني ما يقبضها ويبسطني ما يبسطها››؛ وذكره آخرون في روايات مختلفة.

أما ابن قتيبة فقد أخرج الحديث في ص14 من الإمامة والسياسة والذي تناشد فيه فاطمة(ع) أبا بكر وعمر عندما زاراها بعدما حصل منهما ما حصل بأمر الخلافة وبأمر فدك "قالت(ع): ‹‹أرأيتكما إن حدثتكما حديثاً عن رسول الله(ص) تعرفانه وتفعلان به؟›› قالا: نعم، فقالت: ‹‹نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله(ص) يقول: رضا فاطمة من رضاي، وسخط فاطمة من سخطي، فمن أحب فاطمة ابنتي فقد أحبني، ومن أرضى فاطمة فقد أرضاني، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني؟›› قالا: نعم سمعناه من رسول الله(ص)، قالت: ‹‹فإني أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتماني وما أرضيتماني ولئن لقيت النبي(ص) لأشكونّكما إليه!››، فقال أبو بكر: أنا عائذ بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة، ثم انتحب أبو بكر يبكي كادت نفسه أن تزهق، وهي تقول: ‹‹والله لأدعونّ الله عليك في كل صلاة أصلّيها››..."

وفي نفس السياق أخرج الحاكم في المستدرك ج3 ص153 قول النبي(ص): ‹‹إن الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك››؛ وهو رواه ابن الأثير في أسد الغابة ج5 ص522، وآخرون.

وهناك روايات بألفاظ مختلفة قليلاً كقوله: ‹‹إن الرب ليغضب لغضبك ويرضى لرضاك›› كما في ميزان الاعتدال للذهبي ج2 ص72.

فبمجموع هذه الأحاديث أن من يُغضِب فاطمة(ع) فإنه يكون قد أغضب الله ورسوله(ص)، وهذا ما يؤدي إلى نتائج خطيرة لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يَحلُلْ عَلَيهِ غَضَبِي فَقَد هَوى﴾ (طه:81).

ويبدو أن هذه الأحاديث الشريفة لم تمنع من إغضاب الزهراء(ع) كما وجدنا في اتهامها للشيخين بذلك عندما زاراها في الحديث المتقدم آنفاً، حيث أن البخاري أخرج في صحيحه في موضوع الخمس (ج4 ص42) أن فاطمة بنت رسول الله(ص)

"غضبت على أبي بكر فهجرته فلم تزل مهاجرته حتى توفيت". وروى في باب غزوة خيبر (ج5 ص82) القول "فوجدت فاطمة على أبي بكر في ذلك، قال: فهجرته فلم تكلمه حتى توفيت"؛ ورواه مسلم ج5 ص154. وروى في كتاب الفرائض (ج8 ص3) أنها "هجرت أبا بكر فلم تكلمه حتى ماتت". وهي روايات أكّدها مسلم في صحيحه ج5 ص154، والبيهقي في سننه ج6 ص300، والإمام أحمد في مسنده ج1 ص9.

وذكر الترمذي في صحيحه باب ما جاء في تركة رسول الله(ص) قول فاطمة(ع) لأبي بكر وعمر: «والله لا أكلمكما أبداً» فماتت ولم تكلمهما وذلك بعد أن كان النبي(ص) قد أعطاها فدكاً؛ فقد روى السيوطي في الدر المنثور في تفسير: ﴿وَآتِ ذا القُربى حَقَّهُ﴾ (الإسراء:26) عن أبي سعيد الخدري أن هذه الآية لما نزلت دعا رسول الله(ص) فاطمة فأعطاها فدكاً؛ وفي رواية ابن عباس أخرجها ابن مردويه أنه(ص) أقطع فاطمة فدكاً؛ وهو ما أخرجه الهيثمي في المجمع ج7 ص49، والذهبي في ميزان الاعتدال ج2 ص228 قائلاً بصحته، وغيرهم.

عصمة الزهراء(ع)

قال السيد شرف الدين (النص والاجتهاد): "إن من أمعن في هذه الأحاديث فتدبرها ممن يقدر رسول الله(ص) حق قدره رآها ترمي إلى عصمتها لدلالتها بالالتزام على امتناع وقوع كل من أذيتها وريبتها وسخطها ورضاها وانقباضها وانبساطها في غير محله كما هو الشأن في النبي(ص)، وهذا هو كنه العصمة وحقيقتها".

أقول: فلو لم تكن الزهراء(ع) معصومة لكان من الصعب تفسير إدخالها في زمرة آية التطهير، أو جعلها من الذين أمر المسلمون بالصلاة عليهم في صلاتهم الفريضة التي هي عمود الدين، أو أن تدخل في زمرة الذين طلب النبي(ص) مودتهم أجراً على تبليغ القرآن والدين، ومن الصعب تفسير جميع هذه المنازل التي تترتب على هذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، اللهم إلا أن نعود إلى نفس المنهج من التصديق بالفضائل وكأنها مدائح ومجاملات ألهية للنبي(ص) أو فخر للنبي(ص) بأهله على الأمة، وكلها لا مجال لقبولها.

5) فاطمة(ع) وأبو بكر

من الأمور التي اطلعت عليها – ويا ليتني، عاطفياً، لم أطلع عليها – هو ما جرى على فاطمة الزهراء(ع) بنت النبي(ص) على يد أقرب الأصحاب لأبيها(ص) وبعد وفاته مباشرة، مما كان لا يصدق في أول الأمر. إذ كيف يتم التعامل بهذا الشكل الجاف والقاسي مع بضعة النبي(ص) ومصيبة موته(ص) قد نزلت للتو، وهي مصيبة، وإن عمت، إلا أنها كانت أشد بالخصوص على ابنته(ع) التي كانت أقرب الناس إليه... لم يكن يبدو الأمر ممكناً، ولاسيما ولم يكن هناك أي معرفة به أو إشارة له إذ انه من الأمور التي كتمت عن أهل السنة بشكل كامل. ولكن – مع الأسف – تأكدت من الأمر من المصادر المختلفة، فكان جرحاً غائراً لا يندمل. وهذه الأحاديث التي أوردتها، قرأتها فعرفت أن إيذاء فاطمة(ع) إيذاء لأبيها(ص)، وأن إغضابها(ع) إغضاب لأبيها(ص)، فكأن كل ما جرى عليها(ع) من ظلم جرى على أبيها(ص).

بل أن الظلم مضاعف حقاً، لأنه ظلم وقع بعد تنبيهه(ص) لمنزلتها(ع) ومكانتها منه، فكان الظلم ظلمان: الأول ما جرى من غصب – والمال مالها دون شك –، واعتداء – وحرمة دارها كحرمة دار أبيها –، ورد – بقوة الحكم مع أنه مغتصب هو الآخر من زوجها –، وافتراء – باختراع أحاديث لأبيها(ص) –، وتكذيب – وهي المعصومة التي لا تكذب –؛ والثاني فعل كل ذلك بالرغم من التنبيه النبوي المشدد على مكانتها(ع).

نقطة أخرى، وهي أن التعامل مع فاطمة(ع) بذلك الشكل غير المتوقع من الخليفة وأصحابه يكشف عن الأمر الهام وهو أن أقرب الناس إلى النبي(ص)، ومن كانت الآيات والأحكام تتنزل أمامهم، ومن كانوا يعايشون السيرة النبوية العطرة كل يوم، لا يؤمن منهم الخطأ، بل الخطأ الفادح، وبالتالي فهي إشارة واضحة لضرورة العصمة التي جعلت في أئمة أهل البيت(ع) لأنهم كانوا المعينين لخلافة النبي(ص). أي أن كبار الأمة سقطوا في أول اختبار بعد وفاة النبي(ص) مباشرة، ومع أقرب الناس إليه(ص)، فكيف سيحصل من غيرهم ممن سيأتي بعدهم ومع الأفراد العاديين من الأمة، وهو الذي حصل. فهذا الأمر، فاطمة(ع) وأبو بكر، يفتح الباب أمام النظر في مسألة الإمامة والخلافة والعصمة وسيرة الحكام وغيرها من أمور هي

الأهم في حياة البشرية. وإلا فأين هي قضية فدك في واقعنا اليوم لكي نثير عليها ضجة ما؟ (راجع جواب علي(ع) في آخر الفصل.)

وفيما يلي لقطات من مناقشات السيد شرف الدين في كتاب "النص والاجتهاد"، الموارد 6-9، وأيضاً من مناقشات السيد محمد باقر الصدر في كتابه "فدك في التاريخ"، وهي مناقشات تشمل سهم ذوي القربى وتوريث الأنبياء ونِحلة الزهراء(ع).

مناقشات السيد شرف الدين

قال بخصوص قوله تعالى: ﴿واعلَمُوا أنَّما غَنِمتُم مِنْ شَيءٍ فإنَّ للهِ خُمُسَهُ وللرَّسولِ ولِذِي القُربى واليَتامى والمَساكِينِ وابنِ السَّبيلِ إنْ كُنتُم آمَنتُم باللهِ وما أنزَلنا على عَبدِنا يَومَ الفُرقانِ يَومَ التَقى الجَمعانِ واللهُ على كُلِّ شَيءٍ قَدير﴾ (الأنفال:41)، أن المسلمين أجمعوا على أن النبي(ص) كان يختص بسهم من الخمس ويخص أقاربه بسهم آخر منه، فلما ولي أبو بكر تأوّل الآية فأسقط سهم النبي(ص) وسهم ذي القربى بموته ومنع بني هاشم من الخمس، وأورد ما رواه صاحب تفسير الكشّاف عن ابن عباس في ذلك.

فكان أن أرسلت الزهراء(ع) إلى الخليفة تسأله ميراثها مما أفاء عليه من المدينة فأبى أن يدفع ذلك، فوجدت عليه فهجرته فلم تكلمه حتى توفيت.

وذكر رواية في صحيح مسلم أن ابن عباس قال بخصوص سهم ذوي القربى: "إنا كنا نرى أن قرابة رسول الله(ص) هم نحن، فأبى ذلك علينا قومنا" كتاب الجهاد والسير ج2 ص105. وأخرجه أيضاً الإمام أحمد في ج1 من المسند ص294، وغيره من أصحاب المسانيد.

أقول: ومن باب الهزل حقاً ما فسره علي بن عيسى راوي الحديث الذي أورده الترمذي في سننه في الرواية 1534 قول فاطمة(ع) «والله لا أكلمكما أبداً» أنها "تعني في هذا الميراث أبداً أنتما صادقان"! كيف علم ذلك وهما لم يأتيا بدليل على أن النبي(ص) لا يورث، في حين أن فاطمة(ع) لم تسمع ذلك منه وهي ابنته؟

بالطبع، بضميمة الأحاديث الأخرى نعرف أنها حلفت أن لا تكلمهما غضباً منها على غصبهما حقها الواضح.

وذكر بأن الزهراء أرسلت تسأل الخليفة ميراثها من أبيها(ص) فقال أبو بكر: "إن رسول الله قال لا نورّث ما تركناه صدقة". قالت عائشة أم المؤمنين: "فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة منه شيئاً"، وذكرت أن "فاطمة وجدت على أبي بكر فهجرته فلم تكلمه حتى توفيت، وعاشت بعد النبي ستة أشهر، فلما توفيت دفنها زوجها علي ليلاً بوصية منها ولم يؤذن بها أبا بكر ..." وذلك كما رواه البخاري ومسلم والإمام أحمد.

هذا على الرغم من أن الزهراء(ع) احتجت بالقرآن الكريم عندما ألقت بخطبتها المروية عند مسجد النبي(ص) حيث قالت من جملة ما قالته: «أعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم إذ يقول: ﴿وَوَرِثَ سُلَيمانُ داوود﴾، وقال فيما اختص من خبر زكريا: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنكَ وَلِيّاً يَرِثُنِي ويَرِثُ مِنْ آلِ يَعقُوبَ واجعَلْهُ رَبِّي رَضِيّاً﴾، وقال: ﴿وأولُو الأرحامِ بَعضُهُم أَولى بِبَعضٍ في كِتابِ الله﴾، وقال: ﴿يُوصِيكُم اللهُ في أولادِكُم للذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيين﴾، وقال: ﴿كُتِبَ عَليكُم إذا حَضَرَ أحدَكُم المَوتُ إنْ تَركَ خَيراً الوَصِيَّةُ للوالِدَينِ والأقرَبِينَ بالمَعرُوفِ حَقّاً على المُتَّقِين﴾؟» ثم قالت: «أَخَصَّكم الله بآية أخرج منها أبي؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي؟! أم تقولون أهل ملّتين لا يتوارثان؟!..»

(راجع خطبة الزهراء(ع) الكاملة، وكلامها مع نساء الأنصار، مع تعليقاتي عليها، في الملحق.)

ومما علّق به السيد شرف الدين أنها أعلم بمفاد القرآن ممن جاؤوا متأخرين عن تنزيله فصرفوا الإرث إلى وراثة الحكمة والنبوة دون الأموال، وهو تكلّف لو كان صحيحاً لعارضها به أبو بكر يومئذ، فإن ما قاله لم يكن نقاشاً في الآيات وإنما قال: "يا ابنة رسول الله والله ما خلق الله خلقاً أحب إليّ من رسول الله أبيك(ص)، ولوددت أن السماء وقعت على الأرض يوم مات أبوك، ووالله إن تفتقر عائشة أحب إليّ من أن تفتقري، أترينني أعطي الأبيض والأحمر حقه وأظلمك حقك، وأنت بنت رسول الله؟ إن هذا المال لم يكن للنبي وإنما كان مالاً من أموال المسلمين يحمل به

النبي الرجال وينفقه في سبيل الله، فلما توفي وليته كما كان يليه". قالت: «والله لا كلّمتك أبداً» قال: "والله لا هجرتك أبداً"، قالت: «والله لأدعونّ الله عليك»، فلما حضرتها الوفاة أوصت أن لا يصلي عليها، وهذا الحديث أخرجه الجوهري في كتاب السقيفة وفدك (ص80 ج4 من شرح النهج).

ثم وجدنا أنها احتجّت على استحقاقها الإرث بعموم آيات المواريث وآيات الوصية وسألت مستنكرة إن كانت آية المواريث لا تنطبق على النبي(ص). ثم سألتهم مستنكرة إن كانوا أعلم بعموم القرآن وخصوصه من النبي(ص) وعلي(ع). فنفت بهذه الأسئلة الموبّخة وجود ما يخصص هذه الآيات القرآنية من السنة النبوية، لأنه لو كان موجوداً لبيّنه لها النبي(ص) وعلي(ع) إذ يستحيل عليهما الجهل به كما لا يجوز أن يهملا تبيانه لها لأن في ذلك التفريط في الإبلاغ والتعريض لطلب الباطل والتغرير بكرامتها والتهاون في صونها عن العداوة بغير الحق.

هذا ناهيك عن العباس بن عبد المطلب وبقية الهاشميين وأمهات المؤمنين اللواتي أرسلن إلى عثمان في وقته يسألن ميراثهن من النبي(ص)، مما هو كله ممتنع امتناعاً تاماً عن النبي(ص).

أما نحلة الزهراء(ع) أي ما أعطاها النبي(ص) في حياته، وهي قرية فَدَك التي كانت جزءاً من المصالحة بين اليهود والنبي(ص) عندما فتح الله عليه خيبر فكان هذا النصف من المصالحة مما حكم به القرآن لرسول الله خالصة لأنها لم تكن مما أوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب، بمعنى أن المسلمين لم يحصلوا عليها نتيجة للقتال والتضحيات وبالتالي فهي بنص القرآن خالصة للنبي(ص) وهو أعطاها إلى الزهراء في حياته الشريفة. وقد ثبّت أمير المؤمنين عائديتها إلى الزهراء(ع)، في كتابه إلى عامله في البصرة الصحابي عثمان ابن حنيف، بالقول: «بلى كانت في أيدينا فدك من كل ما أضلّته السماء، فشحّت عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس قوم آخرين، ونعم الحكم الله..." (نهج البلاغة ج3 رسالة 45). فكان أن طلبت فاطمة(ع) أن تُسلّم إليها بعد أن انتزعت منها كما قد روى ذلك شرّاح آية الفيء كالفخر الرازي في تفسيره (مفاتح الغيب ج8 سورة الحشر) قال: "فلما مات رسول الله(ص) ادّعت فاطمة(ع) أنه كان ينحلها فدكاً، فقال لها أبو بكر: أنتِ أعزّ الناس عليّ فقراً وأحبهم إليّ غنى ولكني

لا أعرف صحة قولك فلا يجوز أن أحكم لكِ، فشهدت لها أم أيمن ومولى لرسول الله، فطلب منها أبو بكر الشاهد الذي يجوز قبول شهادته في الشرع فلم يكن".

وعلّق السيد شرف الدين بأن "الشاهد الذي شهد لها مع أم أيمن كان علياً(ع) وهو مما لا خلاف فيه، فكأن الرازي استفظع رد شهادة علي(ع) فلم يصرّح باسمه احتراماً له ولأبي بكر معاً فكنّى عنه بمولى لرسول الله(ص)".

وتكلّم السيد شرف الدين بما يشبه العتاب للخليفة وكيف يوقف الزهراء وهي ثكلى لأجل أن تطالب بإرثها ونحلتها ومع ذلك يجعلها ترجع راغمة خائبة. وذكر كلمة محمود أبو ريّة المؤلف المصري المعروف الذي قال (مجلة الرسالة المصرية في عدد 518 من السنة 11): "... إذا سلّمنا بأن خبر الآحاد الظني يخصص الكتاب القطعي وأنه قد ثبت أن النبي(ص) قد قال بأنه لا يورث، وأنه لا تخصيص في عموم هذا الخبر، فإن أبا بكر كان يسعه أن يعطي فاطمة رضي الله عنها بعض تركة أبيها(ص) كأن يخصّها بفدك، وهذا من حقه الذي لا يعارضه فيه أحد، إذ يجوز للخليفة أن يخص من يشاء بما شاء... وقد خصّ هو نفسه الزبير بن العوّام ومحمد بن مسلمة وغيرهما ببعض متروكات النبي، على أن فدكاً هذه التي منعها أبو بكر لم تلبث أن أقطعها الخليفة عثمان لمروان".

وقال بأن للزهراء(ع) من المنازل ما يوجب الثقة التامة في صحة ما تدّعي فلا تحتاج في إثبات دعواها إلى شاهد. ولكن الأمر – والكلام لشرف الدين – كما حكاه علي بن الفارقي من أعلام بغداد في مدرستها الغربية عندما سأله تلميذه ابن أبي الحديد شارح نهج البلاغة فقال له: "أكانت فاطمة صادقة في دعواها النحلة؟ قال: نعم"، قال له ابن أبي الحديد: "فلِمَ لم يدفع لها أبو بكر فدكاً وهي عنده صادقة؟ فتبسم وقال: لو أعطاها اليوم فدكاً بمجرد دعواها لجاءت إليه غداً وادّعت لزوجها الخلافة وزحزحته عن مقامه ولم يكن يمكنه حينئذ الاعتذار بشيء لأنه يكون قد سجل على نفسه بأنها صادقة فيما تدّعي كائناً ما كان من غير حاجة إلى بيّنة ولا شهود".

وذكر قول النبي(ص) لعلي والحسن والحسين وفاطمة: «أنا حرب لمن حاربكم وسلم لمن سالمكم» من حديث أبي هريرة الذي رواه أحمد في مسنده ج2 ص442، وذكر مثله بألفاظ أخرى. وكان من تعليق السيد شرف الدين أنه "من حق هؤلاء

الذين هم بهذه المكانة أن لا يفاجئهم أهل الحول والطول إبّان رزيّتهم الكارثة بما فوجئوا به من استئثار بمكانتهم في الأمة بعد رسول الله والاستغناء عنهم حتى في المشورة ومع شدّة الوطأة عليهم في أمر البيعة والتنمّر لهم في فيئهم وخمسهم وإرثهم ونحلتهم وسوقهم مع سائر الرعايا بعصا واحدة".

كيف تناقلت الأيدي فدكاً

انتزعها الخليفة الأُول وأصبحت من مصادر المالية العامة وموارد ثورة الدولة يومذاك، حتى تولى عمر الخلافة فدفع فدكاً الى ورثة رسول الله(ص)، إلى أن تولى الخلافة عثمان بن عفان فاقطعها مروان بن الحكم على ما قيل، ثم انتزعها أمير المؤمنين(ع) من مروان.

أما معاوية فقد "أمعن في السخرية وأكثر من الاستخفاف بالحق المهضوم فاقطع مروان بن الحكم ثلث فدك وعمر بن عثمان ثلثها، ويزيد ابنه ثلثها الآخر"، فلم يزالوا يتداولونها حتى خلصت كلها لمروان بن الحكم أيام ملكه.

ثم صفت لعمر بن عبدالعزيز بن مروان فلما استخلف أمر واليه على المدينة أبا بكر بن عمرو بن حزم بأن يقسم فدكاً "في ولد فاطمة عليها السلام من علي عليه السلام". فعاتبه الأمويون، فكان مما رد به عليهم حديث النبي(ص) الوارد أعلاه «فاطمة بضعة مني يسخطها ما يسخطني، ويرضيني ما أرضاها» وأنها صارت له ولإخوته فباعوه حصصهم، فاقترحوا عليه أن لا يعطي العلويين الأصل وإنما فقط الغلّة ففعل.

ثم انتزعها يزيد بن عبدالملك من أولاد فاطمة فصارت في أيدي بني مروان حتى انقرضت دولتهم.

فكان مما فعله أول خليفة عباسي أبو العباس السفاح هو إعطاء فدك لعبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. ولكن لما ثار أولاده عليهم أيام أبي جعفر المنصور قبضها المنصور منهم، ثم ردها المهدي بن المنصور على الفاطميين، ثم قبضها ابنه موسى الهادي من أيديهم.

بقيت في يد العباسيين حتى ردها المأمون على الفاطميين. أما آخر انتزاع لفدك من الفاطميين فكان من جعفر المتوكل العباسي الذي أقطعها عبد الله ابن عمر البازيار (الذي أمر بشران الثقفي بقطع أحد عشر نخلة كان النبي(ص) قد غرسها بيده الشريفة، ففعل الثقفي وعاد مشلولاً.)

فدك رمز الخلافة المغتصبة

تأكيداً لهذا الذي قلناه أولاً، أن قرية "فدك" تمثل رمزاً للخلافة المغتصبة، أو قل لدور أئمة أهل البيت(ع) في تبوء كرسي الخلافة الذي كانوا سيقومون بأدوار الإمامة من خلاله، فإن الخلافة – كسلطة تنفيذية – ما كانت تساوي عند الأئمة(ع) فلساً لولا أنها التي تمكن من القيام بمسؤوليات إمامتهم. لذا، فإنه عندما جلس المهدي العباسي للاستماع إلى مظالم الناس طالبه الإمام موسى بن جعفر(ع) برد ظلامتهم، فلما سأله المهدي عنها قال الإمام(ع) أنها "فدك"، فلما طلب المهدي من الإمام(ع) أن يعين حدودها، كي يقوم بردها، كان جواب الإمام(ع) أن حدودها هي: عدن جنوباً، وسمرقند شرقاً، وسيف البحر مما يلي الجزر وأرمينية شمالاً، وإفريقية غرباً! هنا، فهم المهدي أن الإمام(ع)، بتفصيله لحدود الدولة الإسلامية كلها، إنما يقول له أن القضية لم تكن فدكاً وإنما هي الخلافة. من هنا نعرف أن الزهراء(ع) لم يكن يعنيها ما لفدك من قيمة مادية، وإنما ما مثلت من اعتداء مثل الاعتداء على جميع ما لأهل البيت(ع) من حقوق ومسؤوليات.

موقف علي(ع) من فدك

ورد إليه أن عثمان بن حنيف الأنصاري عامله على البصرة دعي إلى وليمة فكتب إليه(ع) رسالة هي من أجمل ما كتبه(ع) بلاغة، نلتقط من هذه الرسالة (نهج البلاغة ج3 كتاب 45) ما نريده ههنا:

يقول(ع): ‹‹فَوَاللهِ مَا كَنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تِبْراً، وَلاَ ادَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفْراً، وَلاَ أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبِي طِمْراً.››

ثم يستدرك(ع) ليستثني ما كانت تحت تصرفهم(ع)، فيقول: ‹‹بَلَى! كَانَتْ فِي أَيْدِينَا فَدَكُ مِنْ كلِّ مَا أَظَلَّتْهُ السَّماءُ، فَشَحَّتْ عَلَيْهَا نُفوسُ قَوْم، وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ، وَنِعْمَ الْحَكَمُ اللهُ.››

ثم يقول(ع): ‹‹وَمَا أَصْنَعُ بِفَدَك وَغَيْرِ فَدَك، وَالنَّفْسُ مَظَانُّهَا فِي غَدٍ جَدَثٌ، تَنْقَطِعُ فِي ظُلْمَتِهِ آثَارُهَا، وَتَغِيبُ أَخْبَارُهَا، وَحُفْرَةٌ لَوْ زِيدَ فِي فُسْحَتِهَا، وَأَوْسَعَتْ يَدَا حَافِرِهَا، لاَضْغَطَهَا الْحَجَرُ وَالْمَدَرُ، وَسَدَّ فُرَجَهَا التُّرَابُ الْمُتَرَاكِمُ، وَإِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرُوضُهَا بِالتَّقْوَى لِتَأْتِيَ آمِنَةً يَوْمَ الْخَوْفِ الاْكْبَرِ، وَتَثْبُتَ عَلَى جَوَانِبِ الْمَزْلَقِ.››

فماذا نفهم من هذا؟

(أولاً) تأكيد على ملكية فدك لأهل البيت(ع)، من خلال ملكية الزهراء(ع) لها.

(ثانياً) تأكيد أن موقف الخليفة لم يكن مستنداً إلى الشرع وإلا لما وصفه بالشح.

(ثالثاً) أنهم(ع) توقفوا عن النزاع حولها من باب الزهد، ‹‹وسخت عنها››.

(رابعاً) تحويل القضية إلى الحاكم العادل، وهو الحق تبارك وتعالى، ما يعني أن أهل البيت(ع) لم يتنازلوا عن فدك مطلقاً وإنما كفّوا عن النزاع.

(خامساً) قوله ‹‹ونعم الحكم الله›› فيه إشارة إلى عدم التمادي في الخوض في الأمر لأنه إن كان بيد الله تعالى فما هي قيمة العباد.

(سادساً) ويؤكد ذلك قوله التالي ‹‹وما أصنع بفدك وغير فدك الخ››، متعالياً عن الدنيا وما فيها، وهو ما أكده في آرائه في الدنيا في ذات الرسالة.

(سابعاً) الكلام كله يؤكد ما فهمته من أن الزهراء(ع) لم تكن منازعتها حول فدك بقيمتها المادية، وإنما بقيمتها الرمزية التي تشير إلى الخلافة بما هي المركب الذي أراده الله تعالى لقيادة أئمة أهل البيت(ع) للأمة.

الفصل الثامن
حديث الغدير وبيعة الغدير

مقدمات

حديث الغدير

مصادر الحديث

الرواة من الصحابة والتابعين

بيعة وبالمصافحة ثلاثاً

في آية البلاغ

دلالة حديث الغدير

كيف نصدق إعراض الأمة بعد هذه البيعة العامة؟

لماذا لم يحتج علي(ع) في يوم السقيفة بنصوص الخلافة والوصية؟

بل لماذا لم يقاتلهم علي(ع)؟

هل الولاية من أصول الدين؟

«إن الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فعلي مولاه»

رسول الله(ص)

حديث الثقلين

ذكرنا في فصل سابق حديث الثقلين وكيف أن النبي(ص) أعلن للمسلمين أن تركته النبوية فيهم: القرآن وأهل البيت(ع). وقد ذكرنا عدة روايات تقول أن النبي(ص) صدع بهذا الأمر، منها في مكان اسمه "غَدِير خُمّ" كما أخبر الصحابي المعروف زيد بن أرقم وغيره.

قبل أن أطلع على هذا الحديث وأمثاله لم أكن قد سمعت بشيء اسمه "غدير خم"، أو "يوم الغدير"، دع عنك الاحتفال فيه كعيد. ولكن لما قرأت كتب الشيعة وجدت أنه في هذا المكان، الذي يقع بين مكة والمدينة، حصلت حادثة يعتبرها الشيعة من أهم الأحداث ويحتفلون بها كعيد من أعظم الأعياد، في حين لم يسمع السنة عنها مطلقاً! فهل كانت حادثة من نسج الخيال؟ وإن لم تكن كذلك، فهل كانت حادثة مشهودة أم محصورة في نطاق ضيق جعل أهل السنة يجهلونها تماماً؟ ولماذا يحتفل بها الشيعة ويعدونها من أعظم الأعياد؟ ثم أنها متى كانت، لأن هذا مهم جداً في معرفة موقعها في حياة النبي(ص)، فإن حادثة تجري في أول أيام الدعوة الإسلامية أو وسطها يمكن أن تنسخها حادثة أخرى تجري في آخرها، هذا إن كانت قد حصلت حقاً؟

ولأن حادثة الغدير تتعلق بشكل مباشر، بل ومطلق، بخلافة النبي(ص)، فإنه يناسب أن أذكر ما قرأته من حديث بخصوص خلافة علي(ع) للنبي(ص) لأن فيه دلالات هامة.

علي(ع) خليفة النبي(ص)

مما أثار العجب عندي هو حقيقة أن النبي(ص) أعلن علياً(ع) خليفة منذ بدء الدعوة، بل مذ أمر بدعوة عشيرته القريبة، أي قبل أن يأمر سائر الناس، وعلي(ع) لما يزل في العاشرة من عمره، صبياً، وهناك في العشيرة القريبة الرجال والكهول والشيوخ، ومنهم أعمامه، بل ومنهم أبوه أبو طالب شيخ بني هاشم. وأثار عجبي أكثر أن يكون هذا الأمر مما لا يعرفه أهل السنة مطلقاً، فإني لم أجده في منهج

دراسي، ولا صحيفة يومية، ولا برنامج تلفزيوني أو إذاعي، لا في العراق ولا من الإذاعات المصرية وغيرها التي كنا نستمع إليها أحياناً، في الوقت الذي كنا نستمع إلى أمور لا تقاس أهميتها بها – إن كان لبعضها أهمية أصلاً –. فنحن لم نسمع أن النبي(ص) دعا عشيرته الأقربين وقال لهم إن علياً أخوه ووزيره ووصيه وخليفته من بعده – فلم يخبرنا أحد أن علياً(ع) أخو النبي(ص) بالمؤاخاة، ولم يخبرونا أنه وزيره فنحن لا نعلم شيئاً كهذا، ولم نسمع بالوصية أصلاً، وأما الخليفة فندري أنه الخليفة ولكن لا بتعيين النبي(ص) ولا باستحقاق إلا بعد ثلاثة قبله.

ثم إني وجدت أن النبي(ص) صرح بأن علياً(ع) خليفته بعد ذلك، حيث أن هذا اللفظ، أي لفظ "الخليفة" في حديث الدار إذ أنذر عشيرته الأقربين، قد ورد في أحاديث أخرى في مناسبات أخرى. من ذلك ما روى الهيثمي في المجمع ج 8 ص314 عن عبد اللّه بن مسعود قال بأنه كان مع النبي(ص) بعد ليلة الجن، أي بعد أن أنبأه القرآن بأقسام الجن وإيمان بعضهم به يوم نزلت سورة الجن، أن النبي(ص) قال عن علي(ع): «إن بايعتموه وأطعتموه أدخلكم الجنة أكتعين»". قال الهيثمي رواه الطبراني.

ويمكن الاستفادة منه أن الأمة إن بايعت علياً(ع) وأطاعته فإنه يأخذ بها إلى الجنة بشكل جماعي، أي سيكون الأمان والضمانة من الإنحراف، وهو ما نعرفه من حديث الثقلين.

حديث الغدير

أجمل الحادثة العلامة الأميني في كتابه الموسوعة "الغدير"، أورده بنصه مع تصرف بسيط في ذكر المصادر:

أجمع رسول الله صلى الله عليه وآله الخروج إلى الحج في سنة عشر من مهاجره، وأذن في الناس بذلك، فقدم المدينة خلق كثير يأتمون به في حجته تلك التي يقال عليها حجة الوداع، وحجة الاسلام، وحجة البلاغ، وحجة الكمال، وحجة التمام ولم يحج غيرها منذ هاجر إلى أن توفاه الله، فخرج صلى الله عليه وآله من المدينة مغتسلاً متدهناً مترجلاً متجرداً في ثوبين صحاريين إزار ورداء، وذلك يوم السبت لخمس ليال أو ست بقين من ذي القعدة، وأخرج معه نساءه كلهن في

الهوادج، وسار معه أهل بيته، وعامة المهاجرين والأنصار، ومن شاء الله من قبائل العرب وأفناء الناس. (الطبقات لابن سعد ج3 ص225، إمتاع المقريزي ص510، إرشاد الساري ج6 ص429.)

وعند خروجه صلى الله عليه وآله أصاب الناس بالمدينة جُدَري أو حصبة منعت كثيراً من الناس من الحج معه صلى الله عليه وآله، ومع ذلك كان معه جموع لا يعلمها إلا الله تعالى، وقد يقال: خرج معه تسعون ألف، ويقال: مائة ألف و أربعة عشر ألفاً، وقيل: مائة ألف وعشرون ألفاً، وقيل: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، ويقال أكثر من ذلك، وهذه عدة من خرج معه، وأما الذين حجوا معه فأكثر من ذلك كالمقيمين بمكة والذين أتوا من اليمن مع علي (أمير المؤمنين) وأبي موسى. (السيرة الحلبية ج3 ص283، سيرة أحمد زيني دحلان ج3 ص3، تاريخ الخلفاء لابن الجوزي في الجزء الرابع، تذكرة خواص الأمة ص18، دائرة المعارف لفريد وجدي ج3 ص542.)

أصبح صلى الله عليه وآله يوم الأحد بيلملم، ثم راح فتعشى بشرف السيالة، وصلى هناك المغرب والعشاء، ثم صلى الصبح بعرق الظبية، ثم نزل الروحاء، ثم سار من الروحاء فصلى العصر بالمنصرف، وصلى المغرب والعشاء بالمتعشى وتعشى به، وصلى الصبح بالأثابة، وأصبح يوم الثلاثاء بالعرج واحتجم بلحى جمل وهو عقبة الجحفة ونزل السقياء يوم الأربعاء، وأصبح بالأبواء، وصلى هناك ثم راح من الأبواء ونزل يوم الجمعة الجحفة، ومنها إلى قديد وسبت فيه، وكان يوم الأحد بعسفان، ثم سار فلما كان بالغميم اعترض المشاة فصفوا صفوفاً فشكوا إليه المشي، فقال: «استعينوا بالنسلان - مشي سريع دون العدو» ففعلوا فوجدوا لذلك راحة، وكان يوم الاثنين بمر الظهران فلم يبرح حتى أمسى وغربت له الشمس بسرف فلم يصل المغرب حتى دخل مكة، ولما انتهى إلى الثنيتين بات بينهما فدخل مكة نهار الثلاثاء. (الإمتاع للمقريزي ص513-517.)

فلما قضى مناسكه وانصرف راجعاً إلى المدينة ومعه من كان من الجموع المذكورات ووصل إلى غدير خم من الجحفة التي تتشعب فيها طرق المدنيين والمصريين والعراقيين، و ذلك يوم الخميس (في لفظ البراء بن عازب وبعض آخر من

رواة حديث الغدير) الثامن عشر من ذي الحجة نزل إليه جبرئيل الأمين عن الله بقوله: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾. وأمره أن يقيم علياً علما للناس ويبلغهم ما نزل فيه من الولاية وفرض الطاعة على كل أحد، وكان أوائل القوم قريباً من الجحفة، فأمر رسول الله أن يرد من تقدم منهم ويحبس من تأخر عنهم في ذلك المكان، ونهى عن سمرات خمس متقاربات دوحات عظام أن لا ينزل تحتهن أحد، حتى إذا أخذ القوم منازلهم فقم ما تحتهن، حتى إذا أخذ القوم منازلهم فقم ما تحتهن حتى إذا نودي بالصلاة صلاة الظهر عمد إليهن فصلى بالناس تحتهن، وكان يوما هاجراً يضع الرجل بعض ردائه على رأسه وبعضه تحت قدميه من شدة الرمضاء، وظلل لرسول الله بثوب على شجرة سمرة من الشمس، فلما انصرف صلى الله عليه وآله من صلاته قام خطيباً وسط القوم (في لفظ الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد ج 9 ص 156 وغيره) على أقتاب الإبل (ثمار القلوب ص511 وغيره) وأسمع الجميع، رافعاً عقيرته فقال:

«الحمد لله ونستعينه ونؤمن به، ونتوكل عليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، الذي لا هادي لمن ضل، ولا مضل لمن هدى، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله ـ أما بعد ـ: أيها الناس قد نبأني اللطيف الخبير أنه لم يعمر نبي إلا مثل نصف عمر الذي قبله، وإني أوشك أن أدعى فأجبت، وإني مسؤول وأنتم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلغت ونصحت وجهدت فجزاك الله خيراً، قال: «ألستم تشهدون أن لا إله إلا الله، و أن محمدا عبده ورسوله، وأن جنته حق وناره حق وأن الموت حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور؟» قالوا: بلى نشهد بذلك، قال: «اللهم اشهد»، ثم قال: «أيها الناس ألا تسمعون؟» قالوا: نعم، قال: «فإني فرط على الحوض، وأنتم واردون علي الحوض، وإن عرضه ما بين صنعاء وبصرى فيه أقداح عدد النجوم من فضة فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين» فنادى مناد: وما الثقلان يا رسول الله؟ قال: «الثقل الأكبر كتاب الله طرف بيد الله عز وجل وطرف بأيديكم فتمسكوا به لا تضلوا، والآخر الأصغر عترتي، وإن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض فسألت ذلك لهما ربي، فلا تقدموهما

فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا››، ثم أخذ بيد علي فرفعها حتى رؤي بياض آباطهما وعرفه القوم أجمعون، فقال: ‹‹أيها الناس من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟›› قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ‹‹إن الله مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم فمن كنت مولاه فعلي مولاه›› يقولها ثلاث مرات، وفي لفظ أحمد إمام الحنابلة أربع مرات، ثم قال: ‹‹اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وأحب من أحبه، وأبغض من أبغضه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار، ألا فليبلغ الشاهد الغائب››، ثم لم يتفرقوا حتى نزل أمين وحي الله بقوله: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي﴾ الآية، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ‹‹الله أكبر على إكمال الدين، وإتمام النعمة، ورضى الرب برسالتي، والولاية لعلي من بعدي››، ثم طفق القوم يهنئون أمير المؤمنين صلوات الله عليه، وممن هنأه في مقدم الصحابة الشيخان أبو بكر وعمر كل يقول: بخ بخ لك يا بن أبي طالب أصبحت وأمسيت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة، وقال ابن عباس: وجبت والله في أعناق القوم.

أقول: كلمة النبي(ص) ‹‹أنه لم يعمر نبي إلا مثل نصف عمر الذي قبله›› غير مفهومة إذا أخذت بلفظها لأن ذلك سيجعل من عمر المسيح(ع) أكثر من مائة وعشرين سنة، وهو خلاف المعروف، كما سيوصل أعمار الأنبياء الماضين(ع) إلى أرقام فلكية، فلعل في الجملة بعض التغيير أو أن فيها معنى ما.

وروى النسائي (تهذيب خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ص 50 – 51) بسنده عن زيد بن أرقم قال: "لما رجع النبي صلى الله عليه وسلم من حجة الوداع، ونزل غدير خم، أمر بدوحات فأقمن، ثم قال:

‹‹كأني دعيت فأجبت، وإني تارك فيكم الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض››، ثم قال: ‹‹إن الله مولاي، وأنا مولى كل مؤمن››، ثم أخذ بيد علي رضي الله عنه، فقال: ‹‹من كنت وليه فهذا وليه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه››، فقلت لزيد: سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه ما كان في الدرجات أحد، إلا رآه بعينه، وسمعه بأذنيه".

مصادر الحديث

أما مصادر الحديث فكثيرة، رواها:

من المحدثين الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ج4 ص281، والبيهقي في سننه (يذكر في ج10 ص14 يذكر حديثاً لعلي(ع) يذكر فيه تعميم النبي(ص) له في يوم الغدير بعمامة، وهي إشارة إلى مناسبة حافلة وإلا ما معنى إلباسه عمامة؟)، والهيثمي في مجمع الزوائد ج1 ص9 وغيرها، والبخاري في تاريخه ج1 ص374 رواية 1191 و ج4 ص193 رواية 2458 و ج6 ص240 رواية 2277 (ولكنه لم يروه في الجامع الصحيح، وهذا واحد من العديد من الأحاديث التي رواها البخاري في تاريخه ولكنه لم يروها في الجامع المسمى صحيح البخاري مما ندعو القارئ أن يلتفت إلى حقيقة أن ليس كل حديث لم يروه البخاري، أو مسلم، في الصحيحين ليس صحيحاً)، والذهبي في تذكرة الحفاظ من طرق عديدة منها ج1 ص10 و ج3 ص1043.

ومن المفسرين الطبري في تفسيره ج3 ص428، والثعلبي في تفسيره، والفخر الرازي في تفسيره ج3 ص636، ومن المتأخرين الآلوسي في تفسيره ج6 ص61.

ومن المؤرخين الشهرستاني في الملل والنحل، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق من عشرات الروايات في الأجزاء 13 و 18 و 25 و 42، وفي سير أعلام النبلاء من طرق عديدة منها ج8 ص334 و ج13 ص340 و ج19 ص328 والتي فيها يبخبخ عمر لعلي مهنئاً. ومن المتأخرين السمهودي في وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ج2 ص173 وهو من أهم كتب المتأخرين في تاريخ المدينة المنورة، وكثير غيره.

(أنظر الملحق للمزيد من المصادر.)

الرواة من الصحابة والتابعين

هذه الروايات تنتهي إلى ابن عباس وأبي هريرة والبراء بن عازب وزيد بن أرقم وعلي(ع) وأبي الهيثم بن التيهان وأبي أيوب الأنصاري وعدي بن حاتم الطائي والمقداد بن الأسود وآخرين، عد الباحثون منهم 110 من الصحابة و 84 من التابعين. وهذه الأعداد الغفيرة من الرواة لم تقيض لحديث شريف، وما ذلك إلا

لكثرة من حضر ذلك اليوم المشهود من المهاجرين والأنصار وغيرهم ممن أسلم بعد فتح مكة ومن وافى النبي(ص) في حجة الوداع.

بيعة وبالمصافحة ثلاثاً

بعد هذه الخطبة، لم يكتف النبي(ص) بالأمر الشفهي، بل أمر بالبيعة لفظاً وفعلاً وذلك بمصافحة علي(ع).

روى الطبري في كتابه "الولاية" الحديث عن زيد بن أرقم أن أول من صافح النبي(ص) وعلياً(ع) هم أبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وكبار باقي المهاجرين والأنصار، ثم باقي الناس، إلى أن صلى الظهرين ثم بعد ذلك إلى أن صلى العشاءين، وأنهم استمروا في البيعة والمصافقة ثلاثاً. وذكروا القول الذي اشتهر من تهنئة الشيخين لعلي(ع) (كما ذكره ابن حجر عن الدارقطني في الفصل الخامس من الباب الأول من الصواعق) أن الشيخين قالا لعلي(ع): "أمسيتَ يا ابن أبي طالب مولى كل مؤمن ومؤمنة." ومثله قول عمر "طوبى لك يا أبا الحسن أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة".

في آية البلاغ

قال السيد شرف الدين (المراجعات المراجعة 56) في إثبات أن الآية الكريمة ﴿يا أيُّها الرَّسولُ بَلِّغْ ما أُنزِلَ إليكَ مِنْ رَبِّك وإنْ لَم تَفعلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ واللهُ يَعصِمُكَ مِن النّاس﴾ (المائدة:67) أنها نزلت في غدير خم. قال: "لا كلام عندنا في نزولها بولاية علي يوم غدير خم وأخبارنا في ذلك متواترة عن أئمة العترة الطاهرة. وحسبك مما جاء في ذلك من طريق غيرهم ما أخرجه الإمام الواحدي في تفسير الآية من سورة المائدة ص150 من كتابه أسباب النزول من طريقين معتبرين عن عطية عن أبي سعيد الخدري قال: نزلت هذه الآية ﴿يا أيُّها الرَّسولُ بَلِّغْ ما أُنزِلَ إليكَ مِنْ رَبِّك﴾ يوم غدير خم في علي بن أبي طالب. قلتُ (أي شرف الدين): وهو الذي أخرجه الحافظ أبو نعيم في تفسيرها في كتابه نزول القرآن في سندين أحدهما عن أبي سعيد والآخر عن أبي رافع. ورواه الإمام إبراهيم بن محمد الحمويني الشافعي في كتابه

الفرائد بطرق متعددة عن أبي هريرة، وأخرجه الإمام أبو إسحق الثعلبي في معنى الآية من تفسيره الكبير بسندين معتبرين. ومما يشهد له أن الصلاة كانت قبل نزولها قائمة والزكاة مفروضة والصوم كان مشروعاً والبيت محجوجاً والحلال بيّناً والحرام بيّناً والشريعة متسقة وأحكامها مستتبة، فأي شيء غير ولاية العهد يستوجب من اللّه هذا التأكيد ويقتضي الحث على بلاغه بما يشبه الوعيد، وأي أمر غير الخلافة يخشى النبي الفتنة بتبليغه ويحتاج إلى العصمة من أذى الناس بأدائه؟"

دلالة حديث الغدير

مختصر مناقشة الأنطاكي رحمه الله

ناقش الأنطاكي (لماذا اخترت مذهب أهل البيت) المراد بكلمة "المولى"، وهو أكثر ما جرى حوله النقاش بعد أن يئس الخصم من رد حديث وواقعة الغدير كحقيقة تاريخية ثابتة وحديث مسند متواتر، فقالوا إن المراد من كلمة المولى الأولى بالتصرف كما في القرآن الكريم ﴿النّارُ هِيَ مَولاكُم﴾ (الحديد:15) أي أولى بكم، وقول المولى العبد أي الأولى في تدبيره والتصرف فيه. ويجيب بأن النبي(ص) عيّن هذا المعنى من كلمة المولى عندما قال أولاً: ‹‹ألستُ أولى بكم من أنفسكم›› فصرّح به بالأولوية ثم أعقبه من دون فصل بقوله: ‹‹من كنتُ مولاه فهذا علي مولاه›› أي من كنتُ أولى به من نفسه فعلي أولى به من نفسه، فيكون علي(ع) أولى بالتصرف في أمورهم ولا يكون أولى إلا إذا كان خليفة وإماماً، وهذا نص صريح في إرادة رئاسته الدين والدنيا، إذ أن الأولى بنفس الأمة منهم هو النبي والإمام(ع)... فكما لا يجوز تقدم أحد على النبي(ص) فلا يجوز أيضاً تقدم أحد على علي(ع).

وأشار أيضاً إلى التهنئة من الصحابة لعلي(ع) لا معنى لها لو أنهم لم يفهموا منها هذا المعنى وهو الإمامة والإمارة، لا معنى الناصر والنصرة الذي هو أمر معروف لديهم لأنه من لوازم علي وأوصافه نصرة المسلمين.

وردّ أخيراً مسألة معنى الحب والنصرة بأنها من الأمور التي لا تحتاج إلى بيان لأن القرآن قال:﴿والمُؤمِنونَ والمُؤمِناتُ بَعضُهُم أولياءُ بَعض﴾ (التوبة:71)

﴿أشِدّاءُ على الكُفّارِ رُحَماءُ بَينَهُم﴾ (الفتح:29) فلا ينزل الوحي بالطلب الشديد من النبي(ص) بأن يبلغ فيقوم بذلك في رمضاء ويحبس عشرات الألوف من الصحابة من أجل أن يبين أمراً واضحاً.

مناقشات البشري وشرف الدين رحمهما الله

أما السيد شرف الدين فقد ناقش ما أورده الشيخ سليم البشري في المراجعة 57 (كتاب المراجعات) الذي قال: "حمل الصحابة على الصحة يستوجب تأويل حديث الغدير، متواتراً كان أم غير متواتر، ولذا قال أهل السنة لفظ المولى يستعمل في معاني متعددة ورد بها القرآن العظيم، فتارة يكون بمعنى "الأولى" كقوله تعالى مخاطباً الكفار: ﴿مَأواكُم النّارُ هِيَ مَولاكُم﴾ أي أولى بكم، وتارة بمعنى "الناصر" كقوله عز إسمه: ﴿ذلكَ أنَّ اللهَ مَولى الّذينَ آمَنوا وأنَّ الكافِرينَ لا مَولى لَهُم﴾، وبمعنى "الوارث" كقوله سبحانه: ﴿ولِكُلٍّ جَعَلنا مَوالِيَ مِمّا تَرَكَ الوالِدانِ والأَقرَبُون﴾ أي ورثة، وبمعنى "العُصبة" نحو قوله عز وجل: ﴿وإنّي خِفْتُ المَوالِيَ مِنْ وَرائِي﴾، وبمعنى "الصديق": ﴿يَومَ لا يُغنِي مَولىً عَنْ مَولىً شيئاً﴾، وكذلك لفظ الولي يجيء بمعنى "الأولى بالتصرف" كقولنا فلان وليّ القاصر، وبمعنى "الناصر والمحبوب"، قالوا فلعلّ معنى الحديث "من كنت ناصره أو حبيبه فإن علياً كذلك"، وهذا المعنى يوافق كرامة السلف الصالح وإمامة الخلفاء الثلاثة رضي الله عنهم أجمعين".

أي أن الهدف من تأويل حديث الغدير هو حمل الصحابة على الصحة في تعاملهم مع الحديث النبوي، وبالتالي فإن القضية انعكست: بدلاً من أن تكون النظر في مدى موافقة فعل الصحابة لحديث النبي(ص) صارت النظر في مدى موافقة دلالة حديث النبي(ص) – أي الحديث ذاته في الواقع – لفعل الصحابة!

فكان مما أجاب به السيد شرف الدين تفنيداً لهذا القول ما استغرق المراجعة 58، ما يمكن تلخيصه بما يلي: أن النبي(ص) لا يمكن أن يكون...

(1) قد أوقف كل هذه العشرات من الألوف عن المسير في ذلك اليوم الحارّ، (2) وانتظاراً لأن يصل المتأخرون منهم، (3) ودعا لأن يعود المتقدمون منهم، (4)

ثم ينعى نفسه ويقول أنه ‹‹يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب وأني مسؤول وإنكم مسؤولون›› أي أن هناك شيئاً يجب أن يبلغه النبي(ص) وأنهم مسؤولون عن ذلك أيضاً، (5) ثم يشهدهم بأصول الإسلام من الشهادة لله تعالى بالوحدانية وللنبي بالرسالة وبالجنة والنار والموت والساعة، (6) ثم بعد ذلك مباشرة يأخذ بيد علي ويقول أن ‹‹الله مولاي وأنا مولى المؤمنين ومن كنت مولاه فهذا علي مولاه››...

فيتساءل السيد شرف الدين عن سبب هذا الاهتمام العظيم من النبي(ص) وعن المهمة التي احتاجت إلى كل هذه المقدمات وهذا التأكيد وأي أمر اقتضى الحض على التبليغ من هذا النوع من الخطاب الإلهي في قوله تعالى: ﴿يا أيُّها الرَّسولُ بَلِّغْ ما أُنزِلَ إليكَ مِنْ رَبِّك وإنْ لَم تَفعلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ واللهُ يَعصِمُكَ مِن النّاس﴾ فأي أمر يحتاج النبي إلى تبليغه ويحتاج إلى عصمة الناس من المنافقين ببيانه؟ فهل يمكن أن النبي(ص)، وهو سيد الحكماء وخاتم الأنبياء،أراد أن يبيّن من ذلك نصرة علي للمسلمين وصداقته لهم؟ثم يقول بأن الذي يناسب هذا المقام وهذه الأفعال يوم الغدير إنما هو تبليغ العهد وتعيين القائم مقامه من بعده، فالحديث مع ما به من نص جلي والقرائن عليه لا يقبل التأويل.

الحفاظ على كرامة السلف الصالح

في المراجعة 59 بعد أن سلّم الشيخ البشري بحديث الغدير وبثبوته فإنه طلب النظر في تفسير هذا الحديث على ما فسره بعض العلماء كابن حجر في الصواعق والحلبي في تفسيره حيث قالوا: "سلّمنا أنه – أي علي – أولى بالإمامة فالمراد المآل وإلا كان هو الإمام مع وجود النبي(ص)، ولا تعرّض فيه لوقت المآل، فكأن المراد حين يوجد عقد البيعة له، فلا ينافي حينئذ تقديم الثلاثة عليه، وبهذا تحفظ كرامة السلف الصالح رضي الله تعالى عنه أجمعين".

أي أن الشيخ البشري يقول بأن علياً(ع) هو الإمام بعد أن يبايَع، أما قبل البيعة فلا يثبت حديث الغدير بأنه أولى من غيره، وإلا فمعنى ذلك أنه هو الإمام مع وجود النبي(ص)؟أي إذا كان هو أولى من غيره مطلقاً فمعنى ذلك هو أنه الأولى حتى من النبي(ص)، وبما أن ذلك مرفوض بالإجماع فإذاً سيكون المعنى أنه أولى بعد أن يبايَع، وبما أن أبا بكر وعمر وعثمان كلاً منهم بويع قبل أن يبايع علي(ع) فليس

هناك مشكلة في تقدمهم عليه وبهذا تحفظ كرامة السلف الصالح لأن المهم عند علماء أهل السنة أن هؤلاء لا يُخَطَّؤُون.

أجاب عنها السيد شرف الدين في مراجعة 60 بلقطات...

أولاً: أن هذا الكلام لا ينسجم مع حكمة النبي(ص) ولا بلاغته ولا أفعاله وأقواله يوم الغدير.

ثانياً: أن الأولوية المآلية لا تجتمع مع عموم الحديث لأنها تستوجب ألا يكون علي(ع) مولى الخلفاء الثلاثة، ولا مولى واحد ممن مات من المسلمين على عهدهم كما لا يخفى، وهذا خلاف ما حكم به الرسول(ص): ‹‹من كنت مولاه – يعني من المؤمنين فرداً فرداً – فعلي مولاه›› من غير استثناء كما ترى.

ثالثاً: بأن أبا بكر وعمر فهما ذلك عندما قالا لعلي: "أمسيتَ يا بن أبي طالب مولى كل مؤمن ومؤمنة"، أي مولى جميع المؤمنين والمؤمنات منذ أمسى مساء الغدير.

رابعاً: إذا كان البيان أن علياً(ع) بعد وجود عقد البيعة له بالخلافة يكون أولى بها فهو لا يمتاز عن غيره بشيء لأن كل من وجد عقد البيعة له كان عند علماء السنة أولى بها، فما الفضيلة التي أراد النبي(ص) أن يختص بها علياً(ع) دون غيره؟

خامساً: أن كرامة السلف الصالح يمكن أن تحفظ بدون هذا التأويل الذي لا يقبله عاقل.

لكن الشيخ البشري لم يجد ذلك ممكناً، حيث قال في المراجعة 83: "إن أولي البصائر النافذة والرؤية الثاقبة ينزهون الصحابة عن مخالفة النبي(ص) في شيء من ظواهر أوامره ونواهيه ولا يجوزون عليهم غير التعبد بذلك، فلا يمكن أن يسمع النص على الإمام ثم يعدل عنه أولاً وثانياً وثالثاً، وكيف يمكن حملهم على الصحة في عدولهم عنه مع سماعهم النص عليه؟".

فأوضح له السيد شرف الدين كيفية تعامل بعض الصحابة الكبار مع أوامر النبي(ص) ونواهيه بشكل يفرّق بين العبادات الخاصة بالفرد وبين الأمور المتعلقة بالأمة عموماً فقال ما ملخصه:

أولاً: أن الكثير من الصحابة كانوا يتعبدون بالنصوص، أي يتبعونها، إذا كانت متمحضة للدين مختصة بالشؤون الأخروية كما في استقبال القبلة في الصلاة والصيام والفرائض وهكذا، أما ما كان له علاقة بالسياسة كالإمارة وتدبير الدولة وشؤون الحكم والجيش فإنهم لم يكونوا يرون الالتزام به في جميع الأحوال بل كانوا يجتهدون في ذلك إذا كان فيه رفعاً لكيانهم أو نفعاً في سلطانهم. وأيضاً فإن قريشاً بالخصوص والعرب عموماً كانت تخشى من شدة وطأة علي(ع) على من يتعدى حدود الله وترهب عدله ومساواته بين الناس في كل قضية فلم يكن فيه لبعضهم مطمع.

ثانياً: أن قريشاً وسائر العرب كانوا يحسدون علياً(ع) على ما آتاه الله من فضله حيث بلغ رتبة عند الله ورسوله(ص) لا يصل إليها أحد.

ثالثاً: أن قريشاً وسائر العرب كانوا قد تشوقوا إلى تداول الخلافة في قبائلهم وطمعوا في ذلك، فعقدوا النية على نكث العقد ونقض العهد وفي هذه الحالة لا يمكن أن يذكروا النص على عليّ(ع)، فجعلوا الأمر بالاختيار ليكون لكلّ حيّ من أحيائهم أمل في الوصول إليها، في حين لو أنهم قبلوا بتقديم أمير المؤمنين بعد النبي(ص) مباشرة لما خرجت الخلافة من العترة الطاهرة لأنه عند ذلك كانت ستكون النصوص ثابتة مطبقة.

رابعاً: أن قريشاً والعرب لم يخضعوا للنبوة الهاشمية إلا بعد أن تهشّموا فكيف بعد ذلك يرضون باجتماع النبوة والخلافة في بني هاشم، الأمر الذي صرّح به الخليفة الثاني لابن عباس حيث قال: "إن قريشاً كرهت أن تجتمع فيكم النبوة والخلافة فتجحفون على الناس" وهو ما نقله ابن أبي الحديد في ج3 ص107 من شرح النهج وأوردها ابن الأثير في الكامل في التاريخ في ج3 أحوال عمر.

الموقف الصحيح لعلي(ع)

ومضى شرف الدين يقول بأن السلف الصالح لم يتسن له أن يقهرهم يومئذ على التعبّد بالنص فرقاً من انقلابهم إذا قاومهم وخشية من سوء العواقب، وقد ظهر النفاق بموت رسول الله(ص) وتضعضعت أركان الدين وانخلعت قلوب المسلمين فدبّ الخلاف بينهم فاختار أن يقدم الصالح العام على حقه الشخصي.

ولكنه أوضح أن أمير المؤمنين جمع بين حفظ الإسلام وحفظ حقه، حيث قعد في بيته ولم يبايع حتى أخرجوه كرهاً، لأنه لو أسرع إلى البيعة لما كان هناك حجة له لأنه ما اعترض عليهم أول الأمر.

تناسي النصوص والتحذير من ذكرها

وأخيراً قال بأن الخلفاء الثلاثة لعلهم لم يعتبروا هذه الأمور أمور السياسات والتأميرات كأمور دينية فهان عليهم مخالفته(ص) فيها، وحين تم لهم الأمر أخذوا بالحزم في تناسي تلك النصوص وأعلنوا الشدة على من يذكرها أو يشير إليها. ولمّا توفقوا في حفظ النظام ونشر دين الإسلام ولم يتدنسوا بشهوة علا أمرهم وعظم قدرهم وحسنت بهم الظنون وأحبتهم القلوب ونسج الناس في تناسي النص على منوالهم.

منهج تصحيح عمل الصحابة والحفاظ على كرامتهم

أقول: كلمة الشيخ البشري رحمه الله "حمل الصحابة على الصحة يستوجب تأويل حديث الغدير، متواتراً كان أم غير متواتر" تعطي صورة واضحة عن طريقة تناول النصوص المقدسة في أهل البيت(ع) حيث أن القوم لما فرغوا من تقرير أن الصحابة كلهم عدول ولا يجوز مطلقاً تناول أي منهم بنقد أو تخطئة وقعوا في فخ تأويل النصوص المقدسة الواضحة. بل إن الشيخ البشري يوجب تأويل الحديث حتى وإن كان متواتراً، وبالتالي لم يبق هناك مقياس علمي لوزن الأحاديث إذا ما كان الأمر يتعلق بالصحابة، وإنما موازين الجرح والتعديل والنقد والتخطئة تخص غيرهم من العالمين، حتى وإن كان البعض من غيرهم أشد إيماناً وأصدق عملاً كما يتضح لكل من قرأ بعض صفحات قليلة من كتب التاريخ والسيرة. فما لم ينته هذا القرار الخطأ بتصحيح عمل وقول كل صحابي وكأنه قول معصوم لن يتمكن أهل السنة من النظر نظرة موضوعية علمية للكثير من آيات الكتاب العزيز وأحاديث النبي الكريم(ص)، وبالتالي لن يتمكنوا من فهم موقف إخوانهم شيعة أهل البيت، لأنهم اضطروا هنا أيضاً أن يحملوا موقف الشيعة الناقد والمخطّئ لبعض الصحابة على محامل أخرى.

ومثل ذلك قوله "يوافق كرامة السلف الصالح" تعني أن كرامة الصحابة أهم من النصوص المقدسة. وهذا موقف عجيب، لأن هؤلاء السلف الصالح إنما جاءت مكانتهم من الدين، أي النصوص المقدسة، فكيف يصبح الفرع أهم من

الأصل بحيث يجب إخضاع الأصل من أجل المحافظة على الفرع الذي لولا الأصل لما كان له قيمة؟!

كيف نصدق إعراض الأمة بعد هذه البيعة العامة؟

من أقوى الشبهات على بيعة الغدير هو استبعاد، بل رفض إمكانية أن تدير الأمة ظهرها للحديث بعد بيعتهم العامة، بأمر رسول اللّه(ص) وتحت نظره، وهم عشرات الألوف ممن قدم مع النبي(ص) من المدينة والعدد الأكبر من سائر الجزيرة العربية. يقولون بأنه حتى إن استطاع أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ومن ناصرهم في سقيفة بني ساعدة أن يأخذوا الناس الموجودين بالبيعة فما بال الألوف من الصحابة من المهاجرين والأنصار في المدينة، وما بال عشرات الألوف من غيرهم، وكلهم شهد بيعة الغدير كما يزعم الشيعة؟ كيف يمكن حصول هذا الانقلاب والمدة الزمنية الفاصلة بين يوم الغدير ويوم وفاة النبي(ص) – أرواحنا فداه – أقل من ثلاثة أشهر؟

إحياء علي(ع) ليوم الغدير أيام خلافته

ثم قال شرف الدين: "وحسبك منها (أي الروايات) ما قام به أمير المؤمنين أيام خلافته، إذ جمع الناس في الرحبة (أي في مسجد الكوفة) فقال: «أنشد الله كل امرىء مسلم سمع رسول الله(ص) يقول يوم غدير خم ما قال إلا قام فشهد بما سمع، ولا يقم إلا من رآه بعينيه وسمعه بأذنيه»، فقام ثلاثون صحابياً فيهم اثنا عشر بدرياً فشهدوا أنه أخذه بيده فقال للناس: «أتعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟» قالوا: نعم، فقال(ص): «من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه، اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه» الحديث. وأنت تعلم أن تواطؤ الثلاثين صحابياً على الكذب مما يمنعه العقل، فحصول التواتر بمجرد شهادتهم إذاً قطعيّ لا ريب فيه، وقد حمل هذا الحديث عنهم كل من كان في الرحبة من تلك الجموع فبثّوه بعد تفرقهم في البلاد، فطار كل مطير".

ثم ألفت النظر إلى أمر مهم: "ولا يخفى أن يوم الرحبة إنما كان في خلافة أمير المؤمنين، وقد بويع سنة خمس وثلاثين، ويوم الغدير إنما كان في حجة الوداع سنة عشر، فبين اليومين في أقل الصور خمس وعشرون سنة، كان في خلالها طاعون

عمواس وحروب الفتوحات والغزوات على عهد الخلفاء الثلاثة، وهذه المدة وهي ربع قرن بمجرد طولها وبحروبها وغاراتها، وبطاعون عمواسها الجارف، قد أفنت جلّ من شهد يوم الغدير من شيوخ الصحابة وكهولهم، ومن فتيانهم المتسرعين في الجهاد إلى لقاء الله عز وجل ورسوله(ص)، حتى لم يبق منهم حيّاً بالنسبة إلى من مات إلا قليل، والأحياء منهم كانوا منتشرين في الأرض، إذ لم يشهد منهم الرحبة إلا من كان مع أمير المؤمنين في العراق من الرجال دون النساء، ومع هذا كلّه فقد قام ثلاثون صحابياً فيهم اثنا عشر بدرياً فشهدوا بحديث الغدير سماعاً من رسول الله(ص) ... ولو تسنّى له أن يجمع كل من كان حياً يومئذ من الصحابة رجالاً ونساءً ثم يناشدهم مناشدة الرحبة لشهد له أضعاف أضعاف الثلاثين، فما ظنك لو تسنّت له المناشدة في الحجاز قبل أن يمضي على عهد الغدير ما مضى من الزمن، فتدبّر هذه الحقيقة الراهنة تجدها أقوى دليل على تواتر حديث الغدير..." ثم ذكر مناشدة علي(ع) مما أخرجه الإمام أحمد في المسند (ج4 ص370) رواية أبي الطفيل عن زيد بن أرقم، وقول أبي الطفيل بعدها: "فخرجت وكأن في نفسي شيئاً فلقيت زيد بن أرقم فقلت له: إني سمعت علياً يقول كذا وكذا، قال زيد: فما تنكر؟ قد سمعت رسول الله(ص) يقول ذلك له". (نفس التساؤل رواه النسائي في الخصائص ص21.)

<u>إذاً كيف يحصل هذا؟</u>

علق شرف الدين بالقول: "سؤال أبي الطفيل ظاهر في تعجبه من هذه الأمة إذ صرفت هذا الأمر عن علي مع ما ترويه عن نبيها في حقه يوم الغدير، وكأنه شك في صحة ما ترويه في ذلك، فقال لزيد حين سمع روايته منه: أسمعته من رسول الله؟! كالمستغرب المتعجب الحائر المرتاب، فأجابه زيد بأنه لم يكن في الدوحات أحد على كثرة من كان يومئذ من الخلائق هناك إلا من رآه بعينيه وسمعه بأذنيه، فعلم أبوالطفيل حينئذ أن الأمر كما قال الكميت الأسدي في أبياته فيما بعد:

وَيَومَ الدَّوحِ دَوح غَديرِ خُمٍّ ... أبانَ لَهُ الخلافَةَ لَو أُطِيعا
ولكنَّ الرجالَ تَبايَعُوها ... فَلَمْ أرَ مِثلَها خَطَراً مُبِيعا
وَلَمْ أرَ مِثلَ ذاكَ اليومِ يوماً ... ولَمْ أرَ مِثلَهُ حَقّاً أُضِيعا"

أهم نقطة هنا هي عدم الالتفات إلى أن الذين حضروا البيعة كان أكثرهم من خارج المدينة، فإنه إن كان النبي(ص) قد فتح مكة بعشرة آلاف قبل ذلك بسنتين فلا يمكن أن يكون عدد الصحابة المدينيين قد زاد إلى أكثر من الضعف بعد سنتين فقط. فمن كان في المدينة عند وفاة النبي(ص) هم أقل بكثير ممن حضروا بيعة الغدير.

وحتى هذا الوصف ينبغي جعله أكثر دقة: هؤلاء هم الصحابة المدينيون، أي الذين اتخذوا المدينة وطناً، إما من سكنتها الأصليين من الأنصار وإما من الذين هاجروا إليها، أما الذين كانوا موجودين في المدينة بشكل فعلي فكانوا أقل من ذلك بكثير لأنهم كانوا في جيش أسامة بن زيد بن حارثة الذي كان النبي(ص) عبأه وعقد لواءه بيده الشريفة للخروج إلى مؤتة، الموقع الذي سقط فيه زيد بن حارثة، والد أسامة، شهيداً (مع جعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة والكثير ممن معهم)؛ وكان النبي(ص) قد حث حثاً شديداً على الخروج حتى روي أنه لعن من يتخلف عن جيش أسامة، الأمر الذي جعل باحثي الشيعة يذهبون إلى القول أن النبي(ص) أراد إفراغ المدينة من منافسي علي(ع) حتى يتم له الأمر بعد وفاة النبي(ص) دون مشاكل. المهم هو أن الغالبية الساحقة من الصحابة كانوا خارج المدينة.

وأما باقي المسلمين ممن حضر بيعة الغدير ممن هم سكنة الجزيرة العربية، فهؤلاء كانوا بعيدين عن الأحداث، وأنى لهم معرفة ما جرى، وكيف يجتمعون لنصرة علي(ع)؟ وحتى إن أرادوا فإن الأمر لرؤساء عشائرهم الذين ينظرون في مصالح العشيرة وبالتالي لا يمكن أن يضحوا بها دون التحقق من الأمر، فإذا وجدوا أن الأمر استتب لأبي بكر فلماذا القيام بمقاومة لم يقم بها أقرب الناس إلى علي(ع) من أهل المدينة الذين خذلوه بشكل مريع.

أضف إلى ذلك ما أعرفه شخصياً – من خلال الوضع العشائري لعشيرتنا ألبو عباس (أكبر عشائر سامراء) وغيرها من عشائر سامراء والعراق عموماً – مما لا يستطيع تقدير أهميته من لا معرفة له أو مشاهدة لما يجري في العشائر والقبائل بالخصوص عندما يتوفى الشيخ وتتم البيعة لمن يخلفه أن هذا الأمر يصبح من الصعب جداً تغييره. أذكر أنه عندما توفي عمي ثابت ماهر، وهو أخ والدي الأكبر، وشيخ ألبو كنعان أحد أفخاذ عشيرة ألبو عباس، وذلك في نيسان عام 1974م، أننا، بعد

الصلاة عليه في صحن الحضرة العسكرية المطهرة، ما أن عدنا من الدفن في مقبرة سامراء إلى بيته (الواقع في شارع البنك، في النهاية الأخرى من الشارع الذي تقع الحضرة العسكرية الشريفة في نهايته الثانية) إلا وكان رجال العشيرة وشبابها يطالبون بإعلان الشيخ الخلف له، على الرغم من أنهم يرون تأثر والدي وعمي الأصغر وولدي عمي المتوفى؛ وهكذا كان، وأعلن الشيخ الجديد دون تأخير. وهذا الحال لا يختلف في باقي العشائر، فيما أعلم، وبضمنها العشائر التي وصلت إلى حكم بلاد كاملة كما هو الحال مع ملوك وأمراء في الدول العربية. وبالتالي، فما أن بويع أبو بكر حتى صار الأمر شبه منته، وصار قريباً من المستحيل تغييره، الأمر الذي صرح به بعض الأنصار للزهراء(ع) عندما دارت مع علي(ع) والحسنين(ع) ليلاً تذكرهم ببيعتهم وعهدهم مع النبي(ص) (الإمامة والسياسة ج1 ص19)، فقالوا: "يا ابنة رسول الله قد مضت بيعتنا لهذا الرجل، ولو أن زوجك وابن عمك سبق إلينا قبل أبي بكر ما عدلنا به!"، مما جعل علياً(ع) يقول: «أفكنت أدع رسول الله صلى الله عليه وآله في بيته لم أدفنه، وأخرج أنازع الناس سلطانه؟!»، فتعلق الزهراء(ع): «ما صنع أبوالحسن إلا ما كان ينبغي له، ولقد صنعوا ما الله حسيبهم وطالبهم».

لماذا لم يحتج علي(ع) في يوم السقيفة بنصوص الخلافة والوصية؟

وهذه شبهة أخرى مهمة وقوية، فإن يوم السقيفة كان يوم وفاة النبي(ص)، أي بعد شهرين ونصف من يوم الغدير، وموضوع السقيفة هو الخلافة، أي موضوع الغدير بالذات، والذين تنازعوا الخلافة في السقيفة من المهاجرين والأنصار، ولم يذكر أحد منهم علياً(ع) (اللهم إلا بعض الأنصار عندما أخذوا يهتفون "لا نبايع إلا علياً"، والتي كانت – كما قال الشيخ المظفر (السقيفة) – بعد أن يئسوا منها أو "بعد خراب البصرة" كما عبّر)، فكيف لا يحتج علي(ع) في ذلك اليوم بنصوص الخلافة والوصية ولاسيما نصوص يوم الغدير؟

أجاب شرف الدين في المراجعة 102 (المراجعات) بالقول: "الناس كافة يعلمون وسائر أوليائه من بني هاشم وغيرهم لم يشهدوا البيعة ولا دخلوا السقيفة يومئذ، وكانوا في معزل عنها وعن كل ما كان فيها، منصرفين بكلهم إلى خطبهم

الفادح بوفاة رسول الله، وقيامهم بالواجب من تجهيزه(ص)، لا يعنون بغير ذلك، وما واروه في ضريحه الأقدس حتى أكمل أهل السقيفة أمرهم، فأبرموا البيعة وأحكموا العقد وأجمعوا – أخذاً بالحزم – على منع كل قول أو فعل يوهن بيعتهم أو يخدش عقدهم أو يدخل التشويش والاضطراب على عامتهم، فأين كان الإمام عن السقيفة وعن بيعة الصديق ومبايعيه ليحتج عليهم؟ ... وهل يتركونه وشأنه لو أراد ذلك؟".

وقد وجدت في قراءتي لنهج البلاغة (مجموعة خطب ورسائل وكلمات علي(ع) التي جمعها الشريف الرضي) الرسالة التي بعثها أمير المؤمنين إلى أهل مصر مع مالك الأشتر لما ولاّه الإمارة ليوضح لهم ما جرى (نهج البلاغة ج3 رسالة 62)؛ قال(ع): «فلمّا مضى – أي النبي(ص) – تنازع المسلمون الأمر بعده، فوالله ما كان يلقى في روعي ولا يخطر في بالي أن العرب تزعج هذا الأمر من بعده(ص) عن أهل بيته، ولا أنهم مُنحّوه عني من بعده، فما راعني إلا انثيال الناس على فلان يبايعونه، فأمسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمد(ص)، فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به علي أعظم من فوت ولايتكم التي إنما هي متاع أيام قلائل يزول منها ما كان كما يزول السراب أو كما يتقشع السحاب، فنهضت في تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق واطمأن الدين وتنهنه».

ماذا نفهم من قول علي(ع) هذا؟

(أولاً) ما كان مطروحاً مطلقاً أن خلافة النبي(ص)، أو "الأمر" كما يسميها علي(ع)، تتصدى لها مجموعة من خارج أهل البيت(ع)، ولا شخص غير علي(ع)، وهذا لا يمكن أن يكون إلا بوجود نص صريح من النبي(ص) أولاً، وبأن هذا النص معروف مشهور عند الأمة بحيث لا يمكن تخيل النكوص عنه ثانياً؛

(ثانياً) هذا الامتناع متوقع من "العرب" وليس من "قريش"، بمعنى أن علياً(ع) ربما كان ينتظر نصرة "العرب" له ومبايعته، في حين أن الأمر ليس كذلك مع "قريش"، ولاسيما ونحن نقرأ أقواله (نهج البلاغة) وغيره وهو يتشكى من قريش «اللهم إني أستعديك على قريش ومن أعانهم، فإنهم قطعوا رحمي، وصغروا عظيم منزلتي، وأجمعوا على منازعتي أمراً هو لي...» (الخطبة 172)؛

(ثالثاً) المفاجأة ببيعة أبي بكر؛

(رابعاً) توقفه عن المنازعة أو المطالبة بخلافته؛

(خامساً) حصول خطر كان من شأنه إنهاء الدين، وكان لا بد له أن يدعم أبا بكر لتحصين الجبهة الداخلية؛

(سادساً) أن الخلافة لم تكن تشكل عنده شيئاً، مع الانتباه أنه يسميها "ولاية" ما يؤكد حديث الغدير من جانب وما يحدد معناها كمسؤولية "الولاية على شؤون الناس" من جانب آخر؛

(سابعاً) أن قيامه بنصرة الخلافة أدى إلى دفع الخطر عن الإسلام وهزيمة الباطل.

إذاً، لم يحتج أمير المؤمنين(ع) يوم السقيفة بنص يوم الغدير لأنه لم يكن حاضراً في اجتماع السقيفة من أوله إلى آخره، ولأنه وجد أن يمسك يده عن المنازعة هو الأحوط (ولاسيما وقد رأى كيف أن القوم كانوا لا يبالون بالقيام بأي عمل من شأنه تقوية سلطانهم، فهجموا على بيته(ع)، وانتزعوا ملك زوجته(ع) وهي بنت نبيهم(ص) وقد ردوها عن طلبها رغم إقامتها الحجة القاطعة عليه)، وحافظ على نصوص القرآن والسنة في حقه وحق أهل البيت(ع)، وكان منتبهاً إلى ضرورة إحيائها والتذكير بها كلما سنحت الفرصة، كما في محاججاته مع أصحاب الشورى بعد وفاة عمر وكما في مناشدته في الرحبة.

بل لماذا لم يقاتلهم علي(ع)؟

هذه الشبهة رددها موسى جار اللّه في كتابه "الوشيعة في عقائد الشيعة" رد عليه السيد محسن الأمين في كتابه الجامع "نقض الوشيعة"، وقال في ص306 تعليقاً على قول جار الله هذا أن علياً(ع): "شيعته عنده وسيفه بيده"، قال: "ولو كان عند علي من شيعته من يغني عنه لنفعه قبل هذا الموقف ولم يكن عنده حمزة ولا جعفر ولا عبيدة. وسيفه لم يكن في يده بل في غمده لا يؤذن له بالسَّلّ، ولو فرض أنه كان حاضراً وسكت فقد سكت فيما هو أعظم من تلك الساعة. ومن عند كلامه على التقية أنه لم يكن أعظم من موسى كليم الله حين قال: ﴿فَفَرِرتُ مِنكُم لَمّا

خِفتُكُم﴾، ولا من هارون حين قال: ﴿إِنَّ القَومَ استَضعَفُونِي وكادُوا يَقتُلُونَنِي﴾، ولا من لوط إذ قال: ﴿لَو أَنَّ لِي بِكُم قُوَّة﴾، ولا من محمد(ص) وقد فرّ من قومه لمّا تعاقدوا على قتله إلى الغار فاختفى فيه ثلاثاً ثم إلى المدينة مستخفياً..."

هل الولاية من أصول الدين؟

من الأمور الخلافية بين الشيعة والسنة هو مسألة الإمامة والولاية هل هي من أصول الدين أو فروعه، فإن أهل السنة يعتبرونها من الفروع على أساس أن الأصول هي ثلاثة: التوحيد والنبوة والمعاد، أما الشيعة فإنهم يعتبرونها من الأصول، وإن كانت أصلاً منبثقاً من أصل النبوة (كما هو العدل الإلهي المنبثق من أصل التوحيد). هذه مسألة حساسة وداعية للتكفير كما هو واضح. إلا أن الأمر لا يصل إلى هذا:

هو أن الله تعالى علماً منه بما سيجري من أحداث، فإنه أنزل الأحكام لنبيه(ص) ولخلفائه بالحق من أهل البيت(ع) بعدم اعتبار من لا يؤمن بولاية علي وأولاده الطاهرين(ع) خارجاً عن الملة (وهذا غير الجحود، أي رفض الولاية بعد إقامة الدليل والاقتناع به) ؛

كما أن أهل السنة لم يروا عدم لياقة علي(ع) وأولاده(ع) لموقع الخلافة، وبالتالي فإن الأمر ليس موقفاً معادياً للولاة الحقيقيين المنصوص عليهم وإنما هو موقف قَبِلَ بغيرهم ممن تصدى للخلافة.

في تعليقة للسيد شرف الدين (المراجعات هامش المراجعة 56) حول سؤال النبي(ص) للجموع المجتمعة معه في غدير خم عن قوله: «أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأن جنته حق وأن ناره حق وأن الموت حق وأن البعث حق بعد الموت وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور؟» قالوا: بلى نشهد بذلك، قال: «اللهم اشهد» ثم قال: «أيها الناس إن الله مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنتُ مولاه فهذا مولاه»، علّق بما يلي: "تدبّر هذه الخطبة، من تدبّرها وأعطى التأمّل فيها حقه علم أنها ترمي إلى أن ولاية علي من أصول الدين كما عليه الإمامية، حيث سألهم أولاً فقال: «أليس

تشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله؟›› إلى أن قال: ‹‹وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور›› ثم عقّب ذلك بذكر الولاية ليعلن أنها على حدّ تلك الأمور التي سألهم عنها فأقرّوا بها، وهذا ظاهر لكل من عرف أساليب الكلام ومغازيه من أولي الأفهام".

(المزيد من المناقشات حول حديث الغدير في الملحق فراجعه.)

﴿أَنُلزِمكُمُوها وأنتُم لَهَا كارِهُون؟﴾

إن الخلافة كانت مسؤولية حُمِّلْها علي(ع) ورفض ذلك الآخرون، فراحوا يتنازعون عليها لأنفسهم (كما حدث مما سنأتي إلى ذكره فيما بعد)، فالنزاع والمناوءة كانت من جهة الآخرين لأنهم رأوا في الخلافة رفعاً لمنازلهم (كما في قول أبي بكر لأبيه أبي قحافة أن الإسلام رفع بيوتاً وخفض أخرى وكان بيت أبي قحافة – من خلال أبي بكر – من البيوت التي رفعت)، وجاهاً عريضاً (وهو ما استمر في بيت أبي بكر وعمر حيث صار لأم المؤمنين عائشة وأم المؤمنين حفصة ولعبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن عمر مكانة أكبر من غيرهم من معاصريهم)، وذكراً خالداً (وهو ما صار مسطوراً في كتب التاريخ، واليوم على جميع وسائل الإعلام والمعلومات)، وكلها أمور حصلت بالفعل لهم، في الوقت الذي ما كان بيت أبي طالب يحتاج إلى هذا فإنهم كانوا ذوي المنزلة والجاه والذكر القديم، وإن كان الإسلام قد رفع شأنهم أكثر وأكثر بمحمد(ص).

وهكذا، فإن خلافة علي(ع)، التي لو قبلها المسلمون لحققوا بها ما وعد به الله ورسوله(ص)، في الدنيا كأمة قائدة منصورة، وفي الآخرة على الصعيد الشخصي ‹‹ليدخلن الجنة أجمعين أكتعين››. ولكنهم رفضوها، وكان من مشيئة المولى تبارك وتعالى أن يترك الأمر للناس في حرية كاملة للالتفاف حول علي(ع) وأولاده(ع) ولكنهم، أو أكثرهم، ما أرادوا ذلك، فحق عليهم قول الزهراء(ع) التي خاطبتهم بما خاطب به نوح(ع) قومه: ﴿وَآتانِي رَحمَةً مِنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيكُم، أَنُلزِمكُمُوها وأنتُم لَها كارِهُون؟﴾ هود:28.

الفصل التاسع
العلم

"والله لقد أعطي علي بن أبي طالب تسعة أعشار العلم، وأيم الله لقد شاركهم في العشر العاشر!"

عبد الله بن عباس

مقدمة

علي(ع) والصحابة

أولاً: أحاديث النبي(ص) في علم علي(ع)

ثانياً: أحاديث النبي(ص) في قضاء علي(ع)

ثالثاً: ما قاله الصحابة في علم علي(ع)

رابعاً: ما قاله التابعون في علم علي(ع)

خامساً: في شهادة أئمة الفقه الأربعة في علم علي(ع)

سادساً: ما ادعاه علي(ع) نفسه

شذرات من علم علي(ع)

أولاد علي(ع) ومعاصروهم

تميّز أحاديث أهل البيت(ع)

موقع أحاديث أهل البيت(ع)

مما يفهمه كل إنسان – مهما كانت قابلياته الذهنية محدودة أو تحصيله العلمي قليلاً – قيمة العالم مقارنة بالجاهل، والأعلم مقارنة بالأقل علماً، بحيث تراه يفزع إلى سؤال من يتوخى فيه العلم عندما يواجه مسألة ما أو مشكلة تحتاج إلى من يرشده بشأنها. ولا يخرج العلم الديني عن هذا، بل نجد أن المجتمعات جميعاً تضع "عالم الدين" في منزلة مميزة فيها احترام لعلمه المفترض واحترام ما يمثله ذلك العلم من علاقة بالسماء.

وإذا كان الأمر كذلك مع علماء العصور المتأخرة فلا شك في أنه أكثر تركيزاً مع علماء العصور الإسلامية الأولى الذين كانوا أقرب إلى زمان التنزيل والتشريع. على هذا، تجد أن المذاهب الإسلامية المختلفة تأسست في تلك العصور الأولى وصار من الصعب جداً تغيير معظم ما تم تأسيسه.

ثم يصل الأمر إلى المرحلة الأهم وهي مرحلة التلقي من المعصوم الذي نزل عليه الوحي، أي النبي محمد(ص)، والتي كان ولا يزال منشأ الخلاف فيها حول الجهة أو الجهات التي ينبغي الاعتماد عليها لمعرفة ما جاء به النبي(ص) من تفسير للقرآن الكريم وتبيان لآياته وأحكامه ونظمه الأخلاقية. تلك المرحلة هي مرحلة الصحابة، وتتداخل معها بشكل ما مرحلة التابعين.

وبما أني كنت من أهل السنة فقد كان المترسخ عندي هو أن الصحابة كلهم علماء، كونهم رأوا النبي(ص) وسمعوا حديثه وعايشوه، فكان التلقي المباشر منهم، مع صدقهم وإخلاصهم الكامل، جميعهم دون استثناء، كفيلاً بإحراز الثقة التامة بما نقلوه لنا. نعم، كان هناك ما يعلم أنه غير معقول أو ضعيف الشكل مما كان يجري التندر حوله أحياناً، إلا أن الغالب هو الأول. وكحال أهل السنة، فإن الترتيب الاستخلافي بعد النبي(ص) جعل من الترتيب في كل فضيلة يجري مجرى ذلك الاستخلاف، بحيث أن أبا بكر أفضل من عمر في كل فضيلة، وعمر أفضل من عثمان في كل فضيلة، وعثمان أفضل من علي(ع) في كل فضيلة؛ مع أننا سمعنا أن النبي(ص) قال في حق علي(ع) أنه باب مدينة علمه، ولكن حديث النبي(ص) شيء والمترسخ في الأذهان شيء آخر.

ولا شك في أن العلم هو من أهم المؤهلات للحكم، فكيف بالحكم في إطار خلافة النبي(ص)، لذا فإن من أهم ما اطلعت عليه في مسيرة التعرف على مذهب أهل البيت(ع) هو المنزلة الفريدة لعلي(ع) في علمه الذي ورثه من النبي(ص) مما كان تعليماً مباشراً منه(ص) ومما كان استخداماً لهذا العلم لتعليم الناس الحكم الشرعي. ومن عجيب ما وجدت أن الخلفاء الثلاثة الذين سبقوا علياً(ع)، ممن يعدهم أهل السنة أكثر علماً منه(ع)، صرحوا بأعلميته وبأنهم لم يكونوا ليستغنوا عن علمه وتبيانه لما كان يشكل عليهم ولاسيما عمر وعثمان بسبب طول مدة خلافتهما والتغيرات الكبيرة التي طرأت على الأمة الإسلامية نتيجة للفتوحات وأمور أخرى.

علي(ع) والصحابة

أولاً: أحاديث النبي(ص) في علم علي(ع)

(1) **حديث مدينة العلم**، وهو قول النبي(ص): «أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها».

من مصادر الحديث مستدرك الحاكم ج3 ص126 عن ابن عباس أن النبي(ص) قال: «أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد المدينة فليأت الباب» وهو حديث صحيح على شرط الشيخين البخاري ومسلم. وتاريخ بغداد ج2 ص377 رواية عن جابر بن عبد الله. وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص170، وأيضاً في جامعه الصغير ج1 ص364.

ورواه ابن حجر في ص37 من الصواعق، وابن عبد البر في الاستيعاب ج2 ص461، والذهبي في تلخيص المستدرك ج3 ص126، وابن الأثير في أسد الغابة ج4 ص220، وكثير كثير غيرهم.

بعد أن ذكر الأنطاكي الحديث (لماذا اخترت مذهب أهل البيت) خلص إلى أنه يجعل خلافة أمير المؤمنين(ع) بعد النبي(ص) مباشرة متعينة لأنه(ص) لم يوكل هذا الأمر، وهو نقل العلم عنه، إلى أي أحد من الصحابة غير علي(ع) لعدم أهلية أيّ منهم لمثل هذا العبء الثقيل.

(2) حديث تبيان العلم

وهناك حديث بصيغة أخرى أخرجه صاحب الكنز ج6 ص156 قوله(ص): ‹‹علي باب علمي، ومبيّن لأمتي ما أرسلت به من بعدي... ››، ذكره ابن حجر (الصواعق ص73).

ومشابه له ما أخرجه الحاكم في ج3 ص122 من المستدرك قول النبي(ص) لعلي(ع): ‹‹أنت تبيّن لأمتي ما اختلفوا فيه بعدي›› وقد رواه صاحب الكنز ج6 ص156 وأبو نعيم في حلية الأولياء ج1 ص63.

أقول: وهنا تفصيل في الفارق بين ما يبين ما أُرسل به النبي(ص) وما اختُلف فيه، فالأول يبين ما أُرسل به كتعليم الناس بوظيفته الشرعية كإمام في تعليمهم الأحكام الشرعية والأخلاقيات الدينية وغير ذلك، وأما الثانية فيفصل فيما يرد من اختلاف الناس في تلك الأحكام وغيرها مما يستجد من الأمور ولاسيما وأن الناس يبلغهم الاختلاف في النقل عن رسول الله(ص) من قبل أصحابه الذين لم يكونوا على درجة واحدة من القرب من النبي(ص) ولا من القابليات الذهنية في التلقي ولا في الأحوال النفسية مما له الأثر في إبلاغ ما سمعوه من السنّة.

ثانياً: أحاديث النبي(ص) في قضاء علي(ع)

كقول النبي(ص): ‹‹وأقضاهم علي بن أبي طالب›› سنن ابن ماجة باب فضائل أصحاب رسول الله(ص) ص14.

وعن الحسن عن النبي(ص): ‹‹وأقضاها – أي الأمة – علي››، وآخر ‹‹علي أقضى أمتي›› وآخر ‹‹أقضاها علي بن أبي طالب›› الاستيعاب لابن عبد البر ج1 ص8.

ثالثاً: ما قاله الصحابة في علم علي(ع)

روى ابن عبد البر في الاستيعاب ج2 ص462 عن ابن عباس القول: "والله لقد أعطي علي بن أبي طالب تسعة أعشار العلم، وأيم الله لقد شاركهم في العشر العاشر!"

وأكّد هذا أيضاً سعد بن أبي وقاص في قوله لرجل كان يشتم علي بن أبي طالب: "يا هذا علامَ تشتم علي بن أبي طالب؟ ألم يكن أول من أسلم؟ ألم يكن أول من صلّى مع رسول الله(ص)؟ ألم يكن أعلم الناس؟..." مستدرك الحاكم ج3 ص499.

وأخرج البيهقي في سننه ج5 ص59 أن عمر بن الخطاب رأى عبد الله بن جعفر في ثوبين وهو محرم فقال: "ما هذه الثياب؟" فقال علي(ع): ‹‹ما أخال أحداً يعلّمني السنة›› فسكت عمر، وما كان ليسكت إلا لعلمه أن علياً(ع) صادق فيما قال، وربما أيضاً لعلمه أن أحداً لن يصدقه لو أنه خالف علياً(ع).

وأيضاً أكّد ذلك الإمام الحسن(ع) في خطبته بعد وفاة أبيه(ع) قال: ‹‹لقد فارقكم رجل بالأمس لم يسبقه الأولون بعلم ولا يدركه الآخرون›› مسند أحمد ج1 ص199، وفي غيره أيضاً.

وقول ابن عباس وابن مسعود أن القرآن "نزل على سبعة أحرف ما منها حرف إلا له ظهر وبطن، وإن عند علي علم القرآن ظاهره وباطنه" (ينابيع المودة البابان 65 و 56).

وأما بخصوص القضاء، فقد عرف الصحابة أن النبي(ص) قال أن أقضى أمته هو علي(ع)، فاعترفوا بها. من ذلك ما كان يقوله عمر بن الخطاب: "وأقضانا علي"، صحيح البخاري كتاب التفسير باب قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أو نُنْسِها﴾ (البقرة:106)، والذي ذكره أيضاً الحاكم في المستدرك ج3 ص305 وأحمد في المسند ج5 ص113 وآخرون. ومن ذلك قول عمر أيضاً: "أقضانا علي بن أبي طالب"، في ذخائر العقبى ج2 ص98 ومشابه له في الصواعق المحرقة لإبن حجر ص78.

وحديث ابن مسعود في الاستيعاب (ج3 ص1104): "أعلم أهل المدينة بالفرائض علي بن أبي طالب". (أيضاً في أنساب الأشراف للبلاذري ص104، وتاريخ دمشق لابن عساكر ج42 ص405، وغيرهما.)

رابعاً: ما قاله التابعون في علم علي(ع)

ومن الشهادات المهمة الصادقة في علي(ع) هي شهادة معاوية الثاني ابن يزيد ابن معاوية عدو أمير المؤمنين(ع) حيث روى القندوزي الحنفي في ينابيع المودة باب 60 وغيره أنه تولّى الأمر بعد هلاك والده يزيد فقال: "إن هذه الخلافة حبل الله تعالى، وإن جدي معاوية نازع الأمر أهله ومن أحق به منه علي بن أبي طالب.."

وقال، على ما في "حياة الحيوان" للدميَري: "ألا إن جدي معاوية قد نازع في هذا الأمر من كان أولى به منه ومن غيره، لقرابته من رسول الله(ص) وعظم فضله وسابقته، أعظم المهاجرين قدراً وأشجعهم قلباً وأكثرهم علماً وأولهم إيماناً وأشرفهم منزلة وأقدمهم صحبة، إبن عم رسول الله(ص) وصهره وأخوه، زوّجه ابنته فاطمة وجعله لها بعلاً، إختاره لها وجعلها له زوجة باختيارها له، أبو سبطيه سيدي شباب أهل الجنة وأفضلَي هذه الأمة..." رواه الخوارزمي أيضاً.

وفي شهادة أخرى بشكل مختلف لطيف هو ما جرى على عهد عمر بن عبدالعزيز أن رجلاً حلف على امرأته بالطلاق في أن علياً خير هذه الأمة بعد نبيها(ص)، فقال أبوها بأنها طُلّقت – أي لا يؤمن بتفضيل علي على الآخرين – فجمع عمر الهاشميين والأمويين وعرض عليهم الحكم فقام هاشمي عقيلي وقال بأنها لم تطلق فقال عمر: "صدقتَ وبررتَ يا عقيلي"، ثم قال: "والله يا بني عبد مناف ما نجهل ما يعلم غيرنا وما بنا إلا عمىً في ديننا"، رواها ابن أبي الحديد في شرح النهج (بلفظ مختلف قليلاً) (ج20 ص225).

خامساً: في شهادة أئمة الفقه الأربعة في علم علي(ع)

إنه لمن الجميل أن يعلن العالم الفقيه رأيه بفضل أحد من الناس، ولكن ما وجدته عجيباً أن يكون رأي أئمة المذاهب السنية الأربعة في علي(ع) وفي أولاده ولاسيما الإمام الذي عاصرهم وطبقت شهرته الدنيا في وقته، أعني جعفر بن محمد الصادق(ع)، على هذه الشاكلة ثم يعرض أتباعهم، من علماء وغيرهم، عنهم!

أولاً: قال أبو حنيفة النعمان بن ثابت عن الإمام الصادق(ع): "أليس أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس"، مشيراً إلى تفضيل الإمام الصادق لقول أصحاب أبي حنيفة وأهل المدينة وثم ما يقوله أهل البيت(ع) في محضر أبي جعفر المنصور (ابن عدي في الكامل ج2 ص132، والذهبي في سير أعلام النبلاء ج6 ص258).

ثانياً: شهادة مالك بن أنس أنه قال: "ما رأت عين ولا سمعت أذن ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر الصادق فضلاً وعلماً وعبادة وورعاً" (مناقب آل أبي طالب ج3 ص372).

ثالثاً: شهادة محمد بن إدريس الشافعي في علي(ع)، قال: "ماذا أقول برجل أنكر أعداؤه فضله حسداً وطمعاً وكتم أحباؤه فضله خوفاً وفرقاً وفاض ما بين هذين ما طبّق الخافقين". واشتهرت له أبيات عديدة في مدح أهل البيت منها البيتان المشهوران في مسألة الصلاة على أهل البيت في التصلية:

كَفاكُمُ مِنْ عَظِيمِ القَدْرِ أنَّكُمُ   مَنْ لَمْ يُصَلِّ عَلَيكُمْ لا صَلاةَ لَهُ

رابعاً: وأما الإمام أحمد بن حنبل فروي عن ابنه عبد الله بن أحمد بن حنبل أنه قال: "كنت بين يدي أبي جالساً ذات يوم فجاءت طائفة من الكرخيين فذكروا خلافة أبي بكر، وخلافة عمر ابن الخطّاب، وخلافة عثمان بن عفان فاكثروا، وذكروا خلافة علي بن أبي طالب وزادوا فأطالوا، فرفع أبي رأسه إليهم فقال: يا هؤلاء قد اكثرتم في عليّ والخلافة، والخلافة وعليّ، إنّ الخلافة لم تزيّن عليّاً بل علي زيّنها" (تاريخ دمشق ج3 ص114).

وهذا تفضيل واضح لعلي(ع) على غيره، ولاسيما من باب الأهلية للخلافة.

وروى عنه ولده عبد الله أيضاً، على ما في كتاب طبقات الحنابلة ج2 ص120، قوله له: "علي بن أبي طالب من أهل بيت لا يقاس بهم أحد". وهذا فيه تفضيل لعلي(ع) وأهل بيته(ع) على الناس جميعاً.

سادساً: ما ادعاه علي(ع) نفسه

إشتهر قول علي(ع): ‹‹علّمني رسول الله(ص) ألف باب من العلم، واستنبطتُ من كل باب ألف باب›› على ما أخرجه الفخر الرازي في تفسير الآية: ﴿إنَّ اللهَ اصطَفى آدَمَ ونُوحاً وآلَ إبراهِيمَ وآلَ عِمرانَ على العالَمِين﴾ (آل عمران:33). أي: منحه الله تعالى، بتعليم النبي(ص)، علوماً لا حصر لها، ومنحه القدرة على الاستنباط. ولما كانت هذه الأبواب لا حصر لها – ألف باب كل باب يفتح ألف باب، وهو ليس رقماً محصوراً وإنما هو كناية عن الكثرة الكاثرة التي لا حد لها – فإنه(ع) يقول لنا أن عنده ما يحتاج إليه الناس في كل حين، وبالتالي لا بد من انتقال هذه العلوم عبر العصور حتى تتم الاستفادة منها، فلا بد إذاً من انتقالها إلى الأيدي الأمينة لأولاده وأحفاده(ع) من الذين هيئوا لهذه المهمة الخطيرة العظيمة؛ وإلا فلا فائدة من هذا التعليم الكبير الذي يزيد عن حاجة زمانه(ع).

وقال سعيد بن المسيّب: "ما كان أحد من الناس يقول سلوني غير علي بن أبي طالب" (رواه ابن الأثير في أسد الغابة ج4 ص22 وابن حجر في ص76 من الصواعق وغيرهما). أي أنه لم يكن أحد من الصحابة يمتلك الثقة الكاملة بحيث يعرض نفسه لأسئلة الناس كائناً ما كانت، إلا علياً(ع).

وأخرج ابن سعد في الطبقات ج2 القسم2 ص101 عن أبي الطفيل قال: قال علي(ع): ‹‹سلوني عن كتاب الله، فإنه ليس من آية إلا وقد عرفت بليل نزلت أم بنهار في سهل أم في جبل›› (رواه ابن حجر العسقلاني في الإصابة ج4 قسم 1 ص270 وابن عبد البر في الاستيعاب ج2 ص463).

وقال(ع): ‹‹لا تسألوني عن كتاب ناطق ولا سنّة ماضية إلا حدثتكم›› تفسير ابن جرير ج26 ص116.

وأخرج ابن سعد في الطبقات ج6 ص167 قول علي(ع): ‹‹يا أخا بني عامر سلني عمّا قال الله ورسوله، فإنا نحن أهل البيت أعلم بما قال الله ورسوله››. وهذا تعميم منه(ع) لدور أهل بيته(ع). كما أن فيها إلفاتاً إلى أن أهل البيت(ع) لا يتحدثون إلا من المصدر الأصلي المعصوم لا غيره.

وبالإضافة إلى الشريعة وأصول الدين والأخلاقيات، كان علمه(ع) يتضمن الإخبار بما يأتي. من ذلك ما ذكره ابن سعد في الطبقات ج5 ص30 ترجمة مروان بن الحكم أن علياً(ع) نظر إليه يوماً وقال: «ليحملنّ راية ضلالة بعدما يشيب صدغاه، وله إمرة كلحسة الكلب أنفه»، وفي نهج البلاغة (الخطبة 70) قوله(ع): «أما إنّ له إمرة كلعقة الكلب أنفه»؛ ونعلم أن مروان استخلف وقد صار شيخاً وأن خلافته لم تكن سوى سنة واحدة.

وبخصوص الخوارج أخرج الهيثمي في المجمع ج6 ص341 عن جندب حديثاً طويلاً فيه يُقال أن الخوارج قطعوا النهر فيقول علي(ع): «ما قطعوه... ولا يقطعوه، وليُقتلنّ دونه، عهد من الله ورسوله»؛ ثم يذكر قول علي(ع): «يا جندب أما إنه لا يُقتل منا عشرة ولا ينجو منهم عشرة» فحصل مثل ما قال(ع).

وبخصوص الحسين(ع) أخرج صاحب الرياض النضرة ج2 ص222 رواية الأصبغ ابن نباتة أنه وصل مع أمير المؤمنين(ع) والجيش إلى موضع قبر الحسين(ع) فقال: «ههنا مناخ ركابهم وههنا موضع رحالهم وههنا مهراق دمائهم، فتية من آل محمد(ص) يُقتلون بهذه العرصة تبكي عليهم السماء والأرض» وذكره ابن حجر في الصواعق ص115.

وهذا كله لم يتسن لأحد من الصحابة، فكان علي(ع) يتحدث بطريقة يتفرد بها عن غيره، فكأنما يقول للناس: كما كان النبي(ص) يخبر عن السماء وهو دليل على نبوته فإني أحدثكم عن النبي(ص) مما لم يحدثه(ص) به غيري فهو دليل على إمامتي وتقدمي على غيري. وإلا، ما فائدة معرفة علي(ع) بهذه الأمور المغيبة ونحن نعرف أنه لا علي(ع) ولا غيره يستطيع تغيير شيء بسيط مما شاء الباري تعالى حدوثه؟

شذرات من علم علي(ع)

بدأ الناس يسمعون عن علم علي(ع) بدءاً من حياة النبي(ص)، فقد روى الشيخ المفيد (كتاب الإرشاد) أنه "لما استقرت به الدار باليمن، ونظر فيما ندبه اليه رسول اللّه(ص) من القضاء والحكم بين المسلمين رفع إليه رجلان بينهما جارية يملكان رقّها على السواء، قد جهلا حظر وطئها، فوطئاها معاً في طهر واحد جهلاً بالتحريم،

فحملت (الجارية) ووضعت غلاماً، فاختصما إليه فيه)، فقرع على الغلام بإسميهما فخرجت القرعة لأحدهما، فألحق به الغلام، وألزمه نصف قيمته لأنه كان عبداً لشريكه، وقال: «لو علمت أنكما أقدمتما على ما فعلتماه بعد الحجة عليكما بحظره لبالغت في عقوبتكما»؛ وبلغ ذلك رسول اللّه(ص) فأمضاه وأقر الحكم به في الاسلام، وقال: «الحمد للّه الذي جعل فينا أهل البيت من يقضي على سنن داود(ع) وسبيله في القضاء، يعني به القضاء بالالهام»".

ثم بدأوا يتعرفون على ذلك العلم الجم الذي انطوى عليه أمير المؤمنين(ع) مباشرة بعد وفاة النبي(ص)، وهذا دليل – يضاف إلى الدليل من الحديث – على أن علياً(ع) كان أعلم الصحابة وبشكل جعلهم يحتاجون إليه بعد النبي(ص) على أية حال.

الصلاة على النبي(ص)

أول ما ظهر من علي(ع) هو التصرف حيال إقامة صلاة الميت على النبي(ص). فقد أخرج أبو نعيم في حلية الأولياء ج4 ص73 أن علياً(ع) كان قد سأل النبي(ص) عن ذلك فقال له: «يا علي أما الغسل فاغسلني أنت وابن عباس يصب عليّ الماء وجبريل ثالثكما، فإذا أنتم فرغتم من غسلي فكفّنوني في ثلاثة أثواب جدد، وجبريل(ع) يأتيني بحنوط من الجنة، فإذا أنتم وضعتموني على السرير فضعوني في المسجد واخرجوا عني، فإن أول من يصلّي عليّ الرب عز وجل من فوق عرشه ثم جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم الملائكة زمراً زمراً، ثم ادخلوا فقوموا صفوفاً لا يتقدّم عليّ أحد». فعندما كان ذلك فعلوا حتى وضعوه وأدخلوه المسجد وخرج الناس فقال علي(ع): «ولقد سمعنا في المسجد همهمة ولم نر لهم شخصاً، فسمعنا هاتفاً يهتف وهو يقول: أدخلوا رحمكم الله فصلّوا على نبيّكم، فدخلنا فقمنا صفوفاً كما أمرنا رسول الله(ص) فكبّرنا بتكبير جبريل وصلّينا على رسول الله(ص) بصلاة جبريل ما تقدّم منا أحد على رسول الله(ص)...» ودخل القبر علي(ع).

وأخرج ابن سعد في ج2 قسم 2 ص70 من الطبقات أنه لما وُضع النبي(ص) على السرير قال علي(ع): «لا يقوم عليه أحد لعلّه يؤمّ، هو إمامكم حيّاً وميتاً» فكان الناس يصلون عليه صفاً صفاً ليس لهم إمام وعلي(ع) قائم بحيال رسول الله(ص) يقول: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، اللهم إنا نشهد أن

قد بلّغ ما أُنزل إليه، ونصح لأمته، وجاهد في سبيل الله حتى عزّ الله دينـه، وتمّـت كلمته، اللهم فاجعلنا ممن يتّبع ما أنـزل اللـه إليـه، وثبّتنـا بعـده، واجمـع بيننـا وبينه››، فيقول الناس: "آمين آمين".

على عهد الخلفاء الثلاثة

وعلى عهد الخلفاء كان علي(ع) حلاّل المعضلات ومن عنده الرأي السديد الذي أخذوا به عندما كانوا لا يجدون ملجأ غيره أو أن الرأي الصحيح من علي(ع) لا من غيره.

من ذلك ما رواه المفيد (الإرشاد ج1 ص199) "أن رجلاً رفع الى أبي بكـر وقد شرب الخمر فأراد أن يقيم عليه الحد، فقال: إني شربتها ولا علم لي بتحريمها، لأني نشأت بين قوم يستحلونها، ولم أعلم بتحريمها حتى الآن، فارتج على أبـي بكـر الامر بالحكم عليه، فأشير عليه بسؤال أمير المؤمنين(ع) عـن ذلـك، فأرسـل إليـه مـن سأله، فقال(ع): ‹‹مُر رجلين ثقتين من المسلمين يطوفـان بـه علـى مجـالس المهـاجرين والأنصار يناشدانهم (اللّه) هل فيهم أحد تـلا عليـه آيـة التحـريم ... أو أخـبره بذلك عن رسول اللّه(ص)؟ فإن شهد بـذلك رجـلان مـنهم فـأقم عليـه الحـد، وإن لم يشهد أحد بذلك فاستتبه وخل سبيله››، ففعل ذلك أبـو بكـر، فلـم يشـهد (عليـه) أحد فاستتابه وخلى سبيله››.

ومن ذلك رجوع الخليفة الثاني عمر بن الخطاب إليه في حوادث عديدة، منها بخصوص حدّ شارب الخمر، حيث أخرج الإمام مالـك في موطّأه في كتـاب الأشـربة ص186 أن عمر بن الخطاب استشار في الخمر فقال علي(ع): ‹‹نرى أن يُجلد ثمـانين، فإنه إذا شرب سكر، وإذا سكر هذى، وإذا هذى افترى›› فجلد عمر في الخمر ثمانين.

أقول: والإستفادة هنا من حـد المفـتري ثمـانين جلـدة الـذي في قولـه تعـالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِـدُوهُمْ ثَمَـانِينَ جَلْـدَةً﴾ (النور:4)، فإن رمي المحصنات بالزنى دون إثبات عده القرآن افتراءء.

روي مثله في مستدرك الحاكم ج4 ص375 ومسند الشـافعي كتـاب الأشـربة ص166 وغيرهما.

ومن ذلك ما رواه مالك في الموطأ كتاب الحدود ص176 والبيهقي في سننه ج7 ص442 أن عثمان بن عفان أوتي بامرأة قد ولدت بولد في ستة أشهر فأمر بها أن تُرجم، فقال له علي(ع): ‹‹ليس ذلك عليها، إن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه: ﴿وحَملُهُ وفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهراً﴾ وقال: ﴿والوالِداتُ يُرضِعنَ أولادَهُنَّ حَولَينِ كامِلَينِ لِمَنْ أرادَ أنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ﴾ فالحمل يكون ستة أشهر فلا رجم عليها›› فبعث عثمان في أثرها فوجدها قد رُجمت.

والآخرون يرجعون إلى علمه أيضاً

من ذلك إرجاع عائشة أم المؤمنين السائلين إليه(ع)، كما في رواية مسلم في صحيحه كتاب الطهارة باب التوقيت في المسح على الخفين روى بسندين أن عائشة سئلت عن المسح على الخفّين قالت: "عليك بابن أبي طالب فاسأله".

ومن ذلك أن ابن عمر سئل عن رمي الجمار وشكّ في كم رمى فقيل له: "إئت ذلك الرجل، أي علي(ع)" فذهب فسأله (سنن البيهقي ج5 ص149).

إخباره بمقتله(ع)

أخرج ابن عبد البر في الاستيعاب ج2 ص680 حديثاً عن ابن أبي فضالة يحكي خروجه مع أبيه أبي فضالة وكان بدرياً إلى أن ذكر قول علي(ع): ‹‹لست ميتاً من وجعي هذا، إن رسول الله(ص) عهد إليّ أن لا أموت حتى أؤَمَّر، ثم تخضب هذه من هذه – أي لحيته من هامته –". روى ذلك أيضاً الإمام أحمد في المسند ج1 ص102 وذكر أن أبا فضالة قتل مع علي(ع) في صفين.

وأخرج إخباره(ع) بقتله الهيثمي في المجمع ج9 ص137 وابن سعد في الطبقات ج3 قسم1 ص22 و23 وصاحب الكنز ج6 ص157 وص398 وغيرهم.

مؤسس العلوم الإسلامية والعربية

وهذا كله ليس شيئاً إلى جانب تأسيس علي(ع) للعلوم الإسلامية، إما مباشرة، وإما من خلال أولاده(ع) من بعده. ولعل كلمات العلامة ابن أبي الحديد في مقدمة شرحه لكتاب الرضي "نهج البلاغة" ما يلخص ذلك...

قال: "وما أقول فى رجل تعزى إليه كل فضيلة، وتنتهى إليه كل فرقة وتتجاذبه كل طائفة، فهو رئيس الفضائل وينبوعها وأبو عذرها، وسابق مضمارها، ومجلّي حلبتها، كل من بزغ فيها بعده فمنه أخذ وله اقتفى، وعلى مثاله احتذى.

وقد عرفت أن أشرف العلوم هو العلم الإلهي لأن شرف العلم بشرف المعلوم، ومعلومه أشرف الموجودات. ومن كلامه (عليه السلام) اقتبس وعنه نقل وإليه انتهى ومنه ابتدأ.

فإن المعتزلة، الذين هم أهل التوحيد والعدل... ومنهم تعلم الناس هذا الفن، تلامذته وأصحابه، لأن كبيرهم واصل بن عطاء تلميذ أبي هاشم بن محمد بن الحنفية، وأبو هاشم تلميذ أبيه، وأبوه تلميذه عليه السلام.

وأما الأشعرية فإنهم ينتمون إلى أبي الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر الأشعري، وهو تلميذ أبي علي الجبائي، وأبو علي أحد مشايخ المعتزلة، فالأشعرية ينتهون بآخرة إلى أستاذ المعتزلة ومعلمهم، وهو علي بن أبي طالب عليه السلام.

وأما الإمامية والزيدية فانتماؤهم إليه ظاهر.

ومن العلوم علم الفقه، وهو عليه السلام أصله وأساسه، وكل فقيه في الإسلام فهو عيال عليه ومستفيد من فقهه.

أما أصحاب أبي حنيفة كأبي يوسف ومحمد وغيرهما فأخذوا عن أبي حنيفة. وأما الشافعي فقرأ على محمد بن الحسن، فيرجع فقهه أيضا إلى أبي حنيفة.وأما أحمد بن حنبل فقرأ على الشافعي، فيرجع فقهه ايضا إلى أبي حنيفة. وأبو حنيفة قرأ على جعفر بن محمد عليه السلام، وقرأ جعفر على أبيه عليه السلام، وينتهى الأمر إلى علي عليه السلام. وأما مالك بن أنس فقرأ على ربيعة الرأي، وقرأ عبد الله بن عباس على علي بن أبي طالب. وإن شئت فرددت إليه فقه الشافعي بقراءته على مالك كان لك ذلك. فهؤلاء الفقهاء الأربعة.

وأما فقه الشيعة فرجوعه إليه ظاهر.

وقد روت العامة والخاصة قوله عليه السلام: «أقضاكم علي». والقضاء هو الفقه، فهو إذا أفقههم. وروى الكل أيضاً أنه عليه السلام (أي النبي(ص)) قال له

وقد بعثه إلى اليمن قاضياً: «اللهم اهد قلبه وثبّت لسانه»، قال (أي علي(ع)): «فما شككت بعدها في قضاء بين اثنين». وهو عليه السلام الذي أفتى في المرأة التي وضعت لستة أشهر. وهو الذي أفتى في الحامل الزانية.

وهو الذي قال في المنبرية: «صار ثمنها تسعاً». وهذه المسألة لو فكر الفرضي فيها فكراً طويلاً لاستحسن منه بعد طول النظر هذا الجواب، فما ظنك بمن قاله بديهة، واقتضبه ارتجالاً. (قد أوضحت هذه المسألة حسابياً في النسخة الأصلية من الكتاب فلتراجع.)

ومن العلوم علم تفسير القرآن، وعنه أخذ ومنه فرع، وإذا رجعت إلى كتب التفسير علمت صحة ذلك، لأن أكثره عنه وعن عبد الله بن عباس، وقد علم الناس حال ابن عباس في ملازمته له، وانقطاعه إليه، وأنه تلميذه وخريجه. وقيل له: "أين علمك من علم ابن عمك علي؟ فقال: كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط".

ومن العلوم علم الطريقة والحقيقة وأحوال التصوف، وقد عرفت أن أرباب هذا الفن فى جميع بلاد الإسلام إليه ينتهون وعنده يقفون، وقد صرح بذلك الشبلي، والجنيد، وسري، وأبو يزيد البسطامي، وأبو محفوظ معروف الكرخي، وغيرهم.

ومن العلوم علم النحو والعربية، وقد علم الناس كافة أنه هو الذى ابتدعه وأنشأه وأملى على أبي الاسود الدؤلي جوامعه وأصوله، من جملتها: «الكلام كله ثلاثة أشياء: إسم وفعل وحرف»، ومن جملتها تقسيم الكلمة إلى معرفة ونكرة، وتقسيم وجوه الإعراب إلى الرفع والنصب والجر والجزم. وهذا يكاد يلحق بالمعجزات لأن قوة البشرية لا تفي بهذا الحصر ولا تنهض بهذا الاستنباط."

فالحمد للّه الذي هداني لمعرفة عبده (ع) الذي استقى علمه من المعين الصافي الذي لا يخطئ.

أولاد علي(ع) ومعاصروهم

ربما لا تجد من أهل السنة أحداً تذكر أمامه أحد الأئمة(ع) (وهو لا يعرف أكثرهم بالطبع) وتنسبه له فينكر فضله، بل المتوقع أنهم يعظمونهم ويجلونهم، أولاً

لأنهم من ذرية النبي(ص)، وثانياً لأنهم يتوقعون أن يكونوا من العلماء الكبار. ولكن لا يخطر ببالهم مسألة هامة: إذا كان هؤلاء النفر من ذرية النبي(ص) وصلوا أعلى المراتب في العلم والفقه، وباعتراف معاصريهم من مؤسسي المذاهب الأربعة، فكيف يتركون اتّباعهم ويتبعون أصحاب المذاهب الأربعة والمتفقهين على مذاهبهم عبر العصور؟ لا جواب، فلا سؤال يسأل.

وعندما اطلعت على أعيان هذه السلسلة الطاهرة عجبت من حال الأمة تترك الأفضل والأعلى والأبرز وتتمسك بالمفضول والأدنى والأقل. لا شك في أن مؤسسي المذاهب الأربعة وشيوخهم وطلابهم كانوا يتمتعون بقدرات علمية كبيرة،ولكن أن يكون الفقيه ذا قدرات علمية كبيرة شيء وأن يكون المتفرد والأعلى من الجميع شيء آخر.

تميّز أحاديث أهل البيت(ع)

ذكرنا قول علي(ع): «يا أخا بني عامر سلني عمّا قال الله ورسوله، فإنا نحن أهل البيت أعلم بما قال الله ورسوله»، وهو قول ما انفك الأئمة من ولده(ع) يعلنونه للناس وينبهونهم إليه حتى لا يذهبوا يميناً وشمالاً.

من ذلك قول الباقر(ع): «لو كنّا نحدث الناس برأينا وهوانا لهلكنا، ولكنا نحدثهم بأحاديث نكنزها عن رسول الله(ص) كما يكنز هؤلاء ذهبهم وفضتهم» بحار الأنوار ج2 ص122.

وقول الصادق(ع): «عجباً للناس يقولون أخذوا علمهم كلّه عن رسول الله(ص) فعلموا به واهتدوا به ويرون أنّا أهل البيت لم نأخذ علمه ولم نهتد به، ونحن أهله وذريته، في منازلنا أُنزل الوحي ومن عندنا خرج العلم إلى الناس، أفتراهم علموا واهتدوا وجهلنا وضللنا!» أمالي المفيد ص122. وهذا أعاد السؤال إلى ذهني: إذا كان الشيعة لا يتبعون أهل البيت(ع)، والسنة لا يدّعون ذلك، فأين علمهم(ع) الذي يتحدث عنه جعفر الصادق(ع)؟

وقوله(ع): «حديثي حديث أبي وحديث أبي حديث جدي وحديث جدي حديث الحسين وحديث الحسين حديث الحسن وحديث الحسن حديث جدي أمير

المؤمنين وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله وحديث رسول الله قول الله›› بحار الأنوار ج2 ص178.

وقوله(ع): ‹‹من حدّث عنا بحديث فنحن مسائلوه عنه يوماً، فإن صدّق علينا فإنما يصدّق على الله وعلى رسوله، وإن كذّب عنّا فإنما يكذب على الله وعلى رسوله، لأنا إذا حدثنا لا نقول قال فلان وفلان، إنما نقول قال الله وقال رسوله›› بحار الأنوار ج7 ص159؛ وفيه جانبان: الأول أن الأئمة(ع) يتحدثون عن الله ورسوله(ص) فلا يأخذون من العلماء والمحدثين الذين عاصروهم، بخلاف أولئك العلماء والمحدثين الذين كانوا يأخذون من غيرهم، والثاني هو التحذير ممن ينقل كلاماً ينسبه إلى الأئمة(ع) ويتعمد الكذب لأنه إن كان كاذباً فإنما ينسب أمراً كاذباً إلى النبي(ص) وإلى الله سبحانه، وهذا ما لا عذر فيه.

موقع أحاديث أهل البيت(ع)

إن الأئمة(ع) بعد أن نصبهم رسول الله(ص) مرجعاً إلى الأمة فإن الأحاديث الصحيحة الواردة عنهم تصبح ملزمة كما تلزم الأحاديث الواردة عن النبي(ص).

وهنا نذكر بعض ما جاء من حديث علي(ع) في هذا الشأن.

قال أمير المؤمنين: ‹‹فأين تذهبون؟ وأنّى تؤفكون؟ والأعلام قائمة والآيات واضحة والمنار منصوبة، فأين يتاه بكم؟ بل كيف تعمهون وبينكم عترة نبيّكم، وهم أزمّة الحقّ، وأعلام الدّين، وألسنة الصّدق، فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن وردوهم ورود الهيم العطاش›› نهج البلاغة خطبة 87.

وقال: ‹‹اُنْظُرُوا أَهْلَ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ فَالْزَمُوا سَمْتَهُمْ وَاتَّبِعُوا أَثَرَهُمْ فَلَنْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ هُدًى وَلَنْ يُعِيدُوكُمْ فِي رَدًى، فَإِنْ لَبَدُوا فَالْبُدُوا وَإِنْ نَهَضُوا فَانْهَضُوا، وَلاَ تَسْبِقُوهُمْ فَتَضِلُّوا وَلاَ تَتَأَخَّرُوا عَنْهُمْ فَتَهْلِكُوا›› نهج البلاغة خطبة 95.

وقال: ‹‹نحن شجرة النّبوة، ومحطّ الرسالة، ومختلف الملائكة، ومعادن العلم، وينابيع الحكم ...›› نهج البلاغة خطبة 109.

وقال: ‹‹أين الذين زعموا أنهم الرّاسخون في العلم دوننا، كذباً وبغياً علينا أن رفعنا الله ووضعهم، وأعطانا وحرمهم، وأدخلنا وأخرجهم، بنا يستعطى الهدى ويستجلى العمى؛ إنّ الأئمة من قريش غُرسوا في هذا البطن من هاشم لا تصلح على سواهم ولا تصلح الولاة من غيرهم›› نهج البلاغة خطبة 144.

وقال: ‹‹نحن النجباء وأفراطنا أفراط الأنبياء وحزبنا حزب اللّه عز وجل، والفئة الباغية حزب الشيطان، ومن سوّى بيننا وبين عدوّنا فليس منّا›› (كنز العمال ج11 ص356، والصواعق المحرقة ص142، وتاريخ مدينة دمشق ج42 ص458).

وهكذا، فإن النصوص التي أوردناها، من الكتاب، ومن السنة النبوية في الكتب المعتبرة عند أهل السنة، ومن ثم من كلام أمير المؤمنين(ع)، تثبت أن لأئمة أهل البيت(ع) – بغض النظر عن الاعتقاد بإمامتهم، أو بما تعنيه هذه الإمامة – منزلة من الأمة لا تصل إليها منزلة أحد غيرهم، وبالتالي فإنه مما لا غنى عنه للمسلم – وبغض النظر عن الاعتقاد بإمامتهم – الاطلاع على مستوى علمهم من جهة وطبيعة سيرتهم من جهة ثانية ليعلم أن ما توصلت إليه من الأخذ بمذهبهم قام على أساس متين من النظرية والتطبيق: ما أعلنه الكتاب وأعلنه النبي(ص) وما ادعوه هم لأنفسهم من جانب، ومن جانب آخر ما أعلنته المناظرات العلمية أو الحلول العلمية للمشكلات التي سئلوا عنها، وكلها تعلن عن علو كعبهم بتميز واضح عن غيرهم كائناً من كانوا وما أعلنته أفعالهم مع الأقربين والأبعدين وحتى مع المناوئين والأعداء عن علو نفوسهم ودرجة تقواهم وعدلهم، والتي عندما تقترن مع علمهم الجم ذاك، لا يمكن لأي عاقل أن يقبل – من باب المقارنة – بتقديم غيرهم عليهم.

وفيما يلي لقطات سريعة تعطي ضوءاً عن جوانب مختلفة من علوم الأحد عشر إماماً من ذرية محمد(ص)، والذين يتمون مع علي(ع) الإثني عشر إماماً الذين حدد عددهم النبي(ص).

الإمام الحسن بن علي(ع)

سئل(ع): "كم بين الحق والباطل؟" فأجاب: ‹‹أربع أصابع، فما رأيته بعينك فهو الحق وقد تسمع بأذنيك باطلاً كثيراً››؛ فسئل: "كم بين الإيمان واليقين؟" قال: ‹‹أربع أصابع، الإيمان ما سمعناه واليقين ما رأيناه››؛ فسئل: "كم بين السماء

والأرض؟" فقال: ‹‹دعوة المظلوم، ومدّ البصر››؛ ثم سئل: "كم بين المشرق والمغرب؟" فقال(ع): ‹‹مسيرة يوم للشمس›› (المناقب ج2 ص152).

الإمام الحسين بن علي(ع)

قال(ع) في دعاء عرفة المعروف باسمه الشريف: ‹‹كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟! متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟! ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟! عميت عين لا تراك عليها رقيباً...››.

الإمام علي بن الحسين زين العابدين(ع)

عندما كتب ملك الروم إلى عبد الملك بن مروان: "أكلت لحم الجمل الذي هرب عليه أبوك من المدينة! لأغزوّنك بجنود مائة ألف ومائة ألف ومائة ألف!" فاحتار عبد الملك ماذا يجيبه، فكتب إلى الإمام السجاد(ع) ليكتب له ما يراه مناسباً فقال الإمام السجاد(ع): ‹‹إن لله لوحاً محفوظاً يلحظه في كل يوم ثلاثمائة لحظة، ليس منها لحظة إلا يحيي فيها ويميت، ويعزّ ويذل، ويفعل ما يشاء، وإني لأرجو أن يكفيك منها لحظة واحدة!›› فكتب عبد الملك ذلك إلى ملك الروم فلما وصله قال: "ما خرج هذا إلا من كلام النبوة" (بحار الأنوار ج11 ص38).

الإمام محمد بن علي الباقر(ع)

وقال(ع) في معنى قوله تعالى: ﴿ما مَنَعَكَ أنْ تَسجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيّ﴾ (ص:75): ‹‹اليد في كلام العرب القوة والنعمة، قال الله تعالى: ﴿واذكُرْ عَبدَنا داوودَ ذا الأَيد﴾ ﴿والسَّماءَ بَنَيناها بأَيد﴾ أي بقوة، وقال: ﴿وأيَّدَهُم برُوحِ القُدُس﴾ أي قوّاهم، ويُقال: لفلان عندي يد بيضاء أي نعمة›› (تفسير البرهان ج4 ص64).

الإمام جعفر بن محمد الصادق(ع)

سأله الزنديق المعروف أبو شاكر الديصاني: "يا جعفر بن محمد دلّني على معبودي"، فطلب الإمام بيضة فأمسكها بيده وقال(ع): ‹‹يا ديصاني هذا حصن مكنون له جلد غليظ وتحت الجلد الغليظ جلد رقيق وتحت الجلد الرقيق ذهبة مائعة وفضة ذائبة، فلا الذهبة المائعة تختلط بالفضة الذائبة ولا الفضة الذائبة تختلط

بالذهبة المائعة، فهي على حالها، لا يخرج منها خارج مصلح فيخبر عن فسادها، ولا يُدرى أللذكر خلقت أم للأنثى، تنفلق عن أمثال الطواويس، أترى لها مدبراً؟!›› (الكافي ج1 ص80).

الإمام موسى بن جعفر الكاظم(ع)

وسأله أبو حنيفة عن المعصية ممن تكون (من العبد أم الرب)، فقال(ع): ‹‹إن السيئات لا تخلو من احدى ثلاث: إما أن تكون من الله وليست منه، فلا ينبغي للرب أن يعذب العبد عما لا يرتكب، وإما أن تكون منه ومن العبد وليست كذلك، فلا ينبغي للشريك القوي أن يظلم الشريك الضعيف، وإما أن تكون من العبد وهي منه، فإن عفا فبكرمه وجوده وإن عاقب فبذنب العبد وجريرته›› (توحيد الصدوق ص96) فقال أبو حنيفة فانصرفت ولم ألقَ أبا عبد الله واستغنيت بما سمعت (تحف العقول ص412) (حيث كان يريد مقابلة الإمام الصادق(ع) فاكتفى بجواب ولده الكاظم(ع)››.

الإمام علي بن موسى الرضا(ع)

سئل في مجلس المأمون من يحيى بن الضحاك السمرقندي كممثل عن الفقهاء والمتكلمين يناظروه في الإمامة، سأل: "نتكلم في الإمامة كيف ادُّعيت لمن لم يؤم – يعني علياً وأولاده – وتركت من أمّ – يعني الذين تقدموا على علي(ع) وغيرهم من خلفاء الأمويين والعباسيين – ووقع الرضا به؟ فأجاب الإمام أولاً بالقول: ‹‹يا يحيى أخبرني عمن صدق كاذباً على نفسه أو كذّب صادقاً على نفسه، أيكون محقاً مصيباً أو مبطلاً مخطئاً؟›› فسكت يحيى، فأمره المأمون بأن يجيب فطلب استعفاءه، فطلب المأمون من الإمام(ع) أن يوضح الغرض من سؤاله، فقال(ع): ‹‹لا بد ليحيى من أن يخبر عن أئمته أنهم كذبوا على أنفسهم أو صدقوا، فإن زعم أنهم كذبوا فلا إمامة لكذاب، وإن زعم أنهم صدقوا فقد قال أولهم: وليتكم ولست بخيركم، وقال تاليه: كانت بيعته فلتة، فمن عاد لمثلها فاقتلوه، فوالله ما رضي لمن فعل مثل فعلهم إلا بالقتل، فمن لم يكن خير الناس، والخيرية لا تقع إلا بنعوت منها العلم ومنها الجهاد ومنها سائر الفضائل، وليست فيه، ومن كانت بيعته فلتة يجب القتل على من فعل مثلها كيف يُقبل عهده إلى غيره، وهذه صورته، ثم يقول على المنبر إن لي

شيطاناً يعتريني فإذا مال بي فقوّموني وإذا أخطأت فأرشدوني؟! فليسوا أئمة بقولهم إن صدقوا أو كذبوا، فما عند يحيى في هذا جواب؟››، فقال المأمون: "يا أبا الحسن ما في الأرض من يحسن هذا سواك" (عيون أخبار الرضا ج2 ص232).

الإمام محمد بن علي الجواد(ع)

عندما جيء بسارق وأقرّ على نفسه عند الخليفة المعتصم قال أحمد بن أبي داوود القاضي ومع من معه من الفقهاء بأن ما يقطع في حد تلك السرقة هو الكرسوع، وهو طرف الزند الناتىء مما يلي الخنصر، على أساس أن آية التيمم تقول بمسح اليد وهي إلى طرف الساعد، في حين قال آخرون غير أحمد بن داوود أن القطع من المرفق على أساس قوله تعالى في آية الوضوء: ﴿وأَيدِيَكُم إلى المَرافِقِ﴾؛ فسأل المعتصم الإمام الجواد(ع) فقال بأنهم أخطأوا السنة لأن القطع يجب أن يكون من مفصل أصول الأصابع فيترك الكف، فسأله المعتصم عن الحجة في ذلك، فقال(ع): ‹‹قول رسول الله(ص) السجود على سبعة أعضاء الوجه واليدين والركبتين والرجلين، فإذا قطعت يده من الكرسوع أو من المرفق لم يبق لديه يد يسجد عليها، وقال الله تعالى: ﴿وأنَّ المَساجِدَ لله﴾ يعني به هذه الأعضاء السبعة التي يُسجد عليها، وما كان لله لا يُقطع›› (بحار الأنوار ج50 ص5).

الإمام علي بن محمد الهادي(ع)

كتب إليه رجل أن يعلمه دعوة جامعة للدنيا والآخرة، فكتب(ع) إليه: ‹‹أكثر من الاستغفار والحمد فإنك تدرك بذلك الخير كلّه›› (مآثر الكبراء ج3 ص173).

الإمام الحسن بن علي العسكري(ع)

قال(ع): ‹‹قلب الأحمق في فمه، وفم الحكيم في قلبه›› (تحف العقول ص489).

الإمام محمد بن الحسن المهدي(ع)

قال(ع)): ‹‹فقال الله تعالى: ﴿إخلع نعليك﴾، أي إنزع حب أهلك عن قلبك إن كانت محبتك لي خالصة وقلبك من الميل من سواي مغسولا›› (الاحتجاج ج2 ص267).

الفصل العاشر
السيرة

مقدمة

أولاً: في الجهاد على عهد النبي(ص)

ثانياً: طاعة النبي(ص)

ثالثاً: آخر العهد برسول الله(ص)

رابعاً: رجوع الخلفاء الثلاثة إلى رأي علي(ع)

خامساً: في العدل

سادساً: مع المخالفين والمناوئين

من سيرة أئمة الهدى أولاد علي بن أبي طالب(ع)

«لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله»

«أنت أول المؤمنين إيماناً وأعلمهم بأيام الله وأوفاهم بعهده وأقسمهم بالسوية وأرأفهم بالرعية ...»

رسول الله(ص)

لقد وضعت فصل السيرة بعد فصل العلم لأن السيرة إنما تعتمد على أمور ثلاثة: العلم، والإخلاص، والظروف المحيطة. وقد بينت أن ما تأكد لي، من آيات الكتاب العزيز ومن أحاديث الرسول الكريم(ص)، أن علياً(ع) بلغ الغاية في الإخلاص وذلك كنتيجة طبيعية تلقائية لإذهاب الرجس عنه وتطهيره تطهيراً من اللّه تعالى حتى صار مع الحق والحق معه ومع القرآن والقرآن معه لا يفترقان. إذاً، لم يبق غير الظروف المحيطة بالإنسان – في أي موقع كان – التي تساعده أو تعيقه عن السير بالسيرة التي تمكنه منها درجة علمه ودرجة إخلاصه.

وسيكون تناول السيرة – بالاختصار – للمرحلتين: مرحلة العهد النبوي أيام كان علي(ع) والآخرون تابعين لحكومة النبي(ص)، ومرحلة الخلافة التي سميت الخلافة الراشدة التي سار كل من الخلفاء الأربعة بسيرة معينة يمكن تلمس جوانبها من الحوادث والأحكام والنهج الذي سار عليه كل منهم.

فأما في وقت النبي(ص) فقد كانت الظروف صعبة في عمومها، ولكن وجود النبي(ص) كان يمثل الضمانة لاستقرار المسيرة. أما بعد النبي(ص) فقد كان الحال مختلفاً، إذ علم الناس كلهم دون استثناء أن الظروف التي أحاطت بخلافة علي بن أبي طالب(ع) كانت أصعب بما لا يقاس من الظروف التي أحاطت بخلافة من سبقه وكثير ممن لحقه، فلم تحصل ثورات أو معارضة مهددة إلا في آخر عهد عثمان، وكان جميع الصحابة منقادين للأوامر الصادرة من المدينة المنورة مركز الحكم.

إذاً، سيرة علي(ع) بالمقارنة مع سيرة غيره ممن تقدمه مادة مهمة للنظر في أصل القضية، وهي إمامته(ع) ومدى لياقة الآخرين لها – هذا على عهد النبي(ص)، وما كان من تفاعل بين سيرة كل من علي(ع) والآخرين والآيات النازلة والأحاديث الشريفة التي أبانت طبيعة سيرته(ع) وسيرة الآخرين ؛ وأيضاً في عهد خلافته(ع) وخلافة من سبقه وما فيها من أحداث.

أما أولاده(ع) فلم يكن لهم تاريخ من السيرة السلطانية لأنهم منعوا من ذلك كما منع أبوهم(ع) منعاً كاد أن يكون تاماً لولا ما حصل آخر عهد عثمان. حتى

ولده الحسن(ع) فإنه استخلف لمدة سبعة أشهر فقط، وحتى هذه الفترة القصيرة وجد نفسه في نفس الوضع الذي كان فيه أبوه(ع) من تفرق القلوب وتمرد معاوية والإعراض الذي وجد أهل البيت(ع) أنفسهم يواجهونه ممن جعلهم اللّه تعالى لهم مصابيح هدى وسفن نجاة.

على أنني أحسب أنه ما من مسلم يشك في أن أئمة أهل البيت(ع)، حتى وإن لم يعدهم أئمة مطهرين كما يعتقد الشيعة، كانوا سيسيرون بسيرة العدل والصلاح والتقدم للأمة أفضل من غيرهم ممن جاء بعدهم ممن لا يساويهم في شيء من الفضل. ولعل في بعض اللقطات التاريخية ما يدعم هذا لمن لا يقبل بالاستناد إلى النظرية فحسب، كما سنشير إليه في آخر هذا الفصل.

إمتدت حياة علي(ع) بعد الإسلام مدة ثلاثة وخمسين عاماً منها ثلاثون عاماً بعد وفاة النبي(ص)، ومن هذه خمسة وعشرون مجموعة خلافة أبي بكر وعمر وعثمان، فلم يبق إلا خمسة أعوام هي التي عاشها علي(ع) في آخر حياته خليفة للمسلمين. والباحث يجد الكثير الكثير مما كتب في فعل علي(ع) على عهد النبي(ص)، والكثير الكثير من فعله وقوله(ع) أيام خلافته، ولكن لا يجد إلا اليسير على عهد الخلفاء الثلاثة. ولكن حتى في هذا اليسير يمكن للمرء أن يجد ما يبهر العقول من علمه(ع) أولاً ومن سيرته(ع) في التعامل مع من تقدمه ممن يؤمن هو أنهم كانوا ينبغي لهم أن يبايعوه بعد النبي(ص) مباشرة ويسيروا وراءه فيما يختطه لهم. هذا التعامل، الذي يعلن أن علياً(ع) ما كان يبخل بنصح ولا موقف كريم مهما كانت التضحيات ومهما كان الموقف الذي وقفه منه الطرف الآخر، هذا وغيره من شأنه أن يعطي فكرة جيدة واضحة عما كانت ستكون عليه الأحوال، على عهده(ع)، ومن بعده، وصولاً إلى عصرنا الحاضر، لو أن الآخرين بايعوه ورضوا به ومشوا خلفه، فإن هناك فرقاً شاسعاً بين أن يحكم علي(ع) خمس سنين تضج بالحروب الداخلية والتمردات والخيانات، وتأتي بعد أن تغيرت منزلة علي(ع) في الإسلام كما وصفها هو، وبين أن يحكم علي(ع) ثلاثين سنة مباشرة بعد النبي(ص)، والأمور متسقة، والصحابة يكاد يكونون حزباً واحداً، ومنزلته(ع) لا تزال كما كانت على عهد النبي(ص) الذي كان يشير إليه ويرفعه ويبين دوره في كل مناسبة.

وكون ما اطلعت عليه من سيرته(ع) أكثر بكثير من هدف هذا الفصل وهذا الكتاب فإن المقام لا يسع إلا لبعض الشذرات من تلك السيرة، ما يرسم صورة لعلي(ع)، في حياة النبي(ص) كجندي مطيع لقائده ومعلمه(ص)، وفي حياة الخلفاء الثلاثة كناصح ومعين ومشير،وفي حياته الشريفة خليفة كيف يتعامل مع الأعداء والمناوئين وكيف يتعامل مع أتباع الملل الأخرى.

أولاً: في الجهاد على عهد النبي(ص)

(1) مبيت علي(ع) في فراش النبي(ص) في ليلة الهجرة

نزلت فيه الآية الكريمة ﴿ومِنَ الناسِ مَنْ يَشرِي نَفسَهُ إبتِغاءَ مَرضاتِ اللهِ واللهُ رَؤُوفُ بالعِبادِ﴾ (البقرة:207) كما في تفسير الفخر الرازي وأسد الغابة ج4 ص25 وطبقات ابن سعد ج8 ص35 وص162.وأوردها السيوطي في الدر المنثور في تفسير الآية ﴿وإذْ يَمكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَروا لِيُثبِتُوكَ أوْ يَقتُلوكَ أوْ يُخرِجُوك﴾ (الأنفال:30)، والنسائي في الخصائص ص8، وغيرها من المصادر بروايات عديدة.

كمسلم سنّي، كنت أحمل هجرة أبي بكر مع النبي(ص) وقضية الغار، وكيف نجيا من المجموعة التي أرسلتها قريش بشكل معجز، كواحدة من أهم القصص الإسلامية، كيف لا وقد خلدها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إلاّ تَنصُرُوهُ فَقَد نَصرَهُ اللّهُ إذْ أخرَجَهُ الَّذينَ كَفَرُوا ثانِيَ اثْنَينِ إذْ هُما فِي الْغارِ إذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحزَنْ إنَّ اللّهَ مَعَنا، فَأنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيهِ وَأيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَروها وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذينَ كَفَرُوا السُّفلى، وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ العُلْيا، وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة:40)، وأنها أعظم فضيلة لأبي بكر حيث يصفه القرآن الكريم بصفة الصاحب ويشركه مع النبي(ص) في هذه الآية، وطالما أن أبا بكر كان ثاني اثنين مع النبي(ص) في الغار فإذاً هو ثاني هذه الأمة، أو الأول بعد نبيها(ص).

أكيد كنت أعرف أن علياً(ع) بات في فراش النبي(ص) في تلك الليلة ذاتها حتى عندما ينقضّ الكفار على النبي(ص) لقلته يكون علي(ع) هو الذي في الفراش، أي يفدي النبي(ص) بنفسه. ولكن الأكيد أيضاً أن هذا الموقف العلوي لم يكن يحمل المكان نفسه

الذي لأبي بكر في الغار مع النبي(ص). ويبدو أن التنشئة لها دورها أبداً، وإلا كيف يعقل أن الفداء بالنفس أقل شأناً من المرافقة المحروسة بالوحي والملائكة؟

ولكن قضت الأمة، أو أكثرية الأمة، أو ملوكها وعلماؤها، أن كل هذا يعقل!

(2) يوم بدر الخالد

اليوم الفاصل في حياة الإسلام، بل في حياة البشرية، اليوم الذي سماه الله تعالى بيوم الفرقان بين الحق والباطل: ﴿يَومَ الفُرقانِ يَومَ التَقى الْجَمْعانِ﴾، ويصف المسلمين قبلها بالذلّة ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، يوم ظهور الحق على الباطل ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾.

فماذا فعل علي بن أبي طالب(ع) في ذلك اليوم الخالد؟ وماذا عرفت؟

ولكن أقول، وربما لولعي بالرياضيات ولخلفيتي الدراسية ما يجعل من الأرقام عندي ذات أهمية ينبغي الالتفات إليها عسى أنها تعطي بعض الإشارات، أقول أنه في يوم بدر كانت أرقام المقاتلين والقتلى والقاتلين فريدة من نوعها. كان جيش المسلمين 313 مقاتلاً، وجيش قريش 950 مقاتلاً. قتل من المشركين 70 وأسر 70. أتعلم كم قتل علي(ع) من هؤلاء الـ 70 مشركاً؟

قتل علي(ع) وحده ما لا يقل عن 24 مشركاً، وهذا في أقل الروايات، لأن بعض الروايات تتحدث أنه(ع) قتل نصف المشركين. ولكن لننظر في الرواية الأولى.

علي(ع)، جندي واحد من 313 يقتل أكثر من ثلث قتلى المشركين. أي ثلث الواحد بالمائة من جيش يوقع أكثر من ثلث ضحايا الجيش المعادي! هل سمع أحد بمثل هذا في معركة أخرى؟

(3) يوم أحد

كان لواء قريش عند بني عبد الدار، وقد قدموا يطلبون ثأر قتلاهم ببدر، فتقدم علي(ع) لأولهم فقتله، فأخذ الراية الثاني فقتله، وهكذا حتى أتى على تسعة منهم! ثم اشتبك المسلمون بالمشركين حتى أوقعوا بهم الهزيمة، فلحق المسلمون

المشركين طمعاً بالمغنم ونزل معهم الرماة على الجبل، ولم يستطع عبد الله بن جبير رئيسهم أن يمنعهم وأن يجعلهم يمتثلون لأمر النبي(ص) بعدم النزول مهما كانت النتائج فقاتل حتى قتل مع ثمانية من الرماة الباقين معه رضوان الله عليهم، فتداخل الناس وحمل خالد بن الوليد في كتيبة المشركين المراقبة للأحداث حتى أحال هزيمة قريش إلى هجوم معاكس، وحتى انهزم المسلمون، ولم يثبت مع النبي(ص) سوى القلائل، ربما سبعة أو ثمانية، ومنهم أبو دجانة سماك بن خرشة(رض)، وقد أحله النبي(ص) من العهد لما وجده معه هو وعلياً(ع) فقط (حسب رواية الصدوق الشيعي)، لكنه أبى وبقي ثابتاً.

ولعل أعظم بطولات علي(ع) يومذاك كان الحفاظ على حياة النبي(ص)، فإنه(ص) لما أحاط به المشركون وصارت كتائبهم تهجم عليه من كل جانب، كان يقاتل عنه علي(ع) من جهة وأبو دجانة(رض) من جهة.

(4) يوم الخندق

يوم حاصرت قريش وحلفاؤها المدينة المنورة شهراً وهم يحاولون الجواز إلى النبي(ص) وصحبه، ولكن الخندق، الذي اقترح حفره سلمان(رض)، منعهم. كانت تلك أياماً عصيبة جداً وصل الأمر ببعض المسلمين أن شكّوا بوعد النبي(ص) لهم، ووصل الخوف أشده حتى وصفه الباري عز وجل بالقول: ﴿وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَناجِرَ، وَتَظِنُّونَ بِاللّهِ الظُّنُونا! هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزالاً شَدِيدًا﴾. إذاً، فإن الموقف الشجاع في ذلك اليوم لم يكن كغيره في أيام أقل شدة. فماذا كان صنع علي(ع) يوم الخندق أو يوم الأحزاب؟

طلب النبي(ص) من الصحابة أن يذهبوا ليأتوا بخبر الأحزاب فامتنعوا، حتى أمر النبي(ص) حذيفة بن اليمان(رض)، فذهب ثم حكى بعد ذلك أنه لولا أمر النبي(ص) لما ذهب... كل ذلك من شدة الخوف.

وخرج عمرو بن عبد ود العامري يطلب المبارزة ويلح في الطلب ويرتجز، فيعرض النبي(ص) الخروج له مع ضمان الجنة وفي كل مرة لا يستجيب إلا علي(ع)، حتى قال عمرو مستهزءاً:

وعندما خرج(ع) قال النبي(ص) كلمة خالدة تكشف عن واقع علي(ع): «خرج الإيمان كله إلى الشرك كله» (ينابيع المودة ص94). تكلم علي(ع) وعمرو وانتهى الأمر بأن ضربه(ع) ضربة واحدة قضت عليه.

(5) يوم خيبر

ما رواه المؤرخون من تفاصيل مشاركة علي(ع) في تلك الموقعة الفاصلة يبهر العقول ومن جهات مختلفة: الطاعة المطلقة الكاملة للنبي(ص)، الإعلان عن حب علي(ع) لله ورسوله(ص)، الإعلان عن حب الله ورسوله(ص) له(ع)، عدم إرسال النبي(ص) علياً(ع) إلى الفتح إلا بعد أن أعطى الفرصة لغيره من كبار الصحابة – من الذين كنت أعتقد أنهم أفضل من علي(ع) – ففشلوا ولم يحصل الفتح على أيديهم، ثم العطاء الإلهي المتمثل بتلك القوة البدنية الهائلة التي أعطاها لعبده وأخي نبيه(ص) يوم قلع باب الحصن، ذلك الباب الذي عجز عنه الجمع من الرجال.

روى الإمام أحمد في المسند ج6 ص8 أن علياً(ع) تناول باباً عند الحصن فاستخدمه كترس يحمي نفسه به وهو يقاتل ثم رماه، فيقول أبو رافع مولى النبي(ص) بأنه جاء مع نفر سبعة وهو ثامنهم "نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه!". تصور القوة الهائلة: يحمله كترس – وفي رواية جلس تحته وجعله جسراً لعبور المسلمين المقاتلين إلى داخل الحصن – ثم لا يستطيع ثمانية رجال أن يقلبوه فحسب!

(6) يوم حُنين

روى الهيثمي في المجمع ج6 ص180 عن أنس: "لما كان يوم حنين إنهزم الناس عن رسول الله(ص) إلا العباس بن عبدالمطلب وأبو سفيان ابن الحارث – يعني إبن عم النبي(ص) –... وكان علي بن أبي طالب(ع) يومئذ أشد الناس قتالاً بين يديه".

نعم، إطلعت على هزيمة المسلمين مع أنهم كانوا كثيرين حتى قال أبو بكر: "لن نُهزَم اليوم من قلة"، على ما حكاه القرآن الكريم: ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين﴾ (التوبة:25-26).

في رواية مسلم أن النبي(ص) انحاز ذات اليمين، وهو يقول: «إلي يا عباد الله، أنـا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب!» ولم يبق معه في موقفه إلا قليل من المهاجرين والأنصار. ولم يثبت مع النبي(ص) إلا بنو عبد المطلب ومعهم بعض الأصحاب كأسامة بن زيد وأيمن بن أم أيمن. كما رووا فرار من فر من الكبار وبضمنها رواية البخاري التي عندما يسأل أبو قتادة عمر بن الخطاب "ما شأن الناس" يجيبه الأخير: "أمر الله"!

(7) الصحابة – علي(ع) وغيره – في الحروب

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ، وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (الأنفال:16) وهو نص صريح في منع الفرار من العدو إلا كجزء من التكتيك والفن القتالي أو لترك المكان والانضمام إلى مجموعة أخرى تقاتل. إلا أنا وجدنا أن الكثير من المسلمين من أصحاب النبي(ص) قد فرّوا في أكثر من مناسبة.

على أن البعض وقف موقفاً غير متوقع حقاً وذلك على ما ذكره أيضاً ابن جرير الطبري في التاريخ (ج2 ص201) وابن الأثير في التاريخ (ج2 ص110؛ وفي أسد الغابة ج1 ص131) حيث ذكرا أن "أنس بن النضر – وهم عم أنس بن مالك – انتهى إلى عمر وطلحة في رجال من المهاجرين قد ألقوا بأيديهم، فقال: ما يحبسكم؟ قالوا: قُتل النبي، قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ موتوا على ما مات عليه النبي، ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل، فوجد به سبعون ضربة وطعنة وما عرفته إلا أخته..." وقالوا: "وسمع أنس بن النضر نفراً من المسلمين يقولون لمّا سمعوا أن النبي(ص) قُتل: ليت لنا من يأتي عبد الله بي أبي بن أبي سلول ليأخذ لنا أماناً من أبي سفيان قبل أن يقتلونا! فقال لهم أنس: يا قوم إن كان محمد قد قتل فإن رب محمد لم يقتل، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد، اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، ثم قاتل حتى استشهد" رضوان الله عليه (أيضاً البداية والنهاية لابن كثير ج4 ص26، والسيرة النبوية له ج3 ص44).

وكان من فشلهم في المعارك ما روي عن سير أبي بكر بالناس يوماً من أيام حصار خيبر ولكنه قاتل ومن معه وانهزموا ورجعوا، وفي يوم آخر سار عمر ومعه الناس إلى خيبر فهزموا وجاء عمر وأصحابه "يجبّنونه ويجبّنهم" (الحاكم في المستدرك (ج3 ص37).

والكل يعلم ما كان من علي(ص) بعد ذلك حيث روى البخاري في صحيحه (رواية 3887) عن سلمة رضي الله عنه قال: "كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه تخلف عن النبي صلى الله عليه وسلم في خيبر وكان رمداً فقال: ‹‹أنا أتخلف عن النبي صلى الله عليه وسلم›› فلحق به فلما بتنا الليلة التي فتحت قال(ص): ‹‹لأعطين الراية غدا – أو – ليأخذن الراية غداً رجل يحبه الله ورسوله يفتح عليه›› فنحن نرجوها، فقيل: هذا علي فأعطاه ففتح عليه". وفي رواية 3426 قال(ص): ‹‹لأعطين الراية أو ليأخذن الراية غداً رجلا يحبه الله ورسوله – أو قال – يحب الله ورسوله يفتح الله عليه››. وفي رواية 3888 عن سهل بن سعد قال أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر: ‹‹لأعطين هذ الراية غداً رجلا يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله››.

ثانياً: طاعة النبي(ص)

"وكانت أم هانئ بنت أبي طالب تحت هبيرة بن أبي وهب المخزومي، فلما كان يوم الفتح دخل عليها حموان لها ... فاستجارا بها وقالا: نحن في جوارك فقالت: نعم أنتما في جواري قالت أم هانئ: فهما عندي إذ دخل علي فارساً مدججاً في الحديد ولا أعرفه، فقلت له: أنا بنت عم رسول الله(ص)، قالت: فكف عني وأسفر عن وجهه فإذا علي(ع)، فقلت: أخي، فاعتنقته وسلمت عليه، ونظر إليهما فشهر السيف عليهما، قلت : أخي من بين الناس يصنع بي هذا، قالت: وألقيت عليهما ثوباً، وقال: تجيرين المشركين؟ وحلت دونهما فقلت: والله لتبدأن بي قبلهما، قالت: فخرج ولم يكد فأغلقت عليهما بيتاً، وقلت: لا تخافا. قال: فحدثني ابن أبي ذئب، عن المقبري، عن أبي مرة مولى عقيل عن أم هانئ قالت: فذهبت إلى خباء رسول الله(ص) بالبطحاء فلم أجده ووجدت فيه فاطمة فقلت: ماذا لقيت من ابن أمي علي؟

أجرت حموين لي من المشركين فتفلّت عليهما ليقتلهما، قالت: فكانت أشد علي من زوجها وقالت: تجيرين المشركين؟ قالت: إلى أن طلع رسول الله(ص) وعليه رهجة الغبار فقال: مرحباً بفاختة أم هانئ، وعليه ثوب واحد، فقلت: ماذا لقيت من ابن أمي علي؟ ما كدت أنفلت منه، أجرت حموين لي من المشركين فتفلّت عليهما ليقتلهما، فقال رسول الله(ص): ما كان ذاك، قد أمنا من أمنت، وأجرنا من أجرت" (مغازي الواقدي ج2 عن عن موقع "الإسلام" وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد في المملكة العربية السعودية على شبكة الانترنت).

فقارن الآن بينه وبين موقف عثمان بن عفان، في نفس المكان ونفس اليوم ...

يوم فتح مكة كان النبي(ص) قد أهدر دم جماعة من المشركين وأمر بقتلهم «حتى ولو تعلقوا بأستار الكعبة»، منهم عبد الله بن ابي سرح، أخو عثمان بن عفان من الرضاعة وأحد ولاته فيما بعد. أنقل ما جاء في مقالة بعنوان "ما كان لنبي أن تكون له خائنة الأعين" من موقع الشبكة الإسلامية على شبكة الانترنت توضح الأمر.

ثم ذكر كاتب المقالة ما كان من شفاعة عثمان لهذا المرتد الكذاب: "وكان لعبد الله بن أبي السرح قرابة مع عثمان بن عفان رضي الله عنه، والصلة بينهما جاءت بسبب الرضاعة، فكان من الطبيعي أن يسارع إلى بيت أخيه رضاعة، وقد أعلن أمامه ندمه ... ورجاه أن يشفع له عند رسول الله(ص)".

أكمل: "نظر النبي(ص) إلى ابن أبي السرح طويلاً دون أن ينطق بشيء ... فعاود عثمان (رض) قوله دون أن يحظى بجواب النبي(ص)، فكرر طلبه للمرة الثالثة، وهنا مد النبي(ص) يده موافقا على المبايعة.

وانصرف عبد الله ... وما إن توارى عن الأنظار حتى التفت رسول الله(ص) إلى أصحابه معاتباً، وقال: «أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله؟».

نظر القوم إلى بعضهم والحيرة تملأ وجوههم... فقالوا تأكيداً لحيرتهم: "ما ندري يا رسول الله ما في نفسك" وسألوه: "ألا أومأت إلينا بعينك؟"

أوضح(ص) لهم سبب سكوته: «إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين»".

وهكذا، فلولا امتناع وجود هذه الصفة – الأمر بالإيماء – عند النبي(ص)، لما نفعت شفاعة عثمان. بعبارة أخرى، أن ابن أبي سرح لم يكن يستحق العفو مطلقاً ولكن عدم تمكن النبي(ص) من إنفاذ أمره بسبب إحجام الصحابة الموجودين عن تنفيذه جهلاً منهم بحقيقة موقفه(ص) هو الذي أنقذه، وأدى بعدها إلى توليه الولايات في عهد الخلافة الراشدة حتى كان أحد أبطال الأحداث التي نقمت على الخليفة الثالث وأدت إلى الثورة عليه.

ثالثاً: آخر العهد برسول الله(ص)

(1) في ما كان من علي(ع) في آخر لحظات حياة النبي(ص)

روى الهيثمي في المجمع (ج9 ص36) عن ابن عباس أن أُمَّي المؤمنين عائشة وحفصة كانتا عند النبي(ص) فدخل علي(ع) فقال النبي(ص): ‹‹أدنُ مني أدنُ مني›› فأدناه منه فأسنده إليه فلم يزل عنده حتى توفي.

وأخرج الحاكم (المستدرك ج3 ص138) عن أم سلمة: "والذي أحلف به إن كان علي(ع) لأقرب الناس عهداً برسول الله(ص)، عُدنا رسول الله(ص) غداةً وهو يقول: ‹‹جاء علي جاء علي›› مراراً فقالت فاطمة(ع): ‹‹كأنك بعثته في حاجة››، قالت أم سلمة فظننت أن له به حاجة، فخرجنا من البيت وقعدنا عند الباب وكنتُ من أدناهم إلى الباب فأكبّ عليه رسول الله(ص) وجعل يسارّه ويناجيه، ثم قُبض رسول الله(ص) من يومه ذلك، فكان علي(ع) أقرب الناس عهداً" (وأخرجه النسائي في الخصائص ص40 وأحمد في المسند ج6 ص300 وغيرهما).

(2) علي(ع) يتولّى تجهيز النبي(ص) ودفنه والصلاة عليه

وأخرج الإمام أحمد في المسند ج1 ص260 ما كان من أمر غسل النبي(ص) وكفنه ودفنه بما محصّله أن علياً(ع) أسند النبي(ص) إلى صدره وعليه قميصه وكان العباس والفضل وقثم يقلّبونه معه وكان أسامة بن زيد وصالح يصبان الماء وعلي(ع) يغسله.

ثم أمر علي(ع) الناس أن يصلوا عليه(ص) صفوفاً دون إمام، بل كـان التكـبير والصلاة بإمامة جبريل(ع)، ثم كان علي(ع) يدعو للنبي(ص) والناس يؤمنـون. (راجـع الفصل السابق "العلم".)

(3) علي(ع) يتولّى المستحقات بعد النبي(ص)

من ذلك روايات تشخّص علياً(ع) أنه هو قاضي دين النبي(ص) ومنجز مواعيده، كما في بعض روايات يوم الإنذار: ﴿وأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقرَبِين﴾ وذلك في أول الدعوة (مسند أحمد ج1 ص111 وغيره من المصادر).

ومن ذلك ما أخرجه ابن سعد في الطبقات ج2 قسم 1 ص89 أنـه لمـا تـوفي النبي(ص) أمر علي(ع) من يدعو الناس إلى أن يأتوا بأي عِدَة أو دين كانت لهم على النبي(ص) فكان يبعث كل عام عند العقبة يوم النحر مـن يصـيح بـذلك حتـى تـوفي علي(ع)، ثم كان الحسن(ع) إبنه يفعل ذلك حتى توفي، ثم كان الحسين(ع) يفعـل ذلـك حتى توفي... قال الراوي: "فلا يأتي أحد من خلق الله إلى علي(ع) بحق أو باطـل إلا أعطاه".

رابعاً: رجوع الخلفاء الثلاثة إلى رأي علي(ع)

في الفصل السابق "العلم" ذكرنا بعض الشذرات من علم علي(ع) الذي أظهره على عهد الخلفاء، وهنا شذرات أخرى استمر أثرها، وسيبقى، في حياة الأمة. فقـد ذكر المؤرخون والمحدثون قضايا عديدة، في مسائل القضاء وغيره، رجع فيها الخلفاء الثلاثة وغيرهم من الصحابة ومن جاء بعدهم إلى رأي علي(ع)، منها...

على عهد أبي بكر

عندما شاور أبو بكر الصحابة في قتال أهل الردّة قال علي(ع): ‹‹أقـول لـك إن تركت شيئاً مما أخذ رسول الله(ص) منهم فأنت على خلاف سنة رسول الله(ص)››، قال – أي أبو بكر –: "أما إن قلتَ ذلك لأقاتلنّهم وإن منعوني عقالاً" الرياض النضـرة ج2 ص224. وروى صاحب الكنز في ج3 ص301 حديثاً شبيهاً في نفس الموضوع.

هذه الفضيلة لأبي بكر كثيراً ما تـذكر، وينبغـي أن تـذكر، ولكـن لا يـذكر معها أنها من فتوى أمير المؤمنين(ع).

وعلى عهد عمر

بخصوص بدء التاريخ الهجري أخـرج الحـاكم في المسـتدرك ج3 ص14 عـن سعيد بن المسيّب قال: جمع عمر الناس فسألهم من أي يوم يُكتـب التـاريخ، فقـال علي بن أبي طالب(ع): «من يوم هاجر رسـول اللـه(ص) وتـرك أرض الشـرك» ففعلـه عمر. رواه غير الحاكم.

وهذه الفضيلة العمرية أيضاً لا يذكر معها مطلقاً أنها من فتوى علي(ع).

وعلى عهد عثمان

روى السيوطي في الـدر المنثـور في تفسـير قولـه تعـالى: ﴿وَوَصَّـينا الإنسـانَ بِوالِدَيهِ حُسْناً﴾ (الأحقاف:14) رواية بخصوص امرأة حكم عثمان بن عفـان عليهـا بالرجم لأنه ولدت لستة أشهر، فبين له علي(ع) أن الحمل أقله ستة أشهر وذلـك مـن خلال الجمع بين الآيتين: ﴿وحَملُهُ وفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهراً﴾ و ﴿والوالِـداتُ يُرضِـعنَ أولادَهُنَّ حَولَينِ كامِلَينِ لِمَنْ أرادَ أنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ﴾ فعنـد طـرح الأربعـة وعشـرين شهراً (الحولين الكاملين) من الثلاثين شهراً يبقى ستة أشهر مدة ممكنـة للحمـل؛ في آخر الرواية أن المرأة بعد أن رُجمت قالت لأختها بأنها لم تفعل الفاحشـة وعنـدما شبّ الغلام اعترف الرجل به وكان أشبه الناس به.

خامساً: في العدل

يعد العدل من أهم صفات الحكام لأن العدل من أعظم أهداف البعثات النبوية، قال تعالى: ﴿إنّا أَرسَلْنا رُسُلَنا بِالبَيِّناتِ وَآتَيناهُمُ الكِتابَ وَالمِيزانَ لِيَقُومَ النّاسُ بِالقِسْطِ﴾. والناس لا تسأل على إيمان الحاكم بقدر ما تسأل عن عدله، لأن إيمانه بينه وبين ربه (على فرض عدم تأثيره على العدل، وهو غير ممكن، ولكنا نتحدث عن تفاصيل الحياة وإدارة المجتمع عموماً) في حين أن عدله يمس حياتهم.

في هذا يقول علي(ع): ‹‹وإنه لابد للناس من أمير بر أو فاجر يعمل في إمرته المؤمن ويتمتع فيها الكافر، ويبلغ الله فيها الأجل، ويجمع به الفيء، ويقاتل به العدو، وتأمن به السبل، ويؤخذ به للضعيف من القوي، حتى يستريح بر ويستراح من فاجر››. فهو يجعل المعيار الأساس في الحاكم هو العدل وحسن السياسة، بغض النظر عن كونه براً أو فاجراً، ويكون مما يؤمّنه ليس فقط ما للمؤمنين من حقوق بل حقوق الكافرين أيضاً.

والمطالع لسيرة علي(ع) يجد العجب من التزامه بالعدل المطلق في حياته، محكوماً وحاكماً. وقد امتدت عدالته لتشمل الجميع، مسلمين وغير مسلمين، وعرف ذلك منه غير المسلمين فكتبوا في ذلك حتى جعل بعضهم عنوان العدالة هو عنوان علي(ع) (خماسية جورج جرداق عنوانها "علي صوت العدالة الإنسانية").

(1) في إعلان النبي(ص) أن علياً(ع) أعدل الناس

في كنز العمال ج6 ص393 أن عمر سمع النبي(ص) يقول لعلي: ‹‹أنتَ أول المؤمنين إيماناً وأعلمهم بأيام الله وأوفاهم بعهده وأقسمهم بالسوية وأرأفهم بالرعية وأعظمهم رزية››.

(2) في عدله(ع) مع الرعية

وأخرج أبو نعيم في حلية الأولياء ج1 ص81 و82 روايات عن عدل علي(ع) وورعه في الرعية منها أن رجلاً دخل على علي(ع) بالخورنق وهو يرعد تحت سمل قطيفة فقلت: "يا أمير المؤمنين إن الله قد جعل لك ولأهل بيتك بهذا المال وأنت تصنع بنفسك ما تصنع، فقال: ‹‹والله ما أرزأكم من مالكم شيئاً، وإنها لقطيفتي التي خرجت بها من منزلي›› أو قال ‹‹من المدينة››".

إن من نافل القول لو أراد علي(ع) أن يأكل من بيت المال أكثر من غيره لكان يمكنه أن يقول أنه لا أحد في المسلمين بسابقته وأن الإسلام قام بسيفه وأنه وأنه، وكان ذلك مقبولاً ولاسيما بعد أن فرق عمر في العطاء على أساس السبق إلى الإسلام وغيره من معايير، حتى صار ذلك أمراً واقعاً لا يتنازلون عنه. ولكن علياً(ع) إمام هدى لا يحيد عن سيرة النبي(ص)، فأعلن علمه بالطريق الآخر ولكنه يختار طريق

العدل المطلق؛ قال(ع): «ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل ولباب هذا القمح ونسائج هذا القز، ولكن هيهات أن يغلبني هواي ويقودني جشعي إلى تخير الاطعمة، ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص ولا عهد له بالشبع، أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى وأكباد حرّى، أو أكون كما قال القائل:

وحسبُكَ داءً أن تَبيتَ ببِطِنَةً وَحَولكَ أكبادُ تَحِنُّ إلى القدِّ».

(3) في مساواته(ع) بين الرعية وأقربائه

يروي هو(ع) بنفسه ما فعله مع أخيه عقيل بالقول: «والله لقد رأيت عقيلاً وقد أملق حتى استماحني من بركم صاعاً، ورأيت صبيانه شعث الشعور، غبر الألوان، من فقرهم، كأنما سودت وجوههم بالعظلم، وعاودني مؤكداً، وكرر علي القول مردداً، فأصغيت إليه سمعي، فظن أني أبيعه ديني، وأتبع قياده، مفارقاً طريقتي، فأحميت له حديدة، ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر بها، فضج ضجيج ذي دنف من المها، وكاد أن يحترق من ميسمها، فقلت له: ثكلتك الثواكل يا عقيل، أتئن من حديدة أحماها إنسانها للعبه، وتجرني إلى نار سجرها جبارها لغضبه؟! أتئن من الأذى ولا أئن من لظى؟!»

إن هذا المنهج في مساواة الرعية مع أقرباء الحاكم هو من أكثر الأمور تأثيراً في الرعية، لذا تجد أن الناس وصفت عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب(ع) بالعدل في حين لم تصف عثمان بالعدل لأنها وجدته يعطي أقرباءه ما لا يعطيه للرعية، حتى وصل إلى الحد الذي كان من الأسباب المباشرة للثورة عليه ومقتله. ولذا تجد المنزلة الفريدة لعمر بن عبد العزيز على غيره من بني أمية، فإنها جاءت نتيجة لعدله بين الناس وعدم إيثاره أقرباءه.

(4) في مساواته وعدله(ع) بغض النظر عن دين المواطنين

روى ابن الأثير في تاريخه (ج3 ص20) ومن ذلك أن علياً(ع) وهو خليفة فقد درعاً له ثم وجدها عند يهودي، ولكن اليهودي ادعى أن الدرع له، فتقاضيا، ووقف علي(ع) أمام اليهودي كأي خصم آخر، فلما لم يأت الإمام(ع) ببينة على

ادعائه الملكية وكان الدرع مع اليهودي وبالتالي اليد أو الحيازة من إمارات الملكية فإن القاضي حكم لليهودي ورد دعوى أمير المؤمنين(ع).

ويوجه عماله في هذا المجال: «ولا تجشموا أحداً عن حاجته ولا تحبسوه عن طلبته... ولا تمسُّنَّ مال أحد من الناس مصلٍّ ولا معاهد...» (نهج البلاغة ج3 ص80). فبغض النظر عن كون المواطن مصلياً (أي مسلماً) أو معاهداً (أي غير مسلم) فإن أملاكه محترمة.

(5) توجيهاته(ع) لعماله المتعلقة بالعدل

عُرف عن علي(ع) شدته في الحساب مع عماله على وتوجيهاته الرائدة الشاملة التي تنفع في جميع العصور، الأمر الذي حدا بهيئة الأمم المتحدة عام 2002 اعتماد عهده المفصل إلى مالك الأشتر النخعي (الذي أرسله ليكون عاملاً على مصر ولكنه (رض) ما أن وصل حتى تمكن السمّ الأموي منه فلم يتمكن من تطبيق توجيهات علي(ع)» كإحدى وثائق حقوق الإنسان.

ويهدد آخر: «وإني أقسم بالله قسماً صادقاً لئن بلغني أنك خنت من فيء المسلمين شيئاً صغيراً أو كبيراً لأشدّنّ عليك شدة تدعك قليل الوفر ثقيل الظهر ضئيل الأمر...» (نهج البلاغة ج3 ص19).

ويهدد أحد عماله بالقول: «...والله لو أن الحسن والحسين فعلا مثل الذي فعلت ما كانت لهما عندي هوادة ولا ظفرا مني بإرادة حتى آخذ الحق منهما وأزيح الباطل من مظلمتهما...» (نهج البلاغة ج3 ص67). ونحن نعرف منزلة الحسنين(ع) عند علي(ع) مع هذا يقسم(ع) أنه ما كان ليتهاون معهما(ع) لو فعلا أمراً مخالفاً – على استحالة ذلك منهما.

وأخيراً، تلك الوصية الرائدة في مجال حقوق الإنسان، والتي لا يزال العالم بأسره يستصعب تطبيقها، بل الإحساس بها. قال في عهده للأشتر النخعي: «ولا تكوننّ عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان إما أخ لك في الدين وإما نظير لك في الخلق» (نهج البلاغة ج3 ص84). يدعوه – ويدعونا من خلاله – أن ننظر إلى الإنسان كإنسان بغض النظر عن الدين، فإن لم يكن أخاً مسلماً فهو إنسان

يتحرك ويشعر ويتألم ويأمل ويطمح ويطمع ويقوى ويضعف كأي منّا، كل هذا لكي ننصف الناس من نفوسنا. وهذا العدل مع المواطنين من أصحاب الديانات المختلفة لا يزال في حاجة إلى الكثير من النفس العلوي كي يصبح واقعاً ملموساً في العالم.

سادساً: مع المخالفين والمناوئين

الناس تثني على الذي يقابل الإساءة بالإحسان والسيئة بالحسنة، وإذا وصل الأمر إلى النجاح حسب توجيهات القرآن الكريم: ﴿إِدفَعْ بالَّتِي هِيَ أَحسَنُ السَّيِّئَةَ، فَإِذا الَّذي بَينَكَ وَبَينَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَميمٌ﴾ فإن هذا يكون للنوادر من الناس بحيث أن القرآن الكريم يصفهم بالقول: ﴿وَلا يُلَقّاها إلاّ الَّذينَ صَبَرُوا، وَلا يُلَقّاها إلاّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾. فبماذا نصف من قابل التظاهر والمؤامرات والغدر والإعراض، في مسلسل مستمر لم يتغير على الرغم من أنه كان يقابل كل ذلك بالصبر والتعاون وإبداء النصيحة والتوجيه، ثم لما بويع خليفة بعد ربع قرن من هذا المسلسل المعادي، إذا بالعداوة والمخالفة والمناوءة تأخذ شكلاً أعلى هو الخروج العسكري عليه، ماذا نصف من قابل كل هذا بالثبات على الموقف الحق وبعدم التشفي أو المقابلة بالمثل، بل قابله بالعكس من ذلك تماماً؟ هكذا فعل علي(ع).

ولكن لنسمع النبي(ص) أولاً يخبر الأمة عن مكانة علي(ع) عنده(ص) وعن كيفية التعامل معه(ع)؛ سأذكر شيئاً من روايات كثيرة رواها المحدثون من أهل السنة.

- علي(ع) أحب الخلق إلى الله ورسوله(ص)

قال النبي(ص): "كان أحب النساء إلى رسول الله(ص) فاطمة(ع) ومن الرجال علي(ع)" (صحيح الترمذي ج2 ص319، ومستدرك الحاكم ج3 ص155، وخصائص النسائي ص29، والإستيعاب لابن عبدالبر ج2 ص751).

- معرفة حقه(ع)

قال النبي(ص) لأم المؤمنين عائشة: ‹‹يا عائشة إن هذا أحب الرجال إلي وأكرمهم علي فأعرفي له حقه وأكرمي مثواه›› (أسد الغابة لابن الأثير ج5 ص547).

- التحذير من بغضه(ع)

قال النبي(ص): ‹‹من أحب علياً فقد أحبني، ومن أبغض علياً فقد أبغضني›› (مستدرك الحاكم ج3 ص130).

ترى، ماذا كان فعل الأمة تجاه علي(ع) بعد أن سمعت النبي(ص) مراراً وتكراراً، وبأشكال متعددة وبصيغ متنوعة وفي مناسبات مختلفة، يشيد بعلي(ع) ويعلن أنه أحب الخلق إليه(ص) ويحذر الإساءة إليه، بل ويحذر من بغضه مع أنها مسألة قلبية (ولعل هذا هو الذي جعل النبي(ص) يصف مبغضي علي(ع) بأنهم منافقون)؟

(1) فيما يحصل من أفعال من الأمة تجاه علي(ع)

أولاً: غدر الأمة به

حديث النبي(ص) لعلي: ‹‹إن الأمة ستغدر بك بعدي›› أخرجه الحاكم في ج3 ص147 من المستدرك واعترف الذهبي بصحته.

وهو ما أخبر به علي(ع) نفسه بقوله: ‹‹إن مما عهد إلي النبي(ص) أن الأمة ستغدر بي بعده›› (الحاكم في المستدرك ج3 ص140).

ثانياً: ما يلاقيه(ع) من الجهد والبلاء بعده(ص)

قال النبي(ص) لعلي: ‹‹أما أنك ستلقى بعدي جهداً، قال: في سلامة من ديني؟ قال: في سلامة من دينك›› (المستدرك ج3 ص140)؛ وأورده الذهبي في التلخيص وصرّح بصحته على شرط البخاري ومسلم.

ثالثاً: ضغائن البعض له(ع)

حديث يتحدث فيه ابن عباس عن بكاء النبي(ص) وسؤال ابن عباس عن ذلك،فقال النبي(ص) لعلي: ‹‹ضغائن في صدور قوم لا يبدونها لك حتى يفقدوني›› (الخطيب البغدادي في تاريخه ج12 ص398 وصاحب الكنز ص408 والحاكم في المستدرك ج3 ص139).

ويبدو أن البعض ظهرت منه علامات على ما في صدره تجاهه(ع) في عهد النبي(ص). من ذلك ما روي أن بريدة لما قدم من اليمن ودخل المسجد وجد جماعة على باب حجرة النبي(ص) فقاموا إليه يسألونه: "ما وراءك؟ قال: خير، فتح الله على المسلمين، قالوا: ما أقدمك؟ قال: جارية أخذها علي مني فجئت أخبر النبي بذلك، قالوا: أخبره أخبره يسقط علياً من عينه، ورسول الله(ص) يسمع كلامهم من وراء الباب، فخرج مغضباً فقال: «ما بال أقوام ينتقصون علياً؟ من أبغض علياً فقد أبغضني ومن فارق علياً فقد فارقني ...» (المتقي الهندي ص398 من ج6 من كنز العمال، ونقله ابن حجر عن الطبراني في ص103 من الصواعق).

وقد أخرجه الإمام أحمد (المسند ج5 ص347) والحاكم (المستدرك ج3 ص110 وصححه على شرط مسلم) عن بريدة قال: "غزوت مع علي اليمن فرأيت منه جفوة، فلما قدمت على رسول الله(ص) ذكرت علياً فتنقصته، فرأيت وجه رسول الله يتغير، فقال: «يا بريدة ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «من كنتُ مولاه فهذا علي مولاه»".

أقول: إن قولهم "أخبره أخبره يسقط علياً من عينه" يشير إلى ما كان في نفوس بعض الصحابة من البغض لعلي(ع) الناشئ من مكانته عند النبي(ص)، فكأنهم لم يصدقوا أن تأتي فرصة لمحاولة إنزال علي(ع) من منزلته الفريدة عند النبي(ص).

(2) موقف علي(ع) من بيعة السقيفة

في كتابه "السقيفة" ص146، لفت الشيخ المظفر النظر إلى ما كان من أبي بكر وحزبه وذهابهم إلى السقيفة متكتمين والاجتماع بالأنصار والتحاجج معهم وحتى تم الأمر لأبي بكر وخرجوا إلى المسجد وبدأت البيعة للناس الذين في المسجد (وفي مقدمتهم عمر بن الخطاب وبيده عسيب نخل وهو محتجز يحث الناس على البيعة)؛ فكان الناس يكبرون، فعند ذاك بلغ الإمام(ع) التكبير فبلغه أن شيئاً ما حدث. وبذا، فإن القوم لم يشاوروا أمير المؤمنين(ع) بأمر البيعة ولا بأي من تفاصيلها، وحتى بعد أن تم الأمر لهم كان يمكن لهم أن يرسلوا في طلبه أو يخبروه بالأمر ولكنهم لم يفعلوا كل ذلك بل انتهزوا فرصة انشغاله وانشغال أصحابه وبني هاشم بجهاز النبي(ص).

أما أول إعلان لرأيه(ع) في البيعة فهو أنه في اليوم الثاني من السقيفة قال لأبي بكر: ‹‹أنا أحق بهذا الأمر، لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لي، أخذتم هذا الأمر من الأنصار واحتججتم عليهم بالقرابة من رسول الله فأعطوكم المقادة، وسلموا لكم الإمارة، وأنا أحتج عليكم بمثل ما احتججتم به على الأنصار، فأنصفونا إن كنتم مؤمنين، واعرفوا لنا من الأمر مثلما عرفت الأنصار لكم، وإلا فبوءوا بالظلم وأنتم تعرفون!››.

ولكن علياً(ع) تابع مؤكداً موقفه الواضح: ‹‹يا معشر المهاجرين، الله الله لا تخرجوا سلطان محمد عن داره وبيته إلى بيوتكم ودوركم، ولا تدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقه، فوالله يا معشر المهاجرين لنحن أهل البيت أحق بهذا الأمر منكم ما كان منا القارئ لكتاب الله، الفقيه لدين الله، العالم بالسنة، المضطلع بأمر الرعية، فلا تتبعوا الهوى فتزدادوا من الحق بعداً" (الإمامة والسياسة ج1 ص11، وتاريخ الطبري حوادث سنة 11هـ).

وفي هذا القول رد على ما يثيره البعض من الشبهات من أن الشيعة يريدون الحكم وراثياً، لأن الإمام(ع) يجعل الحق في خلافة النبي(ص) في أهل البيت(ع) طالما وجد منهم العالم الفقيه القائم بأمر الناس.

وذكر قولاً مروياً لأمير المؤمنين: ‹‹فلما قرعتُه بالحجة في الملأ الحاضرين هبّ لا يدري ما يجيبني به›› (نهج البلاغة ج2 خطبة 172).

وأن سكوته عن البيعة كان كما وصف في خطبته الشهيرة: ‹‹فصبرتُ وفي العين قذى وفي الحلق شجى أرى تراثي نهباً›› (نهج البلاغة، الخطبة 3 الشقشقية).

وأيضاً ذكر قوله في النهج أيضاً: ‹‹فوالله ما زلتُ مدفوعاً عن حقي مستأثراً علي منذ قبض الله نبيه(ص) حتى يوم الناس هذا›› (نهج البلاغة خطبة 6).

كما أورد قول الإمام(ع) بأنه ما رضي وما قعد إلا لأنه لم يجد الأنصار بكلمات أخرى كما في قوله في الشقشقية: ‹‹وطفقت أرتئي بين أن أصول بيد جذّاء أو أن أصبر على طخية عمياء›› أي بين أن يقوم بمناهضة القوم بيد مقطوعة ضعيفة ليس فيها أنصار أو أصبر. وهو مشابه لقوله: ‹‹نظرت فما وجدت لي معين إلا أهل بيتي فظننت بهم عن الموت أو على المنية›› (نهج البلاغة ج1 ص67).

إن أمير المؤمنين(ع) لم يسمح لأن يصبح أمره بالإمامة والخلافة أمراً منسياً فقام بحمل فاطمة(ع) والحسنين(ع) يطرق بيوت أبواب الأنصار وأهل السابقة ليلاً ليذكرهم بعهد رسول الله(ص)، كل ذلك كي يقوم بواجبه الشرعي في أمر الدين حيث قال: «اللهم أنت تعلم أنه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان ولا التماس شيء من فضول الحطام ولكن لنرد المعالم في دينك ونظهر الإصلاح في بلادك» (نهج البلاغة ج2 خطبة 131).

ويقول – وقد رأى الأخطار تحدق بالدين والدولة الوليدة –: «فأمسكتُ يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمد(ص) فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة فيه عليّ أعظم من فوت ولايتكم» (نهج البلاغة ج3 رسالة/كتاب 62).

إن من واجب الإمام تنفيذ أمر النبي(ص) كائناً ما كان، حيث قال(ع): «قال لي رسول الله(ص) إن اجتمعوا عليك فاصنع ما أمرتك، وإلا فالصق كلكلك بالأرض، فلما تفرقوا عني جررت على المكروه ذيلي وأغضيت على القذي جفني وألصقت بالأرض كلكلي» (نهج البلاغة ج4 الكلمة 736). وهذا ما فعله أمير المؤمنين(ع)، وهذا قول الزهراء(ع) (عندما اعتذر الأنصار بأن علياً(ع) لو جاءهم قبل أبي بكر لبايعوه، ورد عليهم(ع) أنه ما كان يمكنه ترك النبي(ص) دون وتجهيز للدفن ويخرج للنزاع حول الخلافة): «ما صنع أبو حسن إلا ما كان ينبغي له، ولقد صنعوا ما الله حسيبهم وطالبهم» (الإمامة والسياسة ج1 ص15).

(3) الاصطفاف ضده(ع) في موضوع الخلافة

إن الذين يكتبون في موضوع الاختلاف يجعلون من قضية الخلافة محور ما يكتبون، بل الفصل الأساسي في كتبهم، وذلك للأهمية القصوى للموضوع دون شك. لكني جعلت مسألة الخلافة تأتي في محلها في جميع الفصول، وذلك لأسباب:

- أن إمامة أهل البيت(ع) أكبر بكثير من الحكم، فهي تتعلق بمواصفات تمكنهم من التأثير وهم بعيدون عن الحكم

- أن الخلافة إنما هي الطريق لإقامة العدل في المجتمعات، فهي ليست غاية وإنما وسيلة

- أن المبالغة بموضوع الخلافة يضعف من الالتفات إلى الجوانب الأخرى في الأئمة(ع)، والتي هي غير محدودة بزمان دون زمان.

قال علي(ع): ‹‹أين الذين زعموا أنهم الرّاسخون في العلم دوننا، كذباً وبغياً علينا أنرفعنا الله ووضعهم، وأعطانا وحرمهم، وأدخلنا وأخرجهم، بنا يستعطى الهدى ويستجلى العمى؛ إنّ الأئمة من قريش غُرسوا في هذا البطن من هاشم لا تصلح على سواهم ولا تصلح الولاة من غيرهم›› نهج البلاغة خطبة 144.

في هذه الفقرة يعرّض أمير المؤمنين(ع) بالذين تقدموه بالخلافة، وبمن أعانهم، من الذين ادعوا أن عندهم العلم الذي يجعلهم من الراسخين من العلم الذين ذكرهم القرآن الكريم: ﴿وَما يَعلَمُ تَأْوِيلَهُ إلاّ اللّهُ وَالرّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا﴾ آل عمران:7، متساءلاً من غير أهل البيت(ع) من زعم أنه من الراسخين في العلم، ويقول أن سبب زعمهم الكاذب هو عدم قبولهم بما أراده الله تعالى من رفع أهل البيت(ع) وإعطائهم وإدخالهم – في زمرة الذين اصطفاهم الله تعالى بمعرفة تأويل الكتاب –.

ولكن الأحداث اتخذت مساراً بعيداً عن هذا التخصيص، بحيث بدأت أول ما بدأت بعيداً عن علي(ع) نفسه هو سيد هذا البطن من هاشم حتى انتهت إلى غير العرب من سلاطين آل عثمان الأتراك أو المغول أو غيرهم. ومرة أخرى، إن الأمر ليس وراثياً لأن النبوة والإمامة والعلم لا تتوارث وإنما هو اصطفاء من الله تعالى، وهو قوله(ع) ‹‹الأئمة غُرِسوا›› لا لأنهم من نسل معين.

إن هذا الاصطفاف ضد علي(ع) استمر في مختلف المراحل، أشير إليها إجمالاً، كي أبين كيف كانت سيرته(ع) مع من اصطف ضده وكيف قابلهم بالعكس مما فعلوا.

أولاً: دفعه(ع) عن الخلافة بعد وفاة النبي(ص)

رواية أسد الغابة كتاب الكنى أن أبا مويهبة – مولى رسول الله(ص) – قال: "أهبني رسول الله صلى الله عليه وسلم من الليل فقال: ‹‹يا أبا مويهبة، إني قد

أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع». فخرجت معه حتى أتينا البقيع، فرفع يديه فاستغفر لهم طويلاً، ثم قال: «ليهن لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى! يا أبا مويهبة، إني قد أعطيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة»، فقلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة. فقال: «والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربي والجنة». ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أصبح ابتدىء بوجعه الذي قبضه الله فيه" أخرجه الثلاثة.

الذي ينبغي الالتفات إليه هو أن النبي(ص) قال «لِيَهْنِ – أي هنيئاً – لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه» ما يعني أن الناس – أو بعض الناس – أصبحوا في وضع غير صحيح بحيث أنه(ص) يهنئ موتى البقيع على حالهم بالمقارنة مع أولئك. إذاً، أُخبِرَ النبي(ص) فأَخبَرَ بأن خيوط الفتن بدأت تحاك في نهاية عمره الشريف، وليس كما يزعم البعض أن الفتن لم تبدأ إلا بالثورة على عثمان بن عفان، ولا حتى من يعترف بما جرى من الأحداث قبل ذلك. أي، أن هناك من سيتحرك بشكل يثير الفتنة.

قبل الوفاة بثلاثة أيام

حادثة سميت "رَزِيَّة يوم الخميس"، لأن ابن عباس سماها "رَزِيَّة"، حدثت يوم الخميس الذي سبق يوم الاثنين، يوم وفاة النبي(ص) – أرواحنا فداه –، وفيها ردّوا على النبي(ص) بشكل جعلني أهتز غضباً كلما ذكرتها، وذلك مذ قرأت عنها وحتى الآن. أنقل النص من صحيح البخاري ج4 كتاب المرضى باب قول المريض "قوموا عني"، ورواه في ج1 كتاب العلم:

عن عبيد الله عن ابن عباس قال: "لما حضر رسول الله(ص): وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب قال النبي(ص): «هلم أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده» فقال عمر: إن النبي قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت فاختصموا، منهم من يقول قربوا يكتب لكم النبي كتاباً لن تضلوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند النبي(ص) قال رسول

الله(ص): ‹‹قوموا››"؛ قال عبيد الله: "فكان ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم".

ولم ينفرد البخاري بروايته، وإنما رواه مسلم في صحيحه ج2 ص14، وأحمد بن حنبل في مسنده ج1 ص32.

وقد رويت الحادثة بروايات أخرى تعطي النص الحقيقي لكلمة عمر "النبي قد غلب عليه الوجع"، كما أثبت ذلك شارح نهج البلاغة ج2 نقلاً من كتاب "السقيفة" للجوهري، حيث روى قول ابن عباس: "لما حضرت رسول الله الوفاة وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب قال رسول الله(ص): "ائتوني بدواة وصحيفة أكتب كتاباً لا تضلوا بعده››، قال: فقال عمر كلمة معناها إن الوجع قد غلب على رسول الله(ص)، ثم قال: عندنا القرآن حسبنا كتاب الله، فاختلف من في البيت واختصموا فمن قائل قربوا يكتب لكم النبي ومن قائل ما قال عمر، فلما اكثروا اللغط واللغو والاختلاف غضب(ص) فقال: ‹‹قوموا››.

ولكن ما هي تلك الكلمة؟ إنها مروية في صحيح البخاري نفسه، ج2 كتاب الجهاد والسير باب جوائز الوفد، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: "يوم الخميس وما يوم الخميس، ثم بكى حتى خضب دمعه الحصباء، فقال: إشتد برسول الله(ص) وجعه يوم الخميس فقال: ‹‹ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً››، فتنازعوا، ولا ينبغي عند نبي تنازع، فقالوا: هجر رسول الله(ص)! قال: ‹‹دعوني فالذي أنا فيه خير مما تدعوني إليه››"

هذه الرواية أخرجها مسلم في صحيحه كتاب الوصية بألفاظ مختلفة قليلاً أن النبي(ص) قال: ‹‹ائتوني بالكتف والدواة،- أو – اللوح والدواة، أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً›› فقالوا: إن رسول الله(ص) يهجر!"

تعليقات:

- النبي(ص) يمنع من تنفيذ أمر، بل لعله آخر أمر له وهو(ص) يحتضر
- أمر النبي(ص) من أعظم ما يمكن أن يتحقق لأمة: الأمن الأبدي من الضلال
- صحابي كبير يتهم النبي(ص) بالهذيان مع أنه(ص) لم يطلب طلباً غريباً

- لا يقوم الحاضرون بتعنيف هذا الصحابي على قوله العظيم، إن لم نقل إخراجه فوراً مخافة أن يسيء إلى النبي(ص) أكثر وهو – أرواحنا فداه – في أيامه الأخيرة، بل يقوم بعضهم بتأييده والبعض الآخر بمخالفته بحيث ينشأ نزاع، وكل ذلك دونما اعتبار لمن هم في حضرته الكريمة

- يستمر المحدثون والمؤرخون في حماية هذا الصحابي الكبير، فيغيرون ويكتمون مع أن الواجب أن يقوموا بالدفاع عن نبيهم(ص)، لأنه هو الهادي وهو الشفيع لا عمر أو غيره

- المهم هو السؤال: لماذا قال عمر هذا القول، وما معنى قوله "عندنا القرآن حسبنا كتاب الله"؟

الجواب لا يمكن أن يكون إلا أن عمر بن الخطاب أراد منع النبي(ص) من كتابة الكتاب الذي سيضيف مرجعية أخرى إلى القرآن، فقال بأنه يكتفي بالقرآن. ولما وصلنا، على الرغم من محاولات الكتمان والتحريف، حديث النبي(ص) الذي يقرن العترة الهادية من أهل بيته(ع) بالقرآن: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي»، فلا بد أن عمر، الذي شهد المناسبات التي نطق النبي(ص) فيها بهذا الحديث، وآخرها يوم الغدير قبل شهرين ونصف من يوم الخميس المشؤوم ذاك، أراد منع النبي(ص) من كتابة خلافة علي(ع) فيقرن الأمر الشفهي بالأمر التحريري كوصية له في آخر عمره الشريف.

بيعة السقيفة - دفعه(ع) عن الخلافة بعد وفاة النبي(ص)

بينما كان علي(ع) والهاشميون منشغلين بجنازة النبي(ص)، وكان الصحابة في الخارج بانتظار التجهيز والصلاة والدفن، إجتمع بعض الأنصار في سقيفة بني ساعدة خارج المدينة، وعلى رأسهم كبار الأوس والخزرج خصوصاً سعد بن عبادة الخزرجي الذي كانوا يدعون إلى أن يبايع خليفة للنبي(ص). جاء إثنان من الأنصار إلى عمر وهو على باب النبي(ص) وأخبراه بالخبر، فدعا أبا بكر أن يترك تجهيز النبي(ص) لأن الأمر لا يحتمل التأجيل، فذهبا. في السقيفة كان الصاحبان، ومعهما صحابي ثالث أبو عبيدة عامر بن الجرّاح، يجادلون الأنصار في ما يريدون، وصارت الغلبة لهؤلاء الثلاثة على أساس احتجاج أبي بكر بأن العرب لن ترضى بتولية الأنصار والنبي(ص) من غيرهم وأن قريشاً هي شجرة النبي(ص)، وخدرهم بوعود ليس لها واقعية من قبيل

قوله "نحن الأمراء وأنتم الوزراء" أو "لا نقطع أمراً دونكم". وكان لخلافات الأنصار فيما بينهم مدخلية مهمة في فشلهم. النتيجة هي أن أبا بكر لم يبادر لترشيح نفسه أولاً بل رشح لهم أحد الصاحبين المهاجرين، فكان أن رفضا وضربا على يديه وبايعاه. ثم بايعه أحد الأنصار، ثم الثاني، ثم معظم الآخرين في السقيفة، إلا سعد بن عبادة الذي رفض رفضاً قاطعاً ما حدا بعمر أن يحرض على قتله في السقيفة!

الهدنة مع علي(ع) وأهل البيت(ع) لم تدم سوى للصلاة على النبي(ص) ودفنه، فإنه بعد ذلك كان علي(ع) والهاشميون وأصحابهم القريبون في بيت فاطمة(ع) لا يخرجون للبيعة. فحرض عمر الخليفة على إجبارهم عليها، فذهبت مجموعة بقيادة عمر فيها خالد بن الوليد وأسيد بن حضير والمغيرة بن شعبة وأبو عبيدة وسالم مولى أبي حذيفة ووقفوا بباب فاطمة(ع) يأمرون الموجودين بالخروج للبيعة وإلا تعرضوا للعقاب – قال عمر: "لتخرجن ولتبايعن أو لأحرقن الدار بمن فيها!" قيل له: "يا أبا حفص إن فيها فاطمة!" قال: "وإنْ!" وفي رواية الطبري أن عمر بن الخطاب جاء البيت وفيه علي(ع) والزبير وطلحة وآخرون فقال: "لأحرقن عليكم أو لتخرجن إلى البيعة"، فخرج عليه الزبير مصلتاً بالسيف فعثر فسقط السيف من يده، فوثبوا عليه فأخذوه.

أما رواية العقد الفريد فهي "... فأمّا علي والعباس والزبير فقعدوا في بيت فاطمة حتى بعث اليهم أبو بكر عمر بن الخطاب ليخرجهم من بيت فاطمة، وقال له: إن أبوا فقاتلهم! فأقبل بقبس من نار على أن يضرم عليهم الدار، فلقيته فاطمة فقالت: «يا ابن الخطاب أجئت لتحرق دارنا؟» قال: نعم أو تدخلوا فيما دخلت فيه الامة!"

وذكروا أن المجموعة أخذت علياً(ع) والزبير تسوقهم سوقاً عنيفاً، وفي بعضها أنهما أخذا والحبال في عنقيهما، فصاحت فاطمة(ع): «يا أبا بكر ما أسرع ما أغرتم على أهل بيت رسول الله، والله لا أكلم عمر حتى ألقى الله سبحانه!»

(الإمامة والسياسة ج1، بداية الكتاب فيه هذه التفاصيل، كما ذكر بعضها وغيرها المؤرخون كالطبري في حوادث سنة 11هـ وغيره، فلتراجع.)

تعليقات:

- لا تعليق على بيعة تتم بالإجبار، وقبل الإجبار بيعة خاطفة وصفها صاحبها بالفلتة

- العجب من إهمال بيعة الغدير (التي أكدنا وقوعها وتواتر نقلها بما لا نظير له) ولم يمض عليها ثلاثة أشهر

- العجب من إهمال علي(ع) وهو الذي جعله النبي(ص) مع القرآن لا يفترقان

- العجب ثم العجب من هذه الجرأة على نفوس المسلمين عامة، وآل محمد(ص) خاصة

- العجب ثم العجب من هذه الاستهانة بحرمة بيت فاطمة(ع) بعدما أبان الله ورسوله(ص) فضلها وحرمتها

- أن استخلاف أبي بكر لم يكن نتيجة شورى – التي يتغنى بها المسلمون إلى اليوم –، بل كان أمراً متعجلاً مأخوذاً بالقوة.

دفعه(ع) عن الخلافة في وصية أبي بكر

ويستمر مسلسل الإعراض عن علي(ع) واصطفاف قريش ضده. فأنه بعد أن دنت وفاة أبي بكر، دعا عثمان بن عفان وأخذ يملي عليه وصيته، فقال الخليفة: "أكتب "إني قد وليت عليكم..." ولم يكمل لأنه أغمي عليه وهو في الاحتضار الشديد، فأكمل عثمان من عنده: "إني قد وليت عليكم عمر"! فلما انتعش أبو بكر من غيبوبته قرأ عليه عثمان ما كتب، فأيد ذلك (تاريخ الطبري ج2 ص429 وسيرة ابن الجوزي وغيرهما)، وفي رواية أخرى أنه سأله: "أنى لك هذا؟ قال: ما كنت لتعدوه، فقال: أصبت".

ويبدو أن عمر جاء إلى أبي بكر وتسلم كتاب التعيين ثم خرج إلى الناس به، فسأله أحد الصحابة – وقيل أنه عمار بن ياسر – عما في الكتاب فأجاب عمر: "لا أدري، ولكني أول من سمع وأطاع" فقال ذلك الصحابي: "لكني والله أدري ما فيه – أمّرته عام أول وأمّرك العام!" (الإمامة والسياسة ج1).

تعليقات:

- إن توافق الشيخين في الخلافة كان من الوضوح بحيث كتب عثمان اسم عمر تلقائياً

- إحترم الناس احتضار الخليفة، وساعدوه على كتابة وصيته الأخيرة، والتي فيها تعيين حاكم عليهم، الأمر الذي لا يملكه أساساً، في الوقت الذي منعوا النبي(ص) من كتابة وصيته في احتضاره في يوم الخميس المشؤوم

- أبو بكر يغشى عليه قبل أن يتم قوله فلا يقول عثمان "إنه ليهجر" أو "غلب عليه الوجع"، كما فعلوا مع النبي(ص)، مع أن احتضار أبي بكر يمكن أن يصاحبه هذيان لعدم عصمته، بل يقوم بإتمام ما ظن من إرادته

- مرة أخرى، يستخلف الخليفة دون أي شورى، فالتعيين بنص واضح من الخليفة

- وهذا النص والتعيين لم يجد العلماء عبر العصور فيه ما يخدش من خلافة عمر، في الوقت الذي يحتجون على عدم صحة استناد الشيعة على خلافة علي(ع) بالنص عليه من النبي(ص) أنه مخالف للشورى!

النظاهر عليه(ع) يوم الشورى

لما طعن أبو لؤلؤة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب وأيقن الموت قال: "لو كان أبو عبيدة حياً استخلفته لأنه أمين هذه الأمة، ولو كان سالم مولى أبي حذيفة استخلفته لأنه شديد الحب لله تعالى". بعد ذلك قال لهم: "كنت قد أجمعت بعد مقالتي الأولى أن أولي أمركم رجلاً هو أحراكم أن يحملكم على الحق" (في إشارة كما يبدو إلى علي(ع)) فقالوا له: "ما يمنعك منه؟ قال: لا أتحملها حياً وميتاً!" ثم قال: "عليكم بهؤلاء الرهط: علي وعثمان وعبد الرحمن وسعد والزبير وطلحة، فليتشاوروا بينهم وليختاروا واحداً منهم، فإذا ولوه فأحسنوا مؤازرته وأعينوه".

ثم استدعى الستة وقال لهم: "إذا أنا مت فليصلي بالناس صهيب، وتشاوروا أنتم ثلاثة أيام فلا يأتي اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم". ثم أمر أبا طلحة الأنصاري أن يختار خمسين رجلاً من الأنصار يقومون معه بأسلحتهم على هؤلاء الستة حتى يختاروا رجلاً منهم في الأيام الثلاثة بعد موته، وذلك في بيت يقوم عليه أبو طلحة ومن معه، وأمره بالقول: "إن اجتمع خمسة وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف، وإن اتفق أربعة وأبى إثنان فاضرب رأسيهما، وإن افترقوا ثلاثة وثلاثة فالخليفة في الذين فيهم عبد الرحمن، واقتلوا أولئك إن خالفوا، فإن مضت الثلاثة أيام ولم يتفقوا على واحد منهم فاضربوا أعناق الستة، ودعوا الأمر شورى بين المسلمين يختارون لأنفسهم من شاؤوا!"

إن عمر إذا كان كارهاً لتحملها لَم زجّ نفسه بها بهذه الطريقة الخطرة؟ ولماذا اختص الأمر بهؤلاء الستة؟ ولماذا جعلها تقود إلى استخلاف عثمان، ذلك أن

علياً(ع) قال للعباس بأن سعداً لا يخالف عمه عبد الرحمن أبداً، وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفان أبداً.

وكيف يقوم بذلك وهو يقول لعثمان: "كأني بك وقد قلّدتك قريش هذا الأمر، فحملت بني أمية وبني أبي معيط على رقاب الناس، وآثرتهم بالفيء، فسارت إليك عصابة من ذؤبان العرب فذبحوك على فراشك ذبحاً!" ثم أخذ بناصية عثمان فقال: "إذا كان ذلك فاذكر قولي فإنه كائن!"

كان هذا رأيه في عثمان وما سيكون منه. أما رأيه في علي(ع) فكان: "لله أنت لولا دُعابَة فيك! أَمَا واللهِ لَئِن ولّيتَهم لتحملنّهم على الحق الواضح والمَحجَّة البيضاء!"

وأما رأي عمر في باقي الستة فكان ما ملخصه أن الزبير يوم إنسان ويوم شيطان، وطلحة فخور بنفسه والنبي(ص) ساخط عليه منذ أن أعلن أنه سيتزوج من زوجة النبي(ص) بعد وفاته(ص)، وعبد الرحمن وسعد من زهرة التي ليست لائقة للحكم.

إذاً: ليس فقط أن علياً(ع) أفضل منهم، أو أن فيهم نواقص لما يتطلبه منصب الخلافة، بل أن علياً(ع) هو الوحيد المؤهل والذي سيسير بالناس على الحق الواضح؛ فالسؤال الذي حيرني وحير الباحثين: لماذا إذاً لم ينص على علي(ع)؟ أليس الاحتياط على الأمة يقتضي تعيين الأفضل، فكيف إذا وجد الأفضل الذي سيسير بالسيرة الكاملة الصحيحة؟ كيف يجمع في عملية انتخابية مع خمسة غير لائقين للخلافة؟

وهكذا، فالخليفة عمر، الذي كان يهابه الناس، نجده عاجزاً عن مخالفة ما قررته قريش، وهو: منع تولية علي(ع)! ذلك أن قوله لعثمان "كأني بك قد قلدتك قريش هذا الأمر لحبها إياك" يعني أن الرأي المنتصر هو لقريش، بل لبني أمية من قريش ومن معهم، وهؤلاء لا يمكن أن يقبلوا بعلي(ع). ولكن، أليس الأحرى بعمر أن يعمل على منع ذلك وهو يعلم أن عثمان سيقرب بني أمية، بل سيحملهم على رقاب الناس، أي المناصب والمنافع؟

ولكن لعمر رأياً آخر، فقد روي (شرح نهج البلاغة ج12 ص259) أنه قال: "والله إني لأعلم مكان رجل لو وليتموه أمركم لحملكم على المحجة البيضاء، قالوا: من هو؟ قال: هذا المولي من بينكم – وكان علي(ع) جالساً معهم وخرج –، قالوا: فما يمنعك من ذلك؟ قال: ليس إلى ذلك سبيل!"

موقف علي(ع) وعثمان ونتيجة الشورى

كما توقع عمر، فإن قريشاً – التي تحب عثمان وتكره علياً(ع) – اختارت عثمان، فقد روي أن عبد الرحمن بن عوف قال بعد مشاورته الناس: "ما شاورت قرشياً إلا قال عثمان، وما شاورت عربياً إلا قال علي!"

وقد روي أن سؤال عبد الرحمن كان: "هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه، وفعل أبي بكر وعمر؟" وأن جواب علي(ع) كان: «بل على كتاب الله، وسنة رسوله، واجتهاد رأيي».

ثم قال(ع) لقريش عموماً: «ليس هو أول يوم تظاهرتم فيه علينا، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون»، وهي كلمة تؤكد تآمر قريش على أهل البيت(ع) قبل يوم الشورى، كما تنذر بانتفاضة محتملة ما جعل عبد الرحمن يسارع إلى تهديد علي(ع) بسيف أبي طلحة: "يا علي، لا تجعل على نفسك سبيلاً!"

هذا الموقف وهذه البيعة جعلت شيعة علي(ع) يعلنون سخطهم، حيث قال المقداد: "ما رأيت مثل ما أوتي أهل هذا البيت بعد نبيهم، أني لاعجب من قريش انهم تركوا رجلاً ما أقول أن أحداً أعلم ولا أقضى منه بالعدل" فقال عبد الرحمن: "يا مقداد اتق الله فأني خائف عليك الفتنة!"

الموقف المبدئي مرة أخرى

بعض الباحثين تساءل عن موقف علي(ع) الرافض لشرط عبد الرحمن في القبول بالبيعة على أساس الكتاب والسنة وسنة الخليفتين أبي بكر وعمر، قالوا: لو أن علياً(ع) وافق على شرط عبد الرحمن ثم بعد البيعة له أن يخالف سنة أبي بكر وعمر كما يشاء، في حين أن رفضه الشرط أبعده عن الخلافة وما كان يمكن له أن يقوم به من إصلاحات بعد عهد عثمان ومخالفاته أو بالقيام بما يعرفه هو من سنة النبي(ص)؛ وخلص بعض هؤلاء إلى استنتاج أن علياً(ع) لم يكن خبيراً بالسياسة!

الجواب هو ما قلته بخصوص مواقفه تلك، مما لا يلتفت إليه مثل هؤلاء الباحثين، وهو أن علياً(ع) إمام هدى مسؤول عن إظهار الشريعة بطريقتها الوسطى كما أنزلت في كتاب الله تعالى وبينها النبي(ص)، وهي مسؤولية تمتد بامتداد الزمن وليست مؤقتة بفترة وجوده في الحياة، وبذا فلا بد له أن يلحظ كل هذا في مواقفه

كلها. إن قبوله شرط الالتزام بسنة الشيخين أبي بكر وعمر يعني – من ضمن ما يعني –:

(1) قبوله أن هناك سنة تتبع غير سنة النبي(ص)، وهذا مخالف للإسلام في الأساس

(2) موافقته على سنتهما وسيرتهما، وهو ما لا يوافق عليه أو بعضه (كما في مسائل شرعية عديدة)

إذاً، كان واجباً على أمير المؤمنين(ع) رفض الشرط لأنه مكلف شرعاً بمسؤولية أعظم بكثير مما يفكر فيه مثل هؤلاء الباحثين ما يحتم عليه عدم القبول بالشرط، سواء لعلمه بالواجبات الشرعية أو بالموقف النفسي والعملي لقريش الذي يحتم عليه – كعاقل خبير – أن يرفض البيعة على أساس ذلك الشرط الفخ.

النتيجة هي اصطفاف قريش ضده(ع)

روى شارح نهج البلاغة (شرح ابن أبي الحديد ج9 ص22) عن ابن عباس قال: "وقع بين عثمان وعلي كلام، فقال عثمان ما أصنع إن كانت قريش لا تحبكم، وقد قتلتم منهم يوم بدر سبعين كأن وجوههم شنوف الذهب!"

فالثأر لهؤلاء السبعين كلف علياً(ع) وأهل بيته(ع) وشيعته الكثير. ولكن ألم يكن أولئك السبعين عتاة المشركين؟ فكيف يكون الثأر من بعض المسلمين موجهاً لأقربهم لنبي المسلمين(ص)؟!

والدليل على هذا أن الذي عنده ثأرهم، وهو النبي(ص) لم يستطيعوا الوصول إليه لحماية السماء له بواسطة الملائكة وبواسطة المخلصين من أصحابه الكرام، وعلى رأسهم الهاشميون، وفي طليعتهم علي(ع)، فكان أن طلبوا الثأر من أقرب الناس إليه – كما هو معمول به في الجاهلية، وفي المجتمعات المسلمة الجاهلية إلى اليوم –، وهذا هو توضيح أمير المؤمنين(ع): «اللهم إني أستعديك على قريش، فإنهم أضمروا لرسولك(ص) ضروباً من الشر والغدر، فعجزوا عنها، وحلت بينهم وبينها، فكانت الوجبة بي والدائرة علي؛ اللهم احفظ حسناً وحسيناً، ولا تمكن فجرة قريش منهما ما دمت حياً، فإذا توفيتني فأنت الرقيب عليهم وأنت على كل شئ شهيد» (شرح نهج البلاغة ج20 ص298). وقد حصل بعده: فقد سُمّ الحسن(ع) وقتل الحسين(ع)،

هذا بعد أن ماتت أمهما(ع) غاضبة مغصوبة مقهورة مردودة عن حقها وحق زوجها، وقتل هو(ع) نفسه في محراب العبادة — قال الشاعر:

قَضى أَخُوهُ خَضِيبَ الرَّاسِ، وَابنَتُهُ غَضْبى، وَسِبْطاهُ مَسمُومًا وَمَنْحُورا

ثانياً: الإعراض عنه(ع) في أمور أخرى

حروب الفتوحات

إن الخلفاء لم يدعوا علياً(ع) ولا أحداً من الهاشميين إلى الفتوحات أو الاشتراك في الحكم. فهل أن الإمام(ع) قاطع حكمهم لتكليف شرعي أمره به النبي(ص) أم أن الخلفاء لم يريدوا أن يخرج للقتال فيستمر عطاؤه الفريد في الوقت الذين يريدون لوهج ذكره أن يخفت شيئاً فشيئاً لإضعاف موقعه من الخلافة، أم أنهما الإثنان معاً؟

أتصور أن السببين كانا وراء ذلك، فلا علي(ع) يريد الاشتراك ولا هم أرادوا إشراكه. ولكن ذلك لم يمنعه(ع) من الإدلاء بدلوه عند الضرورة. فقد روى المؤرخون رأيه الذي أخذ به أبو بكر في قتال المرتدين، والذي كان وراء قرار الخليفة إرسال الجيوش إلى اليمامة وغيرها.

كما رووا نصيحته لعمر في قضية الخروج لقتال الفرس عندما كانت الحرب مشتعلة والأمور لم تحسم، بل كان الفرس قد اجتمعوا لإعادة الفاتحين. فقد ورد كتاب من عمار بن ياسر إلى عمر يخبره بأن الفرس جمعوا مائة وخمسين ألفاً في نهاوند ليهاجموا المناطق التي فتحها المسلمون ثم ليتوجهوا إلى المدينة المنورة.

فاستشار الصحابة ليبدوا رأيهم في خروجه بنفسه لقيادة الجيش.

أما عثمان فقال فيما قال: "أرى يا أمير المؤمنين أن تكتب إلى أهل الشام فيسيروا من شامهم، وتكتب إلى أهل اليمن فيسيروا من يمنهم، ثم تسير أنت بأهل هذين الحرمين إلى المصرين الكوفة والبصرة، فتلقى جمع المشركين بجمع المسلمين، فإنك إذا سرت بمن معك وعندك قلّ في نفسك ما قد تكاثر من عدد القوم ...".

ولكن علياً(ع) قال: «إن أشخصت أهل الشام من شامهم سارت الروم إلى ذراريهم، وإن أشخصت أهل اليمن من يمنهم سارت الحبشة إلى ذراريهم، وإنك إن

شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك الأرض من أطرافها وأقطارها، حتى يكون ما تدع وراءك أهم إليك مما بين يديك من العورات والعيالات! ...››؛ ثم قال(ع): ‹‹إن الأعاجم إن ينظروا إليك غداً قالوا هذا أمير العرب وأصل العرب، فكان ذلك أشد لكلبهم وألبتهم على نفسك››؛ ثم أعادهم إلى مصدر المدد والقوة فقال(ع): ‹‹وأما ما ذكرت من مسير القوم فإن الله هو أكره لمسيرهم منك، وهو أقدر على تغيير ما يكره، وأما ما ذكرت من عددهم فإنا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة ولكنا كنا نقاتل بالنصر››.

فوافقه عمر (فتوح ابن أعثم ج2 ص290 وتاريخ الطبري ج3 ص209).

ثم أشار علي(ع) بالنعمان بن المقرن المزني (من القادة الميدانيين لجيوش الفتح من شيعة علي(ع) كأبي أيوب الأنصاري وحذيفة بن اليمان وهاشم المرقال وسلمان الفارسي وأشباههم).

وهكذا هو علي(ع) – ربما لو كان غيره لانتهز الفرصة كي يرجو التخلص من عمر في خروجه بنفسه، أو على الأقل يؤيد ما قاله الآخرون. وهذه سيرته(ع)، حتى مع من تعامل معه ومع زوجته بضعة النبي(ص) أسوأ المعاملة. وها هو يقوم بواجبه – كإمام حق – حتى في الأمور التي أعرضوا فيها عنه أول الأمر عندما ظنوا أنهم لا يحتاجون إليه.

ثالثاً: محاربته(ع) بعد الخلافة – الناكثون والقاسطون والمارقون

إن النبي(ص) بعد أن أبان منزلة علي وأهل البيت(ع)، منزلة الإمامة التي لا يصح من الأمة إلا أن تتبعها بما تأمر وتنهى اتباعاً كاملاً تاماً ‹‹لا تقدموهم فتهلكوا، ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا›› ونهى عن التنطع معهم ‹‹ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم››، وحذر من أن مخالفتهم اتباع للشيطان ‹‹إذا خالفتهم قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا حسب إبليس››... في أحاديث كثيرة متنوعة، حتى وصل(ص) إلى التحذير من الوقوف موقف المحارب لهم فقال(ص)، برواية زيد بن أرقم: ‹‹أنا حرب لمن حاربكم وسلم لمن سالمكم›› (صحيح ابن حبّان ج9 حديث 6938)، وبرواية

أخرى: «أنا حرب لمن حاربتم وسلم لمن سالمتم» (سنن ابن ماجة ج1 ص52 حديث 145، ومستدرك الحاكم ج3 ص149، والترمذي في سننه ج10 فضائل فاطمة الحديث 3962 وأصحاب السير والتواريخ كأسد الغابة ترجمة فاطمة(ع) ج7 الحديث 2619 وما بعده).

على الرغم من هذا، فقد وصل البعض بالتعامل المناوئ لعلي(ع) إلى العداوة السافرة في حروب أكلت ألوف المسلمين، وكلها من أجل الدنيا فحسب. وكان النبي(ص) قد أخبر علياً(ع) أنه سيحارب فئات ثلاث: الناكثون، والقاسطون، والمارقون. فقد أخرج الحاكم في المستدرك (ج3 ص139) عن أبي أيوب الأنصاري أنه قال: "أمر رسول الله(ص) علي بن أبي طالب بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين".

وهذا إخبار واضح من النبي(ص)، بل أمره(ص)، بقتال ثلاث فئات شخصها(ص) بصفات أفعالها أو نتائج أفعالها، إلا أن التعامل بالطريقة ذاتها جرى مع مثل هذه الأحاديث، مع الناكثين – أي الذين نكثوا البيعة (مع أن سورة الفتح تقول ﴿فمن نكث فإنما ينكث على نفسه﴾) – والقاسطين – أي الذين ظلموا وجاروا (وسورة الجن تقول أن القاسطين ﴿كانوا لجهنم حطباً﴾). أما الخوارج فكونهم ليسوا من الصحابة أولاً، ولأنهم كانوا في جيش علي(ع) في الأصل ثانياً، فهم يستحقون ما لا يستحقه الصنفان الأولان من المعاداة!

الناكثون

هم الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله ومن خرج معهما بعد بيعتهم علي(ع) واندفاع الناس لبيعته(ع) بما وصفه(ع) بالقول: «حتى لقد وُطِئَ الحسنان وشُقَّ عطفاي».

يبدو أن الصاحبين أرادا أن يوليهما علي(ع) مناصب مهمة، ولكن علياً(ع) أخبرهما أنه لن يتجاوزهما في أي مشورة هو في حاجة إليها. لم يرضهما ذلك، وكتبا إلى أم المؤمنين عائشة، وكانت في مكة، "أن خذّلي الناس عن علي"، وهو طلب تقبلته أم المؤمنين بأحسن القبول، فإنه لما وصل إليها مقتل عثمان وهي في طريقها إلى المدينة فرحت وصارت تمني النفس بمبايعة ابن عمها طلحة، فلما أخبرت أن الناس بايعوا علياً(ع) قالت: "السماء تنطبق على الأرض ولا تتم هذه البيعة!" وما لبثت شيئاً حتى بدأت تقول: "قتل عثمان مظلوماً!"

بدأت حملة التهيئة لحرب علي(ع)، وكان لأم المؤمنين الدور الأعظم – بنظري – لأن الصاحبين لم يكن لهما حظ كبير دونها، فهي زوجة النبي(ص) والقرآن الكريم أمر بأن يتعامل المسلمون معها كتعاملهم مع الأم، إضافة إلى ما تملكه من ذكاء وعلم وكونها بنت الخليفة الأول الذي يؤمن بصحة خلافته أكثر المسلمين في وقتها. قامت بالكتابة إلى أمهات المؤمنين(رض) من أجل أن يخرجن معها، وذلك من أجل الإصلاح! وهو ما لم أفهمه، لأنه لم يكن قد بدأ شيء يحتاج الإصلاح بين علي(ع) والمناوئين. أما أمهات المؤمنين فكُنّ على ثلاثة أقسام: أرادت حفصة بنت عمر الخروج مع عائشة، بينما أرادت أم سلمة ثني عائشة عما تريد بشكل قوي، أما الأخريات فقد رفضن طلب عائشة.

إلا أن رد أم سلمة(رض) كان الأقوى والأشمل، فبالإضافة إلى تذكيرها بكل ذلك، قامت بتذكيرها بحادثة حضرتاها، يوم جاء أبوها وعمر إلى النبي(ص) وسألاه عن المرجع بعده(ص) وأن النبي(ص) قال لهما أنه يعرف مكانه ولكنه لو أخبرهم لتفرقوا عنه كما تفرقت بنو إسرائيل، فخرجا ولم يسألاه (!)، وكيف أن عائشة سألته بعدما خرجا فقال «إنه خاصف النعل» وكان علي(ع) في الخارج يخصف نعل النبي(ص).

ثم أنها(رض) أرسلت إلى علي(ع) مع ولدها عمر بن أبي سلمة تعلن انتصارها له(ع) وتعتذر عن القتال معه لالتزامها الشرعي ولكن ترسل ولدها عمر ليحارب معه(ع).

وكان بعض أصحاب علي(ع) قد قال لها محذراً: "من رأى قتالك فقد رأى قتلك" بمعنى أن الناس سيكونون مستعدين لقتلك، وهو الشيء ذاته الذي كانت هي ومن معها على استعداد لفعله – قتل علي والحسنين(ع) والصفوة من الصحابة وكثرتهم الكاثرة في جيش أمير المؤمنين(ع)؛ هذا وقد سمعت النبي(ص) يقول أنه حرب لمن حاربهم وسلم لمن سالمهم وحرب لمن يحاربون وسلم لمن يسالمون.

لم ينفع كل هذا مع أم المؤمنين، بل أصرت حتى بعد أن وصلت إلى ماء الحوأب فنبحتها كلاب هناك فتذكرت تحذير النبي(ص) لها فأرادت الرجوع فكذبوا عليها. وحتى بعد أن جاءوها بجمل كي تقود المعركة من هودج عليه، فلما أخبرت أن اسمه "عسكر" تذكرت تحذير النبي(ص) (وهذه من معاجزه(ص))، ولكن ابن اختها عبد الله بن الزبير – أحد أعداء آل محمد(ص) – جاءها بشهود شهدوا زوراً أنهم استبدلوه.

وهكذا، خرج الناكثان الزبير وطلحة، ومعهما عائشة وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عامر مع من تحالف معهم، إلى البصرة، فقتلوا أكثر من مائة وعشرين من المسلمين، وألقوا القبض على الصحابي عثمان بن حنيف الأنصاري والي البصرة وضربوه ونتفوا شعر لحيته ولولا أن هددهم بأخيه سهل بن حنيف في المدينة لقتلوه، وصادروا بيت المال، ثم صار طلحة والزبير يتنازعان على إمامة الصلاة!

حاول أمير المؤمنين(ع) إرجاعهم عن غيهم، فأرسل ابن عباس إلى البصرة لتذكير الزبير بالبيعة، ولكنه وطلحة أصرا على موقفهما. فما كان منه(ع) إلا الخروج لقتالهم، فخرج ومعه جل الأحياء من المهاجرين والأنصار، ودخل البصرة في أكثر منه اثني عشر ألف رجل.

قبل القتال حاول علي(ع) مرة أخرى إرجاعهم إلى الحق، فذكر الزبير بقول النبي(ص) له: «لتقاتلنه – أي علي(ع) – وأنت له ظالم» فأراد الاعتزال فهيجه ابنه عبد الله باتهامه بالجبن، فقاتل شيئاً ثم اعتزل، فقتله عبد الله بن جرموز وجاء بسيفه إلى علي(ع)... أفتعلم ماذا قال علي(ع)؟ قال: «سيف لطالما كشف الكرب عن وجه رسول الله» مذكراً بحسن بلاء الزبير في معارك النبي(ص).

واحتدم القتال وقاتل أصحاب الجمل حوله قتالاً شديداً، فأمر علي(ع) بالهجوم عليه وقتله، ففعلوا فوقع هودج عائشة، فأمر أخاها محمد بن أبي بكر أن يأخذ الرجال ويحمي أخته. ثم أمر أن تحمل إلى أحد بيوت الوجهاء، وبعدها أمر بها إلى المدينة المنورة، قيل ومعها خمسين امرأة كي لا تنكشف على أحد من رجال القافلة. هذا، مع أنها أصرت على موقفها بحيث رفضت – في حديثها مع ابن عباس – أن تسمي علياً(ع) بإمرة المؤمنين.

وعندما وقف على جثة طلحة قال(ع): «أصبح أبو محمد غريباً في هذا المكان»!

ولما أراد جيشه المنتصر أن يأخذ المنهزمين غنائم منعهم من ذلك، محتجاً عليهم بسؤالهم عمن يأخذ أم المؤمنين عائشة.

كانت نتائج الحرب سقوط ما بين عشرة آلاف على أقل التقديرات وثلاثين ألفاً على أعلى التقديرات، معظمهم من جيش الناكثين. وهؤلاء ضحايا أول حرب

داخلية أهلية بين المسلمين أنفسهم، فمن يتحمل وزر هذه السّنّة السيئة ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة؟

الشاهد هنا سيرة علي(ع): حاول الإصلاح ما استطاع، بالرسائل والوفود، ثم بالتذكير بأقوال النبي(ص)، ثم بفسح المجال للاعتزال، ثم بمحاولة إنهاء الحرب بأقل الخسائر، وبعدها التعامل مع المنهزمين كمسلمين باغين، فلا يؤسرون ولا يقتلون. أما رؤوس الفتنة، فعاملهم معاملة المحب الذي لا يريد لهم المصير الأسود، وبعد هزيمتهم ومقتل بعضهم لم يشمت ولم يذكر إلا الحسن من سيرتهم، على سنة من معلمه(ص) يوم قال: «إذهبوا فأنتم الطلقاء».

ولكن بماذا أجاب الطلقاء؟

القاسطون

هم الجائرون الظالمون، وما أحراهم بهذا الوصف وقد كانت قيادتهم للطلقاء الذين كانوا حرباً لله ورسوله(ص) ثم «ما أسلموا ولكن استسلموا، فلما وجدوا أعواناً ...» وإلا كيف يكونون حرباً لمن أعلن النبي(ص) أنه حرب لمن حاربهم وسلم لمن سالمهم؟ كيف يرفعون السيوف بوجه علي والحسنين(ع) والمئات من المهاجرين والأنصار من الصحابة في جيش علي(ع) والألوف من التابعين لهم بإحسان؟

وبعد مقتل عثمان ومبايعة علي(ع) عين ولاته على الأمصار ولم يبق معاوية على ولاية الشام وأرسل الرسائل إليه، ولكن معاوية رفض تسليم الشام وبالتالي التسليم لخلافة علي(ع).

ولأجل أن يقوي من جبهته إعلامياً فقد استطاع معاوية أن يشتري عمرو بن العاص بولاية مصر. وعندما خرج عمار بن ياسر للقتال في صفين قال: "يا عمرو بعت دينك بمصر، تباً لك! طالما بغيت في الإسلام عوجاً".

إستطاع أتباع معاوية الاستيلاء على مصر وألقوا القبض على الوالي من قبل علي(ع) وهو محمد بن أبي بكر، وهو من أشد الناس ولاء لأهل البيت(ع)، ومن أكثر الناس تحريضاً على عثمان، ومن بين الذين لم يكونوا يرضون بالمساومات المعروضة، حاله حال مالك الأشتر النخعي وعدي بن حاتم الطائي وقيس بن سعد بن عبادة الأنصاري. كان في السابعة والعشرين من العمر، فقتله أصحاب معاوية

وأدخلوا جثته في بطن حمار وأحرقوه! (وقبره الآن في قرية ميت دمسيس قرب المنصورة في مصر، مشيد، وفوقه مسجد مشيد تقام فيه الصلوات اليومية).

دارت حرب صفين طويلاً، وكانت تتوقف وتشتعل، وأحياناً كانت تشتد كثيراً، ما حدا بأمير المؤمنين(ع) لطلب المبارزة من معاوية ليحسم النزاع العسكري. طبعاً لم يرض معاوية.

وكان من الأحداث البارزة في حرب صفين مقتل عمار بن ياسر(رض)، هذا الشيخ الكبير سناً وشخصية وموقفاً وتاريخاً. لم يقل أن علياً(ع) أصغر منه بما يزيد على ثلاثين سنة فلا يتبعه، كما قال غيره من الذين وجدوا في السن ما يتكئون عليه في التظاهر ضد علي(ع)، ولم يغير ولم يبدل، وكان من الذين لم يستطيعوا السكوت على المظالم في عهد عثمان، فكان من أشد الناس عداوة لمعاوية والأخير عداوة له. أثناء القتال الشديد طلب ماء ليشرب فجيء له بلبن، فكبر وأعلن قول النبي(ص) أن هذا سيكون آخر شراب له في الدنيا، فقاتل حتى قتله أبو العادية الفزاري. هنا ثارت بلبلة سببها اشتهار إخبار النبي(ص) «ويح عمار تقتله الفئة الباغية» ما يعني أن فئة معاوية هي الفئة الباغية (وهو أمر مؤسف أن تكون هناك حاجة لمعرفة الفئة الباغية عندما يكون علي(ع) على رأس إحدى الفئتين).

ثم صارت الغلبة لجيش علي(ع)، حتى وصل مالك الأشتر إلى مركز معاوية. هنا، قام عمرو بن العاص بواحدة من أشد حيل الخداع أثراً في التاريخ عندما أمر أصحابهم برفع المصاحف على الرماح والمناداة بالدعوة للتحاكم إلى كتاب الله. خرج الألوف من جيش علي(ع) يطالبونه بقبول الدعوة، فحاول إقناعهم بأن يحترموا عقولهم فإنه يعرف القوم مذ كانوا صغاراً فهم ليسوا أهل دين ولا قرآن.

لم يفلح، لا هو ولا غيره في إقناعهم، فكانت عملية التحكيم، والتي فيها ظهر سوء دخيلة الصحابي أبي موسى الأشعري، الذي اتفق مع عمرو بن العاص على خلع علي(ع) وعمرو معاوية، فوفى بالشرط وخلع علياً(ع) ولكن عمرواً لم يخلع معاوية! فكم هو عظيم عقل أبي موسى وكم هي عظيمة نفسه.

وبعد التحكيم انقلب الخوارج على موقفهم فجاءوا علياً(ع) يقولون أنهم عرفوا بخطئهم وأنهم تابوا ويطلبون منه التوبة! تصوروا المصيبة: علي(ع) يخطئ وعليه

التوبة! ذكّرهم أنهم هم الذين كانوا وراء ما جرى، وأنه لا يمكن أن يتراجع بعد أن اتفق مع القوم، فخرجوا بالألوف من جيشه وسماهم المؤرخون الخوارج.

هنا أيضاً، نجد علياً(ع) مع القاسطين على نفس الطريقة في محاولة إعادتهم إلى الحق ودفع الشر. ورأينا أنه بعد اشتداد الحرب حاول إنهاءها بنفسه. وكما فعل مع أهل الجمل، لم يعتبر جيش الشام خارجين عن الدين، بل لم يرض بشتم جيش الشام، قائلاً قولته التربوية العظيمة: «كرهت أن تكونوا سبابين، ولكن لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر، ولو قلتم مكان سبكم إياهم: اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوي من الغي والعدوان من لهج به، فهذا من الكلام أحب إلي ولكم».

حتى السب للتنفيس عن كل هذا الظلم وهذه الدماء المسفوكة والخسائر الفادحة، لا يرضاه علي(ع). فكان أن قابله قائد أهل الشام – الصحابي الجليل كما يصفونه – معاوية بن أبي سفيان، بما ينتظر منه من سن سب علي(ع) على منابر المسلمين عشرات السنين.

المارقون

وهم الخوارج الذين خرجوا من جيش علي(ع) في صفين. فلماذا سماهم النبي(ص) "المارقون"؟

كل من وصف الخارجين على علي(ع) وصفهم بحسن الصلاة وطول السجود، حتى سموهم "ذوي الجباه السود"، وقراءة القرآن باستمرار. فلو جئنا إلى ما أخبر به النبي(ص) عن قوم «يمرقون من الدين» أي "مارقون"، وقابلناه مع صفة الخوارج أولئك نجد الانطباق كاملاً. فقد أعطى النبي(ص) أوصافاً متعددة، وطرحها بأشكال مختلفة، تحذيراً لأمته من أمثال هؤلاء، كما حكم بقتلهم، ووصف من يقتلهم بأنه الأقرب إلى الحق. من هذه الأحاديث:

«يخرج فيكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وعملكم مع عملهم، يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية» (صحيح البخاري ج4 ص179).

وهكذا، نجد فيهم قراءة غير واعية للقرآن، على الرغم من تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، ونجد الصلاة والسجدة الطويلة والأعمال الخيرية، ولكنها كلها في السطح لا في العمق.

مع هذه الفئة الثالثة، نجده(ع) على نفس السيرة: محاولة الإصلاح والهداية، ثم محاولة إيقافهم بالقوة، ثم التعامل معهم كمسلمين باغين لا كافرين خارجين عن الملة.

إذاً، مرة أخرى أثبت علي(ع) أنه لا يحيد عن العدل في سيرته، على الرغم من تتابع الخيانات والمؤامرات، والظلم المستمر بحقه(ع)، ولكنه لا يتزلزل ولا يهتز، وهذا لا أستطيع أن أنسبه إلى شيء غير العصمة – شاء من شاء وأبى من أبى. وإلا، أين نجد كهذه السيرة الطيبة مع الخصوم، على اختلاف دوافعهم وقربهم وجمهورهم ومواقعهم وافتراءاتهم التبريرية للعداوة وخصومتهم، خصماً بعد خصم، وجيشاً بعد جيش، وسوءاً بعد سوء؟ بل أين نجد مثل هذا وهو يتعامل مع خصوم كلهم يعرفون حق المعرفة في قربه من النبي(ص) وتقديمه على الناس جميعاً وفي تحذير النبي(ص) من عداوته وحربه، بل من مجرد البغض القلبي له؟

رابعاً: في مقتله(ع)

أولاً: في إخبار النبي(ص) بقتله وإخبار علي(ع) بذلك

ذكرنا، في الفصل السابق "العلم" أن علياً(ع) أخبر بقتله مع التفاصيل، فلتراجع.

ثانياً: في تعامله(ع) مع قاتله

أخرج الحاكم في المستدرك ج3 ص144 أنه لما ضرب ابن ملجم علياً(ع) أوصى به علي(ع) فقال: «قد ضربني فأحسنوا إليه وألينوا له فراشه، فإن أعش فهضم أو قصاص، وإن أمت فعاجلوه فإني مخاصمه عند ربي عز وجل» وهضم الحق أي أترك حقي بمعنى أعفو عنه.

وكان من وصيته(ع) بعده: «يا بني عبدالمطلب لا ألفيّنكم تريقون دماء المسلمين تقولون قتل أمير المؤمنين! ألا لا يُقتلنّ بي إلا قاتلي» (ذخائر العقبى ص116 وغيره).

من سيرة أئمة الهدى أولاد علي بن أبي طالب(ع)

هذه الشذرات من سيرة أولئك الأبرار(ع) أعطتني فكرة واضحة عن شكل الدنيا لو كانوا هم الذين حكموا المسلمين طيلة القرون الثلاثة الأولى – كانت الدنيا ستكون غير الدنيا، دنيا المسلمين ودنيا غيرهم، وكان البشر سيتذوقون طعم العدل والمحبة والروح الإنسانية الحقيقية التي كانوا ولا زالوا يقرأون عنها أو ينظّرون فيها دون تجربة.. لو كان أولئك الأئمة(ع) مبسوطي اليد، وكان ملوك المسلمين الذين تسلطوا في أماكنهم المناسبة (!)، لرأى الناس منهم(ع) ما رآه معاصرو أمير المؤمنين(ع) في فترة حكمه في الكوفة – على قصرها وشدة فتنها.

الإمام الحسن(ع)

إن رجلاً من أهل الشام أقبل على الإمام يلعنه والإمام(ع) لا يرد عليه ثم أقبل عليه وابتسم له وقال: ‹‹أيها الشيخ أظنك غريباً، ولعلك شبّهت! فلو استعتبتنا أعتبناك، ولو سألتنا أعطيناك، ولو استرشدتنا أرشدناك، ولو استحملتنا حملناك، وإن كنتَ محتاجاً أغنيناك، وإن كنت طريداً آويناك، وإن كانت لك حاجة قضيناها لك، فلو حرّكت رحلك إلينا، وكنتَ ضيفنا إلى وقت ارتحالك، كان أعود عليك، لأن لنا موضعاً رحباً وجاهاً عريضاً ومالاً كبيراً››، فبكى الرجل وقال: "أشهد أنك خليفة الله في أرضه! الله أعلم حيث يجعل رسالته، وكنتَ أنتَ وأبوك أبغض خلق الله إليّ، والآن أنت أحب خلق الله إليّ!" (مناقب آل أبي طالب ج3 ص183، وبحار الأنوار ج43 ص344).

الإمام الحسين(ع)

دخل الحسين(ع) على أسامة بن زيد وهو مريض ويقول واغمّاه، فقال الإمام(ع): ‹‹وما غمّك يا أخي؟›› قال: "دَيني، وهو ستون ألف درهم"، فقال الإمام: ‹‹هو عَلَيّ›› فقال أسامة: "إني أخشى أن أموت قبل أن يُقضى"، فقال(ع): ‹‹لن تموت حتى أقضيها عنك››، فقضاها قبل موته. (أعيان الشيعة ج4 ق1 ص126).

أقول: مع أن أسامة كان ممن امتنع عن بيعة أبيه علي بن أبي طالب(ع)، فلم يحملها عليه.

الإمام زين العابدين(ع)

في واقعة الحَرّة عندما ثار أهل المدينة على بني أمية هرب بنو أمية من المدينة إلى الشام ويظهر أن مروان بن الحكم لم يستطع في تلك العجالة أن يحمل معه عائلته ومنهم امرأته عائشة بنت عثمان بن عفان، فطلب من عبد الله ابن عمر أن يؤوي أهله عنده فرفض ذلك، فكلّم مروان الإمام السجاد(ع) وقال: "يا أبا الحسن إن لي رحماً وحرمي تكون مع حرمك؟" قال الإمام(ع): «أفعل». فعندما جاءت عائلة مروان أخذها الإمام سلام الله عليه مع أهله إلى مكان أمين بيَنبُع (تاريخ الطبري ج4 ص372، وبحار الأنوار ج46 ص138).

أقول: سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار، سلام عليكم أيتها النفوس الطاهرة التي لا تعرف الحقد ولا الكراهية ولا الانتقام ولا التشفّي. من أسوأ من مروان، ومن أكثر مصيبة من السجّاد(ع) الذي كان الشاهد العيان على مجزرة كربلاء، قتل أبيه(ع) وإخوته وأعمامه وبني عمومته وأصحاب أبيه(ع) وعمه الحسن(ع) وجده علي(ع) الأبرار، وحرق الخيام ومنع الماء والسبي إلى الكوفة ثم الشام ورأس أبيه الحسين(ع) وعمه العباس(ع) على الرماح، وإذا به يستجيب لطلب مروان هذا دون تردد! بل إن مروان ما كان ليخطر بباله أنه(ع) يمكن أن يوافق لولا علمه بنفسه الطاهرة المبرءة من الأحقاد. فالحمد لله الذي جعلنا من مواليكم.

الإمام الباقر(ع)

روى الإمام الصادق(ع) أن الخليفة الأموي هشام أرسل بإشخاص الإمام الباقر(ع) إليه فجاء الإمام(ع) ومعه ولده الصادق(ع)، وعندما دخلا كان الخليفة جالساً والشيوخ من قومه في نوع من أنواع السباق على الرمي فطلب هشام من الباقر(ع) أن يرمي فاعتذر بأنه كبرت سنه عن ذلك، فحلف عليه فتناول الإمام(ع) القوس ثم تناول سهماً ورمى الهدف فنصبه فيه، ثم رمى سهماً ثانياً فأنبته في نصل الأول، وتابع ذلك حتى شقّ تسعة أسهم بعضها في جوف بعض، مما جعل هشام يضطرب، وقال: "أجدتَ يا أبا جعفر أنت أرمى العرب والعجم". ثم سأله عن ذلك فأخبره بأنه تعلمه في حداثة سنّه ثم تركه، فسأل هشام الإمام الصادق(ع) إن كان يرمي مثل أبيه فأجابه الباقر(ع): «إنا نحن نرث الكمال والتمام اللذين أنزلهما

الله على نبيه(ص) في قوله: ﴿اليَومَ أكمَلْتُ لَكُم دِينَكُم وأتمَمْتُ عَليكُم نِعمَتِي ورَضِيتُ لَكُم الإسلامَ دِيناً﴾ والأرض لا تخلو ممن يكمل هذه الأمور التي يقصر غيرنا عنها!›› فانقلبت العين اليمنى لهشام واحمرّ وجهه علامةً على غضبه، ثم سأل الباقر(ع): "ألسنا بنو عبد مناف نسبنا ونسبكم واحد؟" فقال(ع): ‹‹نحن كذلك، ولكن الله جل ثناه اختصنا من مكنون سره وخالص علمه بما لم يخص به غيرنا›› (دلائل الإمامة ص104 بتصرف).

الإمام الصادق(ع)

دخل سفيان الثوري على الصادق(ع) فرآه متغير اللون فسأله فأوضح(ع): ‹‹كنتُ نهيتُ أن يصعدوا فوق البيت، فدخلتُ فإذا جارية من جواريّ ممن تربّي بعض ولدي قد صعدت في سلّم والصبي معها، فلما بصرت بي ارتعدت وتحيّرت وسقط الصبي إلى الأرض فمات، فما تغيّر لوني لموت الصبي، وإنما تغيّر لوني لما أدخلتُ عليها من الرعب!›› وكان(ع) قد أعتقها: ‹‹أنتِ حرّة لوجه الله، لا بأس عليك›› (أعيان الشيعة ج4 قسم2 ص136).

الإمام الكاظم(ع)

عندما حُبس(ع) تحت رقابة عيسى بن جعفر العباسي وجعل عليه الجواسيس في السجن لينقلوا ما يقول سمعوا الإمام(ع) يدعو: ‹‹اللهم إنك تعلم أني كنت أسألك أن تفرّغني لعبادتك، اللهم وقد فعلت فلك الحمد›› (الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي ص222).

الإمام الرضا(ع)

من وصية له(ع) إلى عبد العظيم الحسني يوصي شيعته: ‹‹ولا يشغلوا أنفسهم بتمزيق بعضهم بعضاً فإني آليت على نفسي أنه من فعل ذلك أو أسخط ولياً من أوليائي دعوت الله أن يعذبه في الدنيا أشد العذاب وكان في الآخرة من الخاسرين›› (الأنوار البهية ص109).

الإمام الجواد(ع)

قال الصفدي: "كان (الجواد(ع)) يبعث إلى المدينة في كل عام بأكثر من ألف ألف درهم ... كان من الموصوفين بالسخاء ولذلك لقّب بالجواد" (الوافي ج4 ص105).

الإمام الهادي(ع)

قال علي بن حمزة بأنه رأى الإمام الهادي(ع) يعمل في أرض وقد استنقعت قدماه في العرق فسأله: "أين الرجال – أي العمال –؟" فقال(ع): «يا علي، عمل بالمسحاة من هو خير مني ومن أبي في أرضه»، فسأله: "من هو ذاك"، فقال: «رسول الله(ص) وأمير المؤمنين وآبائي كلهم عليهم السلام عملوا بأيديهم، وهو من عمل النبيين والمرسلين والأوصياء والصالحين» (بحار الأنوار ج11 ص266).

الإمام العسكري(ع)

عندما قال العباسيون لصالح بن وصيف الموكول بسجن العسكري(ع) "ضيّق عليه ولا توسّع"، قال: "ما أصنع به وقد وكلت به رجلين شرّ من قدرت عليه، فصارا من العبادة والصلاة والصيام إلى أمر عظيم!" فأُحضر هذان فسئلا فقالا له: "ما تقول في رجل يصوم النهار ويقوم الليل كله، لا يتكلم ولا يتشاغل بغير العبادة، فإذا نظر إلينا أُرعدت فرائصنا وداخلنا ما لا نملكه من أنفسنا!" (أعيان الشيعة ج4 قسم3 ص307).

الإمام المهدي(ع)

قال الإمام الصادق(ع) عنه: « يسير فيهم بسيرة رسول الله(ص)، ويعمل فيهم بعمله» (سفينة البحار ج2 ص705).

"نحن أهل البيت

لا يقاس بنا أحد"

رسول الله (ص)

"لم يرد في حق

أحد من صحابة

النبي صلى الله

عليه وسلم

من الفضائل

بالأسانيد

الحسان أكثر

ما جاء في علي"

النسائي

الفصل الحادي عشر

لا يقاس بهم أحد

بغض النظر عن كل شيء

مقارنة

نتيجة المقارنة

بغض النظر عن كل شيء

بغض النظر عن قول بعض العلماء الأعلام، كالإمام أحمد بن حنبل رحمه الله في قوله المنقول عن ولده عبد الله أن علياً(ع) "من أهل بيت لا يقاس بهم أحد"، وكالنسائي صاحب أحد الصحاح الستة في الحديث "لم يرد في حق أحد من صحابة النبي صلى الله عليه وسلم من الفضائل بالأسانيد الحسان أكثر ما جاء في علي"؛

وبغض النظر عن استخدام كلمة "عليه السلام" بعد اسم علي(ع) في العديد من كتب أهل السنة، كما في صحيح البخاري (الشيء الذي فعله مع فاطمة(ع) وعلي بن الحسين(ع))، في حين لم يستخدم إلا لفظة "رضي الله عنه" في حالة الآخرين، ما يشير إلى رفع علي(ع) على الآخرين، وذلك لأن التسليم هو إصطفاء أصلي ﴿وسلام على عباده الذين اصطفى﴾ النمل:59 بينما الرضوان هو بعد العمل ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾ الفتح:18؛

وبغض النظر عن تمييز علي(ع) عن باقي الصحابة وإدراج سيرته بعد النبي(ص) مباشرة، كما فعل ابن سعد في الطبقات الكبرى، والذي استخدم هو الآخر لفظة "عليه السلام" بعد اسمه(ع)؛

وبغض النظر عما ذكرته في كتابي هذا من الآيات والأحاديث وآراء العلماء من رؤساء المذاهب وغيرهم، والتي ترفع من علي(ع) إلى عنان السماء والآخرون ينظرون إليه من الأرض؛

بغض النظر عن كل هذا الذي يجعل من السهولة حقاً معرفة المبرز من بين جميع صحابة النبي، مهاجرهم وأنصاريهم، سابقهم وتاليهم، فإني وجدت مسألة تقديم أهل السنة للخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان على الإمام علي(ع) من المسائل التي تقف كأحد الحواجز دون انفتاح المسلم السني على حقيقة الإمام علي(ع) وأهل البيت(ع) ودورهم المفصلي في الإسلام. ذلك أن القول بإمامة أهل البيت(ع) على الناس جميعاً يصطدم بقبول الأمة، أو أكثرية الأمة، بخلافة الثلاثة

قبل علي(ع)، دع عنك القول بعصمته(ع) ومرجعيته(ع) والأئمة من ولده(ع) بعد النبي(ص) مباشرة وحصراً. لذا، فإني نظرت – كخلاصة للبحث – في النواحي المفصلية في حياة كل من الخلفاء الأربعة على شكل مقارنة مختصرة، وهذا ما يغني عن المقارنة بغير الثلاثة من الصحابة على أساس أن أهل السنة لا يقدمون على علي(ع) سوى هؤلاء الثلاثة لا غيرهم وبضمنهم باقي ما يسمى بالعشرة المبشرين بالجنة. وللقارئ أن يقرر فيما إذا كان ذلك التقديم على علي(ع) موافقاً للمعطيات – من قرآن وحديث وسيرة وغيرها – أم لا؟

وقد أخذت بنظر الاعتبار ما قيل بحق الثلاثة من المصادر السنية التي تشيد بهم لا من خلال ما أعتقده أو أظنه أو أستقربه من بعض هذه الروايات، ما يجعل النتيجة أشد وضوحاً.

وإلا فإن في أحاديث الفضائل ما يدعو للأسف، وحتى الضحك، فقد اتسع الفتق على الراتق بعد أن منعت كتابة الحديث تسعين عاماً أو يزيد، وأثناء ذلك كان هناك منع من جانب وفتح الباب على مصراعيه من جانب:

(1) منع الأحاديث الصحيحة في فضل علي(ع) وأهل البيت(ع)

(2) فتح الباب على مصراعيه لوضع الأحاديث في فضل غيرهم ولاسيما الخلفاء الثلاثة موضوع المقارنة.

فهذا معاوية (الصحابي الجليل!) لم يكتف بسن سب علي(ع) "حتى يربو عليها الصغير، ويهرم عليها الكبير، ولا يذكر له ذاكر فضلاً" (شرح نهج البلاغة ج4 ص57)، وإنما يوصي عامله المغيرة بن شعبة بالقول "... ولست تاركا إيصاءك بخصلة: لا تتحم عن شتم علي وذمه، والترحم على عثمان والاستغفار له، والعيب على أصحاب علي، والإقصاء لهم، وترك الاستماع منهم، وبإطراء شيعة عثمان، رضوان الله عليه، والإدناء لهم، والاستماع منهم" وطبعاً قام المغيرة (الصحابي الجليل!) بالمهمة على أكمل وجه فقد أقام بالكوفة "عاملاً لمعاوية سبع سنين وأشهراً وهو من أحسن شيء سيرة وأشده حباً للعافية، غير أنه لا يدع ذم علي والوقوع فيه!" (نفسه ص69).

بل وتصل بمعاوية الجرأة أن يطلب من الهاشميين أنفسهم عدم التحدث بفضل آل محمد(ص) فيأمر ابن عباس أن يسأل في تفسير القرآن "غير آل بيتك!" فيجيبه: "نزل القرآن على أهل بيتي فنسأل عنه آل أبي سفيان؟!" فيجيبه معاوية فيما يجيبه "لا ترووا شيئاً مما أنزل الله فيكم وارووا ما سوى ذلك!"

وبالغ معاوية في كم الأفواه فكتب كتاباً رسمياً إلى عماله جميعاً "أن برئت الذمة ممن روى شيئا من فضل أبي تراب وأهل بيته"، فسارع عبيد الدنيا إلى منابر المسلمين، التي شادها سيف علي(ع) على عهد النبي(ص)، تلعنه(ع) وتسبه وتتبرأ منه، وعم القمع شيعة علي(ع) ولاسيما في الكوفة (نفسه ج11 ص44).

ثم أسقطهم من الاعتبار بكتابته كتاباً رسمياً آخر "أن لا يجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة" (نفسه)، وهو ما يكون في حق من يرمون المحصنات بالزنا ثم لا يأتون بأربعة شهداء فصار في حق سادة الناس وشيعتهم.

وأما الجانب الآخر، فقد شجع بمختلف وسائل التشجيع كتابة فضائل ابن عمه عثمان، ففي تعميم رسمي إلى "أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه وأهل ولايته، الذين يروون فضائله ومناقبه، فأدنوا مجالسهم وقربوهم وأكرموهم، واكتبوهم إلي بكل ما يروي كل رجل منهم، واسمه واسم أبيه وعشيرته" (نفسه ج11 ص45).

وأخيراً كتب لهم: "لا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلا وتأتوني بمناقض له في الصحابة، فإن هذا أحب إلي وأقر لعيني، وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته، وأشد إليهم من مناقب عثمان وفضائله!" (نفسه).

فلينظر ناظر بعين عقله إلى ما يأتي أمامه من أحاديث، في الكتب أو وسائل الإعلام أو الانترنت، قبل أن يقع فريسة هذه الأوامر الأموية التي خلطت الحق بالباطل ورفعت أقواماً إلى أعلى بكثير من حقيقتهم، وهبطت بأقوام شادوا الإسلام بجهودهم وعطائهم اللامحدود. (ومن لا يصدق بإصدار معاوية لهذه الأوامر فلينظر في أحاديث الفضائل بالخصوص قبل التصديق بها... هذا إن كان يحترم عقله.)

وتجدر ملاحظة: من طبيعة المقارنات خلقها لجو من التنافس يؤدي غالباً إلى إهمال المنهج العلمي والانزلاق في غمط حق الآخرين؛ ولكني ما وجدت المقارنة تحتاج إلى كثير معاناة بحيث ينتج عنها مثل ذلك، وعندما تقرأ المقارنة تعلم ذلك. (البعض من شيعة علي(ع) يذهبون إلى أحاديث ليست ذات دلالة كبيرة بينما هم في غنى تام عن مثلها، بل الآخرون ربما احتاجوا إلى مثل هذا – وقد أوصى الإمام الصادق(ع) أحد أمثال هؤلاء: ‹‹وإنك أخذته بالحق والباطل، وقليل الحق يغني عن كثير الباطل››، فإن قليل الحق من القرآن والسنة يغني عن كثير الباطل الملفق).

نعم، كلما توسعت في البحث وجدت نفسي تردد مع الإمام أحمد بن حنبل أن علياً(ع) "من أهل بيت لا يقاس بهم أحد"... وهو صدى لما قاله علي(ع) نفسه: «لا يقاس بآل محمد(ص) من هذه الأمة أحد»... بل هو صدى لما أعلنه صاحب الشريعة محمد(ص): «نحن أهل البيت لا يُقاس بنا أحد»...

(1) الولادة

أبو بكر / عمر / عثمان: -

علي(ع): في جوف الكعبة

(2) ما قبل البعثة

أبو بكر / عمر / عثمان: مشرك يعبد الأصنام

علي(ع): موحد لم يسجد لصنم

(3) السبق

أبو بكر: أول من أسلم بعد علي(ع)، وقيل بعد خمسين نفراً

عمر: أسلم بعد 6 سنين من البعثة، بعدها صارت الدعوة علنية

عثمان: من السابقين، أسلم على يد أبي بكر

علي(ع): الثاني بعد خديجة(ع)

4) **الهجرة**

أبو بكر: بصحبة النبي(ص) إلى المدينة

عمر: قبله(ص) إلى المدينة، قيل أنه أول من هاجر علناً

عثمان: قبله(ص) إلى الحبشة، ثم إلى المدينة

علي(ع): بعده(ص) حيث بات في فراشه، ثم أدى الأمانات

5) **طاعة النبي(ص)**

أبو بكر: لم يشتهر عنه عصيان

عمر: إعترض في الحديبية حتى قال "ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ"، ومنع طلبه(ص) كتابة الأمن من الضلال في مرض موته(ص)

عثمان: لم يشتهر عنه عصيان

علي(ع): طاعة كاملة تامة

6) **الإيمان**

أبو بكر: يرجح إيمانه على إيمان أهل الأرض جميعاً لقول النبي(ص): "لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجح"

عمر: كان يحب نفسه أكثر من النبي(ص) ثم صار يحب النبي(ص) أكثر بعد أن أخبره(ص) بوجوب ذلك للمؤمنين

عثمان: كان شديد الحياء وبما أن الحياء شعبة من الإيمان فقد كان شديد الإيمان

علي(ع): الإيمان كله لقول النبي(ص) عندما خرج لمبارزة عمرو بن عبد ود: ‹‹خرج الإيمان كله إلى الشرك كله››

7) **العلم**

أبو بكر: إحتاج إلى علي(ع) وغيره

عمر: إحتاج إلى علي(ع) وغيره

عثمان: إحتاج إلى علي(ع) وغيره

علي(ع): باب مدينة العلم، وأقضى الأمة، لم يحتج أو يسأل غيره مطلقاً

(8) **الجهاد بالنفس**

أبو بكر: لم يشتهر بقتال، لم يثبت في أحد وحنين، ولم ينجح في حملته على حصن خيبر

عمر: لم يشتهر بقتال، لم يثبت في أحد وحنين، ولم ينجح في حملته على حصن خيبر

عثمان: لم يشتهر بقتال، لم يثبت في أحد وحنين

علي(ع): الأول دون منازع وبفارق لا نظير له، صاحب لواء النبي(ص)، قتل ثلث قتلى قريش أو أكثر في بدر، وجميع أصحاب اللواء يوم أحد، وابن عبد ود يوم الأحزاب، وفتح خيبر بعد وصفه(ص) أنه «كرّار غير فرّار»، ومن القلة الثابتة مع النبي(ص) في أحد وحنين؛ تخلف عن غزوة تبوك ليقول(ص) له: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى»

(9) **الجهاد بالمال**

أبو بكر: كان غنياً أعتق الكثير من العبيد بضمنهم بلال الحبشي

عمر: لم يكن موسراً

عثمان: غنيٍ موسر، جهّز ثلث غزوة تبوك فبشره(ص) بالجنة، واشترى بئر أرومة وجعلها وقفاً

علي(ع): لم يكن موسراً، ولكنه الوحيد الذي عمل بآية النجوى التي أمرت بالتصدق عند مناجاة النبي(ص)

(10) **الآيات النازلة فيه** (لا نذكر آيات روي نزولها في أحد الأربعة وهي لا تدل على شيء من ذلك، لا في ألفاظها ولا في مناسبات نزولها، ناهيك عن عدم شهرتها لا بين العلماء ولا العوام، وذلك لضعفها من جميع الجهات)

أبو بكر: على الرغم من أن ابنته عائشة قالت: "ما نزل فينا شيء من القرآن، إلا أن الله أنزل عذري" أي بخصوص حديث الإفك، إلا أنه روي أنه نزل فيه آية ﴿والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون﴾ وآيات في سورة الأعلى ﴿فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى﴾ الآيات، وآية الهجرة ﴿إذ أخرجه الذين

كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾ وهي أشهرها

عمر: لا شيء

عثمان: لا شيء

علي(ع): منها آية المباهلة جعلته نفس النبي(ص)، وآية التطهير وإذهاب الرجس عنه، وآية الولاية جعلته ولي المؤمنين بعد الله والنبي(ص)، وآية المودة جعلت محبته أجره(ص) جزاء التبليغ، وآية الصلاة أشركته في الصلاة عليه(ص) عموماً وفي تشهد صلاة الفريضة والنافلة، وآية ﴿ولكل قوم هاد﴾ جعلته هادي الأمة بعده(ص)، وآية الصدقة عند المناجاة عمل بها وحده حتى نسخت بعد أيام، وآية ﴿أجعلتم سقاية الحاج ...﴾، وآية ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية﴾ جعلته وشيعته خير البرية

(11) **من الأحاديث المروية فيه** (لا نذكر أحاديث روي نزولها في أحد الأربعة وهي لا تدل على شيء من ذلك، لا في ألفاظها ولا في مناسبات نزولها، إضافة إلى معارضتها لأحاديث صحيحة أخرى مجمع عليها، ناهيك عن عدم شهرتها لا بين العلماء ولا العوام، وذلك لضعفها من جميع الجهات؛ كما أن لا المجال ولا الهدف هنا لمناقشة بعض هذه الأحاديث وكيف أنها تقابل الأحاديث الواردة في شأن علي(ع)، أو مما تشرك في الفضل أبا بكر وعمر ثم تقف، وأحياناً تشرك معهما عثمان ثم تقف عندما تصل إلى علي(ع)، وتكاد تكون كلها مما لا مناسبات قرآنية معها تؤكدها مثل التطهير/الكساء والمباهلة والتصدق بالخاتم وحديث المنزلة غزوة تبوك وأشباهها التي ذكرتها من ضمن أحاديث علي(ع)، مما ربما سأناقشها في مؤلفات أخرى)

أبو بكر: "آمن الناس عليّ في ماله وصحبته أبو بكر ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر ولكن أخوة الإسلام"، سئل(ص) عن أحب الناس إليه فقال "عائشة" ومن الرجال "أبوها"، وعندما سألته امرأة إن جاءت فلم تجده، أي الموت، قال "فإن لم تجديني فأتي أبا بكر"، وأنه(ص) أمر في مرض موته بكتابة كتاب فيه قوله(ص) "فإني أخاف أن يتمنى متمن ويقول قائل أنا أولى ويأبى الله والمؤمنون

إلا أبا بكر"، نزل جبرئيل على النبي(ص) ينقل قول الله تعالى: "إني راض عن أبي بكر فاسأله هل هو راض عني؟"، حديث أنه(ص) سد الخوخ المشرعة على المسجد "إلا خوخة أبي بكر"، "ما طلعت شمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على أفضل من أبي بكر"، "أبو بكر وعمر سيدا كهول أهل الجنة"، "إقتدوا بالذين من بعدي: أبي بكر وعمر"، وحديث يوصي(ص) فيه عمار بن ياسر: "إذا أنا مت وأبو بكر وعمر وعثمان فإن استطعت أن تموت فمت"

عمر: "اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام"، نفس الحديث المذكور في باب أبي بكر سئل(ص) عن أحب الناس إليه فقال "عائشة" ومن الرجال "أبوها" ثم "عمر" فعد رجالاً، "أبو بكر وعمر سيدا كهول أهل الجنة"، "إقتدوا بالذين من بعدي: أبي بكر وعمر"، "لو كان بعدي نبي لكان عمر"، "عمر بن الخطاب سراج أهل الجنة"، "إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه"، "هذا رجل يكره الباطل"، "ما رآك الشيطان سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك"، "إنه كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فعمر"، وحديث أنه(ص) رأى رؤيا يشرب بإناء وناول فضله عمر فسئل عن تأويله فقال "العلم"، وحديث رؤيا أخرى الناس تعرض عليه(ص) وعليهم قمص مختلفة الطول وكان قميص عمر يجره فسئل عن تأويله فقال "الدين"، ورؤيا ثالثة أنه(ص) ينتزع ماء من بئر ثم أخذها أبو بكر ففعل ولكن فيه ضعف ثم أخذها عمر "فاستحالت غرباً، فلم أر عبقرياً يفري فريّه"، ورؤيا رابعة في الجنة يمشي(ص) فيرى بيتاً جميلاً وعليه جارية فلما عرف أنه بيت عمر استدار بسرعة لأنه "ذكر غيرة عمر"، وحديث يوصي(ص) فيه عمار بن ياسر: "إذا أنا مت وأبو بكر وعمر وعثمان فإن استطعت أن تموت فمت"

عثمان: حديث أن النبي(ص) لم يهتم بتغطية ساقه المكشوفة عندما دخل أبو بكر ثم عمر ولكنه غطاها عندما دخل عثمان فسئل فقال "ألا أستحي ممن تستحيي منه ملائكة السماء"، "من يشتري بئر رومة وله الجنة" فاشتراها عثمان، ولما جهز عثمان جيش العسرة قال(ص): "ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم"، وعندما ماتت زوجته رقية (بنت النبي(ص) أو ربيبته من خديجة(ع) أو ربيبتهما من اختها هالة) زوجه النبي(ص) أختها أم كلثوم فلما توفيت قال(ص) "لو كان عندنا أخرى لزوجناها عثمان"،

وحديث عن ابن عمر: "كنا نقول على عهد رسول الله(ص) أن خير الناس هم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان" (ويسكت بعدها!)، وحديث يوصي(ص) فيه عمار بن ياسر: "إذا أنا مت وأبو بكر وعمر وعثمان فإن استطعت أن تموت فمت"

علي(ع): حديث الثقلين «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي:.... كتاب الله ... وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا...»، حديث الخلفاء الإثني عشر «يكون بعدي إثنا عشر أميراً» وأمثاله ولا تنطبق إلا على علي(ع) والأئمة(ع)، حديث السفينة «مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح من ركبها نجى ومن تخلف عنها غرق وهوى»، «إلزموا مودتنا أهل البيت فإنه من لقي الله وهو يودنا دخل الجنة بشفاعتنا»، المنزلة «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»، «رحم الله علياً، اللهم أدر الحق معه حيث دار»، «علي مع القرآن والقرآن مع علي لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض»، حديث الدار «أنت أخي ووزيري ووصيي ووارثي وخليفتي من بعدي»، «لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق»، المؤاخاة «أنت أخي في الدنيا والآخرة»، سد الأبواب على المسجد إلا بابه(ص) وباب علي(ع) وقوله(ص) «ما أنا سددتها ولا أنا فتحتها ولا أنا أخرجتكم وأسكنته»، حديث النجوى يوم طال اجتماعه(ص) مع علي(ع) فتكلم الناس (كالعادة!) فقال(ص) «ما انتجيته ولكن الله انتجاه»، «وأشقى الآخرين الذي يطعنك يا علي»، «علي وليكم من بعدي»، حديث الغدير «من كنت مولاه فعلي مولاه»، وحديث يوصي فيه النبي(ص) عمار بن ياسر: «أوصِ من آمن بي وصدقني بولاية علي بن أبي طالب...»

12) من أبرز إنجازات خلافته

أبو بكر: حرب المرتدين والممتنعين عن أداء الزكاة، بدء الفتوحات

عمر: فتح العراق وفارس والشام ومصر، التأسيس الإداري من دواوين وبيت مال واستخدام التاريخ الهجري، قطع سهم المؤلفة قلوبهم من الزكاة كما في القرآن، العدل بين الرعية حتى أنه جلد ابنه لشرب الخمر وأمكن المصري من الاقتصاص من ابن واليها، الزهد، محاسبة الولاة محاسبة دقيقة

عثمان: فتح أرمينيا وآذربيجان وإفريقية (أي تونس) وقبرص، جمع القرآن على أساس قراءة واحدة وتعميم النسخ على الأمصار

علي(ع): بعض الفتوحات، إخضاع الناكثين والخوارج المارقين ومحاولة إخضاع القاسطين، سيرة العدل والزهد، المساواة في العطاء بين جميع المسلمين

13) **بعض ما أخذ عليه في خلافته**

أبو بكر: لا شيء (لأن أهل السنة لا يعرفون قضايا عديدة كحرق صحف الحديث الشريف بدعوى حماية القرآن، ولا عدم إقامة الحد على خالد بن الوليد في قضية مالك بن نويرة، ولا حرق الفجاءة السلمي، وبالطبع لا يعرفون حرمان فاطمة(ع) من إرثها)

عمر: لا شيء (لأن أهل السنة لا يعرفون قضايا كثيرة من قبيل عدم المساواة في العطاء من بيت المال، أو منع كتابة الحديث الشريف، أو المبالغة في العقاب، أو العقوبة دون وجه حق كجلد صبيغ التميمي لسؤاله عن معنى ﴿والذاريات ذرواً﴾، أو تغيير مقام إبراهيم(ع) حول الكعبة، أو إلغاء "حي على خير العمل" من الأذان، أو تحريم الزواج المؤقت ومتعة الحج)

عثمان: بدء تغيير سنة الشيخين بخصوص تعيين الأقارب غير الأكفاء وتوزيع الثروات عليهم ما أثار عليه المسلمون وبضمنهم الصحابة الكبار كابن مسعود وعمار بن ياسر فعاقبهما بالضرب، وأبي ذر فسيره إلى الشام ثم أرجعه معاوية إلى المدينة فنفاه إلى الربذة حتى توفي فيها وحيداً، وقد بدأ الحكم بعدم إقامة الحد على عبيد الله بن عمر الذي ثأر لقتل أبيه بقتل القاتل أبي لؤلؤة ولكن معه الهرمزان وابنته وجفينة، وبرد ابن عمه الحكم بن العاص وابنه مروان بعد أن طردهما النبي(ص) ورفض أبو بكر وعمر وساطته لإرجاعهما في عهدهما – بل وجعل مروان وزيره وساعده الأيمن، وجعل الحمى حول أراضيه (وروي أنه اعتذر أنه إنما زاد في حمى إبل الصدقة الذي كان وقت عمر)، والبعض عاب عليه حرق مصحف ابن مسعود وغيره، وصلاته تماماً (أربع ركعات) في منى بدلاً من ركعتين تقصيراً، وأخيراً أمره عامله ابن أبي سرح على مصر بقتل محمد بن أبي بكر الذي أعلن تعيينه بدلاً منه ووقع كتابه بالأمر بيد محمد ومن معه (ولكنه أنكر عندما عادوا وواجهوه)، ثم رفضه الاستقالة من الحكم على أساس أنه "سربال سربلنيه الله"

علي(ع): لا شيء، لا من شيعة ولا من سنة، وكيف يكون وهذا عبد الله بن أحمد بن حنبل: "سألت أبي ما تقول في علي ومعاوية؟ فأطرق، ثم قال: إعلم أن علياً كان كثير الأعداء ففتش أعداؤه له عيباً فلم يجدوا فجاؤوا إلى رجل قد حاربه وقاتله فأطروه كيداً منهم له"، اللهم إلا من الخوارج عندما أجبروه بقوة السلاح على قبول التحكيم في صفين ثم عادوا عن ذلك وطلبوا منه نقض الاتفاق مع معاوية

14) **من أشهر ما يعرفه عامة المسلمين من فضائله**

أبو بكر: ثاني اثنين في الغار مع النبي(ص)، من العشرة المبشرة بالجنة، الصّدّيق لأنه صدق النبي(ص) في حادثة الإسراء وغيرها

عمر: من العشرة المبشرة بالجنة، الخليفة العادل، الفتوحات، الفاروق بين الحق والباطل

عثمان: من العشرة المبشرة بالجنة، قتل وهو يقرأ القرآن، ذو النورين لزواجه من بنتي النبي(ص)

علي(ع): البائت في فراشه(ص)، من العشرة المبشرة بالجنة، زوج ابنته(ص)، أبو الحسنين، بطل الجهاد، إمام البلاغة، الإمام

15) **رأي المسلمين السنة**

أبو بكر: أفضلهم

عمر: الثاني في الفضل

عثمان: الثالث في الفضل

علي(ع): الرابع في الفضل

16) **فما رأي القارئ؟**

نتيجة المقارنة

مما تقدم، في فصول الكتاب والمقارنة أعلاه، لم أجد ممكناً تقديم الشيخين أو عثمان بن عفان على الإمام علي(ع)، لأنه حتى إن قبلنا جميع الروايات أعلاه

فإننا نجد المسافة كبيرة جداً بين منطوق بعض روايات فضائل الخلفاء الثلاثة وبين الواقع على الأرض الذي تمثل في جهادهم وعطائهم ومنزلتهم عند الله ورسوله(ص)، في حين لا نجد ذلك مع علي(ع). ما كان من ميزات علي(ع) الفريدة، وما كان من جهاده وطاعته، تجعل من التنويه بفضله من الله ورسوله(ص) بهذا الشكل الواضح من التطهير والولاية والمودة والمنازل المختلفة ليس غريباً، في حين وجدت افتراقاً بين عطاء الآخرين مع ما ذكر من فضائلهم أو بعضها على الأقل.

مثلاً، من غير المعقول أن يهرب الذي يرجح إيمانه على إيمان الناس جميعاً من معركة قائدها النبي(ص) الذي هو مؤمن به أكثر من إيمان الناس مجتمعين...

ومن غير المعقول أن يكون فضل علم النبي(ص) إلى رجل دون غيره ثم يحتاج هذا الرجل إلى غيره ليصحح له أحكامه...

ومن غير المعقول أن يكون الشيطان يهرب من رجل تأخر إسلامه ست سنوات دون مبرر، ثم يستمر في حبه لشرب الخمر بعد الإسلام بعد نزول التشجيع على تركها، فلا يتركها حتى ينزل النهي الشديد عنها...

ومن غير المعقول أن يقدم رجل عطاء للإسلام فيقول النبي(ص) له أن يعمل ما يشاء بعد ذلك لأن الأعمال بالخواتيم كما قال النبي(ص) نفسه...

هذا ناهيك عن فشلي في محاولتي فهم معنى أن تستحي الملائكة من رجل، أو أن يسأل الله تعالى العليم بكل شيء أحد عبيده إن كان هذا العبد راضياً عنه، أو أن يكون المؤهل للنبوة لو كان ثمة نبي آخر هو من تأخر إسلامه سنين ومن اعترف أنه شك في إسلامه في الحديبية...

علماً أني لم آت بفضائل أخرى مروية لأني لم أشأ أن أستخف بعقول القراء. وإلا هل يعقل أن يسأل النبي(ص) جبريل(ع) عن فضل عمر فيجيبه: "لو حدثتك عن فضائل عمر منذ ما لبث نوح في قومه ما نفدت فضائل عمر، وإن عمر حسنه من حسنات أبي بكر!" مثل هذه الفضائل التي اعترف المحققون في الأحاديث أنها موضوعة، لا يزال الناس يتداولونها ولاسيما الآن بعد أن صار كل شيء ينقل من موقع أو منتدى على الإنترنت إلى آخر.

ولكن الحمد لله الذي أنزل في كتابه الكريم فضل عبده ووليه علي بن أبي طالب(ع) في آيات محكمات كلها تصرح عالياً بأن هذا العبد الصالح وصل إلى قمة الإيمان والإخلاص والعلم والجهاد، بل والاصطفاء من قبل الابتلاء، ما لم يصل إليه غيره، وبضمنهم الخلفاء الثلاثة، الذين صرح نفس الكتاب العزيز بنكوصهم وضعفهم في مواقف كثيرة، وهي ليست سبة عليهم فهم بشر يخطئون ويصيبون ويتقدمون ويتأخرون، بل ويشكون لأن الإيمان يزيد وينقص كما هو مقرر في العقائد، فهم لم يُهَيَّئوا للمهمة التي عهدت إلى علي(ع) وأولاده الطاهرين(ع)، فكان الفارق بين هؤلاء وأولئك. لقد كفاني كتاب الله مؤونة مناقشة مثل هذه الأحاديث لأن الكتاب مقدم على غيره.

على أن من شاء أن ينظر في غير القرآن فسيجد المجال واسعاً رحباً للتأكد من هذه الحقيقة، من حديث النبي(ص)، ومن أقوال العلماء، ومن الوقائع الثابتة في التاريخ والسيرة.

أخيراً، فإنه لمقام هذا العبد الصالح من ربه فقد شاء جل وعلا أن يحفظ له دوره الذي جعله له، وهو الإمامة العامة على الناس، فلا تسمع بكلمة "الإمام" إلا وتعرف أنه علي بن أبي طالب، وذلك عند جميع طوائف المسلمين، سنة وشيعة. فلم أسمع، ولم يسمع أحد، ولم يقرأ أحد، أن أبا بكر أو عمر أو عثمان، أو غيرهم، يلقب بالإمام. حتى المؤلفين، ترى – مثلاً – عباس محمود العقاد رحمه الله يكتب سلسلة العبقريات: "عبقرية الصديق"، "عبقرية عمر" الخ، ولكنه عندما يأتي إلى أمير المؤمنين(ع) يعنون كتابه "عبقرية الإمام". وهكذا، أجرى الله تعالى على لسان عباده المؤمنين – سنة وشيعة – هذا اللفظ لعبده ووليه الذي أخلص له تمام الإخلاص فكافأه برد محاولات أعدائه – وهم أعداؤه تعالى – إخفاء دوره في الحياة: الإمام على الناس، والحمد لله رب العالمين.

ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم

لعلمه الذين يستنبطونه منهم

الباب الثالث

المدرستان

الفصل الثاني عشر
الله تعالى

عقيدة أهل السنة

عقيدة السلفيين المعاصرين

عقيدة مدرسة أهل البيت(ع)

بين التوحيد والشرك

"ما زال بصفاته قديماً
قبل خلقه . . .
وكما كان
بصفاته أزلياً،
كذلك لا يزال
عليها أبدياً"

الطحاوي

«فمن وصف الله
سبحانه فقد قرنه،
ومن قرنه فقد ثناه،
ومن ثناه فقد جزأه،
ومن جزأه فقد جهله»

علي بن أبي طالب(ع)

عقيدة أهل السنة

يمكن عرض عقيدة أهل السنة في قسمين: الأول عقيدة الأشاعرة أي أهل السنة من أتباع المذاهب الأربعة، والثاني عقيدة السلفيين أتباع ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب.

قال صاحب العقيدة الطحاوية واصفاً الله تعالى: "لا تبلغه الأوهام، ولا تدركه الأفهام".

وهذه عقيدة نجدها كثيراً في أقوال الإمام علي(ع) في إثبات عجز المخلوقين عن إدراك كنهه.

وقال: "ولا يشبهه الأنام".

وهي عقيدة من قوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾، التي تنفي عنه أي صفة أو تصور يمكن أن يتكون عند المخلوقين عنه سبحانه (والتي سنجدها تصطدم باعتقادات أخرى عند أهل السنة، خصوصاً المدرسة السلفية، في إثبات ما للبشر له سبحانه وإن مع اللف والدوران).

وقال: "ما زال بصفاته قديماً قبل خلقه، لم يزدد بكونهم شيئاً لم يكن قبلهم من صفته، وكما كان بصفاته أزلياً، كذلك لا يزال عليها أبدياً".

أي أن صفات الله جزء من ذاته، ولكن من أجل تجاوز مشكلة تعدد القديم فإنه قال "ما زال بصفاته قديماً" فكأن قوله "بصفاته" تخلصه من ذلك، وهو ما لا أراه ممكناً «لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة» كما قال الإمام علي(ع).

وباقي كلامه يؤكد أزلية الصفات وأبديتها.

وقال: "ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر، فقد كفر".

وهي عقيدة تؤكد الالتزام بقوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾. ولكنها تكفر من يصف المولى عز وجل بصفات البشر، وهو ما سنجده في الكلام الصريح للشيخ ابن العثيمين، الآتي بعد قليل، مع أن الأخير يقول أن عقائده هي عقائد أهل السنة والجماعة.

وقال: "والعرش والكرسي حق"، "وهو مستغن عن العرش وما دونه، محيط بكل شيء وفوقه، وقد أعجز عن الإحاطة خلقه".

عقيدة صحيحة أنه تعالى مستغن عن العرش، ولكن المشكلة في شبهة الجهة التي أفهمها من قوله "وما دونه... وفوقه" لأنه تعالى فوق كل شيء والخلق دونه ليس بالمعنى الجهوي كما هو عندنا وإنما هو فوق كل شيء بذاته الكاملة المستغنية عن غيره بالمقارنة مع الخلق الناقص المحتاج إلى غيره. إن شبهة الجهة تتأكد في قوله "محيط بكل شيء وفوقه" لأن الطحاوي كأنه يريد تجنب أن يجعله تعالى "بجانب" أو "تحت" أي شيء عندما يقول "محيط بكل شيء" فقال "وفوقه" ليقول لك أن إحاطته بكل شيء لا تجعله بجانبه أو تحته كما هي شأن الإحاطة بل هو فوقها، وهذه تؤكد شبهة الجهة، والجهة تعني التجسيم لا محالة.

وأما عن رؤيته سبحانه في الآخرة فقد قال: "والرؤية حق لأهل الجنة، بغير إحاطة ولا كيفية ... لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا".

يثبت رؤية الله تعالى في الآخرة لأهل الجنة ولكنه يحتار فيها.

وأكمل بأقوال تزيد الأمر تعقيداً: "ولا يصح الإيمان بالرؤية لأهل دار السلام لمن اعتبرها منهم بوهم، أو تأولها بفهم ... ومن لم يتوق النفي والتشبيه، زل ولم يصب التنزيه".

فهو يجعل الإيمان بالرؤية واجبة ولكن بشرط عدم الوهم أو التأويل بفهم. ولكن هناك "ومن لم يتوق النفي والتشبيه زل ولم يصب التنزيه" الذي يحذر من أمرين: نفي الرؤية لأن النفي يعني نفي ما ثبت عنده في القرآن والحديث، والتشبيه لأنه يجد أن القول برؤيته تعالى يجعله شبيهاً لخلقه لأن رؤيته متعذرة دون أن يكون له جسم وجهة وحدود.

ولكنه يحاول نفي ما تستلزمه الرؤية: "وتعالى عن الحدود والغايات، والأركان والأعضاء والأدوات، لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات".

فهو – كعالم كبير – يعلم أن رؤيته سبحانه تعني ضرورة أن يكون له حد وغاية وركن، وأن تكون له جهات، وربما أن تُرى له أعضاء، لذلك سارع إلى نفي ذلك عنه سبحانه. ولكنه نفي يناقض الإيمان بالرؤية، ولذا كان أول ما تكلم فيه هو الإيمان بالموضوع دون تأويل أو محاولة فهم.

عقيدة السلفيين المعاصرين

فيما جاء في كتيب "عقيدة أهل السنة والجماعة" للشيخ محمد الصالح العثيمين 1404هـ، وهو من شيوخ السلفيين الكبار، وهي أقوال فيها إصرار وتأكيد على تجسيم الله تعالى، أو على الأقل توحي بالتجسيم. فهو أكثر جرأة على تأكيد صفات الأجسام وإثبات الحركة للمولى سبحانه من مدرسة أهل السنة، قال:

ونؤمن بما أخبر به عنه رسوله(ص) أنه ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا...

ونؤمن بأن لله تعالى يدين كريمتين عظيمتين ﴿بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾ ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه﴾...

ونؤمن بأن لله تعالى عينين اثنتين حقيقيتين لقوله تعالى ﴿واصنع الفلك بأعيننا ووحينا﴾... وأجمع أهل السنة على أن العينين اثنتين.

ونؤمن بأن الله تعالى ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾...

ونؤمن بأن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة ﴿وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة﴾.

ونؤمن بثبوت كل ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله(ص) من الأسماء والصفات. لكننا نبرأ من محذورين عظيمين هما:

التمثيل، أن يقول بقلبه أو لسانه صفات الله تعالى كصفات المخلوقين. والتكييف، أن يقول بقلبه أو لسانه كيفية صفات الله تعالى كذا وكذا.

ونرى وجوب إجراء نصوص الكتاب والسنة في ذلك على ظاهرها...

أقول: إن المتأمل في كلام الشيخ ابن عثيمين يجد فيه محاولة للهروب مما سيقع فيه المرء قطعاً عندما يقرأ أحاديث يعتقد بصحتها أهل السنة. من ذلك ما رواه البخاري في صحيحه، مثلاً ج3 باب قوله تعالى ﴿وتقول هل من مزيد﴾ ص127 وأيضاً ج3 باب ﴿يوم يكشف عن ساق﴾ ص138 وج4 باب الصراط جسر جهنم ص92 والتي فيها "أن النار لا تمتلىء حتى يضع الرب قدمه فيها" وأن "الله خلق آدم على صورته بطول ستين ذراعاً" وأن "الله تعالى يأتي على غير الصورة التي

يعرفونه فيها فيقولون له نعوذ بالله منك حتى يأتي بالصورة التي يعرفون فيقولون أنت ربنا" أو يقولون "أن الله ضحك وأذن لهم بدخول الجنة"، إلى غير ذلك مما لا يجوز ولا يليق بصفاته سبحانه حسبما يرى أهل البيت(ع) وشيعتهم. فإن ابن عثيمين يقول: نؤمن بأن الله ضحك ولكن لا نقول كالبشر أو كيف يضحك؛ أو نؤمن أن له ساقاً ويداً وعيناً، ولكن لا نقول أنها كسيقان البشر وأيديهم وعيونهم ولا نقول كيف شكلها الإلهي هذا. هذا الهروب لا ينجي، لأمرين:

الأول، أن الله إن كان ﴿ليس كمثله شيء﴾ فليس هناك ما يدعو إلى قبول وجود الأعضاء فيه لأنه سبحانه إنما خلق هذه الأعضاء كي يقوم البشر والحيوانات بأداء الوظائف، أما هو جل وعلا فلا يحتاج إلى هذه الآلات ليقوم بأفعاله؛

الثاني، أن هذه التوجيهات لهذه الأحاديث تقف عاجزة عن توجيه أحاديث أخرى كحديث "خلق آدم على صورته" وأنه "بطول ستين ذراعاً"، لأنه واضح تماماً في أن آدم يشبه الله تعالى – كما يفهمون منه – وبالتالي فإن المسلم سيجد من الصعوبة فصل صورة الله في ذهنه عن صورة الإنسان، كما أن الحديث يحدد الطول بستين ذراعاً، أي حوالي الأربعين متراً، وهذه لا يمكن تأويلها لأنه عدد محدد بدقة.

عقيدة مدرسة أهل البيت(ع)

طبقاً لأئمتهم(ع)، وجدت الشيعة ينفون عن العلي الأعلى كل صورة وتمثيل وتشبيه وتكييف، فلا أعضاء ولا حركة ولا ضحك ولا شيء مما يطرأ على المخلوقين. فقد رد الأئمة(ع) الفهم الخطأ لآيات القرآن، وردوا بعض الأحاديث أو صححوا فهمها.

فقد فسروا "اليد" مثلاً بالقدرة ﴿ما خلقت بيدي﴾، أو الشهادة ﴿يد الله فوق أيديهم﴾، أي حسبما يتناسب مع المعنى المراد بما عرفه العرب من استخدام المجاز والاستعارة والكناية وهو الذي استخدمه القرآن الكريم.

وفسروا "العين" مثلاً بأنها العناية والتعليم والرقابة ﴿واصنع الفلك بأعيننا﴾، أو ﴿ولتصنع على عيني﴾، أو ﴿فإنك بأعيننا﴾... وهكذا.

ووجدت الشيعة لا يؤمنون بأن الله تعالى يتحرك فيصعد وينزل، لا ليلة الجمعة ولا في غيرها، لأنه لا يحتاج أن ينزل ليكون قريباً من العباد فهو ﴿معكم أينما كنتم﴾.

وكذا مسألة الضحك لأن هذا تغير عليه سبحانه لا معنى له.

بل وجدت أمير المؤمنين(ع) يحسم الأمر بشكل قاطع لا يبقي مجالاً لأي نيل من الذات المقدسة عندما قال: «وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزأه، ومن جزأه فقد جهله» (نهج البلاغة الخطبة 1). فأفهمنا أن جميع الصفات إنما استخدمت لتوصيف أفعاله، لأن كل صفة هي غير الذات (فأنت تقول "محمد كريم" وأنت تعلم أن هناك شيئين: محمد الذات الشخص، وصفة الكرم التي أضفتها إلى محمد)، وبالتالي فإن ذاته لا يجوز عليها صفات الأعضاء فحسب وإنما أيضاً صفات الأفعال كالحركة والتغير. بل أن من اعتقد أن صفاته جزء منه سبحانه إنما يشرك معه شركاء «فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه» أي قرنه مع تلك الصفة «ومن قرنه فقد ثنّاه»، والنتيجة هي تجزئة الإله الواحد إلى آلهة «ومن ثنّاه فقد جزّأه».

تبقى قضية رؤية الله في الآخرة، وقد وجدت الشيعة يقولون أنه لا يمكن رؤيته سبحانه لا في الدنيا ولا في الآخرة، لأنه غير محدود في حين أن الإنسان محدود في رؤيته للأشياء، ولأن القرآن قطع بعدم الرؤية. من ذلك قوله لموسى(ع) ﴿لن تراني﴾ ما يعني إلى الأبد حسب المعنى المعروف لكلمة "لن". ومن ذلك قوله ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾ وهو نفي واضح لإمكانية أن تراه الأبصار. وفسروا الآية ﴿وجوهٌ يومئذٍ ناضِرة . إلى ربِّها ناظِرة﴾ أنها تعنى "منتظرة" لرحمة الله وعطائه، على أساس معنى "ناظرة" الوارد في قول ملكة سبأ ﴿وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بِمَ يرجع المرسلون﴾. هذا الفهم يجعل جميع الآيات الكريمة الواردة أعلاه متوافقة مع بعضها دون محاولات سقيمة لإثبات ما لا يمكن إثباته.

بل الدليل من القرآن، على ما أوضحه الإمام الرضا(ع) بقوله: «قال الله تعالى ﴿ولا يُحِيطُونَ بِهِ عِلماً﴾ فإذا رأته الأبصار فقد أحيط به علماً».

الفصل الثالث عشر
العدل الإلهي

العدل الإلهي
الله تعالى وفعل القبيح
الجبر والاختيار

"خلق الجنة والنار قبل الخلق، وخلق لهما أهلاً . . . وكل يعمل لما فرغ له، وصائر إلى ما خلق له، والخير والشر مقدران على العباد"

الطحاوي

«لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين»

جعفر الصادق(ع)

العدل الإلهي

كأي مسلم سني تربيت على أن الله يفعل ما يريد فله أن يتسبب في إيذاء الإنسان، وعلى "هكذا أراد الله"، "ما شاء الله كان"، "الإنسان مسير لا مخير"، وكلها تركز عقيدة أن ما يحصل للإنسان هو العدل، لا على أساس الابتلاء الذي يأتي بالأجر بعدها فحسب ولكن أيضاً على أساس أن الإنسان ليس له أن يطالب الله تعالى بالعدل معه لأن العدل هو ما يريده الله ويفعله حتى وإن كان يبدو ظلماً. صحيح أن الله لا يسأل عما يفعل، ولكن فهم الفريقين لهذا مختلف، كما وجدت.

الله تعالى وفعل القبيح

قال الشيخ عبد الواحد الأنصاري (عقيدتنا ص71):

قال الشيعة الإمامية أن الله تعالى هو مصدر الخير والفيض، وأنه منزّه عن فعل القبيح، ومنه الشرّ.

وقالت الأشاعرة والمجبرة إن مصدر الخير والشر واحد وخالقهما واحد هو الله تعالى، لأنه خلق كل شيء وقدّر كل شيء، وان استثناء فعل القبيح عنه ينافي كونه خالقاً لكل شيء.

هذا يثبته صاحب العقيدة الطحاوية: "فإن الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق، وخلق لهما أهلاً، فمن شاء منهم إلى الجنة فضلاً منه، ومن شاء منهم إلى النار عدلاً منه، وكل يعمل لما فرغ له، وصائر إلى ما خلق له، والخير والشر مقدران على العباد". فإن قوله "وخلق لهما أهلاً" يشير إلى أن الله خلق خلقاً للنار يعذبهم فيها، ولذلك لا ينفع قوله "ومن شاء منهم إلى النار عدلاً منه" لأن العدل إنما يكون بالجزاء بعد وقوع الفعل لا أنه خلق لأجل اقتراف الفعل. والدليل تأكيده بأن كلاً "صائر إلى ما خلق له" أي الهدف من خلقه، حتى يصل إلى التأكيد بأن "الخير والشر مقدران على العباد".

ولم أجد توضيحه التالي يحل الإشكال: "وأفعال العباد خلق الله وكسب من العباد"، لأن الأفعال إن كانت قد "فرغ" منها فهي "خلق الله" وأن العباد ما

قاموا إلا بالتنفيذ الذي عبر عنه بكلمة "كسب"، فكيف يكونون مسؤولين عنها؟ أو على الأقل هم شركاء والخالق سبحانه فيها فكيف يعذبهم على أمر شاركهم فيه؟

الجبر والاختيار

قال الشيخ الأنصاري (عقيدتنا ص75):

الجبر هو إجبار الله تعالى عباده على الفعل خيراً كان أو شراً، حسناً كان أو قبيحاً، دون أن يكون للعبد إرادة واختيار وقدرة على الرفض والامتناع.

الاختيار وهو أن الله تعالى كلّف عباده ببعض الفعال ونهاهم عن بعضها وأمرهم بطاعته فيما أمر به ونهى عنه، بعد أن أوضح لهم الدليل وهداهم إلى ما يريد فعله وما يريد تركه، بوساطة الأنبياء والمرسلين، ومنح العباد القوة والإرادة والقدرة على الفعل والترك وجعل لهم الاختيار فيما يفعلون ... فمن اهتدى فلنفسه ومن ضلّ فعليها.

قالت الأشاعرة بالجبر واستدلّوا على ذلك بأدلة أهمها: إن كل ما علم الله تعالى وقوعه فهو واقع لا محالة، وما علم امتناع وقوعه فهو يمتنع حتماً فإذا علم الله وقوع الكفر من الكافر استحالت على الكافر إرادة الإيمان؛ وقالوا إن في القرآن من الآيات ما يثبت أن الله تعالى هو خالق أفعال العباد (مثل) ﴿واللهُ خَلَقَكُم وما تَعمَلُون﴾ الصافات:96 ...

وقد وجدت صاحب العقيدة الطحاوية يؤكد على الجبر. قال: "ولم يكلفهم الله تعالى إلا ما يطيقون، ولا يطيقون إلا ماكلفهم ... وكل شيء يجري بمشيئة الله تعالى وعلمه وقضائه وقدره. غلبت مشيئته المشيئات كلها، وغلب قضاؤه الحيل كلها. يفعل ما يشاء، وهو غير ظالم أبداً. لا يسأل عما يفعل وهم يسألون".

صحيح أنه ﴿يفعل ما يشاء﴾ و ﴿لا يسأل عما يفعل﴾ ولكن هل يصح أن يشمل ذلك إجبار العباد على فعل المعاصي كما من قوله "وغلب قضاؤه الحيل كلها"؟

وأكمل: "فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله تعالى فيه أنه كائن، ليجعلوه غير كائن – لم يقدروا عليه. ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله تعالى فيه، ليجعلوه كائناً – لم يقدروا عليه. جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة".

المشكلة هي في كلمة "كتبه الله تعالى"، فإذا كان المقصود هو أنه أراده سواء أراد العبد أم لم يرد فهو جبر واضح، ولكن إذا كان المعنى أنه علم بوقوعه قبل وقوعه فهو ينفي الجبر لأن علمه سبحانه لا دخل له بوقوع الفعل. المشكلة هي ذلك الفهم عند جمهور الأمة بأن ما يفعلونه كتبه الله عليهم، فكيف يرضون بمساءلتهم ومحاسبتهم ومعاقبتهم في الآخرة؟!

وأوضح الأنصاري (عقيدتنا ص79) أن الشيعة ينفون الجبر ويقولون بالاختيار وأنهم:

استدلّوا بقوله تعالى ﴿إنّا هَدَيناهُ السَّبِيلَ إمّا شاكِراً وإمّا كَفُوراً﴾ الإنسان:3، ﴿وَهَدَيناهُ النَّجدَين﴾ البلد:8 ... ﴿وقُلِ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُم فَمَنْ شاءَ فَليُؤمِنْ ومَنْ شاءَ فَليَكفُر﴾ الكهف:29، وقالوا: لو كان الله تعالى يجبر بعض عباده على فعل الشر والكفر والقبيح ويجبر البعض الآخر على الهدى والإيمان والخير لَبَطُل الثواب والعقاب ... ولتساوى المؤمن والكافر بالطاعة لأن كل واحد منهما ينفذ إرادة الله تعالى ولا يخالف أمره.

ثم قدم تفسير آل محمد(ص) للآيات التي استندوا إليها لإثبات الجبر، منها:

﴿واللهُ خَلَقَكُم وما تَعمَلُون﴾ وردت في سياق آيات سورة الصافات 82 إلى 96 في احتجاج النبي إبراهيم(ع) على قومه... والله خلقكم وخلق المادة التي تختّم منها أصنامكم، أي أن معنى ﴿وما تعملون﴾ هو ما تصنعون من شيء وليس الفعل ذاته.

الهدى والضلال

قال صاحب العقيدة الطحاوية: "يهدي من يشاء، ويعصم ويعافي، فضلاً. ويضل من يشاء، ويخذل ويبتلي، عدلاً" و "وكلهم يتقلبون في مشيئته، بين فضله وعدله".

فهو يحاول التوسل بكلمة "فضلاً" مع الهداية و "عدلاً" مع الإضلال لدفع الأمر عن الجبر الواضح. لكن السؤال عندها: إذا كان كل شيء ضمن المشيئة التي لا دخل للإنسان فيها، كيف يثاب من وقع في الخير والهدى شاء أم أبى بينما يعاقب من وقع في الشر والضلال شاء أم أبى؟ لئن كان الثواب دون عمل ممكناً مقبولاً لأنه من صفات الكريم، والله أكرم الأكرمين، فإن العقاب دون مسؤولية لا يمكن أن يكون مقبولاً.

ولكن المشكلة هو الخطأ في فهم آيات الكتاب نتيجة العزوف عن اتباع الأئمة من آل محمد(ص). يوضح الشيخ الأنصاري (عقيدتنا ص92) في مناقشة الآيات التي توحي بأن الهدى والضلال بيد الله تعالى بحيث أن العبد لا يملك قراراً فيها:

فمن معاني الضلال، منها النسيان ﴿أنْ تَضِلَّ إحداهما﴾، ومنها البطلان ﴿فَلنْ يُضِلَّ أعمالَهُم﴾ ، ومنها الحيرة ﴿ووَجَدَكَ ضالاً فَهَدى﴾ أي حيراناً لا معين لك، ومنها الضياع كقولك: "ضلّت ناقتي"، ومنها الموت والهلاك ﴿أئِذا ضَلَلنا في الأرض أئِنّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيد﴾، ومنها العذاب ﴿إنَّ المُجرِمِينَ في ضَلالٍ وسُعُر﴾...

أما كلمة الهدى والاهتداء والهداية فهي بمعنى الثواب والدليل والإرشاد... ﴿فاتَّبِعنِي أهدِكَ صِراطاً سَوِيّاً﴾ ﴿وهَدَيناهُ النَّجدَين﴾ ﴿إهدِنا الصِّراطَ المُستَقِيم﴾ أي دلّنا وارشدنا.

ومن الآيات التي تمسك بها المجبرة ﴿فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشاءُ ويَهدِي مَنْ يَشاء﴾ ابراهيم:4، (بينما يفهم من سياقها أن) الضلال في الآية بمعنى العذاب والهدى فيها بمعنى الثواب... ولو كان فعل الهدى والضلال من الله تعالى وأنه يجبر بعض الناس على الهدى ويكره الآخرين على الضلال لكان إرسال الرسل ... باطلاً...

ثم ذكر (ص103) توضيح الإمام موسى الكاظم(ع) لأبي حنيفة ما سأله عن أفعال العباد: «إن أفعال العباد لا تخلو من ثلاثة: إما أن تكون من الله خاصة، أو من الله تعالى ومن العبد على وجه الاشتراك، أو تكون من العبد خاصة؛ فلو كانت من الله تعالى خاصة كان الله أولى بالحمد على صنعها والذم على قبحها، ولم يتعلق بغيره حمد ولا لوم، وإن كانت من الله تعالى ومن العبد على وجه الاشتراك كان الحمد لهما والذم عليهما معاً، وإذا بطل هذان الوجهان ثبت أنها من العبد فإن عاقبه الله تعالى على جنايته فله ذلك وإن عفا عنه فهو أهل التقوى والمغفرة»".

القضاء والقدر

وقال (ص113) بخصوص معاني القضاء والقدر التي تثبت ما تقوله مدرسة أهل البيت(ع) إزاء ما تقوله المدرسة الأخرى:

قال المجبرة: أن القضاء والقدر الإلهيين هما خلق الأفعال من قبل الله خيراً كانت أو شراً، وإلزام العباد بها دون أن يكون للعباد فيها إرادة واختيار.

وقالت الشيعة الإمامية أن الله تعالى منزّه عن فعل القبيح ومنه الإضلال والكفر وإن عدله وغناه عن العباد ينافيان إجبار خلقه على ارتكاب الشر والقبيح ومنهما الكفر والضلال، وإن حكمته تنافي إلزام العباد بما نهاهم عنه وحملهم على ما لا يرتضيه.

وقالوا: إن للقضاء والقدر معاني غير الخلق والإجبار. فمن معاني القضاء الأمر والإيجاب كقوله تعالى ﴿وقَضى ربُّكَ ألاّ تَعبُدُوا إلاّ إيّاه﴾ الإسراء:23 أي أمر وأوجب على العباد... ومن معاني القضاء: الحكم كقوله تعالى ﴿لَولا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَينَهُم﴾ الشورى:14. ومنها إتمام الشيء والوفاء به كقوله تعالى ﴿فَلمّا قَضى مُوسى الأَجَلَ وسارَ بأَهلِه﴾ القصص:29. ومنها الإخبار والإعلام كقوله تعالى ﴿وَقَضَينا إلى بَنِي إسرائِيلَ في الكِتابِ لَتُفسِدُنَّ في الأرضِ مَرَّتَين﴾ الإسراء:40. ومنها الخلق كقوله تعالى ﴿فَقَضاهُنَّ سَبعَ سَماوات﴾ فصلت:12.

ومن معاني القضاء الإرادة ﴿وإذا قَضى أمْراً فإنّما يَقولُ لَهُ كُنْ فَيَكُون﴾ البقرة:117.

وللقدر كما القضاء معان شتّى، منها التقدير والتحديد؛ ومن معانيه الإعلام والإخبار كقوله تعالى ﴿إلاّ امرَأَتَهُ قدَّرناها مِنَ الغابِرِين﴾ النمل:57. ومنها الخلق كقوله تعالى ﴿وجَعَلَ فيها رَواسِيَ مِنْ فَوقِها وبارَكَ فِيها وقَدَّرَ فِيها أقواتَها في أربَعَةِ أيّام﴾ فصلت:10. ومنها التضييق ﴿وأمّا إذا ما ابتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيهِ رِزقَهُ﴾ الفجر:16 أي ضيّق عليه رزقه.

وأحسن دليل على إبطال الرضا بقدر الله وقضائه بهذا الشكل هو أنه لو كان الكفر والضلال مقدرين على العباد لوجب الرضا بهما والرضا بما لا يرضى الله عنه باطل بالإجماع وقبيح عقلاً ﴿ولا يَرضى لِعِبادِهِ الكُفر﴾ الزمر:7.

الفصل الرابع عشر
النبي(ص)

النبي محمد(ص) عند المسلمين

الاختلاف في عصمة النبي(ص)

من أحاديث البخاري

أولاً – أحاديث تخدش عصمته

ثانياً – أحاديث تنقص من قدره(ص) وترفع من شأن غيره

ثالثاً – أحاديث البخاري الإسرائيلية

أحاديث أتباع أهل البيت(ع)

"سحر النبي صلى الله عليه وسلم حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله"

أم المؤمنين عائشة

«ووكَّل به مُذ كان فطيمًا أعظم ملائكته يسلك به سبيل المكارم»

علي بن أبي طالب(ع)

النبي محمد(ص) عند المسلمين

هناك إجماع بين المسلمين على وضع النبي(ص) في الموضع الأعلى بين البشر:

فهو(ص) خاتم النبيين فلا نبي بعده، وأنه(ص) سيد المرسلين أفضل من أولي العزم(ع) فمن دونهم؛

وأنه المبين لما نزل عليه من القرآن الكريم، وأن ما يقوله، من أمر ونهي، لا بد من اتباعه؛

وأنه(ص) سيد الخلق في الآخرة كما هو سيدهم في الدنيا، وأن له مقاماً للشفاعة لا يبلغه أحد من البشر وبضمنهم الأنبياء والمرسلين(ع).

الاختلاف في عصمة النبي(ص)

ولكنهم اختلفوا في بعض الأمور، أهمها عصمة النبي(ص)، فإن مدرسة أهل السنة تحصر عصمته في تبليغ الوحي؛ أما مدرسة أهل البيت(ع) فهي تعتقد بعصمته في الوحي وغيره.

من أحاديث البخاري

كان من أهم الأمور التي كشفت لي الفارق بين ما أسسه أئمة أهل البيت(ع) وما أسسه غيرهم، ما أنتج في النهاية المدرستين موضع البحث، هو ما قيل بحق النبي(ص) في المكانين. فقد وجدت غياباً كاملاً في مدرسة أهل البيت(ع) لأي كلمة تنال منه(ص) أو تخدش في عصمته أو علمه أو طريقته بينما وجدت الكثير مما يفعل ذلك في مدرسة أهل السنة، ومنها أمور نشأتُ – كحال جميع أهل السنة – على التصديق بها.

ولعل توضيح ذلك يكون بأجلى مظاهره إذا جئت بروايات من أصح الكتب عند أهل السنة، وهو "صحيح البخاري"، على أساس أنه أصح من كتب السيرة التي تتساهل في الروايات وبالتالي يمكن ردها والالتفاف حول نتائجها، فهو الكتاب

الجامع لروايات يقول فيها أهل السنة أنها صحيحة كلها، بل يقول النووي أحد أهم علماء الحديث عند مدرسة أهل السنة وصاحب كتاب "رياض الصالحين" الواسع الانتشار: "أجمعت الأمة على صحة هذين الكتابين – أي البخاري ومسلم – ووجوب العمل بأحاديثهما".

أي أن ما سأذكره من أحاديث تضع المسلم السني أمام طريقين لا ثالث لهما:

إما أن يرفضها لأنها تناقض عقيدته هو نفسه في نبيه(ص)، كما تناقض العقل والمنطق.

أو يستمر بالتصديق في أن جميع ما في كتاب البخاري هو الصحيح، وعليه يجب أن يتعايش مع هذه الصورة المتناقضة لنبيه(ص)، بل التي تنقص من قدره ومن عصمته ومن شأنه كله...

أولاً – أحاديث تخدش عصمته(ص)

1 - صلاته دون وضوء

صحيح البخاري ج1 كتاب العلم ح57 ، ج1 كتاب الأذان حديث 87 وحديث 88، وهي أحاديث تقول أن النبي(ص) لم يتوضأ بعد أن نام واستغرق في النوم "ثم اضطجع فنام حتى نفخ ثم أتاه المنادي فآذنه بالصلاة فقام معه إلى الصلاة فصلى ولم يتوضأ"، أو "نام حتى سمع غطيطه" أو "ثم نام حتى نفخ، وكان إذا نام نفخ، ثم أتاه المؤذن فخرج فصلى ولم يتوضأ" أو "ثم اضطجع ورقد فجاءه المؤذن فصلى ولم يتوضأ". مع أن النوم مما ينقض الوضوء فيحتاج إلى تجديده، فكيف يأمرنا النبي(ص) به ثم يخالف ما أمر به؟

2 - النبي(ص) ينسى آيات من القرآن ثم يتذكر عندما يسمع أعمى يقرأها

صحيح البخاري ج3 كتاب الشهادات حديث 21، "عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يقرأ في المسجد فقال: رحمه الله، لقد أذكرني كذا وكذا آية أسقطتهن من سورة كذا وكذا!"

وهذا الحديث ما لا يمكن قبوله بحال من الأحوال، فإن النبي(ص) موكل بإيصال آيات الكتاب إلى الناس، فكيف ينسى آيات ويسقطها من سورة؟ وكيف

لا ينساها رجل من المسلمين مع أنه ما سمعها إلا من النبي(ص) أو ممن سمعها من النبي(ص)؟ وإذا جاز له(ص) أن يسهو أو ينسى فإن ذلك في الأمور الحياتية الثانوية لا في الأمور التشريعية، فكيف بأهم ما فيها وهو آيات الكتاب العزيز الذي سماه(ص) الثقل الأكبر من تركته في الناس؟

ولا أدري لماذا اختار البخاري صاحب الكتاب الذي سماه الجامع الصحيح هذا الحديث واضح البطلان من بين عشرات الألوف من الأحاديث الصحيحة التي زعم أنه يحفظها؟

3 - حديث سحره(ص)

صحيح البخاري ج4 كتاب الجزية حديث 71، ج4 كتاب بدء الخلق حديث 77، "عن عائشة قالت: سحر النبي صلى الله عليه وسلم حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله" الحديث.

وهذا حديث مشهور جداً عند أهل السنة، ويردده وينافح عنه عبّاد أحاديث البخاري. وقد أجاب بعض العلماء، وبضمنهم من السنة، بما يلي:

أولاً، أن النبي(ص) معصوم من تأثير السحر عليه أو أي عمل من أعمال الشر المعادية وذلك بعصمة الله تعالى بنص الآية الكريمة ﴿واللّهُ يعصِمُكَ مِنَ النّاس﴾؛

ثانياً، أنه لو جاز عليه(ص) أن "يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله" فإن أوامره ونواهيه في تلك الفترة تصبح موضع شك، بل موضع تحير عند المسلمين: هل يطيعونها لأنها أوامره ونواهيه(ص) وهي من الممكن أن تكون خطأ ومن عمل الشيطان، أو يعصونها فيكونون قد عصوا الرسول(ص) في أوامر ونواه ربما تكون صحيحة؟

ثانياً – أحاديث تنقص من قدره(ص) وترفع من شأن غيره

1 - نزول آية الحجاب حسب رغبة عمر

صحيح البخاري ج1 كتاب الوضوء حديث 12، "عن عائشة، أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم كن يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصع فكان عمر يقول للنبي صلى الله عليه وسلم: إحجب نساءك! فلم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل! فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ليلة من

الليالي عشاء، وكانت امرأة طويلة، فناداها عمر: ألا قد عرفناك يا سودة! حرصاً على أن ينزل الحجاب، فأنزل الله آية الحجاب".

وفيه أن عمر يأمر النبي(ص) بأمر، أو على الأقل يطلب بشدة، وهذا ما لا يليق به(ص) مطلقاً. وفيه أن عمر قال "ألا قد عرفناك يا سودة" وهو سوء أدب لا يفعله أحدنا مع زوجة صديقه أو من يعرف أو لا يعرف من الناس، فكيف بزوجة النبي(ص) وقد أنزلها الله تعالى بمنزلة الأم. وفيه أن الأمر بالحجاب ينزل حسب رغبة عمر. وفيه نيل من رسول الله(ص) – عن عمد أو سهو – أنه أقل غيرة على نسائه من عمر.

2 - أبو بكر لا يرضى بالغناء والرقص في بيته(ص) ومسجده(ص) وهو يقبل

صحيح البخاري ج2 كتاب العيدين حديث 4 وحديث 34، ج4 كتاب الجهاد والسير حديث 113 وحديث 118، أبو بكر يقول "مزمارة الشيطان عند النبي(ص)" والنبي(ص) يقول إنه يوم عيد، "عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: دخل أبو بكر وعندي جاريتان من جواري الأنصار تغنيان بما تقاولت الأنصار يوم بعاث ـ، قالت: وليستا بمغنيتين ـ، فقال أبو بكر: أمزامير الشيطان في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم! وذلك في يوم عيد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أبا بكر إن لكل قوم عيداً، وهذا عيدنا".

السؤال هو: كيف عرف أبو بكر أن ما رآه هو "مزمارة الشيطان"؟ أليس من النبي(ص) نفسه، بمعنى كواحدة من تعاليمه إلى الناس؟ فكيف يأتي المعلم ويخالف تعاليمه؟ ولا ينفع القول أنه يوم عيد مستثنى، لأن ما له علاقة بالشيطان يبقى شراً حتى في العيد.

ثالثاً – أحاديث البخاري الإسرائيلية

1 - صيامه(ص) عاشوراء تشبهًا باليهود

صحيح البخاري ج4 كتاب الصوم باب صيام يوم عاشوراء حديث 5 وحديث 6

"عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يوم صالح،

هذا يوم نجى الله بني إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى، قال: فأنا أحق بموسى منكم، فصامه وأمر بصيامه".

"عن أبي موسى ـ رضى الله عنه ـ قال: كان يوم عاشوراء تعده اليهود عيداً، قال النبي صلى الله عليه وسلم: فصوموه أنتم".

الحديث يتعلق بشعيرة عبادية هي الصيام، وهي شعيرة لا يمكن للنبي(ص) أن يجعلها فرضاً أو سنّة اتباعاً للأمم الأخرى. والعجيب هو أن الحجة في الأمر بالصيام ليس لأن موسى(ع) أخبره به في المعراج مثلاً وإنما لأن اليهود ادعوا أنه(ع) صامه بدعوى أخرى أنه اليوم الذي نجاه الله وبني إسرائيل من العدو.

وهذا الحديث نجده من الأحاديث الأثيرة عند البعض لأنه يتضمن صيام عاشوراء اتباعاً لليهود، في إيحاء أن يوم عاشوراء ينبغي أن يكون يوم عيد. والمسلمون يعلمون أن يوم عاشوراء هو يوم المجزرة الأموية بحق آل محمد(ص) – فهذا الحديث من صدق عملهم، ومن يتابعهم، بآية المودة ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾.

2 - مسّه الشيطان عند ولادته(ص)

"عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبيه بإصبعه حين يولد، غير عيسى بن مريم، ذهب يطعن فطعن في الحجاب!"

يمكن أن يعد هذا الحديث من "المسيحيات"، وقد اعتمد عليها بعض باحثي النصارى لإثبات أفضلية المسيح(ع) على النبي(ص)، بل ولإثبات ألوهية المسيح(ع) كونه الوحيد العصيّ على الشيطان، لأن الحديث يقول أن مس الشيطان عند الولادة يحدث مع كل الناس "ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد" والنتيجة "فيستهل صارخاً من مس الشيطان" مستثنياً المسيح(ع) المسيح(ع) وحده.

نظرة المسلمين اليوم وهذه الأحاديث

يجب القول أن المسلمين بعد عصر تدوين الأحاديث، وبضمنهم مسلمو اليوم، لا ينظرون إلى النبي(ص) نظرة متأسسة على هذه الأحاديث. ولعل الذي يقف خلف ذلك أمران:

(الأول) هو زوال أعداء النبي(ص) الذين دخلوا الإسلام نفاقاً ثم أدخلوا هذه الروايات الكاذبة التي تنال منه ومن عصمته وفضله وخلقه وسيرته المثلى؛
(الثاني) هو أن الله لا يمكن إلا وأن يظهر نور نبيه وصفيه(ص) وإن كره المنافقون؛

لكن المؤسف أن أهل السنة لا يزالون يؤمنون بالكثير من هذه الروايات، بل يشتد عناد البعض في إثبات ذلك... في ذات الوقت الذي يدافعون وينافحون عن بعض أصحابه الذين هم ليسوا معصومين ولا مرسلين، بل ممن قضوا جُلّ أعمارهم في عبادة الأصنام وارتكاب الفواحش.

أحاديث أتباع أهل البيت(ع)

أولاً – رفض لما جاء في الأحاديث أعلاه، وإيمان بكماله(ص) في: العصمة والعلم والعدل والأخلاق والعبادة وعلو المرتبة على الأنبياء(ع) وباقي الفضائل كالشجاعة والكرم وغيرها.

أهل البيت(ع) وشيعتهم يرفضون رفضًا قاطعًا كل الأحاديث المتقدمة وأي حديث من نوعها، وأي حديث ينقص من فضائل النبي(ص) وصفاته التي يؤمنون بها، وهي اختصارًا:

1- العصمة المطلقة من الذنوب جميعها، وفي حياته كلها – قال أمير المؤمنين(ع): «ووَكَّل به مُذ كان فطيمًا أعظم ملائكته يسلك به سبيل المكارم»

2- عدم جهله بالمطلوب من مهمته، أي في تبليغ القرآن وتفسيره، وفي السنن والأوامر والنواهي، وفي أي جانب له علاقة برسالته لأنه ﴿لا ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى .﴾

3- عدم جهله إذا سئل وإذا أجاب عن أي أمر من أمور الدنيا، ولهذا فإن حديث تلقيح النخيل وقوله المزعوم "أنتم أعلم بأمور دنياكم" مردود تمامًا

4- عدله الكامل مع أوليائه وأعدائه، ومع أصحابه وأزواجه، ولهذا فإن حديث تفضيله عائشة على زوجاته حتى أرسلن له زينب يطلبن العدل حديث كاذب مردود

5- وصوله إلى القمّة في الأخلاق حتى قال عنه ربه: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾

6- عبادته التي بزّ فيها الأولين والآخرين إذ كان يقوم الليل حتى تورّمت قدماه فنـزل القرآن بالتخفيف عنه، ولم يقلل ذلك من نزول القرآن بمغفرة الذنوب ما تقدم وما تأخر – وهي ترك الأَولى كما قرر العلماء، أو ذنبه(ص) عند كفار مكة بما جاء من هدم دينهم أو غيرها (راجع ما قاله المفسرون في تفسير أول سورة الفتح) – وعندما قيل له في ذلك قال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا».

7- تفضيله على جميع البشر وبضمنهم الأنبياء والمرسلين(ع)، لقوله(ص): «خلقت من إبراهيم وأنا خير من إبراهيم» و «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»؛ بل هو أول الأنبياء خلقًا وآخرهم مبعثًا كما قال الأئمة(ع) وكما قال(ص): «ولدت وآدم بين الماء والطين»

8- وصوله القمة في جميع الفضائل: الكرم والشجاعة والعفو والصبر وغيرها.

فهو(ص) قد بلغ الكمال الإنساني في جميع الفضائل، فلا يسبقه، بل لا يدانيه، أحد في فضل، حتى أن أمير المؤمنين(ع) الذي بزّ جميع أصحابه(ص) بفضائله كان يقول:

في الشجاعة التي صار مثلاً لها، بل تعجبت منها ملائكة السماء: «كُنّا إذا احمرّ البأس اتّقينا برسول الله، حتى لا يكون أحد أقرب إلى العدو منه»...

وفي العلم الذي جعله يقول، دون غيره، «سلوني قبل أن تفقدوني»، قال إنه: «تعلّم من ذي عِلم» أي أن علمه(ع) هو من بعض علم النبي(ص)...

وفي الزهد لمّا اعترضوا على خشونة ملبسه وجشوبة مأكله: «كان رسول الله يلبس أخشن من هذا ويأكل أيبس من هذا»...

ثانياً – خلو كتب الشيعة دون استثناء مما ينقص من كماله(ص)

فليس في كتب الحديث الشيعية ما ينال من منـزلته(ص) عند ربه وعند المؤمنين، ودوره في الحياة، هذا مع أن الأحاديث الواردة عن أئمة أهل البيت(ع) لا تحصى، حتى أن المجلسي ألف كتاب "بحار الأنوار" في مائة وعشرة مجلدات، ومع أن في هذا الكتاب الأحاديث الضعيفة بل والموضوعة فإنها تكاد تخلو من أي مساس بالنبي(ص) وعصمته وصفاته الفريدة التي سما بها على الخلق أجمعين، فإن وجد فإنهم – علماء وعامة – يردونها، حالاً، ودون تحفظ، مهما كان حال رواتها وسندها. والحمد لله رب العالمين.

الفصل الخامس عشر
الحكم

"والإمامة تنعقد من وجهين:
أحدهما باختيار أهل العقد
والحل، والثاني بعهد الإمام من قبل"
الماوردي

«لا تقدموهم فتهلكوا،
ولا تتأخروا عنهم
فتهلكوا، ولا تعلموهم
فإنهم أعلم منكم»
رسول الله(ص)

"ولا نرى الخروج على أئمتنا
وولاة أمورنا، وإن جاروا"
الطحاوي

«من رأى سلطاناً جائراً
مستحلاً لحرم الله، ناكثاً
لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول
الله، يعمل في عباد الله
بالإثم والعدوان، فلم يغير
عليه بفعل ولا قول كان حقاً
على الله أن يدخله مدخله»
الحسين بن علي(ع)

مقدمة

من هو الحاكم الشرعي؟

كيفية عقد الإمامة

مواصفات الحاكم الشرعي عند الشيعة

التعامل مع الحاكم

موقف الشيعة من الحاكم الظالم

على الرغم من أني كنت من بيت ذاق السجن والتعذيب والهرب وأحكام الإعدام، ومن عائلة أكبر ومنطقة تداخلت معها الحياة السياسية العراقية الحديثة بمآسيها ومشاكلها وسجونها وضحاياها، إلا أني وجدت الفارق في قصص القمع والملاحقة والسجن والتعذيب والإعدام والتشريد بين ما كنت أسمعه في الفترة ما قبل أخذي بمذهب أهل البيت(ع) والفترة ما بعد ذلك كبيراً جداً لا يكاد يصدق والمرء يتحدث عن بلد واحد. ويؤكد على هذه الصورة ما صرت أسمعه شخصياً، أو أقرأه مما ينشر ومما لا ينشر في وسائل الإعلام من المشاكل التي تحيط بشيعة أهل البيت(ع) في معظم البلدان التي يعيشون فيها، الأمر الذي انتهى بالكثير منهم إلى ترك تلك البلدان والذهاب إلى بلدان لا تدين بدين الإسلام ولكن تحترم كرامة الإنسان.

فلماذا هذا الحال المختلف بين أتباع الطائفتين؟

إنه النظرة إلى الحاكم، ثم التعامل معه، وتعامل الحاكم معهم. والدليل هو أن الأشخاص من أتباع المذهب السني الذين دخلوا المعترك السياسي من بوابة الإسلام السياسي وجدوا أنفسهم في وضع مشابه لوضع الشيعة من زاوية نظرة الحاكم وطريقة تعامله معهم.

ويمكن تلخيص الاختلافات بين المذهبين في هذا الجانب بما يلي:

(1) مواصفات الحاكم الشرعي

(2) كيفية التعامل مع الحاكم، الشرعي وغير الشرعي.

وهذا بحث واسع جداً كان ولا يزال معرض اهتمام المسلمين، إسلاميين وعلمانيين وغيرهم، كونه في الصميم مما مرت وتمر فيه الأمة من ظروف قاسية وأحوال مستمرة في التدني في القطاعات المختلفة للخدمات التي يقدمها الحاكم للمحكوم.

لذا، فإن هذا الكتاب لا يحتمل أكثر من الإشارة إلى ما وجدته فارقاً واضحاً بين الطائفتين في الأمرين: مواصفات الحاكم الشرعي، وكيفية التعامل مع الحاكم.

من هو الحاكم الشرعي؟

بكلمة واحدة: عند أهل السنة الحاكم يستمد شرعيته أولاً من تسنم الحكم، وثانياً من عدم خروجه على الدين بما وصفوه بـ "الكفر البواح" أي الكفر الصريح، كأن يعلن الخروج على الإسلام وتبني مبادئ إلحادية، أو يترك الصلاة أو يأمر بترك الصلاة، وما في مستواها. ولكن لنذكر أولاً بعض ما أورده علي بن محمد بن حبيب الماوردي في الأحكام السلطانية، مع الاختصار الشديد، ومع تعليق قصير مما يفهم منه أو يعترض عليه.

ففي الباب الأول في عقد الإمامة قال: "فإذا ثبت وجوب الإمامة ففرضها على الكفاية كالجهاد وطلب العلم، فإذا قام بها من هو من أهلها سقط فرضها على الكفاية، وإن لم يقم بها أحد خرج من الناس فريقان: أحدهما أهل الاختيار حتى يختاروا إماماً للأمة. والثاني أهل الإمامة حتى ينتصب أحدهم للإمامة، وليس على من عدا هذين الفريقين من الأمة في تأخير الإمامة حرج ولا مأثم، وإذا تميز هذان الفريقان من الأمة في فرض الإمامة وجب أن يعتبر كل فريق منهما بالشروط المعتبرة فيه."

أقول: وهذا يجعل الناس أصنافاً ثلاثة، من يصلح للإمامة وهم أفراد قلائل، ومن يصلح للاختيار وهم مجموعة قليلة أيضاً، والسواد الأعظم من الأمة الذين ليس لهم سوى السمع والطاعة لهؤلاء وهؤلاء، وهذا وجدته يضرب المبدأ الإسلامي، بل الإنساني، أن الناس سواسية وأن المسلمين بعضهم أولياء بعض وغيرها، في الصميم.

وذكر الماوردي أن الشروط المعتبرة في أهل الاختيار ثلاثة: (1) العدالة الجامعة لشروطها (2) العلم الذي يتوصل به إلى معرفة من يستحق الإمامة (3) الرأي والحكمة المؤديان إلى اختيار من هو للإمامة أصلح.

أقول: لم ينتف الغموض في من هم تلك المجموعة القليلة التي لها قابلية الاختيار، وكذا بخصوص العلم والرأي والحكمة، مما يجعل الباب مفتوحاً لمن له القابلية على التزلف أو القدرة المادية على فرض رأيه.

وأما الشروط المعتبرة في أهل الإمامة فقال أنها سبعة:(1) العدالة (2) العلم المؤدي إلى الاجتهاد (3) سلامة الحواس (4) سلامة الأعضاء (5) الرأي المفضي إلى سياسة الرعية (6) الشجاعة والنجدة (7) النسب وهو أن يكون من قريش.

أقول: وهذه مثل تلك، فلا يمكن التمييز بشكل عام، دع عنك التمييز الدقيق، بين المرشحين للإمامة بخصوص شروط العدالة والعلم والرأي وهي أهم الشروط من بين السبعة المذكورة.

أما الشرط السابع فقد ذكر علة إدراجه بين الأسباب وهو: النص والإجماع. قال ص7: "لأن أبا بكر الصديق (رض) احتج يوم السقيفة على الأنصار في دفعهم عن الخلافة لما بايعوا سعد بن عبادة عليها بقول النبي(ص): «الأئمة من قريش» فأقلعوا عن التفرد بها ... تسليماً لروايته وتصديقاً لخبره ...، وقال النبي(ص): «قدموا قريشاً ولا تقدموها» وليس مع هذا النص المسلم شبهة لمنازع فيه ولا قول لمخالف له."

أقول: قبول رواية أبي بكر يعني قبول رواية غيره، وقبول رواية أبي بكر يلزم شمول اللائقين للإمامة بكل قرشي، وقبول رواية أبي بكر يلزم قبول تخصيص غيره من الصحابة لهذه الرواية، وكل هذا جمعه العباس بن عبد المطلب لأبي بكر بعد بيعة الأخير، حيث قال: "فإن كنت برسول الله طلبت فحقنا أخذت، وإن كنت بالمؤمنين طلبت فنحن متقدمين فيهم، وإن كان هذا الأمر إنما يجب لك بالمؤمنين فما وجب إذ كنّا كارهين"، وقال له أيضاً: "أما قولك نحن شجرة رسول الله، فإنما أنت جيرانها ونحن أغصانها"، ما يعني أن اللجوء إلى إمامة قريش كنص نبوي لا يقضي على الإشكال.

كيفية عقد الإمامة

قال الماوردي: "والإمامة تنعقد من وجهين: أحدهما باختيار أهل العقد والحل، والثاني بعهد الإمام من قبل. فأما انعقادها باختيار أهل الحل والعقد، فقد اختلف العلماء في عدد من تنعقد به الإمامة منهم ...، فقالت طائفة :لا تنعقد

إلا بجمهور أهل العقد والحل من كل بلد ليكون الرضاء به عاماً والتسليم لإمامته إجماعاً، وهذا مذهب مدفوع ببيعة أبي بكر (رض) على الخلافة باختيار من حضرها ولم ينتظر ببيعته قدوم غائب عنها. وقالت طائفة أخرى: أقل من تنعقد به منهم الإمامة خمسة ... استدلالاً بأمرين: أحدهما أن بيعة أبي بكر (رض) انعقدت بخمسة اجتمعوا عليها ثم تابعهم الناس فيها، وهم: عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح وأسيد بن حضير وبشير بن سعد وسالم مولى أبي حذيفة (رض)، والثاني عمر (رض) جعل الشورى في ستة ليعقد لأحدهم برضا الخمسة ... وقال آخرون ...: تنعقد بثلاثة يتولاها أحدهم برضا الاثنين ليكونوا حاكماً وشاهدين ... وقالت طائفة أخرى: تنعقد بواحد، لأن العباس قال لعلي (رض): أمدد يدك أبايعك فيقول الناس: عم رسول الله(ص) بايع ابن عمه فلا يختلف عليك اثنان، ولأنه حكم وحكم واحد نافذ."

أقول: وجدت أن أهل السنة – من خلال أقوالهم التي أوردها الماوردي – لا تستند لا إلى كتاب ولا إلى سنة بل إلى فعل الصحابة الأولين، سواء من تحققت البيعة لهم كأبي بكر وعمر وعثمان أو من لم تتحقق كما في عرض العباس بن عبد المطلب على علي(ع). بل أن ما جرى في بيعة الخلفاء الثلاثة الذين تقدموا علياً(ع) دفع حتى حق أهل الحل والعقد، فصار التضييق على الأمة بملايينها بل مئات ملايينها اليوم لا لآية محكمة ولا لحديث شريف بل لفعل صحابة غير معصومين أولاً، ولم يدعوا الاستناد إلى الكتاب أو السنة ثانياً، وقيل في بيعتهم ما قيل من اعتراض ونزاع ثالثاً. فكيف يتم تأصيل عقد الإمامة بهذا الشكل؟

أما الأعداد فأمرها أعجب، إذ ماذا لو كان الذي بايع أبا بكر أقل أو أكثر من الخمسة، وهو الواقع لأن الذي بايعه أولاً كان عمر وأبا عبيدة، ثم كان الآخرين، فيمكن أن يقال أن الأقل هو إثنان فقط؟ وماذا لو أن عمر جعل الشورى في أقل أو أكثر من ستة، لأنه برر اختياره للستة أن النبي(ص) توفي وهو عنهم راض، مع أن المسلمين يعلمون أن النبي(ص) توفي وهو راض عن غيرهم؟ وماذا لو كان سالم مولى أبي حذيفة أو أبو عبيدة في الأحياء يوم طعن عمر وقام بتولية أحدهما كما صرح بذلك دون لبس؟

وهكذا، وجدت التأصيل الشرعي لاختيار الإمام عند أهل السنة يفتقد إلى الشرعية، ويفتقد إلى المنطق، ويمكن دفعه بأقل نظر.

ثم أكمل الماوردي في ص 8: "فإذا اجتمع أهل العقد والحل للاختيار تصفحوا أحوال أهل الإمامة الموجودة فيهم شروطها فقدموا للبيعة منهم أكثرهم فضلاً وأكملهم شروطاً ومن يسرع الناس إلى طاعته ولا يتوقفون عن بيعته، فإذا تعين لهم من بين الجماعة من أداهم الاجتهاد إلى اختياره عرضوها عليه، فإن أجاب إليها بايعوه عليها وانعقدت ببيعتهم له الإمامة فلزم كافة الأمة الدخول في بيعته والانقياد لطاعته..."

أقول: قلت أن الشروط المذكورة يصعب تحديد من الذي تمت فيه أو كملت فيه أكثر من غيره، زومثله في شروط أهل الحل والعقد؛ بل أن الرأي القائل بتفويض أهل الحل والعقد "مدفوع" على حد تعبير الماوردي ببيعة أبي بكر وغيرها، فكيف يتم إلزام الأمة بطاعة الإمام المبايع ممن اختلف في أهليته أو صحة تأصيل شروطه للاختيار؟

على أن هناك نقطة أخرى تستحق التوقف، وهي قوله في من يناسب الإمامة "ومن يسرع الناس إلى طاعته ولا يتوقفون عن بيعته"، وهي نقطة هامة جداً لأنه إن لم يحصل القبول لدى الأمة لن يكون ممكناً للإمام المبايع بسط اليد والحكم والتقدم بالأمة إلى الأمام. ولكن إسراع الناس إلى الطاعة وعدم التوقف عن البيعة ما كنهه وكم هو طول مدته وهل هناك من الناس من لهم أفضلية في الرفض والقبول أم لا؟ وماذا عن فرض البيعة على الناس بالتهديد والقوة كما حصل في بيعة أبي بكر (سعد بن عبادة أولاً، ثم تهديد علي(ع) والزبير ومن في بيت فاطمة(ع) بالتحريق ثانياً)، وكان الغياب الكامل لأهل الاختيار تاماً في بيعة عمر، وكان التهديد بالقتل لمن يعارض من أهل الحل والعقد أنفسهم في بيعة عثمان من التفاصيل الأساسية لخطة الشورى العمرية؟

وهنا قضية هامة: في حالة التيقن من أن زيداً أفضل من عمرو هل تصح بيعة عمرو إماماً ليكون زيد مأموماً؟ هذه ما اصطلح عليها الفاضل (أي الأكثر فضلاً من المفضول) والمفضول (أي الأقل فضلاً من الفاضل).

بخصوص هذه قال الماوردي في ص9: "وقال الأكثر من الفقهاء والمتكلمين تجوز إمامته (أي المفضول) وصحت بيعته، ولا يكون وجود الأفضل مانعاً من إمامة المفضول إذا لم يكن مقصراً عن شروط الإمامة، كما يجوز في ولاية القضاء تقليد المفضول مع وجود الأفضل، لأن زيادة الفضل مبالغة في الاختيار وليست معتبرة في شروط الاستحقاق، فلو تفرد في الوقت بشروط الإمامة واحد لم يشرك فيها غيره تعينت فيه الإمامة ولم يجز أن يعدل بها عنه إلى غيره."

وقال: "واختلف أهل العلم في ثبوت إمامته وانعقاد ولايته بغير عقد ولا اختيار، فذهب بعض فقهاء العراق إلى ثبوت ولايته وانعقاد إمامته وحمل الأمة على طاعته ..."

أقول: لا أجد أي مبرر لتقديم المفضول على الفاضل بأي حال من الأحوال، اللهم إلا لأمرين: الأول أن يعتذر الفاضل عن قبول الولاية، والثاني أن ترفض الأمة ولايته وتتمسك بالمفضول؛ فما المبرر لاختيار المفضول مع وجود الفاضل؟

لا أجد أي سبب لذلك إلا الرد على القائلين بولاية علي(ع) بعد النبي(ص) مباشرة بالاستناد إلى فضائله الجمة التي ثبتت بالكتاب والسنة والسيرة فكانت حجة الداعين إليه أقوى من أن ترد فأجابهم الآخرون بفرض أصحابهم عليه، ثم جاء العلماء من أتباعهم يؤصلون لبيعتهم تصحيحاً لها. ولعل ما ذكره من شرط إسراع الأمة إلى البيعة والطاعة هو لتبرير إمامة المفضول مع وجود الفاضل كي تنتقل التهمة في دفع الفاضل المستحق للولاية من المفضول الذي أخذها منه إلى الأمة التي كانت ستتباطأ عن بيعة الفاضل وطاعته.

مواصفات الحاكم الشرعي عند الشيعة

وجدت الشيعة يرفضون أن يأتي الإمام بهذه الطريقة مع وجود أحد الأئمة المعصومين من أهل البيت(ع)، وذلك لما يلي:

(1) إذا كان الإمام معصوماً فإن عصمته منصوص عليها في الكتاب والسنة، وبالتالي يستمد شرعيته مما هو أعلى من الإجماع أو ما جرى في التاريخ من بيعات متناقضة

(2) إذا كان الإمام معصوماً فلا شك في أنه هو الفاضل وغيره مفضول، ولما كان الشيعة لا يجوزون إمامة المفضول على الفاضل (عملاً بالنصوص التي تأمر باتباع أئمة أهل البيت(ع)، سواء بإطلاق آية ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ النساء:59 أو الآيات الأخرى كآية التطهير، أو بالأحاديث الشريفة الكثيرة، أو بالدليل العقلي الذي لا يجد مبرراً لإمامة المفضول مع رغبة الفاضل في الإمامة وترشيحه نفسه) فإنه لا طريق لقبول إمامة أحد غيرهم(ع) عند وجودهم(ع)

(3) أئمة أهل البيت(ع)، بدءاً بعلي(ع)، أعلنوا عدم شرعية خلافة الخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان وخلافة خلفاء بني أمية والعباس.

أما بخصوص بيعة غير الأئمة المعصومين فهناك يمكن النظر في الشروط التي ذكرها الماوردي وربما غيرها، ولكن بلحاظ الخط الذي يتبعه الخليفة المبايع. هنا يأتي دور علماء الشريعة الذين هم المؤتمنون على الأمة بنص النبي(ص) «العلماء ورثة الأنبياء»، هذه المسؤولية التي تجعل بعضهم مؤهلين إما لموقع أهل الاختيار – حسب تعبير الماوردي – أو لموقع أهل الإمامة – حسب تعبير الماوردي أيضاً –. في كلتا الحالتين هناك مناقشة عن المصدر الذي ينهل منه هؤلاء العلماء: هل هو أهل البيت(ع) أم غيرهم؟

وهنا تبرز ثلاث نقاط:

الأولى – هل هناك حاجة للبيعة في حالة الأئمة المعينين من السماء أم لا؟ والجواب هو: نعم، لأنه بدون البيعة وإظهار الطاعة لا يعرف المطيع من العاصي وبالتالي لا يمكن إجراء الأوامر والمشاريع من الحاكم وولاته بشكل طبيعي.

الثانية – في حالة رفض الناس إمامة المعصومين، هل تصبح هذه الإمامة لاغية عند الله تعالى؟ الجواب هو: لا، بدليل أن كل واحد من الأنبياء(ع) كان مكذباً في أول دعوته بحيث لم يؤمن به إلا القلائل. نعم، لا يستطيع المعصوم أن يجبر الناس على البيعة له إلى حين وجود الناصر الذي يكفي لإتمام بيعة تتيح له التمكين.

الثالثة – في حالة رفض إمامة الأئمة المعصومين، وفي حالة عدم وجودهم، هل يترك أمر الأمة دون إمام؟ والجواب هو: كلا، فإنه «لا بد للناس من إمام بَرٍّ

أو فاجر» كما قال علي(ع) وذلك ليستقيم الأمر وتأمن السبل وتقدم الخدمات للناس وتحفظ الدولة الإسلامية.

إذاً، وجدت الشيعة يرفضون خلافة أو إمامة أي شخص مع وجود الأئمة من أهل البيت(ع) وتصديهم للخلافة والإمامة، ويقبلون بخلافة غيرهم مع عدم وجودهم شريطة أن يكون الخليفة من المهتدين بهديهم(ع) في العدل وحسن السياسة، وبخلافه أن يكون الخليفة من العاملين بالعدل وحسن السياسة كحد أدنى.

التعامل مع الحاكم

يتعامل أهل السنة مع الحاكم – أي حاكم – بما يلي:

أولاً – السمع والطاعة

قال صاحب العقيدة الطحاوية: "ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا، وإن جاروا، ولا ندعوا عليهم، ولا ننزع يداً من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة، ما لم يأمروا بمعصية، وندعو لهم بالصلاح والمعافاة".

هذا الأمر ثابت مقرر على الدوام، بحيث أنهم يقولون اليوم: "السمع والطاعة لولاة الأمر من المسلمين في غير معصية مجمع على وجوبه عند أهل السنة والجماعة، وهو أصل من أصولهم التي باينوا بها أهل البدع والأهواء. وقل أن ترى مؤلفاً في عقائد أهل السنة إلا وهو ينص على وجوب السمع والطاعة لولاة الأمر، وإن جاروا وظلموا، وإن فسقوا وفجروا" (بيان/فتوى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد السعودية). هذا النص يكفي لجعل الكثيرين يحكمون بفساد عقيدة "أهل البدع والأهواء" لأنهم يحاسبون الحاكم على جوره وظلمه وفسقه وفجره.

ولا أدري ما علاقة "البدع والأهواء" بقضية طاعة الظالمين، لأن الظلم قبيح عقلاً والاعتراض على الظلم من أجل إقامة العدل حسن عقلاً، فإذا كان ما هو قبيح عقلاً من مختصات السنن وأهلها وما هو حسن عقلاً من مختصات البدع وأهلها فعلى الإسلام السلام!

أما الإجماع على وجوب السمع والطاعة للحاكم فهو مبني على فهمهم لنصوص الكتاب والسنة، من قبيل:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ النساء:59، مفسرين "أولي الأمر" بأنهم "من أوجب الله طاعته من الولاة والأمراء، هذا قول جماهير السلف والخلف من المفسرين والفقهاء وغيرهم، وقيل: هم العلماء، وقيل: هم الأمراء والعلماء" النووي شرح صحيح مسلم ج12 ص223، أو "هم الأمراء والولاة لصحة الأخبار عن رسول الله(ص) بالأمر بطاعة الأئمة والولاة فيما كان طاعة، وللمسلمين مصلحة" كما قال الطبري في تفسيره ج5 ص150.

ومن قبيل قول النبي(ص): "على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية فإن أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة" البخاري كتاب الأحكام، ومسلم وغيرهما من حديث ابن عمر. يفسره المباركفوري في تحفة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي ج5 ص298 بأن على المحكوم طاعة الحاكم "سواء أمره بما يوافق طبعه أو لم يوافقه، بشرط أن لا يأمره بمعصية، فإن أمره بها فلا تجوز طاعته، ولكن لا يجوز له محاربة الإمام".

أقول: ماذا إن أجبره على فعل المعصية، كأن يأمره بقتل مظلوم، أو بقتال مسلم؟ وإذا لم يجد إلا القوة للوقوف بوجه الآمر بالمعصية ليتخلص من فعل المعصية ألا يكون محارباً له؟

أو قوله(ص) لحذيفة: "يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهديي ولا يستنون بسنتي، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس" فسأله حذيفة: كيف أصنع إن أدركت ذلك؟ قال: "تسمع وتطيع للأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك" صحيح مسلم كتاب الإمارة.

وقول الطحاوي "ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا، وإن جاروا ... الخ" لم تستطع نفسي التي تطمح إلى رؤية العدل قبوله، إذ ما قيمة ولاة الأمر

هؤلاء حتى يصل الأمر بنا ليس فقط أن لا ننزع يداً من طاعتهم، بل ولا ندعوا عليهم حتى!

ثانياً – الصبر على ظلم الحاكم

عدوا ذلك من محاسن الشرع الإسلامي على أساس أن الصبر على ظلم الحاكمين يجلب من المصالح ويدرأ من المفاسد ما يكون به صلاح العباد والبلاد. وقد استندوا في هذا إلى أحاديث، منها قول النبي(ص): "إنكم سترون بعدي أثرة وأموراً تنكرونها" قالوا: ما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: "أدوا إليهم حقهم وسلوا الله حقكم" البخاري كتاب الفتن.

أقول: إن الله تعالى جعل الحاكم مديراً للجماعة بحيث يجري السياسات اللازمة لإيصال حقوق الناس إليهم، فإن فشل في إدارته لم يعد مناسباً للمهمة وصارت طاعته خطأ إن لم تكن معصية في حقيقتها. أما أن يتربع الحاكم على المنصب ثم يؤثر نفسه وأهله وأحبابه على الرعية ويقوم بأمور منكرة شرعاً ولا يعطي الرعية حقوقهم ثم أن يستمر الرعية في أداء واجباتهم وإحالة طلب الحقوق من الله تعالى فهذا غير مفهوم، دع عنك أنه يصادم الفطرة السليمة. ثم ما معنى "أدوا إليهم حقهم"؟ الحديث يجعل للحاكم حقاً في حين أن المفروض أنه يستحصل حقوق الدولة والمجتمع والمواطنين من أجل السياسات التي يجريها لمصلحة الدولة والمجتمع والمواطنين، لا أن يستحصل كل هذا من أجل معيشته وبطره وهواه.

أما حديث حذيفة وفيه أمر النبي(ص) "تسمع وتطيع للأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك" فقد علق عليه أبو العز الحنفي في "شرح العقيدة الطحاوية" ص381 بما يلي: "أما لزوم طاعتهم وإن جاروا فلأنه يترتب على الخروج من طاعتهم من المفاسد أضعاف ما يحصل من جورهم، بل في الصبر على جورهم تكفير السيئات ومضاعفة الأجور، فإن الله تعالى ما سلطهم علينا إلا لفساد أعمالنا، والجزاء من جنس العمل، فعلينا الاجتهاد في الاستغفار والتوبة وإصلاح العمل، فإذا أراد الرعية أن يتخلصوا من ظلم الأمير الظالم فليتركوا الظلم"!

أقول: من قال أن الخروج على طاعة الظالمين يترتب عليه من المفاسد أضعاف ما يحصل من ظلمهم؟ لو كان ذلك كذلك لما ثار صاحب حق أبداً. وكيف يتم تغيير الواقع؟ يجيبك أبو العز بأننا يجب أن نتوقف عن الظلم حتى نتخلص من ظلم الأمير! ويؤكد أن ما جرى من ظلمهم كان بسبب فساد أعمال الرعية. إذاً، تستمر راحة الحكام مع هذه الفتاوى، وصولاً إلى انتقال الذنب من الحاكم الظالم إلى المحكوم المظلوم!

وأيد ابن تيمية هذا الرأي في "مجموع الفتاوى" ج28 ص179: "وأما ما يقع من ظلمهم وجورهم بتأويل سائغ أو غير سائغ فلا يجوز أن يزال لما فيه من ظلم وجور، كما هو عادة أكثر النفوس تزيل الشر بما هو شر منه، وتزيل العدوان بما هو أعدى منه".

وقال ابن القيم في "إعلام الموقعين" ج3 ص6: "إذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه وأبغض إلى الله ورسوله فإنه لا يسوغ إنكاره، وإن كان الله يبغضه ويمقت أهله. وهذا كالإنكار على الملوك والولاة بالخروج عليهم، فإنه أساس كل شر، وفتنة إلى آخر الدهر..."

أقول: هذان النصان من علمي المدرسة السلفية في دعم الحاكم الظالم لهما وقع غناء العصافير في أسماع الظالمين، ولذا وجدت هؤلاء ينشرون أفكار ابن تيمية وابن القيم وكأنها قرآن مبين وحديث سيد المرسلين(ص) حتى طغت على غيرهم وانطلت على الملايين من أهل السنة. والعجب لا ينقضي من هذين اللذين يأمران بالسكوت على الحاكم الظالم بدعوى أنه أساس كل شر وفتنة مع أن أساس الشر والفتنة هي ظلم الحاكم في بادئ الأمر.

موقف علماء أهل السنة هذا من الحاكم لم يتبناه جميع عامة أهل السنة بدليل انخراط الكثير منهم في الأحزاب المناوئة للحاكم، وبدليل اشتراك العديد منهم في الحركات العسكرية التغييرية، ناجحة وفاشلة. أما أنا شخصياً فلم أقتنع يوماً بالسكوت على الظالمين، ولا بفكرة أن الحاكم المسلم الظالم خير من الحاكم الكافر العادل، وهي التي أدت في النهاية إلى تسلط الحكام الظالمين من مسلمين وغيرهم في آن واحد!

موقف الشيعة من الحاكم الظالم

كنت أعرف أن الشيعة يعدون من المناوئين للحكومات عموماً على أساس الفارق المذهبي، وكانت مقولة "الحكم بيد السنة والاقتصاد بيد الشيعة" لوصف الحال في العراق رائجة، وظني أن الغرض منها هو إسكات المطالبين بعلاج التمييز الطائفي في الدولة على أساس أن الطائفتين تتقاسمان "المغانم" وكأن الحكم مغنم لا مسؤولية.

والعراقيون يعيشون قضية الثورة على الظلم بأشكال متعددة، منها الممارسات السياسية، ومنها ما يطلعون عليه من الثورة على الظلم في البلدان الأخرى– كما في ثورة تموز/يوليو 1952 المصرية والثورة الإسلامية الإيرانية عام 1979، ومنها قضية نهضة الإمام الحسين(ع) والتي يحييها شيعة العراق كل عام في كل منطقة وبلدة فيها شيعة.

فإن الذين يشاركون في هذه الشعائر يتعرضون لأنواع من التثقيف:

دور أهل البيت(ع) في الإسلام، الذي لا ينفك عنه التعرض للمظلومية والثورة على الظالمين؛ حركة الإمام الحسين(ع) وكلماته وكلمات أهل بيته وصحبه في عدم القبول بالظلم مطلقاً إلى درجة التضحية بالنفوس؛ الشحن العاطفي ضد الظلم عموماً من خلال التذكير بما جرى على أهل البيت(ع) وأصحابهم، رجالاً ونساءً وأطفالاً، يوم عاشوراء سنة 61هـ،، ولاسيما وأن ذلك جرى على أرض عراقية؛ التذكير بموقف القرآن والسنة النبوية من الظلم والظالمين بمجالها الأوسع بحيث تصبح قضية الحسين(ع) ليست هي القضية فحسب وإنما المصداق الأكمل لشراسة الظالمين من جانب ولعظم المقاومة من الثائرين من جانب آخر.

إن التعرض لموقف الحسين(ع) وكلماته وكلمات صحبه، ومواقف النبي(ص) وعلي(ع) وفاطمة(ع) والحسن(ع) وباقي الأئمة(ع) والصحابة، لا يقتصر على أيام محرم الحرام فقط وإنما يمتد على طول السنة، وذلك أن الشيعة يحيون نهضة الحسين(ع) في أوقات مختلفة من السنة، ويقوم الكثير منهم، آلافاً وملايين، بزيارة ضريحه(ع) وأخيه العباس(ع) في كربلاء، في شهر محرم وصفر ورجب وشعبان ورمضان وعيدي الفطر والأضحى، كما أنهم عندما يحيون مناسبات غير الحسين(ع) فإنهم غالباً ما

يأتون بذكر الحسين(ع) ونهضته ومظلوميته. وبذا، فإن الشيعي، العراقي خصوصاً، يعيش على الدوام هذا التعرض العاطفي والتعليمي لقضية الظلم والثورة على الظالمين ما جعله في حالة نفسية معادية، أو على الأقل مناوئة، لجميع الحكام الظالمين، الأمر الذي يجعله محل ريبة، بل موضع مراقبة شبه دائمة من أجهزة الأمن، وهو ما يجعله عرضة لملاحقات ومساءلات وانتهاكات ومظالم تسهم في تعزيز ما يعيشه في مجالس الحسين(ع) ومصائب أهل البيت(ع)، فيصبح أكثر رفضاً للظالمين وأكثر سهولة للتحرك ضدهم.

لقد وجدت الفرق كبيراً جداً بين الموقف النفسي للمسلم السني والموقف النفسي للمسلم الشيعي من الحاكم، بحيث يغلّب السني حسن الظن ويحاول إيجاد المعاذير والتبريرات للحاكم بينما يغلّب الشيعي سوء الظن ولا يجد للحاكم أي عذر بل يفتش عن أخطائه وتجاوزاته.

إذاً، وجدت ما عليه الشيعة في مواقفهم من الحكام الظالمين أقرب إلى نفسي مما أفهمه عن الإسلام، بل عن رفض الظلم والرغبة في العدل كحالة إنسانية فطرية، كانت منفتحة أساساً على فكرة الثورة على الحاكم لنشأتي في عائلة خاضت غمار السياسة والمعارضة والحركات الانقلابية، فكان هذا عاملاً إضافياً للاقتناع بما عليه شيعة أهل البيت(ع)، وإن بقيت طريقة تقييمي للحكام وسيرتهم تختلف قليلاً كونها غير مثقلة بالاتجاه الشيعي العام الذي يستصعب الثناء على أي أعمال مفيدة في زمن هذا الحاكم أو ذاك، وكأن ما يتحقق في زمن أي حاكم هو مما فعله هو بنفسه لا بجهود أبناء الأمة، وهذه من أمراض الوقوع تحت الحكم التسلطي الإملائي الذي ما انفك المسلمون يئنون منه عبر القرون وإلى يومنا هذا.

الفصل السادس عشر
الصحابة

موقفان متناقضان

عقيدة أهل السنة في الصحابة

عقيدة الشيعة في الصحابة

الصحابة المحمودون الممدوحون

"ونعتقد أن ما جرى بين الصحابة رضي الله عنهم من الفتن، فقد صدر عن تأويل اجتهدوا فيه فمن كان منهم مصيباً كان له أجران، ومن كان منهم مخطئاً فله أجر واحد وخطأه مغفور له"

محمد صالح العثيمين

«يرد عليّ يوم القيامة رهط من أصحابي فيحلَّؤن عن الحوض فأقول يا رب أصحابي فيقول إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى»

رسول الله(ص)

موقفان متناقضان

يعتبر الموقف من صحابة النبي(ص) من أشد مؤاخذات أهل السنة على الشيعة، بل يمكن القول أن موضوع الصحابة هو الموضوع الفصل: فالشيعي يرى السني لا يحب أهل البيت(ع) طالما هو يحب أعداء أهل البيت(ع) وطالما هو يقدم على علي(ع) من هم دونه، والسني يرى الشيعي منحرفاً طالما يكره الصحابة، وهو يقرأ ويسمع من شيوخه "إذا رأيت الرجل يبغض صحابة النبي(ص) فإعلم أنه زنديق" على أساس أن الصحابة هم من أوصل العقائد والأحكام الشرعية إلينا فمن يبغضهم إنما يبغض الدين، لأن السني لا يعلم أن للشيعي طريقاً آخر للعقائد والشرائع هو أئمة أهل البيت(ع) فالباب ليس مسدوداً إلا من طريق غيرهم.

إن الموقف من الصحابة هو الأشد اختلافاً بين الطائفتين من بين سائر الأمور الخلافية، وهو الذي يلعب أعداء الأمة عليه في تفريقها كما نرى ونسمع ونشاهد على الدوام.

عقيدة أهل السنة في الصحابة

قال صاحب العقيدة الطحاوية: "ونثبت الخلافة بعد رسول الله(ص) أولاً لأبي بكر الصديق(رض)، تفضيلاً له وتقديماً على جميع الأمة، ثم لعمر بن الخطاب(رض)، ثم لعثمان(رض)، ثم لعلي بن أبي طالب(رض)؛ وهم الخلفاء الراشدون، والأئمة المهديون".

ثم أكمل بعقيدة أهل السنة في تفضيل العشرة – وإن لم يصرحوا بذلك لأن الحديث يقتصر على البشارة بالجنة: "وأن العشرة الذين سماهم رسول الله(ص) وبشرهم بالجنة، نشهد لهم بالجنة، على ما شهد لهم رسول الله(ص)، وقوله الحق، وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وسعيد، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة ابن الجراح، وهو أمين هذه الأمة، رضي الله عنهم أجمعين".

ثم يأتي الطحاوي إلى تقرير قضية لا تزال تفعل فعلها في الأمة، وهي بخصوص الموقف من بعض الأصحاب والأزواج. قال: "ومن أحسن القول في

أصحاب رسول الله(ص)، وأزواجه الطاهرات من كل دنس، وذرياته المقدسين من كل رجس، فقد برىء من النفاق".

في كلامه أربع نقاط للتعليق:

1. جعل جميع الأصحاب والأزواج في سلة واحدة بحيث أن القول في أحدهم كالقول فيهم جميعاً (أنظر 4).

2. وصف زوجات النبي(ص) بكلمة "الطاهرات" أي أنهن داخلات في آية التطهير ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ الأحزاب:33، وقد ذكرت مناقشات الشيعة في ذلك والتي تثبت بشكل قاطع أن الآية الكريمة تخص الخمسة: النبي(ص) وعلي(ع) وفاطمة(ع) والحسن(ع) والحسين(ع) (فراجعه وغيره في الفصل 5 آية التطهير). إن كلمة "الطاهرات" صارت تفعل فعلها بحيث عندما ينتقد الشيعة أم المؤمنين عائشة (وهي المقصودة بهذا كله) كأنه ينتقد عفتها التي نال منها المنافقون (من الصحابة وليس الشيعة!) في حديث الإفك، في حين أن الموقف الشيعي منها هو لمعاداتها لأهل البيت(ع) الذي لم يستطع المؤرخون ستره إذ كيف يسترون الحرب الأهلية الأولى في الأمة؟

3. جعل التقديس من الرجز للذرية (يعني أصحاب الكساء لأن الذرية لا تكون كلها مطهرة) والتطهير من الدنس للزوجات في تقسيم كيفي غريب عن فعل النبي(ص) وقوله.

4. أهم نقطة وهي الحكم بالنفاق على كل من لم يحسن القول في جميع الأصحاب وجميع الأزواج وجميع الذرية. وكلمة "ومن أحسن القول" تعني أن عكسها مجرد "إساءة القول"، أي مجرد النقد، بل مجرد أن يسيء القول فهو محكوم بالنفاق، وهذا حكم قاس جداً، علاوة على كونه يحمل تناقضه في داخله، لأن الصحابة أنفسهم قالوا في بعضهم ما هو أعظم وأسوء من سيء القول.

وأكمل في غير الصحابة: "وعلماء السلف من السابقين، ومن بعدهم من التابعين – أهل الخير والأثر، وأهل الفقه والنظر – لا يذكرون إلا بالجميل، ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل".

وهو قرار عام أكثر غرابة من الأول، فهل يعقل أنه يجب على جميع المسلمين على مر العصور أن تكون لهم نظرة واحدة ورأي واحد في العلماء والتابعين لهم من

أهل الفقه والنظر بحيث لا يجوز ذكرهم "إلا بالجميل" لأنه "من ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل" أي سبيل المؤمنين؟ أي سجن للعقول والأفكار وأي كم للأفواه هذا؟

أما السلفية المعاصرة فإن عقيدتها مطابقة في هذا الأمر لعقيدة أهل السنة. قال الشيخ محمد الصالح العثيمين (عقيدة أهل السنة والجماعة 1404هـ):

1. "ونؤمن بأن للنبي(ص) خلفاء راشدين، وبأن أفضلهم وأحقهم بالخلافة أبو بكر الصديق ثم عمر ابن الخطاب ثم عثمان بن عفان ثم علي بن أبي طالب. وهكذا كانوا في الخلافة قدراً كما كانوا في الفضيلة، وما كان الله تعالى – وله الحكمة البالغة – ليولي على خير القرون رجلاً وفيهم من هو خير منه وأجدر بالخلافة".

2. "ونؤمن بأن المفضول من هؤلاء قد يتميز بخصيصة يفوق فيها من هو أفضل منه، لكنه لا يستحق بها التفضيل المطلق على من فضله، لأن موجبات الفضل كثيرة متنوعة."

3. "ونؤمن بأن هذه الأمة خير الأمم ... ونؤمن بأن خير هذه الأمة الصحابة ثم التابعون ثم تابعوهم..."

4. "ونعتقد أن ما جرى بين الصحابة(رض) من الفتن، فقد صدر عن تأويل اجتهدوا فيه فمن كان منهم مصيباً كان له أجران، ومن كان منهم مخطئاً فله أجر واحد وخطؤه مغفور له. ونرى أنه يجب أن نكف عن مساوئهم فلا نذكرهم إلا بما يستحقونه من الثناء الجميل، وأن نطهر قلوبنا من الغل والحقد على أحد منهم لقوله تعالى فيهم ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى﴾ الحديد:10 وقوله تعالى ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم﴾ الحشر:10".

عقيدة الشيعة في الصحابة

1- لا يعترض الشيعة على وجود خلفاء راشدين بعد النبي(ص) تصديقاً بالحديث «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين بعدي، عضّوا عليها بالنواجذ»، ويعتقدون أن اتباع سنة الراشدين واجب شرعي، ولكنهم يختلفون في تحديد هوية الراشدين، فهم عندهم علي(ع) والأئمة الأحد عشر. ويقولون أن الأمر باتباع سنتهم

لا يمكن أن يكون بهذا الإطلاق إلا إذا كانوا مأمونين من الخطأ والخطيئة، أي معصومين، وهذا لا ينطبق إلا على أئمة أهل البيت الإثني عشر(ع). ويؤكد هذا قول ابن عثيمين نفسه أنهم خلفوه في أمته "علماً ودعوة وولاية على المؤمنين" لأن الدليل من الكتاب والسنة قام على أن صاحب العلم هو علي(ع) وأن الدعوة إلى اللّه على الصحة التامة لا يمكن أن تكون إلا على طريقة ولده(ع) لعلمهم وعصمتهم، وأن الولاية على المؤمنين إنما هي لعلي(ع) وأولاده(ع) وذلك بنص آية الولاية ونصوص آيات التطهير وأولي الأمر وغيرها وبنص الأحاديث الشريفة الكثيرة ولاسيما حديث الثقلين وحديث الغدير الذي يعترف به أهل السنة أن النبي(ص) قال: «من كنت مولاه فعلي مولاه» جاعلاً ولايته المطلقة المنصوصة في القرآن ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ لعلي(ع) لا غيره.

ولا يؤمن الشيعة بأفضلية الثلاثة على علي(ع)، بل يؤمنون بأنه(ع) أفضل منهم ومن غيرهم، استناداً إلى أدلة الكتاب والسنة والجهاد والسيرة (راجع الباب الثاني).

وأما أن ترتيبهم في الخلافة وفق ترتيبهم في الفضل فلا دليل عليه، وذلك:

(أولاً) قام الدليل على أفضلية علي(ع) على الآخرين (راجع الفصل 11 وما قبله)؛

(ثانياً) هناك من الأدلة ما فيه تفضيل لصحابة آخرين على الثلاثة، من ذلك قوله(ص): «إن الله أمرني بحب أربعة وأخبرني أنه يحبهم» قيل: "يا رسول الله سمّهم لنا"، قال: «علي منهم – يقول ذلك ثلاثاً – وأبو ذر والمقداد وسلمان، أمرني بحبهم وأخبرني أنه يحبهم» رواه الترمذي في صحيحه ج2 ص299 وابن ماجة في سننه باب فضائل أصحاب رسول الله(ص) ص14، وأحمد بن حنبل ج5 ص351 وابن عبد البر في الاستيعاب ج1 ص280 وغيرها، وهو صريح في أن المحبة الإلهية خصت هؤلاء الأربعة، في هذا الحديث على الأقل، ما يرفعهم على منزلة غيرهم.

الثالث هو أن طريقة تولي الخلفاء لمنصب خلافة النبي(ص) كانت على أشكال مختلفة كلها قد طعن فيها، بدرجة أو بأخرى، من قبل صحابة كبار معروفين، فكيف يبنى على ترتيبهم في الخلافة على أفضليتهم بنفس الترتيب؟

وأما القول بأن اللّه تعالى ما كان ليولي على خير القرون رجلاً وفي الناس من هو خير منه وأجدر بالخلافة فهو مردود لأنه لا تلازم مطلقاً بين خيرية القرن

الأول وعدم إمكانية تولي رجل وفي الناس من هو خير منه، لأنه لا دليل من آية أو رواية على ذلك.

2- صحيح أنه من الصعب القول بأفضلية رجل ما على رجل آخر في كل شيء، وهو صحيح في حق أبي بكر وعمر وعثمان وسائر الصحابة عدا علي(ع)، لأن الشدة في أحدهم مثلاً ربما كانت فضيلة لا يتمتع بها غيره، والفطنة في أحدهم مثلاً ربما كانت فضيلة يتميز بها أحدهم على الآخرين، وهكذا.

أما في حالة علي(ع) فهو الأفضل من الثلاثة ومن غيرهم دون استثناء في كل صفة، وذلك لقيام الدليل على عصمته دونهم والمعصوم أفضل من غيره بلا خلاف، ولقيام الدليل على تفضيل اللّه تعالى ورسوله(ص) له، ولقيام الدليل على أفضليته في الخارج من سيرته في سابقته وجهاده وعلمه ومنطقه (راجع الباب الثاني). ولهذا فقد جمع(ع) في شخصيته ما لا يجتمع عادة بحيث قيل أنه جمع الأضداد من الصفات – قال صفي الدين الحلي:

جُمِعَتْ في صِفاتِكَ الأضدادُ فلِهذا عَزَّتْ لَكَ الأنْدادُ

وقد حاولت أن أجد لأحد أفضلية على علي(ع) في أي صفة فلم أجد، ثم وجدت أن علماء أهل السنة سبقوني في ذلك كما نقل عبد اللّه بن أحمد بن حنبل عن أبيه قوله: "علي بن أبي طالب من أهل بيت لا يقاس بهم أحد"..

3- أما أن أفضل الأمة هم الصحابة فالتابعون فتابعوهم فقد بناه أهل السنة على أمور:

(أولاً) الصحابة سبقوا الناس جميعاً إلى الإسلام وكان منهم المهاجرون والأنصار، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم وتحملوا العبء الأكبر في أهم المراحل

(ثانياً) الصحبة لوحدها تفوق غيرها من الفضائل لأن الصحابي هو "كل من رأى النبي(ص) وسمع حديثه"

(ثالثاً) قول النبي(ص) "خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم".

الشيعة يردون ذلك بما يلي:

أن فضيلة السبق إلى الإسلام والهجرة والنصرة والجهاد ما لا ينكر بل ما يستحق التعظيم والثناء الجميل، اتباعاً بما فعله الكتاب المبين من الإشادة بالمهاجرين

الأولين ومن بعدهم وبالأنصار الذين فتحوا مدينتهم الطيبة للمهاجرين، وما قاله النبي(ص) بحقهم في أحاديث كثيرة. ولكن هذا لا يعني أنه من غير الممكن أن يوجد فيمن يأتي بعد عصر الصحابة من هم خير منهم وذلك لأن القرآن والسنة لم يقطعا بذلك، بل إن الدليل على عكسه «يأتي زمان على أمتي المتمسك فيه بدينه كالقابض على جمرة من نار»، وفي روايات مشابهة يقول(ص) أن الصابر على دينه «له أجر خمسين منكم» أي من أصحابه، أو بلفظ «أجر خمسين شهيداً منكم» وصححهما الألباني.

إن قول الشيخ ابن عثيمين يرد بشكل سافر على الأحاديث أعلاه، مع أن الشيخ ناصر الدين الألباني يصححها، والشيخان إبنا مدرسة واحدة ومتعاصران. وهكذا ترد أحاديث النبي(ص) من أجل عقيدة مترسخة عبر القرون.

ويردون أن الصحبة على كونها فضيلة عظيمة لا تكفي في تفضيل الصحابي، لأنه لا دليل على أن مجرد رؤية النبي(ص) وسماع حديثه تجعل الإنسان مختلفاً عن الناس، بل أن الدليل القرآني لا ينفع هذا القول لأنه فضح دواخل الكثير من الصحابة وأقوالهم وأفعالهم – من ذلك آيات سور التوبة والمنافقون والأحزاب وغيرها والتي بينت أن الصحابة كانوا على ثلاثة أصناف: المؤمنون، والمنافقون، والذين في قلوبهم مرض، وكما في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ التوبة:101، وهي صريحة في نفاق بعض أهل المدينة الذين هم صحابة بأجمعهم.

وقوله تعالى بخصوص موقعة حُنين: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ التوبة:25، وهي تثبت هربهم مدبرين مع أن التولّي والإدبار يوم الزحف من الكبائر المعروفة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ . وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ الأنفال:15-16.

وقوله: ﴿ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة، وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً﴾ الأحزاب:13، فهم يكذبون على النبي(ص) بغية الفرار.

وقوله: ﴿وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً﴾ الأحزاب:12 وهي صريحة تماماً في أن هناك صنفاً ثالثاً، وهم "الذين في قلوبهم مرض"؛ كما أنها صريحة في أنهم صاروا مكذبين للنبي(ص) في وعده لهم بالنصر.

وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا، قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ الجمعة:11، حيث تركوا النبي(ص) قائماً على المنبر وانصرفوا إلى اللهو والتجارة على ما أخرجه السيوطي في الدرّ المنثور ج6 وغيره.

وآية الإنقلاب على الأعقاب: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ آل عمران:144، والتي فضحت موقف بعض كبار الصحابة عندما صار يبحث عمن يأتيه بالأمان من أبي سفيان بعد سماعهم، يوم أُحُد، بأن النبي(ص) قد قتل، في الوقت الذي ثبت فيه غيرهم من الصحابة الشاكرين حتى الشهادة كأنس بن النضر.

هذا غير آيات أخرى كآيات سورة النور التي فضحت موقف بعض الصحابة الذين طعنوا في شرف أم المؤمنين عائشة واتهموها – زوراً – بارتكاب الفاحشة – والعياذ بالله – مع صحابي آخر وهو صفوان بن المعطل فيما يعرف بحديث الإفك؛ قال تعالى: ﴿إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم ... والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم﴾ النور:11، فهل أن هذه العصبة الآفكة فعلت ما فعلت عن اجتهاد تستحق عليه أجر المخطئ؟! وكيف يكون ذلك والله يتوعدهم بالعذاب العظيم؟ وتكمل الآيات: ﴿ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا، سبحانك هذا بهتان عظيم﴾ النور:16، وهي صريحة في أن بعض الصحابة صاروا يتحدثون بالإفك بدلاً من الرد على القائلين به.

ومن غير المعقول أن يكون الصحابي المنافق أو الذي في قلبه مرض خير من التابعي المؤمن أو تابعي التابعي المؤمن أو أي مسلم مؤمن في شتى العصور لأن الإيمان الميزة الأكثر أهمية في مقياس المقارنة. هذا إضافة إلى أدلة الحديث الشريف، ولاسيما أحاديث الحوض. بل يمكن القول أن الصحبة يترتب عليها مسؤولية كبيرة

ولاسيما على الذين صحبوه مدة طويلة ورأوا بأعينهم معجزاته الباهرة والآيات الكريمة تتنزل عليه، ثم سمعوه يحذرهم من الوقوع في الفتن، فلم يكن لهم عذر في ما فعلوه بالمقارنة بمن جاء بعدهم.

أما أن خير القرون هو القرن الذي فيه النبي(ص) ففيه قولان: الأول أنه خير القرون لوجود النبي(ص) ولنزول القرآن فيه وتأسيس نواة الدولة الإسلامية، وهذا لا يجعل من الصحابة خير القرون لأن وجود النبي(ص) ونزول القرآن ليس من فعلهم هم، أما تأسيس نواة الدولة الإسلامية فقد ساهموا فيه مساهمة فعالة عظيمة ولكن بدرجات متفاوتة، هذا ناهيك عن دخول الكثير منهم في الفتن التي حذرهم النبي(ص) من عواقبها الأخروية. الثاني هو أن ذلك القرن الأول، كان قرناً مليئاً بالفتن والحوادث المؤسفة والتي وصلت إلى تقاتل الصحابة أنفسهم وقتل الكثير منهم، فكيف يكون خير القرون. وينسحب الأمر وبدرجة أشد على قرن التابعين وقرن تابعي التابعين حيث تربع بنو أمية وبنو العباس على مقدرات المسلمين واقترفوا ما نهى عنه الشرع في جميع الجوانب ليس أقلها قتل النفوس المحترمة لأهل البيت(ع) وغيرهم.

1 - أما قول ابن عثيمين فيما جرى بين الصحابة (النقطة 4 في كلامه الوارد أعلاه) ففيه عدة مواضع للنظر.

أولاً: أن ما جرى من فتن بين الصحابة إنما صدر عن تأويل واجتهاد، وأنه استحق المصيب فيه أجرين واستحق المخطئ غفران الذنب وأجراً واحداً على الاجتهاد

نحن نعلم أن الاجتهاد والتأويل لا يكون إلا لمن يمتلك أدواته، فلا يجوز الاجتهاد لكل الناس؛ ونعلم أن صحابة النبي(ص) كانوا متفاوتين تفاوتاً كبيراً في قدراتهم الذهنية وفي سبقهم ودرجة اطلاعهم على الكتاب والسنة بناء على درجة قربهم ولزومهم للنبي(ص)، بل ان بعضهم لم يستمع من النبي(ص) إلا لبضع كلمات أو نصائح وهذه لا يمكن أن تكون كافية للاجتهاد والتأويل؛ ونعلم أن الصحابة بالآلاف وأن الذين دخلوا منهم في الفتن كانوا بالآلاف أيضاً؛ ونعلم أن القرآن الكريم بين أن في الصحابة من هم منافقون لا يعلمهم النبي(ص) نفسه، وأن فيهم من في قلبه مرض، وأن المؤمنين يتزلزل الكثير منهم في بعض المواقف ﴿هنالك ابتلي

المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾ الأحزاب:11، وأن أكثرهم هرب في بعض الغزوات كأحد وحنين، ورفض القيام بأي عمل جهادي في بعضها كالخندق، وكل ذلك مما أثبته القرآن الكريم وحفظه لجميع الأجيال فلا مهرب منها؛ وبالتالي فمن غير المعقول أن يرضى الله لهؤلاء بالاجتهاد والتأويل اعتماداً على ما يرونه مناسباً وذلك لأن هناك شبهة من الهوى، وقد أثبتتها الاحداث واعترافات البعض منهم، غير المؤكد من قلة العلم المطلوب للاجتهاد. إذاً، من يجتهد دون حق عليه وزر اجتهاده لا استحقاق الأجر عليه.

إن هذا الحكم: أن ما جرى بين الصحابة من فتن إنما كان عن تأويل واجتهاد يستحق المخطئ فيه عليه أجراً يصادمه ما ورد عن النبي(ص) من أحاديث عما سيُفعل بأصحابه يوم القيامة عندما يكون هو(ص) على الحوض؛ هاك بعضاً مما جاء في صحيح البخاري فحسب:

قال(ص): «... ثم يؤخذ برجال من أصحابي ذات اليمين وذات الشمال فأقول أصحابي فيقال إنهم لا يزالون مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم ...» ج4 ص323 حديث 243، وهو واضح في أن هؤلاء (أ) من أصحابه (ب) لا يزالون تعني الاستمرار وبالتالي لا يمكن حصرها في المرتدين والذين لم تزد مدة قتالهم عن بضعة أشهر (ج) أن ارتدادهم بدأ منذ لحظة وفاته(ص)، وهذه أيضًا لا يمكن أن تكون حروب الردّة لأن الردّة بدأت في حياته(ص) حتى أنه(ص) بعث رجالاً وقاموا باغتيال الأسود العنسي الذي ادّعى النبوّة.

وقال(ص): «بينا أنا قائم إذا زمرة، حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال هلمّ، فقلت أين، قال إلى النار والله، قلت ما شأنهم، قال إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى، ثم إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال هلمّ، قلت أين، قال إلى النار والله، قلت ما شأنهم، قال إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى، فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النِّعَم» ج8 ص217 حديث 166، وفيه (أ) أنه(ص) يعرفهم وبالتالي هم من أصحابه (ب) القليل جدًا هم الذين ثبتوا على العهد، فإن همل النعم لا يمكن أن تكون أكثر من واحد من عشرين أو خمسين أو مائة مثلاً. تُرى ما هو الأمر الذي تفرّق فيه

الصحابة بعد وفاته(ص) بحيث صاروا فرقتين: فرقة كبيرة خالفت العهد وفرقة صغيرة ثبتت ؟ لا نجد غير بيعة أبي بكر في سقيفة بني ساعدة، وهو واضح، لأن جميع الأحداث الأخرى كفتنة عثمان وحرب الجمل وصفين لم تكن بعد وفاته(ص) إلا بمدة طويلة لا تنسجم مع القول «منذ فارقتهم».

وفي حديث آخر يؤكد ذلك أيضًا عن أنس أن النبي(ص) قال: «ليردنّ عليّ أناس من أصحابي الحوضَ حتى إذا عرفتهم اختُلِجوا دوني فأقول أصحابي فيقول لا تدري ما أحدثوا بعدك» ج8 ص216 حديث 163.

ولعل السبب في هذا، أو قل أساس الإحداث والتغيير بعده(ص) هو ما يكشف عنه الحديث رقم 169 في نفس الجزء (أي بعد خمسة أحاديث من السابق)، وهو قوله(ص): «... وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها»؛ فيكون أساس ما فعلوا هو التنافس على الدنيا وليس الارتداد والشرك. وهذا يدحض القول أن المقصود بهذه الأحاديث هم المرتدون لأن المرتدين عادوا إلى الشرك وهذا الحديث يقول أن النبي(ص) لا يخاف على المخاطبين بالحديث الشرك وإنما التنافس في الدنيا.

وقد أكد ذلك علي(ع) بقوله لأصحاب الشورى: «وزهدًا فيما تنافستم فيه من زخرفه وزبرجده».

فإذا كان النبي(ص) يخبرنا أن بعض الصحابة، بل كثيراً منهم، بل أكثرهم، سيدخلون النار بسبب انقلابهم على الأعقاب والتبديل وعدم الوفاء بالعهد، فكيف نأتي نحن ونقول أن ما جرى بينهم لا يخرجهم من إحدى حالتين: الصحة التي يستحقون عليها أجرين، أو الخطأ الذي يستحقون عليه أجراً واحداً! هذا مع أن ما دخلوا فيه سفكت في الدماء المحرمة واعتدي فيه على أهل البيت(ع) وعلى صحابة آخرين وغيرهم... هذا شيء عجيب.

كما أن النبي(ص) حذر البعض من أفعال معينة ولكنهم ارتكبوها بعد ذلك. من ذلك ما رواه أحمد في المسند ج6 ص97 وابن حجر في الإصابة ج8 القسم 1 ص111 والهيثمي في المجمع ج7 ص234 وابن عبد البر في الاستيعاب ج2 ص745 وآخرون أن النبي(ص) ذكر لنسائه خروج بعضهن فضحكت عائشة فقال(ص):

«أنظري يا حميراء أن لا تكوني أنت»، مع هذا خرجت على علي(ع) وقادت أول حرب أهلية في الإسلام قتل فيها الألوف، فكيف تكون قد تأولت واجتهدت في خروج نهاها النبي(ص) بنفسه عنه؟

وأخرى مهمة جداً: نحن نعلم أن بعض الصحابة اعتزل الفتن، وبعضهم لم يشارك فيها لأنه كان في مناطق أخرى، فهل أن هؤلاء أقل حظاً من الداخلين في الفتن بحيث لا يستحقون أجراً على الرغم من أنهم لم يقتلوا أو يظاهروا على القتل أو الخروج على الإمام المبايع أو غير ذلك؟! رجل يدخل في فتنة ويقترف المحرمات، بل أشد المحرمات وهو القتل، فيستحق أجراً، وآخر لا يدخل فيها فلا يستحق أجراً! هذا أعجب وأعجب.

ثانياً: أن نكف عن مساوئهم فلا نذكرهم إلى بما يستحقونه من الثناء الجميل

يعترف الشيخ ابن عثيمين أن للصحابة مساوئ، لأن الناس، من شدة الدفاع عن الصحابة ومن شدة المنع من الكلام فيهم، صاروا لا يتصورون أن الصحابة يمكن أن يرتكبوا أي سوء، بحيث صاروا معصومين عملياً وإن لم يقولوا بعصمتهم. أما أن نكف عن مساوئهم فإن الشيعة لا يرون فرقاً بين صحابي وغير صحابي لأن جميع الناس مفتوحون للبحث. بل ان البحث في الصحابة، بشكل عام كجيل رافق النبي(ص) لا بد منه من أجل فهم القرآن الكريم والحديث الشريف لتفعيلهما في حياتنا، لأنه لا يعقل أن نقفل البحث بخصوص الجيل المعاصر للنبي(ص) والمواكب لنزول الوحي ونفتحه فيما يخص الأجيال التالية.

النقطة الأخرى هي أن هذا المنهج يجامل الصحابة ولا يجامل غيرهم، مع أن غيرهم أولى بالمجاملة، لأن الصحابة حظيوا بما لم يحظ به غيرهم فصارت الحجة عليهم آكد وأوثق.

إستطراداً، فإنه يجب محاسبة المقصرين منهم والضالعين في الانحراف أشد ممن جاء بعدهم.

أخيراً، أن استحقاقهم للذكر الجميل هو لصحبتهم النبي(ص)، التي قلنا أنها ترتب مسؤوليات أكبر، إذاً، ليس لهم خصوصية من استحقاق الذكر الجميل دون الذكر غير الجميل.

ثالثاً: وأن نطهر قلوبنا من الغل والحقد على أحد منهم استناداً إلى الآيتين المذكورتين

ربما يتعلق الغل والحقد بالمزاج النفسي للإنسان، فالبعض تراهم يميلون إلى كراهية الآخرين والحقد عليهم لأتفه الأسباب بينما ترى غيرهم لا يشعرون بمثل هذه المشاعر حتى مع من يؤذيهم أشد الأذى. ولكن استخدام الآيتين المباركتين للصحابة بالخصوص هو، مرة أخرى، إعطاؤهم ميزة عن غيرهم دون داع. وهنا أمران:

(الأول) لا شك في أن الإنفاق والقتال في بداية الإسلام أعظم، ولكن هناك شرط خلوص النية في الإنفاق والقتال، وعدم التولي والالتزام بأوامر الله ورسوله(ص) ونواهيهما، والصحابة كانوا على درجات متفاوتة فيها.

(الثاني) هو أن من أنفق من بعد الفتح وقاتل تشمل مسلمة الفتح والطلقاء والذين أسلموا بعد فتح مكة جميعاً، ونحن منهم. مع ذلك، وجدت أهل السنة يضعون الصحابة الذين أسلموا بعد الفتح، وهم الغالبية العظمى من الصحابة (لأن القبائل ما أسلمت إلا بعد الفتح)، في منزلة أعلى من غيرهم، بل وجدت أن بعض هؤلاء صاروا أعظم درجة ممن أسلم من قبل الفتح وقاتل في مخالفة واضحة للآية الكريمة. وجدت أنه من الممكن نقد أبي ذر على أساس أنه أسرف في الطعن على الموسرين من الحكام في حين يمنع البحث تماماً في هؤلاء الحكام أنفسهم ولاسيما معاوية.

الصحابة المحمودون الممدوحون

إن هؤلاء الصحابة، سواء من مات على عهد النبي(ص) أو من عاش حتى عهد علي(ع) واتبعه ونصره، قد خصوا من علي(ع) نفسه، ومن الأئمة(ع) بالمدح العظيم. وهذا أمر ينبغي لشيعة علي(ع) أن ينتبهوا إليه حتى لا يقعوا في موقف يجانب الصحابة كلهم دون داع، لأنه سيتضمن قطعاً مجانبة المخلصين الشاكرين الذين نصروا الله ورسوله(ص) بصدق وإخلاص.

روي عن علي(ع) وصفه لصحابة النبي(ص): «لقد رأيت أصحاب محمد فما أرى أحداً يشبههم: لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً، وقد باتوا سجداً وقياماً، يراوحون بين جباههم وخدودهم، ويقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم، كأن بين

أعينهم ركب المعزى من طول سجودهم، إذا ذكر الله هملت أعينهم حتى تبل جيوبهم، ومادوا كما يميد الشجر يوم الريح العاصف، خوفاً من العقاب، ورجاء الثواب» (نهج البلاغة ج1 الخطبة 97)، وفيه القول «فما أرى أحداً يشبههم» الذي يرفع الصحابة الذين كانوا على تلك الصفة أعلى من صحابة آخرين.

ولهذا يتحرق شوقاً إلى الصحابة المخلصين الذين قضوا: «أين إخواني الذين ركبوا الطريق ومضوا على الحق؟ أين عمار؟ وأين ابن التيهان؟ وأين ذو الشهادتين؟ وأين نظراؤهم من إخوانهم الذين تعاقدوا على المنية، وأبرد برؤوسهم إلى الفجرة؟!» ثم يبكي طويلاً ويكمل: «أوه على إخواني الذين تلوا القرآن فأحكموه، وتدبروا الفرض فأقاموه، أحيوا السنة، وأماتوا البدعة، دعوا إلى الجهاد فأجابوا، ووثقوا بالقائد فاتبعوه» (نهج البلاغة ج2 الخطبة182)، وفيه المدح العظيم لهؤلاء الصحابة وأضرابهم (نظراؤهم)، ووصف بعض أعدائه بالفجور، وفيه إماتتهم للبدعة ما يشير إلى ظهور البدع قبل استخلافه(ع)، وفيه أنهم لم يتمردوا على القيادة الشرعية.

وأما مدحه(ع) للأنصار فأعظم المدح، قال: «هم والله ربوا الإسلام كما يربى الفلو! مع غنائهم بأيديهم السباط، وألسنتهم السلاط» (نهج البلاغة ج4 ص106)، ينسب إليهم (رض) تربية الإسلام في حدب وحب كما يفعل بصغير الخيل حتى يقوى ويكبر.

بل أن الشيعة يقرأون دعاء إمامهم علي بن الحسين(ع) لأصحاب النبي(ص) (الدعاء 4 من الصحيفة السجادية): «اللهم وأصحاب محمد خاصة، الذين أحسنوا الصحابة، والذين أبلوا البلاء الحسن في نصره، واستجابوا له، حيث أسمعهم حجة رسالاته، وفارقوا الأزواج والأولاد في إظهار كلمته، وقاتلوا الآباء والأبناء في تثبيت نبوته ... فلا تنس لهم اللهم ما تركوا لك وفيك، وأرضهم من رضوانك ...»، وفيه فرز الأصحاب «الذين أحسنوا الصحبة» فصاروا لائقين لهذا المدح العظيم، رضوان الله عليهم.

الفصل السابع عشر
الفقه

(أولاً) الاجتهاد في المدرستين

(ثانياً) الفتاوى والأحكام

الوضوء للصلاة

الطلاق

"أما الطلاق البدعي فهو
الطلاق المخالف
للمشروع: كأن يطلقها
ثلاثاً بكلمة واحدة
. . . " "وذهب جمهور
العلماء إلى أنه يقع . . . "
"ولا خلاف أيضاً أن هذا
الطلاق مخالف لما شرعه
الله في كتابه، وبينه
رسول الله(ص)"
سيد سابق

«أيلعب بكتاب الله
وأنا بين
أظهركم ؟ !»
رسول الله(ص)

في موضوع الفقه هناك أمران: (أولاً) الاجتهاد في المدرستين (ثانياً) الفتاوى والأحكام، ولا شك في أن الأمرين مترابطان، وسأعرض للأول باختصار، ثم آتي بمثالين لإعطاء صورة عما وجدت من تفوق لفقه أهل البيت(ع).

(أولاً) الاجتهاد في المدرستين

كنا نسمع أن الاجتهاد قد أغلق في المذاهب السنية وأنه مفتوح عند الشيعة، وبعد الاطلاع على مذهب أهل البيت(ع) عرفت أن هذه المقولة تعوزها الدقة.

بخصوص المذاهب السنية فإن الاجتهاد مغلق فيما يخص الأحكام التي وردت عن رؤساء المذاهب ومن ثم من نشرها، وحتى صدور الحكم السلطاني من الخليفة القادر بالله (336-422هـ)، وتم تأكيد ذلك في مصر من حاكمها الظاهر بيبرس سنة 665هـ الذي حصر القضاء والفتوى بالمذاهب الأربعة (خطط المقريزي ج4 ص161): الحنفي، والمالكي، والشافعي، والحنبلي، فصارت تلك الأحكام خارجة عن نطاق جواز الاجتهاد وإعادة النظر، لكن ما يستجد من أمور تدعو إلى فتاوى في وقتها فإن باب الاجتهاد مفتوح ولا شك.

وأما مذهب أهل البيت(ع) فإن الاجتهاد لم يزل مفتوحاً لأنه لم يصدر حكم بإغلاقه. بل على العكس، فإن الأساس الذي بني عليه الاجتهاد في هذه المدرسة جعله مفتوحاً، وهو النص من الأئمة(ع)، وبالأخص ما يلي:

(1) حديث الإمام العسكري(ع): «وأما من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً لهواه، مطيعاً لأمر مولاه، فللعوام أن يقلدوه» (الاحتجاج ج2 ص511).

(2) حديث الإمام المهدي(ع): «أما في الحوادث الواقعة فارجعوا إلى رواة حديثنا، فإنهم حجتي عليكم، وأنا حجة الله» (كمال الدين ص484، والغيبة للطوسي ص291).

في الحديث الثاني يفتح الإمام باب الاجتهاد في الأمور التي تحصل أمام رواة أحاديث أهل البيت(ع)، وهم الفقهاء، فهو ليس قاطعاً في عدم غلق باب الاجتهاد فيما يخص ما فرغ من بيانه أثناء زمان الأئمة(ع)، فإن الاجتهاد فتح وظل مفتوحاً منذ

بدايته. هذا الحديث يأمر بكلمة «إرجعوا» إلى الفقهاء، ومنه جاءت كلمة "مرجع" و "مرجعية" في العالم الشيعي.

من كلمة «فللعوام أن يقلدوه» جاءت كلمة "التقليد" المستخدمة في مدرسة أهل البيت(ع) لوصف إطار العمل المقبول شرعاً من المكلفين غير المجتهدين. ومن جمع الحديثين جاءت كلمة "مرجع التقليد"، أي الفقيه الذي يرجع إليه في الفتوى.

وعوداً على ما قلته أول الأمر من غياب الدقة في القول بعدم غلق باب الاجتهاد عند الشيعة، فأقول بأني وجدت أن هذا الأمر يصدق نظرياً في الكثير من الأحوال وذلك لوجود صعوبة في كسر جدار ما اشتهر من الأحكام الشرعية.

إن الوجود الديناميكي للفقيه في مدرسة آل محمد(ص)، بمعنى إمكانية تغيير الفتوى، أيضاً الاعتياد على إصدار الفتاوى للذين يقلدونه، جعل العلاقة بين الفقيه والمكلف الشيعيين علاقة حاضرة فاعلة لا يمكن تجاهلها بالنسبة للمكلف الذي يريد إحراز الصواب في عباداته ومعاملاته، في حين أن المكلف السني بوسعه النظر في كتب الفقه واستخراج الحكم الشرعي من الأقدمين حتى وإن كان أبا حنيفة المتوفى في القرن الثاني الهجري مثلاً، ما جعل العلاقة بين المكلف والفقيه السنيين أضعف بكثير.

أضف إلى ذلك ارتباط معظم فقهاء أهل السنة بالدولة فصار الفقيه موظفاً في الدولة، وهذا له أبلغ الأثر في تحديد حركة الفقيه من خلال ضغط الدولة على معيشته، علماً أن الفقيه السني لا يجد تناقضاً أصلاً بين الدين وطاعة الحاكم (راجع الفصل 15).

أما الفقيه الشيعي فهو غير مرتبط بالدولة، بل يقوم بتدبير أوضاع مرجعيته وطلابه ونتاجه الفقهي من خلال العلاقة مع المكلفين، لذلك لم يعرف عن مرجع شيعي أنه خضع للسلطان، ولكنه يتعاون معه لخدمة المسلمين، كما حصل عندما تعاون فقهاء الشيعة في العراق مع السلطة العثمانية لحرب الانجليز في الحرب العالمية الأولى.

(ثانياً) الفتاوى والأحكام

لقد وجدت الشيعة الإمامية ملتزمين بآيات الكتاب العزيز وأحاديث سيد المرسلين(ص) بشكل واضح دلت عليه ظواهر الكتاب والسنة وبعض أقوال الصحابة

والتابعين مما روته مدرسة أهل السنة. وسأذكر شاهدين، واحداً في كل من بابي العبادات والمعاملات.

(1) الوضوء للصلاة

الصلاة أهم العبادات، وهي فريضة يومية لا بد للمسلم من الإتيان بها. بهذا، فإن مقدمات الصلاة، من مكان ولباس ووضوء، من أهم الواجبات في حياته اليومية.

أعضاء الوضوء هي الوجه واليدان والرأس والقدمان وذلك في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهَكُم وأيديَكُم إلى المرافِقِ وامسَحُوا برُؤوسِكُم وأرجلَكُم إلى الكَعبين﴾ المائدة:6، وقد اختلف الشيعة والسنة فيها، ولكن النقطة الأساسية في الاختلاف – والتي وجدتها ملفتة للنظر لوضوحها في آية الوضوء – تخص القدمين. فيما يلي ملخص لمناقشة السيد شرف الدين في كتابه "مسائل فقهية".

أورد أولاً بيان الامام الرازي (التفسير الكبير ج3) اذ قال: "حجة من قال بوجوب المسح مبني على القراءتين المشهورتين في قوله وأرجلكم (قال): فقرأ ابن كثير وحمزة وأبو عمرو وعاصم – في رواية أبي بكر عنه – بالجر، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم – في رواية حفص عنه – بالنصب (قال): فنقول: أما القراءة بالجر فهي تقتضي كون الأرجل معطوفة على الرؤوس، فكما وجب المسح في الرأس فكذلك في الأرجل، قال: فان قيل لم لا يجوز أن يقال هذا كسر على الجوار، كما في قوله: جُحرُ ضَبٍ خربٍ وقوله: كبير أناس في بجاد مزمل، قلنا: هذا باطل من وجوه، الأول: ان الكسر على الجوار معدود في اللحن الذي قد يتحمل لأجل الضرورة في الشعر وكلام الله يجب تنزيهه عنه، وثانيها: ان الكسر على الجوار إنما يصار إليه حيث يحصل الأمن من الالتباس كما في قوله: جحر ضب خرب، فإن من المعلوم بالضرورة ان الخرب لا يكون نعتاً للضب بل للجحر، وفي هذه الآية الأمن من الالتباس غير حاصل، وثالثها: ان الكسر بالجوار انما يكون بدون حرف العطف، وأما مع حرف العطف فلم تتكلم به العرب. (قال): وأما القراءة بالنصب فقالوا أيضاً أنها توجب المسح وذلك لأن قوله: وامسحوا برؤوسكم، فرؤوسكم في محل النصب – بامسحوا لأنه المفعول به – ولكنها مجرورة لفظاً بالباء فإذا عطفت الأرجل على الرؤوس جاز في الأرجل النصب عطفاً

على محل الرؤوس، وجاز الجر عطفاً على الظاهر (قال): إذا ثبت هذا فنقول ظهر أنه يجوز أن يكون عامل النصب في قوله وأرجلكم هو قول وامسحوا، ويجوز أن يكون هو قوله فاغسلوا، لكن العاملان اذا اجتمعا على معمول واحد كان إعمال الأقرب أولى، (قال) فوجب أن يكون عامل النصب في قوله وأرجلكم هو قوله وامسحوا، (قال) فثبت أن قراءة وأرجلكم بنصب اللام توجب المسح أيضاً، (قال) ثم قالوا ولا يجوز دفع ذلك بالإخبار لأنها بأسرها من باب الآحاد ونسخ القرآن بخبر الواحد لا يجوز".

وأورد قول الرازي: "إن الأخبار الكثيرة وردت بإيجاب الغسل والغسل مشتمل على المسح ولا ينعكس فكان الغسل أقرب إلى الاحتياط، فوجب المصير إليه".

علق السيد شرف الدين: "وأما قوله بأن الغسل مشتمل على المسح فمغالطة واضحة بل هما حقيقتان (مختلفتان) لغة وعرفاً وشرعاً فالواجب إذاً هو القطع بأن غسل الأرجل لا يقوم مقام مسحها، لكن الإمام الرازي وقف بين محذورين هما مخالفة الآية المحكمة ومخالفة الأخبار الصحيحة في نظره فغالط نفسه بقوله أن الغسل مشتمل على المسح وأنه أقرب إلى الاحتياط ....، ومن أمعن في دفاعه هذا وجده في ارتباك ولولا أن الآية واضحة الدلالة على وجوب المسح ما احتاج إلى جعل الغسل قائماً مقامه فأمعن وتأمل ملياً".

ثم نظر السيد في أخبار الغسل فوجدها على قسمين: منها ما هو غير دال عليه ومنها ما هو دال على المسح، ثم رد هذه الأخبار لأنها: (1) "جاءت مخالفة لكتاب الله عز وجل ولما أجمعت عليه أئمة العترة الطاهرة"... ومنها إنكار ابن عباس الغسل إذ كان يحتج للمسح فيقول: "إفترض الله غسلتين ومسحتين، ألا ترى أنه ذكر التيمم فجعل مكان الغسلتين مسحتين وترك المسحتين" (كنز العمال ج5 حديث 2213)، وقوله: "إن الناس أبوا إلا الغسل ولا أجد في كتاب الله إلا المسح" (سنن إبن ماجة باب الوضوء)، (2) "إنها لو كانت حقاً لأربت على التواتر، لأن الحاجة إلى معرفة طهارة الأرجل في الوضوء حاجة عامة ... في كل يوم وليلة ..."، (3) "إن الأخبار في نوع طهارة القدمين متعارضة، بعضها يقتضي الغسل...، وبعضها يقتضي المسح...".

قال: "وحيث تعارضت الاخبار كان المرجع كتاب الله عز وجل لا نبغي عنه حولاً".

أقول: من غير المعقول أن لا يلتفت بعض أهل السنة وهم يقرأون القرآن إلى التناقض بين وجود ﴿وأرجلكم﴾ بعد ﴿وامسحوا برؤوسكم﴾ وما يقومون به من غسل للأرجل بدلاً من مسحها، ما يعني أن بعضهم سيحاول معرفة السبب إما من الكتب أو من المشايخ، وفي الحالتين سيكون الجواب مستنداً في بعضه إلى روايات وبعضه إلى اللغة وبعضه إلى المصلحة، وجميعها متعارضة مع القرآن في ظاهر الآية الواضح تماماً. كان هذا أحد الأدلة الكثيرة على التزام مدرسة أهل البيت(ع) بالقرآن الكريم بحيث لا يتم التعدي على آية كريمة باللف والدوران لمجرد الالتزام بما عليه السلف أو قول العلماء الماضين.

ترى كيف يبرر أي شيخ استمراره بالغسل وتعليم أتباعه الغسل خصوصاً إذا كان في نفسه يرى تناقضاً بين القرآن وبين فعل المدرسة الفقهية التي ينتمي إليها؟

والمفارقة هي أن الشيعة هم الذين يقولون بوجود أوامر قرآنية ونبوية توجب اتباع أهل البيت(ع) دون سواهم ما يجعل الذهاب يميناً وشمالاً إلى غيرهم غير مسموح به، في حين أن عند الآخرين سعة في اتباع الجميع، وهم يفعلون ذلك إلا أئمة أهل البيت(ع)، وهذه مفارقة لم أستطع أن أهملها لأنها مؤشر على منهجين مختلفين وجدت نفسي تميل، عملاً بالدليل القرآني، إلى أحدهما الذي كنت أطلع عليه وتبتعد عن الآخر الذي تربيت عليه.

(2) الطلاق

في الطلاق مسائل تختلف في أحكامها بين المدرستين، ولكن من أشهرها مسألتان: الأولى الإشهاد على الطلاق، والثانية احتساب الطلاق ثلاثاً.

في المسألة الأولى الإشهاد في الطلاق وجدت الشيعة يوجبون وجود شاهدين عند إيقاع الطلاق في حين لا يوجبه السنة، ولا شك في أن الإصرار على الشهود له فوائد، منها: إثبات أن الطلاق قد وقع فعلاً، وهو أمر مهم في بعض الحالات كغياب الزوج؛ ومنها محاولة الإصلاح بين الزوجين لأنه إن وقع الطلاق بين الزوجين دون شهود فإن الطلاق لا يعد نافذاً عند الحاكم الشرعي حتى يوقعه الزوج مرة أخرى أمام شاهدين، وهذا يعطي الزوجين فرصة إعادة النظر. أما عند السنة فباستطاعة

الزوج، أو الزوجة إن كان بيدها عقدة الطلاق (العصمة)، إيقاع الطلاق دون علم الآخر تماماً، وإذا بالزوجة أو الزوج المطلّق يفاجأ بورقة الطلاق من المحكمة.

إذاً، هذه الأحكام جاءت من اجتهادات المجتهدين بناء على النصوص الشرعية، ما يعني أنه إن كانت الأحكام عند السنة صحيحة فإن الشرع فارق المنطق السليم وربما أسس لهضم الحقوق، في حين إن كانت الأحكام هي التي عند الشيعة فإن الشرع وافق المنطق السليم وكان ظهيراً لحقوق الزوج أو الزوجة أو الأطفال.

فماذا يقول القرآن الكريم؟

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أمراً . فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ الطلاق:1-2، وهي آية صريحة واضحة في الإشهاد ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ فعل أمر يوجب الإشهاد بشاهدين اثنين من الشهود العدول.

يقول سيد سابق (فقه السنة ج2 ص220-221): "ذهب جمهور الفقهاء من السلف والخلف إلى أن الطلاق يقع بدون إشهاد لأن الطلاق من حقوق الرجل ولا يحتاج إلى بينة كي يباشر حقه ولم يرد عن النبي(ص) ولا عن الصحابة ما يدل على مشروعية الإشهاد، وخالف في ذلك فقهاء الشيعة الإمامية فقالوا إن الإشهاد شرط في صحة الطلاق واستدلوا بقول الله ... ﴿وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله﴾.

وأكمل: "وممن ذهب إلى وجوب الإشهاد في الطلاق أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وعمران بن حصين ومن التابعين الامام محمد الباقر والامام جعفر الصادق وبنوهما أئمة آل البيت(رض) وكذلك عطاء وابن جريج وابن سيرين رحمهم الله"، ففي جواهر الكلام "عن علي(رض) أنه قال لمن سأله عن طلاق: «أشهدت رجلين عدلين كما أمر الله عز وجل؟» قال: لا قال: «إذهب فليس طلاقك بطلاق». وروى أبو داود في سننه عن عمران بن حصين(رض) أنه سئل عن الرجل يطلق امرأته ثم يقع بها ولم يشهد على طلاقها ولا على رجعتها، فقال: "طلقت لغير سنة وراجعت لغير سنة، أشهد على طلاقها وعلى رجعتها ولا تعد".

ثم استنتج: "إذا تبين لك أن وجوب الإشهاد على الطلاق هو مذهب هؤلاء الصحابة والتابعين تعلم أن دعوى الإجماع على ندبه المأثورة في بعض كتب الفقه مراد بها الإجماع المذهبي لا الإجماع الأصولي ..."

وهو نص صريح في مخالفة الفقه السني للفعل النبوي في مسألة الإشهاد على الطلاق، بل أن الطلاق دون إشهاد لا يعد طلاقاً، وهو صريح في أن الشيعة الإمامية خالفوا ما عليه فقهاء أهل السنة وتوافقوا مع سنة النبي(ص). وعلى الرغم من قول سيد سابق برد القول بالإجماع على عدم وجوب الإشهاد في الطلاق، وعلى أن أئمة أهل البيت(ع) وفي مقدمتهم علي(ع) يوجبون الإشهاد، فإن معظم فقهاء المذاهب السنية لا يزالون يوقعون الطلاق دون إشهاد، وما ذلك إلا لإعراضهم عن فقه أهل البيت(ع) الموافق للقرآن وأخذهم بفقه غيرهم المخالف له.

أما المسألة الثانية بخصوص إيقاع الطلاق ثلاثاً فإن الفقه السني يجيز ذلك في حين يمنعه الفقه الشيعي تماماً.

قال تعالى: ﴿الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ البقرة:229، وهي واضحة أن الطلاق ثلاث مرات: مرتان يمكن بعد كل منهما الرجوع، ومرة ثالثة لا يمكن معها الرجوع حتى تتزوج المطلقة رجلاً آخر وتطلقه.

وقد بين النبي(ص) ذلك عندما سأله رجل: "أرأيت قول اللّه: ﴿الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ أين الثالثة؟ قال(ص): «التسريح بإحسان»" (سنن البيهقي ومصنف ابن أبي شيبة وغيرهما)، أي بعد الطلاق مرتين، أولى وثانية، والعودة تكون الحالة معاشرتها بالمعروف أو تسريحها بإحسان لا بالإضرار والإيذاء والانتقام مما نراه من أفعال الناس.

وقد ورد في كتب أهل السنة منع احتساب الطلاق ثلاثاً في مجلس واحد. فقد أخرج النسائي في سننه أنه "أخبر رسول الله(ص) عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً، فقام غضبان ثم قال: «أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم؟!».

وروى أبو داود في سننه أنه "طلق أبو ركانة أم ركانة، فقال له رسول الله(ص): «راجع امرأتك» فقال: إني طلقتها ثلاثاً، قال: «قد علمت، راجعها»"؛ وأخرجه الإمام أحمد بقوله(ص): «فإنها واحدة».

والعجيب أن الطلاق ثلاثاً بكلمة واحدة أو في مجلس واحد يسمى عند أهل السنة أنفسهم طلاقاً بدعياً لما ورد عن النبي(ص) فيما أوردنا أمثلة له أعلاه. قال سيد سابق (فقه السنة ج2): "أما الطلاق البدعي فهو الطلاق المخالف للمشروع: كأن يطلقها ثلاثاً بكلمة واحدة، أو يطلقها ثلاثاً متفرقات في مجلس واحد كأن يقول: أنت طالق، أنت طالق، أنت طالق، أو يطلقها في حيض أو نفاس، أو في طهر جامعها فيه". وأكمل: "وأجمع العلماء على أن الطلاق البدعي حرام، وأن فاعله آثم"...

ولكن "وذهب جمهور العلماء إلى أنه يقع (!)، واستدلوا بالأدلة الاتية: (1) أن الطلاق البدعي مندرج تحت الآيات العامة (2) تصريح ابن عمر(رض) لما طلق امرأته وهي حائض وأمر الرسول الله(ص) بمراجعتها بأنها حسبت تلك الطلقة. وذهب بعض العلماء إلى أن الطلاق البدعي لا يقع ومنعوا اندراجه تحت العمومات لأنه ليس من الطلاق الذي أذن الله به، بل هو من الطلاق الذي أمر الله بخلافه، فقال: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾، وقال(ص) لابن عمر(رض): «مُرهُ فليراجعها».

وقال: "ولا خلاف أيضاً أن هذا الطلاق مخالف لما شرعه الله في كتابه، وبينه رسول الله(ص)، وما خالف ما شرعه الله ورسوله فهو رد، لحديث عائشة(رض): أن النبي(ص) قال: «كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد»..."

كلام سيد سابق رحمه الله فيه نقاط عديدة، ولكن المهم هو أن الطلاق في لفظ واحد أو مجلس واحد، وإن كره المطلق ثلاثاً، لا يحتسب إلا طلقة واحدة، وبه أمر النبي(ص) في قضية ابن عمر وأبي ركانة، بل وغضب معتبراً أن ما فعلوه في أمر الطلاق تلاعب بكتاب الله تعالى. كما أن أهل السنة يعدون هذا الطلاق طلاقاً بدعياً لأنه مخالف للسنة إلا أن جمهورهم، أي معظمهم، يقول بصحة وقوعه ويحكم به!

أخيراً، لا بد من النظر في السبب وراء هذا الاتجاه الفقهي على الرغم من نهي النبي(ص) عنه ورده اللواتي طلقن بهذا الشكل إلى أزواجهن، وأكتفي بإشارة.

ففي مناقشة السيد شرف الدين لهذه المسألة (النص والاجتهاد المورد 25) أورد أقوال بعض العلماء والباحثين، منهم "الأستاذ الدكتور الدواليبي، حيث ذكر عمر وإيقاعه الطلاق الثلاث بكلمة واحدة في كتابه "أصول الفقه" (ص 246) ... وما قاله ابن القيم الجوزية: "ولكن أمير المؤمنين عمر(رض) رأى أن الناس قد استهانوا بأمر الطلاق، وكثر منهم إيقاعه جملة واحدة، فرأى من المصلحة عقوبتهم بإمضائه عليهم فإذا علموا ذلك كفّوا ... ورأى أن ما كان عليه في عهد النبي وعهد الصديق وصدراً من خلافته كان الأليق بهم لأنهم لم يتتابعوا فيه، وكانوا يتقون الله في الطلاق..." إلى قوله: "فهذا مما تغيرت به الفتوى لتغير الزمان".

ثم قال الدواليبي: "بأن العقوبة إذا تضمنت مفسدة أكثر من الفعل المعاقب عليه كان تركها أحب إلى الله ورسوله" (ما جعل السيد شرف الدين يقول – محقّاً –: "سبحان الله ما هذا التلاعب؟!)

وهكذا، فإن الذي حصل هو تغيير من عمر بن الخطاب لما رآه هو من مصلحة، ثم اتبعته مدرسة أهل السنة إلى اليوم. وأما من لم يرض بذلك من العلماء فإنه لم يجرؤ على تخطئة عمر، بل وجدوا له العذر في قاعدة "تغير الأحكام بتغير الزمان"، والتي لا أدري ما علاقتها بعدد الطلقات في مجلس واحد أو لفظ واحد، وكيف يؤثر الزمان على استعجال الرجال أو أناتهم في تطليق زوجاتهم. بل وجعلوا عقاب الناس على استعجالهم بهذا الإجراء الكارثي حيث لا حل إلا بزواج المطلقة بزوج آخر ثم طلاقها، ما فتح باب المحلل الصوري الذي لا يتم فيه زواج حقيقي ثم لتعود إلى زوجها، وكله في مخالفات واضحة للشريعة.

هذا النهج له معنى واحد: القول عملياً بعصمة كبار الصحابة، ولاسيما الشيخين، مع نفيه لأنه مما لا دليل عليه، في الوقت الذي ينفون فيه عصمة أئمة أهل البيت(ع) مع وجود الدليل تلو الدليل من كتاب وسنة عليه.

وهكذا، وجدت الشيعة يتبعون الكتاب والسنة في هذه المسألة الهامة جداً والتي شملت ما لا يحصى من البيوت المسلمة التي تحطمت لاتباعها فقهاً معيناً واستمر غيرها لاتباعها فقه آل محمد(ص).

الفصل الثامن عشر
التاريخ الإسلامي

«تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها؛ ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها؛ ثم تكون ملكاً عاضّاً فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها؛ ثم تكون ملكاً جبرياً، فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها؛ ثم تكون خلافة على منهاج النبوة»

رسول الله(ص)

نظرنا لأمر الحاضرين فرابنا
فكيف بأمر الغابرين نصدّقُ!

أبو العلاء المعري

النظرة إلى التاريخ الإسلامي

الخلافة ما بعد الراشدين

النظرة إلى الخلافة الراشدة

الخليفة الأول أبو بكر

الخليفة الثاني عمر بن الخطاب

الخليفة الثالث عثمان بن عفان

فماذا عن الخليفة الرابع علي(ع)؟

مقارنة أفعال علي(ع) والخلفاء الثلاثة

بين الشورى والنص

إفراط وإفراط

من أهم ما وجدته مختلفاً بين المدرستين هو نظرتهم إلى التاريخ الإسلامي ككل وإلى الدولة الإسلامية بالخصوص، فإن هناك نظرتين مختلفتين تماماً، مع انحياز مذهبي واضح، وإن كان للتأصيل العقائدي دور مهم وذلك في أمرين: (1) طاعة الحاكم المسلم (راجع الفصل 15) (2) تأسيس الحكم على أساس الشورى أو النص، وهذا الأخير مجال لبحث واسع جداً في أوساط الباحثين، وربما الشيعة بالخصوص لأنه مع عدم وجود الإمام المعصوم يصبح الحال كما هو عند باقي الطوائف ولكن بلحاظ دور فقهاء الدين.

النظرة إلى التاريخ الإسلامي

ينظر أهل السنة إلى التاريخ الإسلامي نظرة إكبار وإجلال وفخر على أساس الانجازات الواضحة للدولة الإسلامية من جهة والحضور الكبير للإسلام من جهة أخرى. الفتوحات الإسلامية والتقدم العلمي في الفترة الأولى، ثم القوة القادرة على رد الاعتداءات وطرد الهجمات المتكاملة كما حصل مع الصليبيين، لا يمكن مقارنتها مع الانكماش الحاضر والتخلف في جميع المجالات وغياب القوة التي يمكن لها أن تحمي البلاد والعباد، بل وغياب القدرة على مجرد التفكير في الرفض ومواجهة الهجمة على الدول الإسلامية – هذا من وجهة النظر السنية يشكل العلامة البارزة في صلاح الدولة الإسلامية وفي صحة الخلافة الإسلامية ومن ثم في جمال التاريخ الإسلامي.

ويبدو الانحياز المذهبي واضحاً عند الكثير من الباحثين السنة، خصوصاً الملتزمين دينياً، فإنهم عندما يتناولون أحوال الدول الإسلامية في العصور الماضية ربما لا يأتون إلى ذكر أي دولة أو إمارة كان يحكمها الشيعة، كإمارة الحمدانيين في حلب وغرب الموصل أو الدولة التي أسسها الأدارسة في المغرب أو ما سواهما وهي ليست قليلة، فإن ذكروا فهو بالذم والاتهامات. بالطبع لا يمكن أن يذكر باحث سني – عدا المصريين – أن الأزهر الشريف أسسه الشيعة الفاطميون الذين أسسوا مدينة القاهرة ذاتها.

ويشتد الانحياز المذهبي عندما يكون هناك مجال لتوجيه الاتهامات للشيعة، فإن وجود وزير شيعي عند آخر خلفاء الدولة العباسية، هو مؤيد الدين ابن العلقمي، كان بمثابة الجائزة لمثل هؤلاء الباحثين، لأنه من جانب يفتح الباب واسعاً أمام تخوين الشيعة كلهم من خلال تخوين هذا الوزير، ومن جانب آخر يعطي مجالاً لتبرئة الدولة الإسلامية السنية في فشلها في صد الهجمة المغولية بسبب الضعف المتراكم وسوء إدارة الخليفة وطمعه وإهماله أمر الجيش. لهذا، أجدها مفارقة عجيبة أن يكون أكبر سقوط لأكبر دولة إسلامية في التاريخ الإسلامي بسبب وزير واحد في حين سقطت دول أخرى أقل شأناً واتساعاً وقدرة فيأتي الباحثون ليجدوا عشرات الأسباب التي تبرر ذلك.

أما الأحداث التي كانت القضية المذهبية السنية الشيعية مركزية فيها فإن الانحياز المذهبي يتخذ مديات أوسع. مثال ذلك الخليفة العباسي جعفر المتوكل (820-860م)، فإنه لما عادى أهل البيت(ع) والشيعة بشكل صارخ، حتى أنه هدم قبر الحسين(ع)، وخالف ما كان عليه عمه المأمون وأبوه المعتصم من القول بخلق القرآن، في موافقة لقول السنة وإمامهم بن حنبل، وعاقب من يقول بخلق القرآن، صار عند علماء السنة "الخليفة ناصر السنة".

ولا شك في أن الشيعة سيقفون موقفاً معاكساً بالكامل من المتوكل، فعلماؤهم يجدونه مخالفاً للعقيدة الصحيحة لأنه يجعل مع الله قديماً آخر هو القرآن وهو شرك، ويجدون ما فعله بقبر الإمام الحسين(ع) لا يغتفر لأنه حرب على أهل البيت(ع).

إذاً، نظرتان لخليفة واحد تختلفان تمام الاختلاف ولا يمكن الجمع بينهما بحال من الأحوال.

وتستمر النظرة المختلفة عند الفريقين، إلى أن ينتهي الأمر بالدولة العثمانية التي يراها أهل السنة الدولة الجامعة للمسلمين، وعندما سقطت بدأت مشاكل المسلمين، بينما يرى الشيعة أن مشاكل المسلمين كانت تزداد يوماً بعد آخر بسبب الانحراف المتراكم والذي يزداد اتساعاً والذي بدأ منذ العصر الأول، علاوة على التمييز الطائفي الواضح ضد الشيعة.

وعند تأسيس الدول الحديثة وبقي أهل السنة على رأسها حتى في البلدان التي يشكل فيها الشيعة أغلبية، بقيت النظرة هي هي: السنة ينظرون للحاكم أنه واجب الطاعة وأن الخروج عليه يؤدي إلى الفتنة، والشيعة يرون أن الحاكم غير واجب الطاعة إلا بشروط وأنهم ينتظرون ما يأمر به فقهاؤهم الذين كانوا عبر القرون هم القادة الحقيقيين لهم.

الخلافة ما بعد الراشدين

يروي أهل السنة الحديث: «تدور رَحى الإسلام لخمس وثلاثين أو ست وثلاثين أو سبع وثلاثين، فإن يهلكوا فسبيل من هلك...» رواه أبو داود وأحمد والبيهقي وغيرهم.

ويروون الحديث: "تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها؛ ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها؛ ثم تكون ملكاً عاضّاً فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها؛ ثم تكون ملكاً جبرياً، فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها؛ ثم تكون خلافة على منهاج النبوة؛ ثم سكت" رواه أحمد والبيهقي وغيرهما من حديث النعمان بن بشير.

وهذا يعني الإيمان بأن هناك اختلافاً بين الحكم في الفترة الواقعة بين وفاة النبي(ص) وبداية حكم معاوية وما بعدها، وهو اختلاف يعترف به أهل السنة ويؤكدون عليه بحيث جعلوا عنوان الفترة الأولى "الخلافة الراشدة" وصار اسم أبي بكر وعمر وعثمان وعلي(ع) الخلفاء الراشدين في حين لا يسمى معاوية فمن بعده إلا باسم الخلفاء على الرغم من أن الحديث يسميهم ملوكاً "ثم تكون ملكاً عاضّاً".

وكلما كان العهد أقرب من العهد النبوي والراشدي كانت الخلافة عندهم أفضل، ولاسيما عند السلفيين الذين يحبون بني أمية أشد الحب ولا يحبون بني العباس كثيراً. وكلما كان الخليفة أشد على العلويين والشيعة فهو أفضل.

على الجانب الآخر يقف الشيعة في إعراض كامل عن جميع هؤلاء الخلفاء، ولاسيما الذين عاصروا أئمة أهل البيت(ع)، وبالخصوص الذين نكلوا بهم أشد

التنكيل. إن ما عاناه الأئمة(ع) خصوصاً والعلويون والشيعة عموماً هو مما لا يمكن التغاضي عنه لمعرفة سبب النظرة السلبية عند الشيعة للدولتين الأموية والعباسية. ولقد اطلعت على العجب العجاب من أفعال الدولتين اللتين كنت أراهما رمز العزة والمجد.

أما الدولة الأموية فقد كان أهم ما وجدته ضرورياً لتثبيت دعائم ملكها هو محاصرة أهل البيت(ع) وشيعتهم، وقد فعلوا ذلك بكل طريقة حتى قال أبو جعفر الباقر(ع): «وقتلت شيعتنا بكل بلدة، وقطعت الأيدي والأرجل على الظنة، وكان من يذكر بحبنا والانقطاع إلينا سجن أو نهب أو هدمت داره». بل صار الرجل لا يريد أن يرى بجانب علوي أو شيعي، وصارت أية تهمة – بضمنها الكفر والزندقة – أهون من تهمة التشيع. ووصل الأمر إلى مستوى غير معقول بحيث أن اسم "علي" صار مشكلة لصاحبه.

على أننا – كسنة – كنا نعرف الحجاج الثقفي كواحد من أكابر المجرمين في تاريخنا (وتاريخ غيرنا، قال عمر بن عبد العزيز: "لو جاءت كل أمة بخبيثها وجئنا بالحجاج لغلبناهم!"). وأن وصية عبد الملك بن مروان بنيه: "وأكرموا الحجاج، فإنه الذي وطّأ لكم هذا الأمر" يعني أن الفضل الأول في استقرار الدولة الأموية كان لجرائم الحجاج.

فلما استقامت الدولة لهم صار التعدي على حدود الله من قبل الخلفاء أنفسهم فاشياً فيهم، فلم يتركوا لا شرب الخمر ولا قتل النفس المحرمة ولا حتى إهانة كتاب الله تعالى الذي رماه الوليد بن يزيد بالسهام وقال شعراً مفتخراً بذلك.

ولئن ترك بعضهم بعض الموبقات فإنهم داوموا كلهم على سنة سنها لهم أولهم معاوية بن أبي سفيان، وهي سب علي بن أبي طالب(ع) على منابر المسلمين (التي شادها الله ورسوله(ص) بجهاده وسيفه(ع) فصارت أعواداً لشتمه)، فلم يبطلها إلا عمر بن عبد العزيز.

أما الدولة العباسية فافتتاحها على يد أبي العباس السفاح، ولقب "السفاح" هو اسم على مسمى، قالوا: "كان سريعاً إلى سفك الدماء، فاتبعه

عماله في ذلك، في المشرق والمغرب، واستنوا بسيرته". رووا المذبحة التي جرت على يد عامله (وهو أخوه أو ابن أخيه) في الموصل حيث تم ذبح الآلاف في المسجد، حتى قال المؤرخون أنه "لم يبق من أهل الموصل على كثرتهم إلا أربعمائة شخص". والأفظع في الأمر أن السفاح عندما سألته زوجته: "لأي شيء استعرض ابن أخيك أهل الموصل بالسيف؟! قال لها: وحياتك ما أدري!"

أما خليفته أبو جعفر المنصور، الذي كنا نتغنى بعظمته وبنائه مدينتنا بغداد، فقد استمر على نهج أخيه السفاح، ولكن بشكل أفظع. وأمعن في التنكيل بالعلويين حتى ملأ منهم خزائن ارتاع خليفته المهدي عندما فتحها وهو يرى جثثهم وقد علق في آذانهم أسماءهم وأنسابهم! وذهب إلى حد قبوله تأليهه هو من قبل الراوندية ندماءه، وقال: "لأن يكونوا في معصية الله وطاعتنا أحب إلي من أن يكونوا في طاعة الله ومعصيتنا!"

ثم ولده الرشيد، الذي وصلت الدولة في عهده عصرها الذهبي، ولكن وجبروته وظلمه شيء آخر، حتى أنه تصرف خلاف الأخلاق العربية والإسلامية بحيث يعطي أماناً ليحيى الحسني فلما يعود يتآمر مع أحد قضاة دولته ليحكم بعدم شرعية كتاب الأمان فيقتله.

وكذا أولاده وأحفاده من بعده، على درجات مختلفة ولكن في إطار الظلم والتجبر وأكل أموال الناس والغدر والقتل والسم والاستئصال، أحياناً حتى دون قدرة حقيقية منهم إذ تكون القدرة بيد الوزراء أو المستشارين من عرب وفرس وترك، ما يجعل الحاكم الألعوبة ليس جديداً علينا وإنما هو ضارب في أعماق تاريخنا.

النظرة إلى الخلافة الراشدة

الشيعة يعتقدون أن الضعف والإعراض عن التعاليم الإسلامية وتفرق كلمة المسلمين وتخلفهم الذي جرى بدءاً من الخلافة الأموية لا يمكن أن يكون بدأ هكذا فجأة وإنما بدأت جذوره منذ فترة الخلافة الراشدة، ومن ينكر ذلك عليه أن ينكر الحقائق التالية:

(1) مقتل ثلاثة من الخلفاء الأربعة، أي عمر وعثمان وعلي(ع)

(2) ثورة أو تمرد على الخليفة الثالث عثمان حتى حوصر داخل المدينة ولم يجد أعواناً حقيقيين من الصحابة، وإلا لجرت معارك بينهم وبين المتمردين ولطردوهم من المدينة

(3) حرب الجمل بقيادة صاحبين وإحدى أمهات المؤمنين ضد صحابي آخر بعد بيعته نتيجتها قتل ألوف المسلمين، في أول عهد الخليفة الرابع في الخلافة الراشدة

(4) حرب صفين بقيادة صاحبين ومعهما بعض الصحابة ضد صحابي آخر بعد بيعته خليفة نتيجتها قتل عشرات الألوف من المسلمين في الخلافة الراشدة.

(هذا، مع إهمال حوادث أخرى تم التكتيم عليها كمنع كتابة الحديث الشريف منعاً باتاً، والتعامل الظالم مع الزهراء(ع) وأهل البيت(ع)، والدماء المحترمة التي أهرقت بدعاوى باطلة كما حصل مع مالك بن نويرة وقومه، وضرب كبار الصحابة أو تشريدهم لاعتراضهم على كما حصل مع عمار وأبي ذر، والتغييرات البدعية التي أحدثت في أحكام الشريعة.)

إذاً، لا بد أن تكون الخلافة الراشدة على المحك، أو تحت المجهر، إذا أردنا معرفة جذور ما حصل في الفترة ما بعد الخلافة الراشدة وحتى سقوط دولة الخلافة.

الخليفة الأول أبو بكر

لا شك في أن أعمالاً مهمة حاسمة أنجزت على عهد الخليفة الأول هي: (1) قتال المرتدين (2) قتال مانعي الزكاة (3) البدء بتجهيز جيوش الفتوحات إلى العراق والشام.

إذاً، عهد عظيم أنهى الخطر على وجود الإسلام، وحسم الأمر بخصوص منع الزكاة وهي مورد مهم للدولة الفتية؛ وما أن هدأت الأوضاع حتى بدأ يعد لنشر الإسلام.

أما الشيعة فوجدتهم لا يهتمون بكل هذا لأسباب بعضها موضوعية وبعضها نفسية. أما الأسباب الموضوعية فيمكن تلخيصها بأمور ثلاثة:

الأول – كيفية الوصول إلى الخلافة / في السقيفة قبل حضور علي(ع) والبيعة المؤكدة له لأن علياً(ع) الخليفة المبايع أصلاً في يوم الغدير قبل أسابيع، ناهيك عن

الحجة الظاهرة لعلي(ع) إذا حضر. إذاً، بيعة أبي بكر بدأت الانحراف، وكل ما تأسس عليها باطل.

الثاني – تقييم الأعمال المذكورة أعلاه / فإن الباحثين الشيعة يتساءلون عن حقيقة حجم المرتدين، ولاسيما وأن أهل السنة – وكنت مثلهم – أقرأ أن آية الانقلاب على الأعقاب تخص المرتدين، ولكني اطلعت بعد ذلك على أن معظم المرتدين بدأت ردتهم في حياة النبي(ص)، وما ارتد بعده(ص) غير سجاح التميمية، فمن غير المعقول أن تخصها الآية ﴿أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾ ولاسيما وأنه يذكر الموت والقتل، والآية بعد غزوة أحد يوم أشيع أنه(ص) قتل فانقلب معظم المسلمين على أعقابهم وهربوا. كذلك، يعدون بعض ما جرى من أعمال ضمن هذه الحروب مخالفة واضحة للشرع، تعد أمراً متوقعاً نتيجة الانحراف عن الخطة الإلهية في تعيين علي(ع) بعد النبي(ص) مباشرة.

الثالث – سيرة الخليفة أبي بكر، مع أهل البيت(ع) أولاً، ومع بعض المسلمين ثانياً / أما مع أهل البيت(ع) فقد ذكرنا بيعة السقيفة ودفع علي(ع) عن موقعه المنصوص عليه، وما تبع ذلك من دفع الأئمة من ولده(ع) عن بسط يدهم في إمامتهم فخسر المسلمون المصدر المعصوم لتفسير القرآن وللسنة، ما أسس أساس الضعف في الأمة حتى وصلت إلى ما نحن فيه. وذكرنا الزهراء(ع) والتعامل معها بشكل لا يصدق ومنعها حقها الشرعي، بعد الهجوم على دارها وتهديدها بالتحريق حتى مضت مغصوبة الحقوق غاضبة على القوم. وأما السيرة مع بعض المسلمين فلعل في قصة مالك بن نويرة مع خالد بن الوليد ما يستخدمه الشيعة في تبيان الضعف في قيادة الخليفة الأول، حيث قبل اعتذار خالد أنه تأول في قتل مالك بن نويرة وقومه، قتلة غدر وظلم، والزواج من امرأته في ليلة قتله، دون عدّة.

وأما الأسباب النفسية فهي النتيجة المنطقية لموقف الخليفة من أهل البيت(ع)، ودفعهم عن الخلافة التي جرت المصائب على المسلمين، والتعامل الظالم مع الزهراء(ع) بضعة النبي(ص). وكلما طال الأمد وازداد الضغط على الشيعة، وترسخ الإقصاء والتخوين والتبديع بل والتكفير، ازداد النفور وصار من المستحيل أن يتقبل الشيعة الخليفة مهما كانت أعماله، بل صار الحاجز النفسي مساعداً على قبول أي طعن.

الخليفة الثاني عمر بن الخطاب

لا شك في أن أعمالاً مهمة أنجزت على عهد الخليفة الثاني في جانبيها الدعوي والإداري: (1) الفتوحات الإسلامية الكبيرة، في عشر سنوات فقط ما يعد إنجازاً قل نظيره (2) بدء التقويم الهجري (3) إنشاء الدواوين (مثل الوزارات) (4) إنشاء بيت المال ودار الأوقاف وبيت التموين ودار الضيافة (5) سك النقود للتداول التجاري (6) بناء مدن جديدة (7) محاسبة العمال والولاة بشدة للتأكد من عدم استغلال مناصبهم (8) العدل.

إتسعت الدولة فلم يعد هناك خطر على وجودها، وصارت دولة مؤسسات – على بساطتها –، وبدأت الأمة تعيش برفاهية لتدفق الأموال من الأمصار، وصار عمر مثال العدل.

أما الشيعة، فكما في حالة أبي بكر، لا يهتمون بكل هذا لنفس الأسباب الموضوعية والنفسية المذكورة سابقاً. أما الأسباب الموضوعية فتتلخص بأمور ثلاثة:

الأول – كيفية الوصول إلى الخلافة / حيث جاء عمر، لا بوصية من النبي(ص) ولا شورى ولا أي رأي للأمة، بل بوصية من الخليفة الأول في احتضاره.

الثاني – تقييم الأعمال المذكورة أعلاه / فإن الباحثين الشيعة لا ينظرون نظرة مطابقة لنظرة أهل السنة، ولكن الأهم هو أنهم يعترضون على بعض الأعمال المخالفة للشرع، مثل: رفع "حي على خير العمل" من الأذان وتمييزه في العطاء بين المسلمين وإلغاؤه سهم المؤلفة قلوبهم (على أساس أن الإسلام قوي ولم يعد بحاجة لتأليف قلوب الأعداء أو حديثي العهد بالإسلام)، وغير ذلك من مخالفات لصريح القرآن والسنة، حتى صارت أوامر عمر نصوصاً مقدسة بل أهم منها أحياناً (أنظر الفصل السابق بشأن الطلاق البدعي).

الثالث – سيرة الخليفة عمر، مع أهل البيت(ع) بالخصوص / فعلاوة على أنه كان الرجل الأساسي في بيعة أبي بكر فإن التعامل مع فاطمة(ع) بقيادة الجماعة التي أتت إلى بابها(ع) تهددها بالتحريق، حتى روي أن التحريق بدأ فعلاً وأن باب الدار أحرقت وأن فاطمة(ع) ضربت وحصرت حتى أسقطت حملاً في بطنها، وهذا كله مما لا يقبله أي مسلم فكيف بالمسلم الشيعي الذي يضع نصب عينيه آيات

المودة والتطهير وهل أتى وأحاديثه(ص) في فضلها ومنزلتها العظمى. لذا تجد علماء أهل السنة عتّموا على هذه الأمور كيلا تؤجج العداء في نفوس أتباعهم ضد كبار قادتهم الأولين. أضف إليه أن سلب أبي بكر الزهراء(ع) أرض فدك ورده مطالبتها بها ورد شهادة علي(ع) وولديها(ع) وأم أيمن لم يسانده فيه إلا عمر.

وأما الأسباب النفسية فهي كما مع الخليفة الأول.

- مداخلة شخصية

من الصعب أن يدخل المرء في جماعة ولا يتأثر بأحوالهم كلها أو الأساسي منها، وذلك لأن هذه الجماعة ما كان ليتأسس عندها أي قناعة أو حاجز نفسي إلا لسبب، حقيقي أو خيالي. أيضاً، إن البحث في هذا الأمر جعلني أقتنع أن ما جرى على يد الصاحبين الكبيرين أبي بكر وعمر كان له أبلغ الأثر فيما حصل بعده، وبما أن الجوانب الإيجابية لهما كانت ستتم على يدي علي(ع) وأولاده(ع)، وبشكل أفضل، فإن منعهم(ع) من القيام بذلك يقلل من هذه الإنجازات البكرية والعمرية مقارنة بما كان يمكن أ، يكون، فكيف إذا ضممت إليها الجوانب السلبية وأهمها أصل خلافتهما. بذا، وجدت نفسي تبتعد عنهما مقارنة مع ما كنت عليه قبل ذاك في النظر إليهما كعملاقي الإسلام. وصرت، كعلوي حسني، أردد ما قاله بعض الحسنية قديماً بخصوص ما جرى على الزهراء(ع): "كانت أمنا صدّيقة إبنة نبي مرسل، وقد غضبت على قوم، ونحن غضاب لغضبها".

الخليفة الثالث عثمان بن عفان

دامت خلافته اثنتي عشرة سنة، أنجز فيها أعمال كبيرة أهمها عملان: (1) التوسع في الفتوحات (2) جمع القرآن الكريم والذي يعده المسلمون السنة أهم أعماله، لأن القرآن الكريم هو أهم ما عند المسلمين كونه المصدر الأول للتشريع.

وكما هو الحال مع أبي بكر وعمر، فإن موقف الشيعة من عثمان يختلف تماماً عن موقف السنة، وذلك لنفس الأمور الواردة، مع اختلافات: (أولاً) لم يشترك في بيعة أبي بكر، أي الانحراف الأول كما يرونها (ثانياً) جاء إلى الخلافة في شورى عمر وهي منافسة علنية، أي ليس رغماً عن علي(ع) بالشكل الصارخ نفسه (ثالثاً)

سهولة في الطعن عليه لأن باحثي أهل السنة ذكروا الطعون وناقشوها، فهو لا يمثل خطاً أحمر كما الشيخين، والخطوط الحمراء كما تؤدي إلى التقديس من الموالين تؤدي إلى اشتداد العداء من المعادين.

إن سيرة الخليفة عثمان أدت إلى انتفاض الناس عليه حتى حصاره في بيته وقتله. أما أهم أسباب الثورة، التي يسميها أهل السنة فتنة، فهي تقريبه لأقربائه ومنحهم الأموال الطائلة. ولكن هناك ما هيج الناس عليه بشكل آخر، وهو التماس المباشر مع عماله وولاته من أقربائه الذين انكشفت حقيقة إسلامهم، ومن شاء فليراجع ما قيل فيهم في كتب التاريخ، ولكن يكفي أن نذكر أنه اضطر لعزل ابن عمه الوليد بن عقبة بعد وصول الحال أنه صلى بالناس الفجر أربع ركعات وهو سكران! والعجب منه أنه لم يكتف بإرجاع ابن عمه مروان بن الحكم (وأبيه الحكم) الذي طرده النبي(ص) من المدينة ورفض أبو بكر وعمر طلب عثمان إرجاعه، بل جعله وزيره وساعده الأيمن، وكانت عطاياه له دون حساب، فأعطاه خمس أرمينيا وخمس غزو إفريقيا الثاني؛ ثم أعطاه فدكاً التي اغتصبت من الزهراء(ع) في عهد أبي بكر!

ومما أخذ عليه تنكيله بكبار الصحابة، فضرب عمار حتى غشي عليه، وابن مسعود حتى كسر أضلاعه، ونفى أبا ذر إلى الشام ثم أرجعه إلى المدينة على أخشن مركب حسب أوامره ثم نفاه إلى الربذة حتى مات وحيداً، وأخيراً أمر بقتل محمد بن أبي بكر وصحبه.

وفي نفس اليوم، أمر بإعطاء أبي سفيان مائتي ألف ومروان مائة ألف، فجاء زيد بن أرقم خازن بيت المال وسلمه المفاتيح وبكى، فسأله عثمان: "أتبكي ان وصلت رحمي؟! قال: لا، ولكن أبكي لأني أظنك أنك أخذت هذا المال عوضاً عما كنت أنفقته في سبيل الله في حياة رسول الله(ص)! فقال عثمان: ألق المفاتيح يا ابن أرقم فانا سنجد غيرك".

فماذا عن الخليفة الرابع علي(ع)؟

نجد الأمر انعكس تماماً! فلا علي(ع) يشاد بعهده لأنه - كما عُلِّمنا - كان عهد فتن وحروب داخلية وعدم استقرار، فلا فتوحات ولا إدارة ولا شيء يذكر، ولا

بيعة علي(ع) يعترف بأنها البيعة الوحيدة التي كانت من المسلمين عموماً دون إكراه ولا تعيين من الخليفة السابق ولا من مجموعة اصطلح عليها باسم أهل الحل والعقد.

وانعكس الأمر أيضاً بنظرة الشيعة لعهده، فإنها صارت تراه مليئاً بالدروس والسيرة والعلم. وهذا لا مفاجأة فيه، لأن المعيار عند مدرسة أهل السنة هو الإنجازات على الأرض بينما المعيار عند مدرسة أهل البيت(ع) هو الإنجازات على الإنسان، لأن الإسلام يريد عمارة الأرض ولكن من خلال بناء الإنسان، فالإنجازات على الأرض ضرورية لنشر العقيدة وتوطيد دولة التوحيد ولكن دون بناء الإنسان فإنها سرعان ما تبدأ طريق الحضارات التي صعدت ثم هبطت وتقدم غيرها، وهو الذي حصل مع الحضارة الإسلامية.

على أية حال، تحققت إنجازات بالرغم من الظروف الصعبة التي مر بها الإمام(ع)، وهي: (1) تنظيم الشرطة (2) إنشاء مراكز متخصصة لخدمة العامة كدار المظالم ودار الضالة (3) بناء مدارس للفقه والنحو (4) بناء السجون (5) سك الدرهم الإسلامي (6) تشكيل حروف القرآن (الحركات على الحروف) (7) توسع قليل في الفتوحات.

على أن أهم الإنجازات كان سيرة العدل المطلق ونشر العلم، والذي أعلن عنه في أول بيعته:

- أنه سيسترجع جميع الأموال والإقطاعيات التي منحها عثمان لأقربائه وأصدقائه
- أنه سيساوي في العطاء، وهو أمر استمر عليه حتى بعد أن صار البعض يفارقه
- التشجيع على العلم «سلوني قبل أن تفقدوني»، وعلى التعلم «من يأخذ عني علماً بدرهم»، في حين منع من قبله تدوين حديث النبي(ص) وأمروا بإتلاف صحفه
- توجيه الولاة في كيفية التعامل مع مختلف طبقات المجتمع، بل وحتى مع الحيوانات
- نشر ثقافة النظرة الإنسانية العالمية، حتى قال في عهده لمالك الأشتر: «ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً فإن الناس إثنان: إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق»، والذي اقترح كوفي عنان الأمين العام السابق للأمم المتحدة مناقشته، وبالفعل تم ذلك ثم صُوِّت عليه وأُقِر كإحدى وثائق حقوق الإنسان ومصادر التشريع الدولي.

مقارنة أفعال علي(ع) وأفعال الخلفاء الثلاثة

ضمن الكلام عن الخلفاء الثلاثة ذكرت مثالاً عن تعامل كل منهم مع موضوع بشكل وجدته مخالفاً للشريعة. هنا أقارن بين تعامل علي(ع) أيام خلافته مع أحداث يجمعها إطار واحد مع تلك المواضيع، وهي مقارنة صرت أقوم بها وأنا أتعرف على علي(ع)، فأتعجب من الفارق بينه(ع) وبينهم، وأتعجب أكثر من تركه(ع) بعد الإقبال عليهم ومن معارضته(ع) بعد الانقياد لهم، وأخيراً من الغمز واللمز فيه(ع) من البعض والدفاع الشامل المستميت عنهم.

إن عدم إجراء أبي بكر العقوبة على خالد بن الوليد الذي قتل مسلمين ثم زنى بامرأة القتيل (مالك بن نويرة) في ليلة قتل زوجها، رغم اعتراض الصحابة وحث عمر على إقامة الحد، هو مخالفة واضحة للشريعة لم يجد البعض إلا تثبيت ارتداد المظلوم مالك! أما علي(ع) فقد رفض إبقاء معاوية والياً على الشام وردد قوله تعالى ﴿وما كنت متخذ المضلين عضداً﴾ في إعلان غني يتضمن: (1) أن الوالي بمثابة عضد للحاكم فينبغي النظر فيمن يولّى (2) أن معاوية مضل (3) أنه(ع) لا يمكن أن يتخذ من هذا المضل عضداً له.

هذا الموقف لم يفهمه كثيرون، قالوا: لو أن علياً(ع) أبقى معاوية على الشام ثم بعد استتباب الأمر يمكن له عزله؛ وهو قول جاهل: أولاً أن معاوية ما كان سيتقبل العزل إلا بالقوة أي بالحرب، ثانياً أن علياً(ع) لو فعل ذلك لما استطاع أن يثبت المنهج الصحيح للإمامة التي تمتد عبر الزمان لأنه يثبت مفاهيم ويؤسس لأنظمة ويرسم لسيرة.

ونقطة أخرى في غاية الأهمية: <u>أن علياً(ع) لا تعتريه الغفلة عن الجانب الغيبي مطلقاً</u> فيبقى على يقينه بأن الالتزام بالشريعة يؤدي إلى النجاح نتيجة الدعم الإلهي. فعلي(ع) يطيع الله ورسوله(ص) طاعة مطلقة واضعاً الأمر بيد الله وموقناً بوعده ولكن خذلان الناس هو الذي جر عليهم المصائب. أما أبو بكر ومن أيده، على إيمانهم بالجانب الغيبي، فإنهم يبقون منشدين إلى العلائق المادية بحيث ينظرون إلى قضية خالد وكأنه لا غنى عنه في الحرب.

ويقع إسقاط سهم المؤلفة قلوبهم من مصارف الزكاة من الخليفة عمر من ضمن نفس المنهاج في النظر الاجتهادي لإنسان محدود قبالة النصوص المقدسة. أما علي(ع) فإنه ساوى في العطاء مع معرفته أن الناس اعتادوا على التفريق في العطاء منذ عهد عمر وأن مساواتهم سيهيجهم عليه، ولكنه أبى إلا طاعة الشرع الأقدس، وهي ضمن مسؤولياته الإمامية ودوره التاريخي. هنا أيضاً لم يغفل علي(ع) عن الجانب الغيبي، ولكن لو أن الناس قبلوا ورضوا بذلك لكان ما حصلوا عليه أكثر. في حين أن فعل الخليفة الثاني لم يهتم بهذا، فما يدرينا لو أنه تحرى تأليف قلوب حديثي العهد بالإسلام وغير المسلمين في الأراضي المفتوحة لعله كانت ستتحقق نتائج أكبر بكثير نتيجة الالتزام بأوامر السماء.

أخيراً، ما نقمه الناس بشكل أساسي على الخليفة الثالث عثمان هو "حمل بني أبي معيط على رقاب الناس" حسب تعبير عمر وتنبؤه. فماذا كانت سياسة علي(ع) في هذا الاتجاه؟

جاءه أخوه عقيل يطلب منه مالاً لحاجته الشديدة، وعقيل أكبر من علي(ع) وابن عز ومجد، وجاء إلى أخيه الأصغر الذي بيده بيت مال المسلمين الذي كان يغرف منه الخليفة السابق دون حساب ويعطي أقرباءه؛ فماذا فعل علي(ع)؟ إقترح عليه الصبر حتى يخرج عطاؤه هو ليعطيه له، فقال أنه لا يفي بالغرض، فاقترح، لإقامة الحجة بالنكتة الهادفة، أن يكسر متاجر المسلمين ويسرق منها، أو أن يأخذا سيفيهما ويذهبا إلى الحيرة ويستوليا على أموال التجار! فلما اعترض عقيل على الاثنتين قال له(ع) أن ما يريده منه مشابه لهذا. ثم جاءه(ع) بحديدة وقربها من جسمه فضج منها، فقال له(ع): «أتئن يا عقيل من حديدة أحماها إنسانها للعبه وتجرني إلى نار سجرها جبارها لغضبه؟! أتئن من الأذى ولا أئن من لظى؟!»

فأين فعل علي(ع) من فعل سابقه؟

نعم، عانى(ع) كثيراً من كل هذا، ولكن اللوم على الناس، ممن سبقه من الخلفاء الذين أسسوا للبدع، والرعية التي رضيت بالربح السريع ثم دفعت أضعافه في حروب واستلاب لمقدراتها من بني أمية وإلى يومنا هذا. ولو عاد الزمان بعلي(ع) فلن يغير شيئاً لأنه كما قال(ع): «وإنّي لعلى بيّنة من ربّي ومنهاج من نبيّي، وإنّي

لعلى الطريق الواضح ألفظه لفظاً»، والوضوح في الطريق لا ترسم عليه علامات الاستفهام، فإن حصلت الخسارة فإن البحث يجب أن يسلط على من تعامل معه، وكلهم يعرفون أنه(ع) ميزان الحق ولكن الحق مرّ فصار(ع) بين خيارين: مجاملة العباد على حساب الطريق الواضح أو المضي في ذلك الطريق والمنهاج وإن جانبه العباد وهو ما اختاره حتى قال(ع): «ما أبقى لي الحق من صديق».

بين الشورى والنص

الشيعة يقولون أن هذه الأحداث السلبية سببها الإعراض عن أوامر الله تعالى بالنص على علي(ع) وأولاده أئمة للمسلمين، ليس في العقائد والشريعة فحسب ولكن في منصب الحكام لأنه دون هذا المنصب لا يمكنهم القيام بواجباتهم كأئمة هدى، فكان ما استطاعوا القيام به أقل بكثير مما كانوا سيقومون به لو أن الأمة بايعتهم. ويقولون أن صفة الإمامة لا تنتفي عنهم ولكن كي يصبحوا خلفاء فإن الأمة يجب أن تبايعهم وتمنع من يريد الوقوف بوجههم، وهو ما لم يحصل.

وأن القول بشرعية الخلافة الراشدة لأنها جاءت عن طريق الشورى باطل من وجوه:

(الأول) أن الواقع يكذب ذلك، لأن أبا بكر جاء ببيعة السقيفة التي وصفت بأنها فلتة، وعمر بنص من أبي بكر، وعثمان بتشاور من ستة أشخاص فقط اختارهم عمر حسبما شاء وبطريقة صممها ليس لها علاقة بالقرآن أو السنة، ولأن علياً(ع) جاء ببيعة من الثائرين وأهل المدينة فلم تكن شورى بالمعنى الذي يقول به أهل السنة

(الثاني) أن القرآن الكريم لا ينص على أن الحاكم المسلم يأتي عن طريق الشورى

(الثالث) أن النبي(ص) لم يتكلم كلمة واحدة بخصوص الشورى في الحكم أو كيفية إجرائها

(الرابع) أن النبي(ص) نص بالخلافة على علي(ع) وأولاده(ع)، من خلال أحاديث شريفة وأحداث عظيمة أخذ في بعضها البيعة العامة من المسلمين، وهو تنفيذ لأمر الله تعالى.

هذا يقود إلى بحث "الشورى" في قبالة "النص" عند المدرستين، ولكن المجال لا يسع هنا إلا للنظر السريع في بيعات الخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان.

(أولاً) بيعة أبي بكر في السقيفة

لا أظن أن أكثر من 1% من أهل السنة قد سمع بشيء اسمه بيعة السقيفة! فهذه مما تم كتمانه عن العامة كتماناً شديداً فلا يعرف عنها إلا العلماء وقليل من الباحثين، وحتى العلماء فأكثرهم لا يعرف تفاصيلها، فإن عرف فبدون تحليل أو تفكير في مفارقاتها الكثيرة. فليس مستغرباً أني لم أكن أعرف عنها شيئاً؛ ما أعرفه أن أبا بكر الصديق هو الخليفة الأول لأن المسلمين بايعوه بعد وفاة النبي(ص)، وهو شيء لم يكن مستغرباً لأنه صديقه وصاحبه في الغار وأبو زوجته المفضلة وأفضل الصحابة. وحتى لو فتح باب البحث فلن ينال من هذه الثوابت.

ثم قرأت عن بيعة السقيفة وكيف تمت البيعة للصديق بشكل مذهل حقاً: ثلاثة رجال يستطيعون قلب الطاولة على جماعة كثيرة من الرجال هي صاحبة البلد وهي صاحبة الشوكة، ويصل الأمر إلى دعوة هؤلاء بقتل زعيم الجماعة (سعد بن عبادة سيد الخزرج)، ويتم الأمر بسرعة مذهلة، بيعة لخلافة نبي هؤلاء جميعاً في الوقت الذي لم يجهز ذلك النبي(ص) بعد للغسل والتكفين والصلاة والدفن! أما أهل النبي نفسه فضرب بهم وبحقوقهم ومشاعرهم عرض الحائط. أفيمكن تسمية هذه شورى؟

ذكرت شيئاً منها في الفصل 10، فراجعه.

<u>إهمال أهل البيت(ع)</u>

على فرض أنه لا نص على علي(ع) وعلى فرض أن أهل البيت(ع) لم يكونوا مبرزين على غيرهم فهل كان هناك مانع يمنع تأجيل البيعة إلى فراغهم من تجهيزهم النبي(ص)؟ ولماذا لم يذكروا الأنصار بحق أهل البيت(ع) وبأن عليهم انتظار دفن النبي(ص)؟ ولو كان الخوف من الفتنة هو السبب لماذا لم يردوا الأمر إلى علي(ع) بعد زوال الخطر؟ ولكنهم علموا أن أهل البيت(ع) لو حضروا فستظهر حجتهم وتعلو كلمتهم، وربما كان الأنصار سيبايعوا علياً(ع).

محاولة إجبار علي(ع) والزبير على البيعة

بعد بيعة أبي بكر ودفن النبي(ص) إجتمع الهاشميون وأصحابهم في بيت فاطمة(ع)، فأرسل الخليفة جماعة بقيادة عمر وخالد بن الوليد، فأخرجوا علياً(ع) والزبير يسوقونهما سوقاً عنيفاً، فلما رأت فاطمة ذلك صرخت ونادت: «يا أبا بكر ما أسرع ما أغرتم على أهل بيت رسول الله، والله لا أكلم عمر حتى ألقى الله»".

موقف الهاشميين

مما احتج به علي(ع) والهاشميون على أبي بكر شعراً مخاطبة علي(ع) لأبي بكر بالقول:

فإنْ كُنتَ بالقُربى حَجَجْتَ خَصِيمَهُمْ فَغَيرُكَ أولى بالنَّبيِّ وَأقرَبُ
وَإنْ كُنتَ بالشُّورى مَلَكْتَ أُمُورَهُمْ فَكَيفَ بهِذا وَالمُشِيرُونَ غُيَّبُ؟

وأما العباس بن عبد المطلب فقال لأبي بكر: "فإن كنت برسول الله طلبت فحقنا أخذت، وإن كنت بالمؤمنين طلبت فنحن متقدمين فيهم، وإن كان هذا الأمر إنما يجب لك بالمؤمنين فما وجب إذ كنا كارهين". ومنها قول ابنه الفضل: "يا معشر قريش، وخصوصاً يا بني تيم، إنما أخذتم الخلافة بالنبوة، ونحن أهلها دونكم، ولو طلبنا هذا الأمر الذي نحن أهله لكانت كراهة الناس لنا أعظم من كراهتهم لغيرنا، حسداً منهم لنا وحقداً علينا، وإنا لنعلم أن لصاحبنا عهداً هو ينتهي إليه".

محاولة العلماء تصحيح خلافة أبي بكر

من هذا تقديمه(ص) أبي بكر للصلاة، وهي قضية شهيرة بين أهل السنة في دعم صحة خلافة أبي بكر، والتي ردها الشيعة بأنه صلى صلاة واحدة وقبل أن يتمّها خرج النبي(ص) يتهادى بين رجلين ورجلاه تخطان الأرض من الوجع وصلى بالناس وتأخر أبو بكر. فلو كان النبي(ص) قد قدمه لماذا خرج وهو بهذا الألم ليصلي بالناس صلاة المضطرين جالساً؟

ثم إن هذا يدل على النص لا على الشورى!

وعندها تبرز نقطة هامة أخرى: إن أبا بكر رشح في السقيفة عمر وأبا عبيدة بقوله: "قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين" (أي قبل أن يقوما هما بمبايعته)، فكيف ذلك إن كان عالماً بالنص عليه؟

(ثانياً) أبو بكر ينص على عمر

لما حضرت أبا بكر الوفاة أمر عثمان بن عفان بكتابة النص باستخلاف عمر بن الخطاب، وقبل أن ينطق أبو بكر باسم عمر أغمي عليه، فكتب عثمان اسم عمر، فلما أفاق أبو بكر سأله فأخبره بما كتب فأقره الخليفة. فهذا نص واضح من خليفة يمضي إلى آخر، ولا شورى مطلقاً.

فسبحان الله الذي أوقع القوم فيما اتهموا به نبيهم(ص)، فأغمي على أبي بكر ولم يذكر اسم عمر، فقام عثمان بكتابة اسم عمر – ولكن عمر أمضى الكتاب لأن فيه استخلافه؛ وشتان ما بين الكتابين: كتاب من نبي معصوم يؤمن الأمة الإسلامية برمتها من الضلال أبد الدهر، ما يعني ظهور الإسلام في العالم، وكتاب من خليفة غير معصوم يستخلف رجلاً غير معصوم حكم بعدها هو نفسه على خلافة الأول أنها كانت فلتة!

(ثالثاً) شورى الستة

يعتقد أهل السنة – وكنت مثلهم – بأن الشورى العمرية كانت تطبيقاً أميناً لنظرية الشورى التي يعتقدون بأن آية ﴿وأَمرُهُم شُورى بَينَهُم﴾ (الشورى:38) دعت إليها. إلا أني وجدت أن تلك العملية كانت شورى بشكل محدد وبعدد محدد وشروط محددة. بغض النظر عن هذا، القول بأن شورى الستة أكبر دليل على أن الشورى هي العملية الصحيحة الشرعية لاختيار الخليفة يعني:

أولاً، أنه لا خلافة أبي بكر ولا خلافة عمر بن الخطاب جاءت نتيجة الشورى؛

ثانياً، أن هذه الشورى تأكيد واضح أن النبي(ص) لم يضع طريقة الشورى، وهو أمر لم يستطع أحد أن يدعيه ولا حتى بروايات مكذوبة، في اختلاف واضح عن منهج المدرسة السنية في تصحيح فعل الصحابة الكبار، والسبب في هذا لأن الحكام الذين شجعوا على وضع الروايات – من بني أمية وبني العباس – ما كانوا يريدون لفكرة

الشورى أن تتبلور بحيث يطالبهم الناس بتنفيذها لأنهم كانوا يأخذون البيعة لأولادهم رغماً عن الناس... وإلا لكان عندنا الكثير من الروايات المكذوبة عن النبي(ص) بخصوص الشورى وكيفيتها.

أشرت إلى شورى الستة التي أمر بها عمر في الفصل 10 فراجعه. ولكن المهم في المقام هو ما صرح به عمر نفسه عندما أمر بها – قال: "لو كان أبو عبيدة حياً استخلفته لأنه أمين هذه الأمة، ولو كان سالم مولى أبي حذيفة استخلفته لأنه شديد الحب لله تعالى" (وفي رواية إضافة معاذ بن جبل). بعد ذلك قال: "كنت قد أجمعت بعد مقالتي الأولى أن أولي أمركم رجلاً هو أحراكم أن يحملكم على الحق" (في إشارة كما يبدو إلى علي(ع)) فقالوا له: "ما يمنعك منه؟ قال: لا أتحملها حياً وميتاً!" وعليه:

* لو كان أبو عبيدة أو سالم أو معاذ بن جبل موجوداً لما كانت هناك شورى أصلاً
* أنه مخير بين التعيين والترك، وبالتالي أن النص والشورى لا فرق بينهما عنده.

إن موقف عمر تضمن أيضاً ما يشبه التصريح بعدم إمكانية مخالفة ما اتفقت عليه قريش منذ آخر عهد النبي(ص) (راجع حديث أبي مويهبة). فإنا نجده قادراً على أن يعين أو يترك، يحدد من لهم حق الشورى، يحكم عليهم بالقتل (إن لم يتفقوا في ثلاثة أيام)، خلا شيء واحد: تولية علي(ع)! ويؤكد كل هذا قوله أن ولاية علي(ع) ستحمل الناس على الطريق الصحيح، ولكنه لم يرد أن يتحملها حياً وميتاً! والسبب هو اتفاق قريش على منع أهل البيت(ع) من الخلافة، فقد روي علمه أنهم لن يولوا علياً(ع)، قال: "إن تؤمروا علياً – ولا أراكم فاعلين – تجدوه هادياً مهدياً يأخذ بكم الصراط المستقيم" (مسند أحمد ج1 ص108، وأسد الغابة ج4 ص112، وغيرهما).

ولعل القارئ يجد المفتاح في قوله لعثمان "كأني بك وقد قلّدتك قريش هذا الأمر، فحملت بني أمية وبني أبي معيط على رقاب الناس، وآثرتهم بالفيء، فسارت إليك عصابة من ذؤبان العرب فذبحوك على فراشك ذبحاً!" ثم أخذ بناصيته وقال: "إذا كان ذلك فاذكر قولي فإنه كائن!"، أي أن الرأي المنتصر سيكون لقريش، وبني أمية تحديداً. فكيف يقوم عمر بكل ذلك وهو يعلم نتيجته الكارثية

مسبقاً؟ حقاً، صرت في حيرة من أمري بعد اطلاعي على هذه التناقضات والأحكام المرفوضة قطعاً.

إذاً، شورى السنة – وإن كانت أفضل بكثير من البيعة القسرية لملوك بني أمية وبني العباس ومن بعدهم – لم تكن مثالاً يحتذى به لاحتوائها على عناصر كثيرة تفقدها الشرعية المطلوبة، ولاسيما عنصر موافقة الأمة بشكل عام، وعنصر غياب العدل بين المتشاورين أنفسهم.

الشورى والنص

ناقش الشيعة ما يذهب إليه أهل السنة لتصحيح ما جرى في السقيفة وغيرها بآية 38 سورة الشورى ﴿وأمرُهُم شُورى بَينَهُم﴾، بأن بيعة السقيفة لم تكن ناتجة عن الشورى، فإن عمر بن الخطاب أحد أبطالها قال أنها "كانت فلتة وقى الله شرها" (البخاري ج4 باب رجم الحبلى من الزنى إذا أحصنت)، والفلتة زلة وبغتة ومن غير تدبر ولا مشورة؛ بل روي أنه قال: "فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه" (إبن حجر في الصواعق، الشبهة 6، وغيره).

وقالوا بأن النبي(ص) كان يعلم بما سيجري بعده من خلافات وحوادث من أجل الخلافة، إذ وردت الأحاديث في افتراق أمته إلى فرق كثيرة والأحاديث التي لم تستثن من أصحابه إلا أقل القليل، وأنه(ص) ذكر أن الخلافة ستكون ملكاً عضوضاً، وتحدث عن الإثني عشر خليفة من قريش، وعن ضرورة أن يعرف الإنسان إمام زمانه – فهل يعقل من أي حاكم عادل أن لا يضع حلاً مرضياً لهذه النزاعات التي بدأت خيوطها؟ وكيف بأعدل الناس وخاتم الأنبياء؟ كان لا يترك المدينة لحرب أو غزاة إلا ويخلف عليها أميراً، مع أنه سيرجع إليها، فكيف به وهو سيترك هذه الأمة بلا رجعة؟

أما عقيدة أهل السنة في ترك الحكم إلى الأمة فإن الناس لا يتفق منهم اثنان في فكر أو عمل، فكيف يمكن أن يتفق أهل بلدة واحدة، فضلاً عن أمة كبيرة، على شخص واحد.

وأما ترك الأمر إلى أهل الحل والعقد فإن هؤلاء لا يمكنهم التحرر من أهوائهم النفسية وتحيزاتهم حتى من غير قصد. فبمجرد أن وسعها عمر في ستة إذا بهم يختلفون، ولولا القوة القاهرة لسيف أبي طلحة ومن معه فلربما استمروا في الخلاف دون نتيجة.

وإذا كانت أم المؤمنين عائشة نصحت عمر: "لا تدع أمة محمد بلا راع. إستخلف عليهم ولا تدعهم بعدك هملاً، فإني أخشى عليهم الفتنة" (الإمامة والسياسة ج1 ص28)، فكيف لم يتنبه النبي(ص) إلى ضرورة الاستخلاف أو يشر أحد عليه كما أشارت عائشة؟

رفض الشيعة خلافة الخلفاء

رفض الشيعة ترك الأمر إلى الناس لقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ آل عمران:154 وكلمة ﴿كلّ﴾ دالة على الاستغراق، أي تشمل الخلافة، بل هي الأهم من جميع ما سواها لأن عليها تقوم المصالح الدنيوية والأخروية.

وأما الاختيار ذاته فإنه يقول: ﴿وربُّكَ يخلُقُ ما يشاءُ ويَختارُ ما كانَ لهم الخِيَرة﴾ القصص:68، فالله تعالى هو الذي يختار من يشاء وليس ذلك لأحد من الناس.

ولكن أليسوا أولي الأمر منكم؟

قال الشيعة بأن الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ النساء:59 صريحة في عصمة أولي الأمر لأنها قرنت طاعتهم بطاعة الله ورسوله(ص)، وعليه لا يمكن الأمر بمثلها إلا لمن كان يؤمن منه الخطأ، وهم ليسوا أهل السقيفة وغيرهم.

هذا، ناهيك عن أن القبول بها لجميع خلفاء الدولة الإسلامية يعني القبول بخلافة المتحاربين المتناقضين، فإن أئمة العباسيين قتلوا أئمة الأمويين مثلاً، الأمر الذي جرى عبر القرون وفي كل مكان من الأمة.

بالنسبة للشيعة، فإنه في زمان غيبة الإمام المعصوم، أي الثاني عشر من أهل البيت(ع)، هناك اتجاهان: أحدهما الذي كان الوحيد إلى وقت قريب وهو أن الحاكم العادل يقبل حكمه وأما الجائر فلا يجوز اللهم إلا إذا أدى الخروج عليه إلى الفوضى، والثاني هو أن الفقهاء هم الحكام على الناس وأن قيادة المجتمع هي في الواقع لهم وبالتالي لهم أن يتصدوا للقيادة السياسية التنفيذية وهو ما يسمى اليوم ولاية الفقيه.

أما بالنسبة للسنة، فالأمر هو هو من حيث القبول بأي حاكم مسلم ولا يجوز الخروج عليه إلا إذا جاء بكفر صريح، وهذا ما جعل حركات إسلامية ومفكرين إسلاميين يحكمون بكفر الحكم المسلم ديناً العلماني اتجاهاً سواء كان بشخص حاكم أو حزب أو جماعة.

في الحالتين، فإن الطائفتين تحتاجان إلى الانتخابات التي تعتبر شورى يشترك فيها أبناء الشعب بعد أن أصبحت إمكانية التشاور الفردي أمراً مستحيلاً لزيادة السكان.

إفراط وإفراط

هناك إفراط في ثناء أهل السنة على الخلافة الراشدة (عدا خلافة علي(ع)) وتركيزاً على الفتوحات ومعاني العزة ونشر الإسلام مع أخبار مشكوك فيها (بعضها موضوع قطعاً)، وإفراط من الشيعة في الإعراض عن جميع الأمور الإيجابية المتحققة إلى درجة إهمال حتى مساهمات علي(ع) وأولاده(ع) وشيعته في الفتوحات والإدارة. وهذه أسماء بعض شيعة علي(ع) ممن شارك في الفتوحات والإدارة، حسب الأبجدية (الفتوح بين قوسين):

أبو أيوب الأنصاري (المدفون ببشارة النبي(ص) في حصن القسطنطينية)، أبو ذر الغفاري (الشام وقبرص ومصر)، أبو رافع القبطي مولى النبي(ص) وأولاده (مصر)، أبو الهيثم بن التيهان، الأحنف بن قيس (خراسان وهرات)، بريدة الأسلمي (اليمن على عهده(ص))، بلال بن رباح (الشام)، جعدة بن هبيرة ابن أخت

علي(ع)، حجر بن عدي الكندي (القادسية والمدائن وجلولاء وأرمينية وبيروت)، حذيفة بن اليمان (معركة القادسية والعراق وفارس وأرمينية)، خالد بن سعيد بن العاص الأموي وأخواه أبان وعمرو (الشام)، سلمان الفارسي (الأهواز والمدائن وبقية إيران)، صعصعة بن صوحان وإخوته (العراق)، عبادة بن الصامت (مصر)، عثمان بن حنيف وإخوته، عدي بن حاتم الطائي (العراق)، عمار بن ياسر (العراق وفارس)، قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري (سيف البحر)، محمد بن أبي بكر (ذات الصواري مع الروم)، محمد بن أبي حذيفة الأنصاري (ذات الصواري)، المقداد بن عمرو (الشام)، النعمان بن مقرن، هاشم بن عتبة بن أبي وقاص (جلولاء وخانقين والشام).

فينبغي على أهل السنة أن يعرفوا لشيعة آل محمد(ص) الأوائل جهادهم في نشر الدين؛

كما ينبغي على الشيعة أن يعرفوا قدر أسلافهم الأبرار الذين ما منعهم إصرار قريش على منع مولاهم علي وأولاده(ع) من تبوء خلافة النبي(ص) وإشعال الحرب عليهم من النهوض لقيادة جيوش الفتوح شرقاً وغرباً، فكانوا في وسط الأحداث، عاضين على الجراح صابرين مع أئمتهم(ع)، ولم ينزووا ولم ينكفئوا... عليهم أن يعرفوا أن في الصحابة قمماً شامخة صدقوا ما عاهدوا الله عليه وبقوا على العهد مع نبيهم(ص) حتى قضوا وما بدلوا تبديلاً.

أخيراً، لا بد من قراءة واعية للتاريخ، أي حادثة تاريخية يجب أن تقرأ بعناية، فإن كلمة واحدة يمكن أن تغير اتجاه الحادثة تماماً. خذ مثلاً ما رواه البعض من شعر لمالك بن نويرة (الذي أمر خالد بن الوليد بقتله) يخاطب به قومه بعد أن جمع منهم الزكاة ثم ردها انتظاراً لما ينتهي إليه الأمر في المدينة بعد وفاة النبي(ص)، فقال لهم:

فإن قام بالأمر المجدد قائمٌ ... أَطَعنا وقلنا الدين دين محمدِ

إلا أن آخرين رووه هكذا:

فإن قام بالأمر المجدد قائمٌ ... مَنَعنا وقلنا الدين دين محمدِ

فجعل "منعنا" بدلاً من "أطعنا"، وهذا يقلب المعنى تماماً من الطاعة إلى العصيان، أي من دفع الزكاة إلى منعها، فينقلب حال مالك وقومه من حرمة قتالهم إلى حليتها، وكله من أجل تبرئة أحد أبطال المسلمين.

هذا بتغيير كلمة واحدة، فكيف بتغيير كلمات ونصوص وأحاديث وحتى كتب بكاملها.

لذا، ينبغي النظر بتفحص في التاريخ فإنه كما قال المعرّي، وإن كان مع كثير من المبالغة:

وما كتب التاريخ في كل ما حوتْ ... لقرائها إلاّ حديث ملفقُ
نظرنا لأمر الحاضرين فرابنا ... فكيف بأمر الغابرين نصدّقُ!

الفصل التاسع عشر
أهل البيت(ع)

مقدمة

أولاً – تعريف النظرتين وما تفصله كل منهما

ثانياً – النظر في المسائل المشكلة بين المدرستين في هذا الموضوع

الإمامة

العصمة

"فالواجب علينا محبتهم وموالاتهم وأن نحفظ فيهم وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن ننزلهم المنزلة اللائقة بهم من غير غلوٍ ولا تقصير"

موقع شبكة الإسلام

«فمن الموثوق به على إبلاغ الحجة وتأويل الحكم إلا أعدال الكتاب وأبناء أئمة الهدى ومصابيح الدجى . . . هل تعرفونهم أو تجدونهم إلا من فروع الشجرة المباركة، وبقية الصفوة الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وبرأهم من الآفات، وافترض مودتهم في الكتاب؟!»

علي بن الحسين(ع)

إن الفارق الكبير في النظرة إلى أهل بيت محمد(ص) بين المدرسة السنية والمدرسة الشيعية كان من أهم الدواعي وراء انفتاحي على مذهب أهل البيت(ع)، وذلك من جانبين:

الأول – أن دور أهل البيت(ع) في الإسلام هو المهم في البحث، بالتأكيد أكثر أهمية من مواضيع الخلافات بينهم(ع) وبين الآخرين، أو الخلافة والمناصب، لأن هذا الدور هو القاسم المشترك عبر الزمان والمكان، فلم يكن دورهم مختصاً بزمانهم(ع) وانتهى، كما لم يكن دورهم محدوداً بأماكن سكناهم أو نطاق انتشار الدولة الإسلامية وقتها، بل هو دور يمتد بامتداد الزمن ويشمل العالم بأسره؛ وما الخلافات، وحتى الحروب، إلا بعض المفاتيح الأخرى للاهتداء إلى هذا الدور، وليس العكس، وبالتالي فإن فهم الشيعة لدور أهل البيت(ع) وفشل السنة في ذلك، بعدما تبين لي خطورة ذلك الدور ومركزيته في الإسلام والحياة، جعلني أتبع مذهب أهل البيت(ع) الذي عليه الشيعة.

الثاني – الحالة الغريبة الحاصلة عند جميع أهل السنة وهي ذلك الحب الموجود في نفوسهم لأهل البيت(ع) في الوقت الذي لا يكادون يعرفون شيئاً عن أكثرهم(ع) وفي الوقت الذي لا يعرفون عن دورهم القيادي شيئاً، وهي حالة لا أظنها موجودة مع قوم آخرين لأن الحب إنما ينبع من أسباب، والأسباب لا يمكن أن تكون بدنية لأن الناس بعد زمانهم(ع) لم يعاصروهم لينجذبوا إليهم من هذه الزاوية؛ كما لا يمكن أن تكون الأسباب محبة في أقوالهم(ع) لأن أهل السنة لا يعرفون منها الكثير؛ وحتى الأفعال فإن أهل السنة يعرفون كثيراً مما روي من بطولات علي(ع) وشيئاً مما روي من واقعة الطف في كربلاء ولكن لا يكادون يعرفون شيئاً غيرها؛ إذاً، أهل السنة يحبون مجموعة من الأفراد دون سبب مفهوم في حالة أغلبية هؤلاء الأفراد المحبوبين، فهم موجودون في الأشعار والمقالات وضرب الدفوف كتعبير عن حب حقيقي في القلوب ولكن لو سألتهم عن هذا الحب لما أجابوك جواباً مقنعاً. نعم، العلماء وبعض العوام يعرفون أن حب أهل البيت(ع) فرض قرآني نزل في آية المودة، وأنه فرض نبوي جاء في الأحاديث، ولكن هذا محدود من جانبين: الأول محدودية

الاطلاع بالمقارنة مع اطلاع الشيعة، والثاني هو عدم الرغبة في المضي قدماً في هذا الاتجاه لأنه يفتح أبواب المقارنات مع رجال مقدسين عند أهل السنة ما يوقع في مفارقة كبيرة وهي تفضيل الأقل فضلاً على الأكثر فضلاً وهو ما لا يريد العلماء للعوام أن يطلعوا عليه، بل ويفتح الباب أمام المشاكل التي حصلت في التاريخ والتي من شأن البحث فيها أن يمضي بالباحث أبعد من تغيير جدول الفضل.

وسأعرض في هذا الفصل الموضوع، وذلك:

أولاً – بتعريف النظرتين وما تفصله كل منهما

ثانياً – بالنظر في المسائل المشكلة بين المدرستين في هذا الموضوع.

(لعل من المناسب أن يسترجع القارئ فضائل أهل البيت(ع) في الفصول 5-8.)

أولاً – تعريف النظرتين وما تفصله كل منهما

عقيدة الشيعة في أهل البيت(ع)

الأهم في الاختلاف بين الطائفتين هو العقيدة في دور أهل البيت(ع) وما يستتبعه من مسؤوليات على المسلمين. عقيدة الشيعة في أهل البيت(ع) تتلخص بما يلي:

- أن لهم الإمامة العامة على الناس
- أنهم خلفاء النبي(ص) دون غيرهم
- أنهم – لأجل ذلك – معصومون من الذنوب، وعندهم ما يحتاجون إليه من علم لأداء دورهم.

أما مسؤولية المسلمين تجاههم فهي:

- المودة، وهي الحب الشديد الذي لا تشوبه شائبة من مجانبة أو إعراض
- الاتباع الكامل بلا اعتراض أو رأي
- الموالاة، بمعنى الاتباع مع النصرة والدعم
- البراءة من أعدائهم ومناوئيهم، والابتعاد عن خاذليهم ممن لم يعاديهم ولكن لم ينصرهم.

عقيدة أهل السنة في أهل البيت(ع)

أما عقيدة أهل السنة في مميزات أهل البيت فربما لخصتها بعض الفتاوى المقدمة لموقع"شبكة الإسلام" على شبكة الانترنت، منها فتوى بعنوان "عقيدة أهل السنة والجماعة في أهل البيت" وأخرى بعنوان "منزلة علي بن أبي طالب وأولاده"، أوردهما بتمامهما ثم أستخرج منهما ملخص عقيدة أهل السنة، وهي العقيدة الرسمية التي يعلنها العلماء، لأن الكثير من العوام من أهل السنة عندهم عواطف شديدة تجاه أهل البيت(ع) ترفع منزلة أهل البيت(ع) عما يقوله العلماء، بل وجدت بعض العلماء عندهم من عقيدة أعلى من المعلن ولكنها تبقى خافية في الصدور لا يباح بها لسبب أو لآخر ولكنها تخرج إلى السطح أحياناً (كما فعل المرحوم الشيخ محمد متولي الشعراوي بخصوص مظلومية الزهراء(ع) التي ذكرها، في تفسير آية 16 من سورة السجدة في مسجد الشيخ سليمان بمنطقة الهرم بالجيزة بمصر، في سياق روايته لقول علي(ع)، مناجاة للنبي(ص)، وهو يقف على قبر الزهراء(ع) بعد دفنها: «السلام عليك يا رسول الله، عني وعن ابنتك النازلة في جوارك والسريعة اللحاق بك ... » إلى أن يقول: «وستنبئك ابنتك بتضافر أمتك على هضمها، فأحفها السؤال واستخبرها الحال، هذا ولم يطل العهد ولم يخلق منك الذكر ...»).

رقم الفتوى : 53149 عنوان الفتوى : عقيدة أهل السنة والجماعة في أهل البيت
تاريخ الفتوى : 23 رجب 1425 / 08-09-2004

(وضعت أرقاماً من أجل تقسيم الفتوى إلى فقرات وتسهيل التعليق عليها بعدها.)

السؤال: ما واجبنا اتجاه هذه الأحاديث أو ما يجب على المسلم أن يفعله حتى ينفذ هذه الأحاديث: «أنا وأهل بيتي كمثل سفينة نوح من تعلق بها نجا ومن تخلف عنها هلك»، «من أحب الحسين أحببته ومن أحببته أحبه الله»، «إلزموا مودة أهل البيت»، «أنا سيد العالمين وعلي سيد العرب»، فما واجب المسلم تجاه أهل البيت وسيدنا علي وسيدنا الحسين، وهل زيارة قبورهما وقراءة الفاتحة لهم تعتبر هدية ومودة بيننا وبينهم؟

الفتوى

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه، أما بعـد:

(1) فالأحاديث التي ذكرها الأخ السائل منها الضعيف ومنها الحسن، فأما حديث: «أنا وأهل بيتي كسفينة نوح» فقد رواه الحاكم والطبراني والبزار وهو حديث ضعيف لا يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم، لأن أسانيده لا تخلو من أحد ثلاثة رواة وكلهم ضعفاء:

الأول: الحسن بن أبي جعفر. قال عنه الإمام البخاري منكر الحديث وضعفه الإمام أحمد وغيره.

الثاني: عبد الله بن عبد القدوس. قال عنه الإمام يحيى بن معين: ليس بشيء رافضي خبيث.

الثالث: المفضل بن صالح. قال عنه الإمام البخاري منكر الحديث.

وكذلك حديث: «علي سيد العرب» حديث ضعيف، بل حكم عليه الإمام الذهبي بالوضع، والحديث رواه الحاكم وغيره.

وحديث: «الزموا مودة أهل بيتي» لم نجده في شيء من كتب السنة ودواوينها.

وحديث: «من أحب الحسين...» لم نجده بهذا اللفظ، وإنما رواه ابن ماجه بلفظ: «من أحب الحسن والحسين فقد أحبني ومن أبغضهما فقد أبغضني». وحسنه الألباني.

ويجدر التنبيه إلى أن الحسن ورد في الحديث أيضاً وليس الحسين فقط.

(2) وأما ما يجب علينا في حق أهل البيت، فحقهم علينا عظيم، كيف لا وهم أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وإمام المرسلين صلوات الله وسلامه عليه.

(3) فالواجب علينا (أ) محبتهم (ب) وموالاتهم (ت) وأن نحفظ فيهم وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم (ث) وأن ننزلهم المنزلة اللائقة بهم

(4) من غير غلوٍ ولا تقصير، وما أحسن ما قاله الإمام القحطاني في نونيته:

واحفظ لأهل البيت واجب حقهم   واعرف علياً أيما عرفان
لا تنتقصه ولا تزد في حقه   فعليه تصلى النار طائفتان
إحداهما لا ترتضيه خليفة   وتنصه الأخرى إلهاً ثاني

هذه هي عقيدة أهل السنة والجماعة في أهل البيت وسط من غير جفاء ولا غلو، (أ) لا كما يفعله الذين غلوا في أهل البيت قريباً من غلو النصارى في عيسى عليه السلام، (ب) ولا كما يفعله الذين يسبون أهل البيت ويتبرأون منهم، نعوذ بالله من فعل هؤلاء وهؤلاء.

وأما عن زيارة قبورهم فانظر الفتوى رقم : 14373 والفتاوى المرتبطة بها.

والله أعلم.

تعليقي على الفتوى

(1) تضعيف حديث السفينة على أساس أن الراوي "رافضي خبيث" أي أنه ليس معروفاً بالكذب أو سوء الحفظ مما يطعن بقوة روايته وإنما بسبب معتقده ما يعني أن المعتقد الشيعي (الرافضي) يحكم على رواته بالاعدام عند أئمة الحديث.

(2) الفتوى تعلل عظمة حق أهل البيت(ع) بأنهم أهل بيت النبي(ص)، لأن أهل السنة يظنون أن تعظيم الشيعة لأهل البيت(ع) هي لقربهم النَسَبي من النبي(ص)، وهو فهم خاطئ تماماً، وربما وقع فيه بعض الشيعة؛ نعم، ذلك القرب كان إحدى آليات تأهيلهم لدورهم الكبير، وإلا فلماذا لم تكن نفس المنزلة لغيرهم من القربى وبضمنهم أولاد الأئمة؟

(3) ثم تذكر الفتوى واجبات المسلم تجاه أهل البيت(ع) أنها:

(أ) محبتهم: نعم، أهل السنة يحبون أهل البيت(ع)؛ على أن المتوقع ممن يحب زيداً أن لا يحب عمرواً إذا كان عمرواً قد ظلم زيداً وغصبه حقوقه وعاداه وقاتله وقتله.

(ب) وموالاتهم: يظن أهل السنة أنهم يوالون أهل البيت(ع) كما يجب، ولكن هذه الموالاة تصطدم بجدار صلب وهو الصحابة الكبار، ولاسيما أبو بكر

وعمر وعائشة وطلحة والزبير، فلم أكن أجد مفارقة في موالاة أهل البيت(ع) في ذات الوقت الذي أوالي هؤلاء الصحابة لجهلي بوجود مشكلة أصلاً بين الفريقين وذلك للتعتيم الكامل على ما جرى، ولذلك كان ذلك التعتيم (المشكلة مع أصحاب الجمل لا يمكن تغطيتها لأنها تضمنت حرباً حصدت الألوف، فإن علماء السنة بنوا لها جداراً عالياً هو أن الجميع، علياً(ع) وأعداءه، مأجورون على أفعالهم، وكلهم في الجنة ﴿إخواناً على سرر متقابلين﴾، لكنني وجدت نفسي أشعر بهذه المفارقة بمجرد أن اطلعت على بعض الحقائق، ثم وجدت نفسي أرسم علامات استفهام على مواقف العلماء نتيجة موقفهم من معاوية الذي يشركونه في نفس الحكم).

(ت) وأن نحفظ فيهم وصية رسول الله(ص): كلمة عامة تتضمن جميع الأمور من محبة وموالاة واحترام لأن النبي(ص) أوصى بكل هذا، فإن ثبت التقصير فيها أو في بعضها فإنهم يكونون قد فشلوا في حفظها. وعندما نظرت فيما فعلت الأمة بأهل البيت(ع)، في أفعال بدأت بعد وفاة من أوصى بهم مباشرة، فإني وجدت أن دعوى حفظ أهل السنة لوصية النبي(ص) في العترة الطاهرة لا يثبتها الفشل في إدانة ما جرى عليهم(ع)، بل بلغ دفاع علمائها عن المشتركين فيها إلى حد قلب الحقائق من جانب والتعتيم من جانب آخر. ثم لما قرأت قول السجاد(ع) في أول يوم وصوله مع النساء والصبية من الشام بعد سبيهم عقب مقتل أبيه الحسين(ع): «أيها الناس أصبحنا مطرودين مشردين مذودين شاسعين كأنا أولاد ترك أو كابل من غير جرم اجترمناه ولا مكروه ارتكبناه ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين إن هذا إلا اختلاق؛ والله لو أن النبي تقدم إليهم في قتالنا كما تقدم إليهم في الوصاة بنا لما زادوا على ما فعلوه، فإنا لله وإنا إليه راجعون» علمت أن وصية النبي(ص) فيهم(ع) لم تحفظ منذ ذلك الوقت وحتى يومنا هذا حتى أننا نجد من يبرر ليزيد قتل الحسين(ع) بينما يتهجم على الشيعة الذين يبكون لقتله(ع)! فأي وصية لرسول الله(ص) حفظت والأمر كما وصف الشاعر بإيجاز عبقري:

قَضى أخوهُ خَضيبَ الرأسِ وابْنَتُهُ   غَضبى، وسِبطاهُ مَسمُوماً ومَنحُورا

نعم، وجدت أهل السنة اليوم يرفضون مثل هذه الجرائم ولكنهم لا يعلمون شيئاً عن معظمها، وبغض النظر عن الذي يعلم والذي لا يعلم فإن الموقف ضعيف، وأساس ذلك العلماء الأقدمون ومن تبعهم، الذين حكموا بشرعية الحكام الأولين وصلاحهم، ثم حكموا بخارجية من يقف بوجههم ومن ضمنهم شيعة أهل البيت(ع)، حتى اختلطت الأمور.

(ث) وأن ننزلهم المنزلة اللائقة بهم: ما هي هذه المنزلة؟ هل المحبة غير الهادفة والتغني بالأشعار، أم ما أسسته الآيات من تطهير ومباهلة وغيرها والأحاديث كحديث الثقلين الذي قرنهم(ع) بكتاب الله؟ إن هذه الدعوى تحتاج إلى دليل، والدليل على عكسها تماماً.

(4) هذه المنزلة – تقول الفتوى – تكون "من غير غلو ولا تقصير":

(أ) لا كما يفعله الذين غلوا في أهل البيت "قريباً من غلو النصارى في عيسى(ع)": المقصود هم الشيعة لأن التهمة هي الغلو، وهذا التعبير غير موفق، أولاً لأن المفتي هنا يعتقد أن غلو النصارى هو في جعلهم عيسى(ع) إلهاً، وأي عقيدة لا تجعل في الشخص إلهاً لا يمكن القول أنها "قريباً" من تلك، فالأمر إما تأليه أو لا تأليه. ثانياً، الشيعة يعتقدون في أئمتهم(ع) أنهم عبيد مخلوقون لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً وأن منازلهم في الإسلام بأمر الله ورسوله(ص) فيتحركون من خلالها كعبيد مطيعين لله ورسوله(ص). نعم، هناك من يتصرف بشكل يوحي بالمغالاة، ولبعض ذلك تفسير شرعي في حين أن البعض الآخر غير شرعي ولا يجوز، ولكن لا أحد من الشيعة وصل بأهل البيت(ع) إلى "قريباً" من الغلو في عيسى(ع).

(ب) ولا كما يفعله الذين يسبون أهل البيت ويتبرأون منهم: وهذه عجيبة، لأنهم يعلمون أنه لا يوجود من أهل السنة من يسب أهل البيت(ع) أو يتبرأ منهم؛ فلا شك في أن الفتوى تتحدث عن أمور في الماضي، وهو الذي نقل باستفاضة من سن معاوية سب علي(ع) على المنابر، بل الأمر بالسب. ولكن، هل يعترف المفتي بذنب معاوية هذا؟ وهل يخبر به أتباعه؟ أم أن "نعوذ بالله من فعل هؤلاء وهؤلاء" يبقى الموقف الضعيف الذي يخذل أهل البيت(ع) ويبخل عليهم بالنصرة، وهي من متطلبات الموالاة التي ادعاها؟

* قال السيد محسن الأمين رحمه الله (نقض الوشيعة ص30 و ص106):

"ومن دلائل محبة الأمة لأهل البيت إعراضها عن مذهبهم وهجره ومعاداة من ينتسب إليه ... واتباع من لا يصل إلى درجتهم علماً ... مع أن مذهبهم أقرب إلى الصحة وأولى بالاتباع من غيره لأنهم أخذوه عن آبائهم عن أجدادهم عن رسول الله(ص) عن جبرئيل عن الله..." وقال: "ومن صدق محبة الأمة لإمام أهل البيت علي أمير المؤمنين(ع) أنها عمدت إلى كل فضيلة له تثبت بالنقل الصحيح فأنكرتها تارة ووهنتها أخرى وتناولتها بشتى التأويلات الفاسدة ورمت معارضتها بما لم يصح ..." ثم ذكر قول ابن قتيبة بشأن العلماء (الاختلاف في اللفظ ص47): "وقد رأيت هؤلاء قابلوا الغلو في حب علي بالغلو في تأخيره وبخسه حقه ... واتهموا من ذكره بخير، وتحامى كثير من المحدثين أن يحدثوا بفضائله أو يظهروا ما يجب له وكل تلك الأحاديث لها مخارج صحاح، وجعلوا ابنه الحسين خارجياً شاقاً لعصا المسلمين حلال الدم ... وعنوا بجمع فضائل عمرو بن العاص ومعاوية كأنهم لا يريدونهما بذلك وإنما يريدونه! فإن قال قائل: أخو رسول الله(ص) علي وأبو سبطيه الحسن والحسين وأصحاب الكساء علي وفاطمة والحسن والحسين تمعرت الوجوه وتنكرت العيون وطرت حسائك الصدور!"

أقول: المشاهد المقروء المسموع يكاد يطابق ما وصفه ابن قتيبة، فكيف نصدق أن المحبة لا تشوبها شائبة، دع عنك الموالاة مع ما تعنيه من النصرة ومجافاة الأعداء وهي غير حاصلة؟

<u>رقم الفتوى : 31594 عنوان الفتوى : منزلة علي بن أبي طالب وأولاده</u> تاريخ الفتوى : 04 ربيع الأول 1424 / 06-05-2003

<u>السؤال:</u> لم لا نعترف نحن أهل السنة بولاية علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وأولاده كأئمة؟ وشكراً.

<u>الفتوى</u>

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أما بعد:

(1) فأما ولاية علي بن أبي طالب رضي الله عنه بمعنى أنه ولي لله تعالى فأهل السنة مجمعون عليها إذ لا شك في ذلك، لأنه من السابقين للإسلام الذين قال الله فيهم: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة:100).

(2) وتكفي شهادة النبي صلى الله عليه وسلم له في عدة أحاديث منها قوله: «أليس الله بأولى بالمؤمنين؟» قالوا: بلى، قال: «اللهم من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه، وعاد من عاداه». رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والبيهقي بأسانيد صحاح.

(3) وأما إن كانت ولايته بمعنى أحقيته بوراثة النبي صلى الله عليه وسلم في مقام الدين والدنيا، أي أنه الأحق بالخلافة من أبي بكر وعمر (أ) فهذا غير مُسَلَّم، للإجماع على تفضيل أبي بكر وعمر عليه وأنهما أحق بالخلافة منه، (ب) وكان هو نفسه رضي الله عنه معترفاً بهذا لا ينازعهما فيه وقد بايع لهما بالخلافة، (ت) وفي تفضيل عثمان على عليّ رضي الله عنهما خلاف بين أهل السنة، والأكثرون على تفضيل عثمان.

(4) أما الولاية له ولأولاده بالمعنى الذي يعتقده بعض أهل الزيغ فهي مردودة؛ (أ) لأنها بمعنى العصمة له وللأئمة من ذريته، وأحقيتهم بالولاية الدينية على المؤمنين، (ب) وقد وُجِدَ كثير من المسلمين من الصحابة ومن بعدهم أفضل من بعضهم، (ت) ولأن أساس التفضيل في الإسلام ليس قائماً على النسب والقرابة من النبي صلى الله عليه وسلم، بل هو بالتقوى والإيمان: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات:13).

(5) ومذهب أهل السنة والجماعة أنه لا عصمة لأحد غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وعصمتهم في ما يتعلق بتبليغ الوحي، وهم معصومون عن كبائر الذنوب دون صغائرها، وأهل البيت داخلون تحت قول النبي صلى الله عليه وسلم: «كل بني آدم خطّاء، وخير الخطائين التوابون». رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وحسنه الألباني.

وهم داخلون كذلك تحت الخطاب الإلهي للناس جميعاً وذلك في الحديث القدسي الذي رواه الإمام مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه وفيه: ‹‹يا عبادي: إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم››.

والله أعلم.

تعليقي على الفتوى

(1) أول ما بدأ جعل علياً(ع) كغيره من المهاجرين والأنصار والتابعين عندما أقر بأنه ولي لله من خلال الآية الكريمة ﴿والسابقون الأولون...﴾ مع أن مستند الشيعة على ولايته(ع) هو آية الولاية ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾ (المائدة:55)، وهي ولاية منحصرة فيه(ع) من خلال أداة الحصر "إنما"، وعليه فعلي(ع) في مكان آخر ‹‹لا يرقى إلي الطير›› على حد تعبيره(ع).

(2) يعترف بصحة الحديث في غدير خم ‹‹من كنت مولاه فعلي مولاه››، الواضح أن ولاية علي(ع) متطابقة مع ولاية النبي(ص)، فكيف يقول قبلها أنه(ع) ولي لله لأنه من السابقين الأولين؟

(3) رده اعتقاد الشيعة بولاية علي(ع) بمعنى الأحقية بالخلافة لأمور:

(أ) "للإجماع على تفضيل أبي بكر وعمر عليه وأنهما أحق بالخلافة منه": وهذا معناه أن الشيعة غير داخلين في إجماع المسلمين، وهو ظاهر في تكفير الشيعة، لأنه لو كان المفتي يعتقد بإسلامهم لكان قال "إجماع أهل السنة..."؛ وأما دعواه بتفضيلهما فقد أوضحت ما تبين لي من أنه(ع) أفضل منهما ومن غيرهما (راجع الباب الثاني).

(ب) "وكان هو نفسه رضي الله عنه معترفاً بهذا لا ينازعهما فيه وقد بايع لهما بالخلافة": وهذا غير صحيح لأنه(ع) صرح يوم بيعة السقيفة وما بعدها، وعندما استخلف بعد ربع قرن، أنه الأفضل وأنه لا يعترف بخلافة من تقدم عليه، ويقول(ع): ‹‹فأمسكت يدي، حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمد صلى الله عليه وآله، فخشيت إن لم أنصر الدين وأهله

أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به علي أعظم من فوت ولايتكم التي إنّما هي متاع أيّام قلائل، يزول منهما ما كان كما يزول السراب أو كما ينقشع السحاب، فنهضت في تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق واطمأن الدين و تنهنه» أي بايع وساند الخليفة من أجل الإسلام. وما معنى قوله «لأسالمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها جور إلا عليّ خاصة» إن لم تكن المسالمة لهم والجور عليه(ع) قبل خلافته؟

(ت) "وفي تفضيل عثمان على عليّ رضي الله عنهما خلاف بين أهل السنة، والأكثرون على تفضيل عثمان": يذكر ما عليه علماء مدرسته دون أن يذكر رأيه؛ وإلا لو قبل بوجود خلاف في تفضيل عثمان على علي(ع) فلماذا لا يمتد ذلك إلى أبي بكر وعمر؟ فإن من فضلوا علياً(ع) على عثمان إنما فعلوا ذلك استناداً إلى القرآن والحديث، فهلا امتلك هذا المفتي وغيره الشجاعة لينظروا في الأمر من جديد؟

(4) يعني بأهل الزيغ الشيعة، ورد القول بولاية علي(ع) لأمور:

(أ) "لأنها بمعنى العصمة له وللأئمة من ذريته، وأحقيتهم بالولاية الدينية على المؤمنين": وهذا صحيح، فقد فهم أن القول بولايتهم(ع) بالمعنى الذي يقول به الشيعة يلزم القول بعصمتهم لأنها المانعة لحدوث الخطأ والخطيئة. أما رفضه أحقية علي وأولاده(ع) بالولاية الدينية على المؤمنين فلم أفهمه، لأن الله تعالى أمر بالرجوع إلى أهل العلم فمن ثبت أن عنده العلم، وهم علي(ع) وأولاده(ع)، له ولاية دينية أي مرجعية الفتوى، فما المشكلة في هذا؟

(ب) "وقد وُجِدَ كثير من المسلمين من الصحابة ومن بعدهم أفضل من بعضهم": هذا محل نزاع بين السنة والشيعة، وهو نزاع في إطار ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾، لأن علماء أهل السنة في أزمنة أئمة أهل البيت(ع) صرحوا بأفضلية كل إمام منهم على معاصريه، وهذا يكفي في تعيين ولايتهم(ع) في زمانهم على الأقل، وأما الصحابة فإن الدليل قام على أفضلية علي والحسنين(ع) على باقي الصحابة، وإلا ما معنى أن علياً(ع) هو "نفس النبي(ص)" في آية المباهلة، وما معنى أن الحسنين(ع) هما «سيدا شباب أهل الجنة»؟ فبأي لغة يجب أن يتكلم القرآن العزيز والنبي الكريم(ص) لكي يعلنا ذلك؟!

(ت) "ولأن أساس التفضيل في الإسلام ليس قائماً على النسب والقرابة من النبي صلى الله عليه وسلم، بل هو بالتقوى والإيمان": هناك اشتباه أن الشيعة يضعون أهل البيت(ع) بهذه المنزلة على أساس قرباهم من النبي(ص)، في حين أنها لتفوقهم تقوى وإيماناً وعلماً.

أما الطحاوي فقال بشأن أهل البيت: "ونبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان وبغضهم كفر ونفاق وطغيان".

إدعاؤه "نبغض من يبغضهم" يكذبه واقع الحال، فإن من وصلت به الحال إلى محاربة أهل البيت(ع) في الجمل وصفين لا يمكن إلا أن يكون مبغضاً لهم وعليه يجب أن يبغضه الطحاوي وأتباعه إن كان زعمه صحيحاً، لكنهم يكفرون شيعتهم الذين يفعلون ذلك.

أما أنه يبغض من "بغير الخير يذكرهم" فأي ذكر بغير الخير أفظع من السب على المنابر عشرات السنين والذي سنّه معاوية بن أبي سفيان الذي ما انفك الطحاوي ومن تبعه يترضون عليه بكرة وأصيلاً؟ وأي ذكر بغير الخير أفظع من تكذيب بعض أئمة الهدى حتى وصف بعض هؤلاء الإمام جعفر الصادق(ع) بالكذب؟

وإذا كان "بغضهم كفر ونفاق وطغيان" أفلا امتلك الشجاعة وحكم بكفر ونفاق وطغيان من أبغض علياً(ع) حتى حاربه وسفك الدماء وتربع على خلافة النبي(ص) دون حق ثم فرض ولده الخليع على الأمة وفيها سيد شباب أهل الجنة(ع) ناهيك عن أولاد المهاجرين والأنصار؟

فإذا جمعنا الفتاوى والخطب وما يقوله العلماء من أهل السنة وناقشنا الادعاء بشأن الموقف من أهل البيت(ع)، فإني لا أعترض على ادعاء المحبة لأنه ظاهر بيّن صادق لا يشك فيه أحد، ولكن ادعاء الموالاة بحاجة إلى دليل لم أجده عند تصفح كتب التفسير والحديث والسيرة وعند النظر في موقف هؤلاء العلماء من شيعة أهل البيت.

* إن موقف علماء السنة شمل الموقف من الزهراء(ع)، فكان يمكنهم الإعلان أن الخليفة أبا بكر كان مجتهداً مخطئاً في نزاعه معها(ع)، وعندها يكونون قد سجلوا

التأييد لفاطمة(ع) وإن لم يدينوا الخليفة. ولكنهم اتخذوا موقفاً لا يصلح من علماء: هربوا من بحث المسألة وضربوا عليها ستاراً من التعتيم الكامل فلا يعرف واحد من أهل السنة شيئاً عنها.

ولكن يجب الاعتراف أن حل ذلك الإشكال ليس بالأمر اليسير، لأنهم نظروا في أحاديث النبي(ص) في بضعته الزهراء(ع)، من قبيل «فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني»، فوجدوا أنفسهم بين نارين: تأييدها(ع) وإدانة الخليفة أو تأييد الخليفة وإدانتها(ع)، فاختاروا السلامة بأن سكتوا عن الموضوع، ثم اختاروا السلامة لأتباعهم فعتموا عليه تماماً.

وهكذا، بدأت الرحلة بالتغاضي عن التجاوز على حق شرعي واضح للزهراء(ع)، لتستمر حتى وصلت إلى دماء زوجها وأولادها(ع)، وتمضي إلى تناسي علومهم وهم علماء الأمة وأخذ الدين من غيرهم، لتصل في النهاية إلى التهجم على شيعتهم واضطهادهم مع أنهم هم الذين مثّلوا الأمة في الاستجابة لأمر الله ورسوله(ص) في موالاة أهل البيت(ع).

(5) فيما يخص "العصمة" أنظر البحث حولها فيما سيأتي.

المهدي المنتظر عند الفريقين

لأن المهدي المنتظر يختلف عن باقي أئمة أهل البيت(ع) كونه يمثل عند الشيعة إمامهم الموجود فعلاً اليوم ويمثل عندهم وعند السنة القائد المنصور من هذه الأمة الذي سيحقق هدف العدل الإلهي، ولأنه يمثل حالة تحدّ (في أحواله الفريدة) لمن ينتقل من المذهب السني إلى المذهب الشيعي، فإن هذا المورد مهم في معرفة الفارق بين نظرتي المدرستين إلى أهل البيت(ع) عموماً. وسأتناول هذا باختصار شديد هو أقرب إلى التعريف.

المهدي المنتظر عند أهل السنة

يعتقد أهل السنة بأن المهدي المنتظر سيظهر في آخر الزمان لإقامة دولة العدل، تصديقاً لبشارة النبي(ص) في الحديث «يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن

ملئت ظلماً وجوراً» (سنن أبي داوود ج27 كتاب المهدي، والمستدرك للحاكم ج4 ص557، وأسد الغابة لابن الأثير ج1 ص259، وغيرها). ويؤمنون أنه من ذرية النبي(ص) من ولد فاطمة(ع) لقوله(ص): «المهدي من عترتي من ولد فاطمة» (سنن أبوداوود ج27 ص134، مستدرك الحاكم ج4 ص557، وسنن ابن ماجة، وغيرهم). أما من أي من ولد فاطمة(ع) فإنهم يقولون بأنه سيكون من ذرية الحسن السبط(ع).

المهدي المنتظر عند الشيعة

1- إسمه ونسبه / محمد بن الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب(ع)، فهو من ذرية الحسين(ع) لا ذرية الحسن(ع).

2- ولادته / وعليه فقد ولد في زمان قديم، تحديداً في 15 شعبان سنة 255 هجرية.

3- طول عمره / وبالتالي فإن عمره الشريف يقترب من إثني عشر قرناً.

4- صغر سنه / توفي أبوه(ع) سنة 260هـ فإنه(ع) صار إماماً وهو في الخامسة من عمره.

5- غيبته / ومنذ ذلك التاريخ وإلى حد الآن هو غائب عن الأنظار، ما عدا الفترة ما بين مولده وحتى سنة 329هـ والتي كان يتفاعل مع شيعته من خلال نواب أربعة معروفين (قبورهم معروفة في بغداد) تتابعوا على ذلك الدور، لذلك سميت تلك الفترة "الغيبة الصغرى" لوجود تواصل بينه(ع) وشيعته، مقارنة مع ما بعدها إلى حين الظهور والتي سميت "الغيبة الكبرى" لانقطاع التواصل. مع ذلك، فإن الشيعة – أو أكثرهم – يعيشون عقيدة الإمام المهدي(ع) الموجود حياً يرزق في زمانهم وأنه إمام الهدى، كما يدعون الله بالفرج القريب الذي سيأتي من ظهوره(ع)، إيماناً بوعد النبي(ص) وبشارته.

6- السِّرداب / والذي صار قضية يشنع فيها السنة على الشيعة، فإنه سرداب بيت الإمامين الهادي والعسكري(ع)، وهو البيت الذي ولد فيه المهدي(ع)، ولكن الإمام(ع) لم يغب في السرداب بل هرب منه ومن البيت كله عندما جاءت شرطة الخليفة العباسي

لتكبس البيت؛ فكيف يبقى فيه وقد جاءوا لإلقاء القبض عليه؟! جميع الشيعة يعتقدون أن ظهوره(ع) سيكون من المسجد الحرام في مكة المكرمة، فأين سرداب سامراء من هذا؟!

7- الحكمة من كل هذا / (أولاً) الذي يولد في زمان ظهوره ليس معصوماً وهذا لن يؤهله للقيام بدوره الاستثنائي، بينما المهدي عند الشيعة آخر السلسلة الإثني عشرية التي حددها النبي(ص) (ثانياً) من يولد في زمان ظهوره لن يتمتع بمن ولد في بيت معصوم منفتح على الكرامات والعلوم الإلهية من أبيه العسكري(ع) وحتى الإمام علي(ع) الذي تربى من المنبع النبوي المعصوم النبي(ص) (ثالثاً) الولادة في القرن الثالث الهجري ولدت مشكلة طول العمر، وقد ورد حصوله في الماضي، كما في عمر نوح(ع) والمسيح(ع) والخضر في قصة موسى(ع)، ولكن أهل السنة لا يجدون مشكلة فيها لأنهم نشأوا عليها ولكنهم يجدون صعوبة في تقبل طول عمر المهدي بن الحسن(ع) لأنهم لم ينشأوا على ذلك، بدليل أن أهالي سامراء لا يجدون مشكلة في هذا لأنهم نشأوا عليه.

المهدي المنتظر عند أهالي سامراء – العراق

يعتقد أهالي سامراء في العراق بمهدوية محمد بن الحسن العسكري(ع)، مع أنهم فقهياً شافعيو المذهب وأصولاً على مذهب الأشعري كما هو حال أهل السنة، وفي هذا أكبر دليل على قوة العامل النفسي في العقائد، فإنهم لم يهتموا بالمناقشة العقلية لأهل السنة ضد عقيدة المهدي بن الحسن(ع) بل ذهبوا مع ما دلتهم عليه قلوبهم في الارتباط الروحي مع آل محمد(ص)، ولا سيما الإمام علي الهادي(ع) الذي له عندهم مكانة لا تعلو عليها سوى مكانة النبي(ص).

ويبدو أن هذه المسألة تجد طريقها إلى من توجه بالإخلاص والرغبة فيما عند الله وحده لا شريك له، فقد كانت أمي رحمها الله – السنية على مذهب أبي حنيفة – شديدة الاعتقاد بالإمام المهدي، "صاحب الزمان"، تذهب من بغداد إلى سامراء لزيارة جده وأبيه(ع)، وتنزل إلى السرداب لتدعو من هناك (منذ زمان خادم السرداب المرحوم السيد مصطفى النقيب والد المرحوم اللواء حسن النقيب زوج ابنة عمي الكبرى، وما بعده).

الخلاصة في موالاة أهل البيت(ع)

هي أني لم أقتنع أن أهل السنة عندهم موالاة حقيقية لأهل البيت(ع)، كمنهج عام، أما كحالات فردية هنا وهناك، كنصرة أحد الأئمة في موقف ما وفي زمان ما، فهي موجودة ولكنها لا تجعل منها منهجاً عاماً، بالتأكيد ليس كما هو الحال عند الشيعة.

إذاً، نحن أمام عقيدة محبة وموالاة واتباع من جانب وعقيدة محبة مجردة من جانب. فهل أن ما بأيدينا من نصوص، من القرآن والسنة وأقوال أصحاب الشأن(ع) أنفسهم وأقوال العلماء، يؤيد الاتجاه الأول الذي يعتقد أن هناك موالاة مفروضة تعني النصرة بالموقف والاتباع في الشريعة، أم يؤيد الاتجاه الثاني الذي يكتفي بالمحبة المجردة؟

ثانياً – النظر في المسائل المشكلة بين المدرستين في هذا الموضوع

إن ما اختلفت فيه المدرستان ليست القضية المركزية وهي الإمامة فحسب، بل امتد ذلك إلى أمرين آخرين هما:

- العصمة، بمعنى أن أئمة أهل البيت(ع) هم نفر معصومون كعصمة الأنبياء(ع)

- الوصية، بمعنى أنهم موصى إليهم من النبي(ص) بإدارة شؤون الأمة في دينها ودنياها، ما يعني ضرورة أن يكونوا هم الخلفاء الحكام أيضاً وليس أئمة فقه وشريعة فحسب.

وسأعرض إلى كل الأمرين الأولين، الإمامة والعصمة، ليتبين الفارق الذي جعلني لا أجد مجالاً لتجاوز ما تقوله مدرسة الإمامة لأنهما الضروريان في المقام.

الإمامة

في الباب الثاني عرضت مستندات الشيعة بخصوص إمامة آل محمد(ص) من خلال ما جاء في القرآن والسنة، ومن السيرة وأقوال السلف من العلماء. كما عرضت في الفصل 15 نظرتي المدرستين في الحكم، وفيه مسألة الشورى، فليراجع.

فيكفي القول هنا أن الفارق بين المدرستين في مسألة الإمامة يتعلق بأمرين:

(أولاً) هل أن إمامة الدين وإمامة الدنيا مجتمعة في شخص الإمام؟

(ثانياً) هل أن الشارع نص على أفراد معينين لهذا المنصب أم لا؟ وإذا كان قد نص فمن هم؟

أما الأمر الأول فإن المدرسة السنية فصلت بين المنصبين: إمامة الدين وإمامة الدنيا، فصار هناك أئمة دين وهناك حكام سموا باسم الخلفاء، ثم فصلوا إمامة الدين إلى إمامة أصول وإمامة فقه وإمامة تفسير وإمامة حديث، فصار هناك أبو الحسن الأشعري مثلاً إماماً لأصول الدين، وأبو حنيفة مثلاً إماماً للفقه، والقرطبي مثلاً إماماً للتفسير، والبخاري مثلاً إماماً للحديث؛ وربما اجتمعت أكثر من صفة في شخص واحد، كما حصل مع أحمد بن حنبل الذي كان إماماً في الفقه والحديث. في حين أن المدرسة الشيعية لم تفصل بين المنصبين، فقالت بأن إمام الدين هو إمام الدنيا لأن قوام الحياة يكون أفضل ما يمكن مع إمام الدين العالم بالشؤون الدنيوية بشكل تام، وهو لا يكون إلا للمصطفين من الناس.

إن هذا الاتفاق بين المدرستين على ضرورة وجود الإمام يستند إلى الدليل النقلي والدليل العقلي. أما الدليل النقلي فهو ما ذكر في القرآن والسنة من ضرورة وجود ولاة الأمر، وأما الدليل العقلي فهو اتفاق العقلاء في كل عصر ومصر على ضرورة وجود قيادة تنظم شؤون التجمعات البشرية، كبيرة أو صغيرة.

أما الاختلاف في اجتماع الإمامتين الدينية والدنيوية أو افتراقهما يعود إلى النظرة إلى الناس بعد النبي(ص)، فإن المدرسة السنية رأت أن الصحابة متساوون في حقيقة أنهم غير معصومين وبالتالي فليس لأحد منهم مزية حاسمة تجعل من إمامته أمراً لازماً لا محيد عنه، أما تفضيل أبي بكر على عمر وعمر على عثمان وعثمان على علي(ع) فلم يأتوا عليه بدليل مقبول (مما بينته في الباب الثاني وهذا الباب) وإنما سارت هذه المدرسة مع سير الأحداث فنسجت أحاديث وأدلة تؤصل لهذه الأفضليات، بدليل أن بعض أهل السنة فضلوا علياً(ع) على عثمان مع أن فضائل علي(ع) التي تجعله يتفوق على عثمان هي نفسها التي تجعله يتفوق على الشيخين. في

حين رأت المدرسة الشيعية أن الصحابة غير متساوين لأن الدليل قام على عصمة علي(ع) والحسن(ع) والحسين(ع) من دون باقي الصحابة، وبالتالي فإن المعصوم لا يمكن أن يكون مأموماً لغير المعصوم فلا بد أن يكونوا هم الأئمة على غيرهم.

أما الأمر الثاني فإن المدرسة السنية لا تعترف بوجود نص على أي أحد للإمامة، ما عدا نفر قليل من علماء أهل السنة الذين ادعوا وجود قرينة على إمامة أبي بكر، ولكن أغلبيتهم يرون أن النبي(ص) ترك الأمة دون تحديد إمام. لكن المدرسة الشيعية قالت بضرورة أن ينص الشارع المقدس على شخص الإمام لأن دون ذلك الفوضى ووقوع الاختلاف الذي يضرب الأمة في الصميم، وقد نص القرآن الكريم والنبي الأعظم(ص) على الأئمة أنهم من أهل بيته(ص)، وأنهم إثنا عشر رجلاً أولهم علي(ع) وآخرهم محمد بن الحسن المهدي(ع).

وإنه لمن الملفت أن الاعتقاد بخصوصية الإثني عشر إماماً(ع) وجد له صدى عند بعض علماء المدرسة السنية بحيث صرحوا بأن كلاً منهم(ع) كان من المبرزين، إن لم يكن الأبرز من جميع أئمة الدين في عصره، مع الاعتقاد بأنهم أفضل من أئمة الدنيا من الحكام. هذا الاعتقاد ليس موجوداً في الاتجاه المعاكس، وهذا يشير إلى أن وحدهم أئمة أهل البيت(ع) الذين شكلوا نقطة اتفاق بين المسلمين، هي هامة جداً لمن يبحث عن المشتركات.

العصمة

إن اعتقاد الشيعة بعصمة أهل البيت(ع)، الأئمة الإثني عشر والزهراء(ع)، يعد من أشد الأمور التي ينفر منها أهل السنة ولا يستطيعون تقبلها بحال، وذلك لاعتقادهم بأن العصمة لا تكون إلا للأنبياء(ع).

وأعترف بأني وجدت مفهوم العصمة لآل محمد(ص) في أوائل رحلة التعرف عليهم وعلى مذهبهم يصادم حاجزاً نفسياً في داخلي تأسس على رفض فكرة العصمة لغير الأنبياء(ع).

فما أدلة العصمة؟ وما ضرورتها؟ وهل هي البديل الحق لعصمة الأمة عند أهل السنة؟

(أولاً) أدلة العصمة

في الباب الثاني ذكرت نصوص الكتاب والسنة في أهل البيت(ع)، بعضها في علي(ع) وبعضها فيه(ع) وفاطمة والحسنين(ع) وبعضها في الإثني عشر(ع) جميعاً، والتي تدل بعضها دلالة واضحة على العصمة، بالاستناد إلى اللغة العربية، وإلى طريقة القرآن الكريم، وإلى دور النبي(ص) كمبين للقرآن، وإلى دوره(ص) المولوي بحيث أن أمره ونهيه لا محيص من الالتزام بهما.

سأقوم هنا بسرد أهم أدلة الشيعة على عصمة أهل البيت(ع) باختصار شديد:

أولاً: آية التطهير، ﴿إِنَّما يُرِيدُ اللّهُ لِيُذهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهلَ البَيتِ وَيُطَهِّرَكُم تَطهِيراً﴾ الأحزاب:33. الآية تشير إلى التطهير المعنوي لأهل البيت(ع)، لأن التطهير البدني ليس بذي بال، فما معنى التطهير المعنوي؟

إما أن النفس لا يتطرق إليها الوسوسة بفعل الحرام أو أن فعل الحرام يخطر بالبال ولكن يمتنع امتناعاً مطلقاً، وفي الحالتين فإن الإنسان لا يقع في الذنب وهي العصمة. إذاً، هؤلاء المطهرون معصومون، وهو دليل على دورهم لأن العصمة تضمن عدم الانحراف في التبليغ، فهؤلاء لا بد أن يكونوا هم القادة وإلا لزم أن يصبحوا رعية لغير المعصوم الذي لا يأمن منه الانحراف وهو مستحيل على الله تعالى. (بالإضافة إلى النفس، تبقى قضية العلم، فتأتي أحاديث النبي(ص) في علم علي(ع) لتقطع بأنه محيط بمهمته كلها دون نقص مطلقاً.)

وقد بين النبي(ص) المقصودين عندما غطى(ص) علياً وفاطمة والحسن والحسين(ع) ونفسه الشريفة(ص) بكساء وتلى الآية، وقال «اللهم هؤلاء أهل بيتي». أيضاً، ظل 6-8 أشهر يمر ببيت فاطمة(ع) ويقول: «الصلاة يا أهل البيت، ويتلو الآية.

ثانياً: آية المباهلة، ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتُ اللّهِ عَلَى الْكَـذِبِينَ﴾ آل عمران:61. وهي التي نزلت تأمر النبي(ص) أن يدعو الوفد المسيحي، الذي جاء من نجران يباحثه حول حقيقة المسيح(ع)، إلى المباهلة.

ما معنى أن تأمر الآية بالإتيان بالأنفس؟ المتوقع أن يأمر المولى سبحانه نبيه(ص) بشيء مثل "نأتي نحن وأنتم"، لا "ندعو أنفسنا وأنفسكم"، إذ ما معنى أن يدعو شخص نفسه؟ إذاً، كأن الآية تقول بأن هذا العبد الصالح كأنه وصل الغاية في الكمال الإنساني وهو النبي(ص). إن وصف علي(ع) بأنه "نفس النبي(ص)" يعطيه العصمة التي كانت للنبي(ص) المعصوم.

ثالثاً - حديث الثِّقلَين، «إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي»، وهو جعل التمسك بآل محمد(ص) كالتمسك بالقرآن، وأن الأمن من الضلال لا يكون إلا باتباعهما جميعاً، وبما أن القرآن معصوم فلا بد أن يكونوا(ع) معصومين.

رابعاً - حديث المنزلة، «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ ... إلا أنه لا نبي بعدي»، وهو يعطي لعلي(ع) جميع ما كان للنبي(ص) عدا النبوة، ومنها العصمة.

سادساً – قرائن على العصمة، منها:

حديث الغدير، قال(ص): «إن الله مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم فمن كنت مولاه فعليٌّ مولاه»، وهو قرينة على العصمة، لأنه لما كان النبي(ص) معصوماً وكان أولى بالمسلمين من أنفسهم وجاء وجعلها لعلي(ع) بحيث صار علي(ع) أولى بالناس من أنفسهم فإنه(ع) ينبغي أن يكون معصوماً لأنه إن لم يكن معصوماً ربما يأمر أمراً خطأً يكون على الإنسان أن ينفذه كائناً ما كان مع أنه يراه خطئاً في حقه.

(ثانياً) لماذا العصمة؟

أما الدليل النقلي فمن آيات الكتاب والأحاديث الشريفة؛ منها:

(1) قوله تعالى: ﴿وَجَعَلنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهدُونَ بِأَمرِنَا وَأَوحَينا إِلَيهِمْ فِعلَ الخَيرات...﴾ الأنبياء:73 وقوله ﴿وَجَعَلنَا مِنهُمْ أَئِمَّةً يَهدُونَ بِأَمرِنَا لَمّا صَبَرُوا...﴾ السجدة:24، وفيها أن الإمامة ليست من اختيار الناس، كما أن فيها الإعلان بأن هؤلاء الأئمة المجعولين من الله تعالى يهدون بأمره سبحانه مطلقاً دون تقييد.

(2) قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ البقرة:124، وفيها أن الإمامة لا تشمل أي شخص يمكن أن يطلق عليه صفة الظلم، وطالما أن كل إنسان غير معصوم يمكن أن يأتي منه الظلم، إذاً عهد الإمامة لا يشمل إلا المعصوم.

وأما من الحديث الشريف فقد أوردت العديد من الأحاديث فيما تقدم، وهي تجمع بين صفة الإمامة في آل محمد(ص) وصفة العصمة فيهم، وبالجمع بينهما نخرج بأن الإمام معصوم.

وهناك أدلة على ضرورة عصمة الإمام كإمام، منها من أحاديث الأئمة(ع)، أقتطف منها:

«فمن الموثوق به على إبلاغ الحجة وتأويل الحكم إلا أعدال الكتاب ... الذين احتج الله بهم على عباده، ولم يدع الخلق سدى من غير حجة؟! هل تعرفونهم أو تجدونهم إلا من فروع الشجرة المباركة، وبقية الصفوة الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وبرأهم من الآفات، وافترض مودتهم في الكتاب؟!»

«لو كنا نحدث الناس برأينا وهوانا لهلكنا، ولكنا نحدثهم بأحاديث نكنزها عن رسول الله»

«إنا إن تحدثنا حدثنا بموافقة القرآن، وموافقة السنة، إنا عن الله وعن رسوله نحدث»

وغيرها الكثير، وكلها واضحة في عصمة الإمام، وضرورتها، لأنه إذا أخطأ الإمام فإن الانحراف يقع، وإذا جاز الخطأ مرة فإنه يجوز، بل سيحصل قطعاً، مرات ومرات، ما يؤدي إلى اشتداد الانحراف إلى أن تفشل الإمامة كمرجعية هادية وحارسة من الانحراف. بل أن الناس إذا اعتقدوا بجواز الخطأ على الإمام فلن يجدوا أنفسهم مضطرين إلى اتباعه، بل لعل فيهم من هو أفضل منه، وهو ماحصل عندما أعرضوا عن نصوص إمامة آل محمد(ع) وعصمتهم فصارت قيادة الناس مفتوحة على الغارب، والنتيجة ما نراه من تفرق الأمة شيعاً ومذاهب حتى تكاد تكون أمماً مختلفة يكفر بعضها بعضاً، الأمر الذي حذر منه النبي(ص) في خطبة الوداع حيث

قال: «فلا ترجعن كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي» ما يعني أن العصمة المانعة من العودة إلى الكفر نتيجة الاختلاف هي القرآن وأهل البيت(ع)؛ وهو ما أكده الأئمة(ع) كقول علي بن الحسين(ع) الوارد أعلاه (الصواعق لابن حجر ص233): «فإلى من يفزع خلف هذه الأمة، وقد درست أعلام هذه الملة، ودانت الأمة بالفرقة والاختلاف، يكفر بعضهم بعضاً، والله تعالى يقول: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات﴾ ...»

(وا مصيبتاه! يقول الإمام السجاد(ع) أن أعلام الملة قد درست وهو لم يزل في القرن الأول!)

إذاً، العصمة ضرورية لهذا الدور الإمامي وإلا تعذر على الاثنين: الإمام والمأموم، وهم يقرأون القرآن الذي يؤكد مرجعية النبي(ص) ولزوم اتباعه مطلقاً بحيث يوجه المكلفين إلى دواخل نفوسهم: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت، ويسلموا تسليماً﴾ النساء:65، ويقول(ص): «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به»، بل وصل الأمر إلى أن الله تعالى قرنه(ص) بذاته المقدسة حتى نسب الإفضال من النبي(ص): ﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون﴾ براءة:59 ﴿ومانقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾ براءة:74، مع ذلك وجد أقرب الناس منه(ص) من الصحابة أنفسهم عصية على اتباع أوامره مرات ومرات، فكيف سيطيعون من بعده رجالاً غير معصومين؟

(ثالثاً) القول – عملياً – بعصمة الصحابة

صحيح أن أهل السنة لا يقولون بعصمة الصحابة، ولكن على المستوى النظري فقط، لأنه على المستوى التطبيقي من الصعب أن يتقبل السني تخطئة أي صحابي، وإذا تقبل ذلك فمن الصعب جداً أن يقول هو بذلك. أما الصحابة الكبار، وحتى من تأخر إسلامهم، فهؤلاء من الصعب قبول تخطئتهم حتى لو أقمت

الدليل على ارتكابهم الكبائر ومنها القتل، عندها أقصى ما يمكن هو السكوت. فإذا جئت إلى الخلفاء الثلاثة المتقدمين على علي(ع)، وبالذات الشيخين، ومعهم أم المؤمنين عائشة، فإن المسألة تصبح في عداد المستحيلات، بدليل أن مدرسة أهل السنة قامت بتخطئة جميع من ثار على الخليفة الثالث، وبضمنهم صحابة، من أجل الامتناع عن تخطئة شخص واحد هو الخليفة.

إن هذا الموقف المتناقض: الحساسية المفرطة تجاه القول بعصمة عدد من الأفراد يزيدون قليلاً عن العشرة، أي أهل البيت(ع)، مقابل القول بصحة عمل جميع الصحابة وهم بالألوف، فإن أخطأوا فإنهم يؤجرون لأنهم لا يخطئون إلا نتيجة اجتهاد مقبول، هو موقف لم أجده مقبولاً لأن فيه – وبكل صراحة – تلاعب بالمعايير الدينية ذاتها.

ويتصاعد الأمر ليصل إلى حدود غير معقولة لا حاجة لها، فقد حكمت مدرسة أهل السنة على صحة رواية أي صحابي، وبذلك فإنها لم تحكم على الصحابي بالعصمة من ارتكاب الذنب أو تعمد الكذب فحسب، بل بالعصمة من أن ينسى أو يختلط عليه الحديث أو يتعرض للخرف في آخر حياته، وهذا موقف متطرف لا يكاد يصدق.

- أساس الموقف السني تجاه الصحابة

إن هذا الموقف المتطرف في القول بالعصمة العملية للصحابة بني على أساس أن مجرد رؤية النبي(ص) تجعل الإنسان الصحابي وكأنه من سنخ آخر غير البشر – قال ابن حجر (الصواعق المحرقة باب فضائل الصحابة): "وأما ما اختص به الصحابة رضوان الله عليهم وفازوا به من مشاهدة طلعته ورؤية ذاته المشرفة المكرمة فأمر من وراء العقل ....، ومن ثم سئل عبد الله ابن المبارك ... أيهما أفضل معاوية أو عمر بن عبد العزيز؟ فقال: الغبار الذي دخل أنف فرس معاوية مع رسول الله خير من عمر ابن عبد العزيز كذا وكذا مرة"! فليس معاوية فحسب، ولا فرسه فحسب، وإنما الغبار الذي دخل فرسه يكفي لتفضيله على رجل ورع تقي عادل شهد له الناس جميعاً مثل عمر بن عبد العزيز – فهل أن ذلك الغبار – على فرض أنه لامس الجسد الشريف لسيد المرسلين(ص) – إذا دخل أنف معاوية

بعد أن دخل أنف فرسه سيغير من طبيعة معاوية ونفسيته؟! أم يغير من الحكم على العظائم من أعماله التي تنوعت بين الخروج عن طاعة علي(ع) الذي بايعه المهاجرون والأنصار، وقتاله(ع) من أجل الملك حتى قتل عشرات الألوف، وقتل أصحابه ومنهم أصحاب النبي(ص) (الذي لا يبدو أن الغبار الذي دخل في أنوفهم لهم قيمة ههنا!)، وسن سبه(ع) مع أنه(ص) قال: «من سب علياً فقد سبني»، ثم بايع لابنه المنحرف حتى بويع ففعل ما فعل؟ ولا أدري أفي كتاب الله أم في حديث النبي(ص) مثل هذه المبالغة المفرطة؟

ثم يصرح ابن حجر بما يقرب من القول الصريح بالعصمة: "ومنها قوله تعالى ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس﴾ البقرة:143، والصحابة في هذه الآية والتي قبلها هم المشافهون بهذا الخطاب على لسان رسول الله حقيقة، فانظر إلى كونه تعالى خلقهم عدولاً وخياراً ليكونوا شهداء على بقية الأمم يوم القيامة"! فهم مخلوقون عدولاً، والعدالة هي العصمة أو قريبة منها.

ولسائل أن يسأله: إذا كانوا خلقوا عدولاً كيف يا ترى عاند الكثيرون منهم فلم يدخلوا الدين الإسلامي إلا بعد سنوات، وبعضهم بعد أن رأى فعل السيوف، وبعضهم بعد أن أراق بسيفه دماء المسلمين المؤمنين؟! أم أن خلقهم كان على مرحلتين: الأولى كباقي البشر، والثانية عندما قرروا الدخول في الإسلام؟!

(رابعاً) الخدش في عصمة النبي(ص) ورفض تخطئة الصحابي

وتصل المفارقات في الموقف من العصمة قمتها في الإصرار على عدم تخطئة الصحابة، فإن كان فهو نتيجة اجتهاد صاحبه مأجور أجراً واحداً، مع الإصرار على خطأ النبي(ص) في مناسبات عدة. (راجع ما ذكرناه في الفصل 14).

عود على بدء: صعوبة تقبل الأمر!

عند النظر إلى الأمرين: رفض عصمة أي أحد غير النبي(ص) من جانب وقبول وقوع النبي(ص) في الخطأ والنسيان والمخالفة حتى بالأمور الشرعية من جانب آخر فإني وجدت نفسي تميل إلى أن رفض مدرسة أهل السنة لعصمة الأئمة(ع) لا

ينبع من إعطاء صفة العصمة للنبي(ص) وحده وإنما ينبع من الحرص على تصحيح خلافة الخلفاء ولاسيما الراشدين الثلاثة الأوائل، أو على الأقل أن الأمر الثاني هو الأهم.

أخيراً، كان موقفي الشخصي كالآتي: طالما أن القول بعصمة أئمة أهل البيت(ع) هو الذي يعطي الإمامة – التي كنت قد اقتنعت بها تماماً – الإطار الضروري لأداء وظيفتها في الهدى من جانب ومنع الانحراف من جانب آخر، في نفس الوقت الذي لا يرفع هؤلاء الأئمة(ع) فوق مقام النبي(ص)، بل هم متلقون منه(ص) مؤتمرون بأمره(ص) عاملون بشريعته(ص) بشكل تام كامل على العكس من الكثير من غيرهم ممن خالف ذلك قليلاً أو كثيراً، فإني لم أجد أي مشكلة مطلقاً في الإيمان بعصمة الأئمة من آل محمد(ص)، بل وجدت مشكلة في عدم الإيمان بها لأن وظائف الإمامة تصبح في مهب ريح الهوى والضعف البشري غير المعصوم كما أوضحت من قبل.

ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم

لعلمه الذين يستنبطونه منهم

الباب الرابع

الشيعة ومذهب أهل البيت (ع)

الفصل التاسع

متى بدأ التشيع؟

النظريات المختلفة

نظرية المؤامرة اليهودية

نظرية المؤامرة الفارسية

كلها رجم بالغيب، أو افتراء بالهوى

فمتى بدأ التشيع؟

ولكن، متى بدأ التسنن؟

‹‹والذي نفسي بيده، إن هذا — علي — وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة››

رسول الله (ص)

"إن جماعة من الصحابة كانوا يتشيعون لعلي ويرون استحقاقه على غيره . . ."

إبن خلدون

بعد البحث في الدليل النقلي، من قرآن وحديث خصوصاً، وأقوال العلماء، والدليل العقلي والنظر في المسألة، ثم في ما عليه المدرستان، مدرسة أهل السنة التي كنت أتبعها، ومدرسة آل محمد(ص) التي عليها الشيعة الإمامية، واتضاح الأمر وضوح الشمس، بالدليل القاطع (مما قدمته في الفصول السابقة) على أحقية أئمة آل محمد(ع) في قيادة الأمة أولاً، وعلى تميز ما عليه شيعتهم في مدرستهم المعروفة اليوم من أقوالهم في الأصول والفروع وفي النظر إلى التاريخ وفي نظرية الحكم، فإني وجدت مهماً معرفة متى بدأ التشيع، خصوصاً مع وجود نظريات متعددة منها ما يجعله بدعة منحرفة أسسها أعداء الإسلام، أو أسسها من انهارت دولتهم بالفتح، أو نتيجة الصراعات السياسية. إن الإجابة عن هذا السؤال إما يؤدي إلى القول بأن الشيعة الإمامية يصدق عليهم وصف التشيع لأهل البيت(ع) وأن مذهبهم هو مذهب أهل البيت(ع) أو أنهم شيء آخر، وهو بحث أتركه للفصل القادم؛ ولكن الآن أعرض النظريات المختلفة، ثم أعرض ما يقوله الشيعة بأنفسهم من خلال ردهم على تلك النظريات ومن خلال ما يعرضون من دليل على ما يدعون.

النظريات المختلفة

حسب التسلسل الزمني، فإن النظريات غير الشيعية في بدء التشيع هي أنه بدأ:

(1) في زمان الخلافة الراشدة بعد أن اصطف بعض الصحابة مع علي(ع).

(2) في ما يسمونه الفتنة الكبرى التي أدت إلى مقتل الخليفة عثمان بن عفان، على أساس أن الفتنة أثارها يهودي إسمه عبد الله بن سبأ، كان أول من طرح فكرة أن علياً(ع) هو وصي النبي(ص) وأن الخلفاء الثلاثة غصبوا حق علي(ع)، وتنقل في الأمصار وأثار الناس وبضمنهم بعض الصحابة؛ وعليه بدأ التشيع لعلي(ع) كتأسيس يهودي.

(3) بعد مقتل الحسين(ع) وندم أهل الكوفة، كرد فعل على سوء فعل الشيعة أنفسهم.

(4) كفكرة فارسية استغلت ولادة علي بن الحسين(ع) من بنت آخر ملوك الفرس من أجل رفع الفرس بعد هزيمتهم؛ وعليه فالتشيع فكرة فارسية طارئة.

(5) في القرن الثاني الهجري على عهد جعفر الصادق(ع) باعتبار المدرسة المسماة باسمه.

وهكذا، فما عدا النظرية الأولى، والتي ربما لم يعد يقول بها اليوم أحد، فإن هذه النظريات ما بين رد فعل عاطفي على فشل أهل الكوفة (أي مورد جديد لشتم أهل العراق!)، ومؤامرة لأعداء الإسلام من اليهود، واختراع لأعداء الإسلام والعروبة الفرس لرد الاعتبار لوضعهم، أو تأسيس لطائفة بعد قرن ونصف من عهد النبي(ص)، فحالها حال غيرها من الطوائف التي نشأت بعد زمان طويل من عهد الوحي. ولا شك في أن أي مسلم سيجد نفسه مشمئزة من مذهب يتأسس على هذا النحو، وسيجد نفسه معادياً لأتباعه قديماً وحديثاً، وفي أحسن الأحوال لا يجد فيه جاذبية تحفزه على البحث، وفي حالات نادرة ربما يقول بأنه أحد المذاهب دون ميزة مرجحة.

ومن القرائن التي يجدر الالتفات إليها هي أن نظريتي التأسيس اليهودي والتأسيس الفارسي هما اللتان تلقيان رواجاً هائلاً في أيامنا، وهذا لا يمكن أن ينفك عن الأحوال السياسية.

أما النظرية الثالثة، نظرية الندم الكوفي، فهذه لا تزال موجودة هي الأخرى، ولكن في مقام مهاجمة الشيعة في أمرين بالخصوص:

(الأول) لسلبهم دعوى مودة أهل البيت(ع) وموالاتهم من جانب واتهام أهل السنة بالفشل فيها، فتصبح مودة الشيعة ندماً، فترتد الدعوى عليهم ويخرج أهل السنة سالمين؛

(الثاني) لمهاجمة بعض طقوس الشيعة في أيام محرم ويوم عاشوراء في إحياء ذكرى كربلاء، أن هذه الأعمال تعبير عن الندم لخذلان الحسين(ع) في ذلك الوقت.

وأما النظرية الخامسة فهي وإن كانت تدفع بزمن تأسيس التشيع إلى قرن أو أكثر من العهد النبوي، ما يجعلها تسقط أصالة التشيع، إلا أنها ليست بتلك البشاعة كنظريتي التأسيس اليهودي والفارسي وبالتالي لا حاجة لها عند أعداء التشيع. على أنه بقي استخدام واحد وهو تسمية المذهب باسم "المذهب الجعفري"، ما يجعله، في أحسن الأحوال، واحداً من المذاهب كـ "المذهب الحنفي" أو "الشافعي"، وهي درجة لم يحصل عليها إلا من القلة من علماء السنة كالمرحوم محمود شلتوت شيخ الأزهر الأسبق الذي أفتى بصحة عمل المكلفين وفق المذهب الجعفري.

وقبل أن أعرض النظرية اليهودية والنظرية الفارسية (النظريتين الثانية والرابعة) أذكر ما يقوله علماء أهل السنة الذين اعترفوا بوجود الشيعة في الصحابة

قبل فتنة مقتل عثمان، أي النظرية الأولى، فإنهم ذكروا بوجود شيعة من الصحابة. من هؤلاء المؤرخ المعروف إبن خلدون الذي قال في تاريخه (ج3 ص171): "أن جماعة من الصحابة كانوا يتشيعون لعلي ويرون استحقاقه على غيره، ولما عدل به إلى سواه تأففوا من ذلك وأسفوا له، مثل الزبير ومعه عمار بن ياسر والمقداد بن الأسود وغيرهم، إلا أن القوم لرسوخ قدمهم في الدين وحرصهم على الألفة لم يزيدوا في ذلك على النجوى بالتأفف والأسف".

وقال العلامة محمد كرد علي (خطط الشام ص251): "عرف جماعة من كبار الصحابة بموالاة علي في عصر رسول الله(ص)، مثل سلمان الفارسي، القائل: بايعنا رسول الله على النصح للمسلمين، والائتمام بعلي بن أبي طالب، والموالاة له، ومثل أبي سعيد الخدري القائل: أمر الناس بخمس، فعملوا بأربع، وتركوا واحدة، ولما سئل عن الأربع قال: الصلاة والزكاة والصوم والحج، قيل: فما الواحدة التي تركوها؟ قال: ولاية علي بن أبي طالب، قيل له: وإنها لمفروضة معهن؟ قال: نعم هي مفروضة معهن، ومثل أبي ذر الغفاري وعمار بن ياسر، وحذيفة بن اليمان وذي الشهادتين، وأبي أيوب الأنصاري، وخالد بن سعيد، وقيس بن سعد. وأما ما ذهب إليه بعض الكتاب من أن التشيع من بدعة عبد الله بن سبأ، فهو وهم، وقلة معرفة بحقيقة مذهبهم ..."

وفي هذا تصريح:

- أن جماعة من كبار الصحابة عرفوا بموالاة علي(ع) على عهد النبي(ص)
- أنهم كانوا من أبرز السابقين من الذين وردت في فضائلهم أحاديث نبوية عظيمة
- أنهم لم يرضوا ببيعة أبي بكر وعمر وعثمان، بل أظهروا تأففهم وأسفهم
- لم يزيدوا على التأفف والأسف لا لشرعية الخلفاء ولكن لتقواهم وحرصهم على الوحدة
- أن هؤلاء الصحابة نقلوا أمر النبي(ص) بموالاة علي(ع) كجزء من البيعة الإسلامية، ويأمر النبي(ص) الناس بولاية علي(ع) كجزء لا يتجزأ من أركان الإسلام الخمسة
- أن الناس اختاروا العمل بالأركان الأربعة واختاروا ترك ولاية علي(ع)
- أن القول بأن عبد الله بن سبأ هو الذي ابتدع التشيع وهم وقلة معرفة بالشيعة.

وذهب الشيخ الأزهري أبو زهرة إلى أن التشيع هو أقدم المذاهب الإسلامية، وقد ظهر في آخر خلافة عثمان، ثم انتشر على عهد علي(ع) وذلك أنه "كلما

اختلط بالناس ازدادوا إعجاباً بمواهبه، وقوة دينه وعلمه" (المذاهب الإسلامية ص51)، أي أن التشيع بدأ في آخر عهد عثمان، ولكن لا بشكله السبئي اليهودي.

كما يؤخره البعض الآخر قليلاً فيقول أنه بدأ في وقعة الجمل أوائل خلافة علي(ع)، أو بعد ظهور الخوارج في صفين، أو أن فرقة الشيعة أصبحت حزباً سياسياً لعلي وبنيه في عهد الحسن(ع) (علي وبنوه لطه حسين ص189).

أقول: لا يبعد قول أبي زهرة من الصواب من حيث ظهور التشيع كحزب محدد المعالم آخر عهد عثمان، ثم اشتداد ساعده بعد بيعة علي(ع) وما رآه الناس من سيرته الصالحة وسجاياه العظيمة وتعامله مع القريب والبعيد والصديق والعدو وعلمه الجم، فصار الناس يعرفونه ببعض ما عرفه الله ورسوله(ص) وببعض ما عرفه الصحابة من الشيعة الأولين المذكورين أعلاه. وكلما تتابعت الأحداث اشتد ظهور هذا الحزب-المذهب ولاسيما مع اشتداد ظهور الحزب الأموي المخالف.

نظرية المؤامرة اليهودية

عبد الله بن سبأ

على الرغم من أني – احتراماً لعقلي – لم أصدق بقصة عبد الله بن سبأ أصلاً، فهي تلائم أعماراً صغيرة عن شخصية تقرب من "سوبرمان" (حسب وصف د. عبد الحميد الهلابي صاحب رسالة جامعية في ابن سبأ) يتنقل في البلاد ويجمع الأنصار، وله قدرات عظيمة في إقناع أكابر الصحابة بعقائد جديدة، مع أنه يهودي أسلم بعد عهد النبوة وهم من السابقين الأولين الذين أسلموا على يدي النبي(ص) وتعلموا منه وعاشروه وجاهدوا بين يديه؛ وعلى الرغم من أني لم أجد مشكلة في ثورة المسلمين على الخليفة عثمان بعد أن ضاقوا ذرعاً بأقربائه الولاة وبعد أن يئسوا من إصلاح الحال، فلم أجد مبرراً لمحاولة البحث عن أسباب أخرى للثورة – حتى إن سميت فتنة – بحيث تكون مؤامرة يهودي ضد الإسلام؛ إلا أني مضطر للإشارة إلى قصة هذا الرجل لأنها منتشرة بين أهل السنة كحقيقة واقعة وكأنها من التنزيل المبين.

باختصار، يقولون أن عبد الله بن سبأ يهودي أظهر الإسلام زمن الخليفة عثمان بن عفان وتنقل في بلاد الإسلام عازماً على نشر الضلالة بين المسلمين، بدءاً

من سنة 33هـ، أي قبل مقتل عثمان بسنتين، وتنقل بين الحجاز والبصرة والكوفة ومصر، وفي مصر ابتدع القول بالوصية لعلي(ع) فقبلها البعض وبدأ ما يشبه الدعوة إلى هذه العقيدة، حتى انتشرت في العراقين: الكوفة والبصرة، لينتهي به الأمر سنة 35هـ في المدينة ومعه أنصار كثيرون احتلوا المدينة وقتلوا الخليفة عثمان.

وبعد بيعة علي(ع) بفترة وجيزة قامت معركة الجمل بين الخليفة الرابع(ع) وعائشة وطلحة والزبير وأتباعهم، وكانت المفاوضات تجري بين الطرفين ولكن ابن سبأ سعى في إفشالها ونجح. ثم تمادى ابن سبأ في ضلالاته حتى غالى في الإمام علي(ع) إلى حد الألوهية، مما حدا بعلي(ع) بإحراق البعض من أنصاره (ولم يحرقه هو وهو رئيسهم!) ونفاه إلى المدائن.

وعلى الرغم من القول أن ابن سبأ صارت له فرقة تسمى "السبئية" إلا أن التاريخ يسكت عنه بعد ذلك، وكأنه توقف عن نشر الضلالات فلا نعلم عنه شيئاً.

مصدر قصة ابن سبأ وحاله

هيأ السيد مرتضى العسكري رحمه الله في كتابه عبد الله بن سبأ (ج1 ص71) مخططاً لسلسلة رواة الأسطورة السبئية أثبت فيه أن جميع الرواة أخذوا في النهاية من راو واحد هو سيف بن عمر التميمي المتوفى بعد سنة 170هـ.

<u>فمن هو سيف هذا؟</u>

قال يحيى بن معين (ت 233هـ) عن سيف: "ضعيف الحديث فلس خير منه" (ميزان الإعتدال ج2 ص255)، وقال أبو داوود (ت 275هـ): "ليس بشيء، كذاب"، وقال النسائي صاحب سنن النسائي في الحديث (ت 303هـ): "ضعيف، متروك الحديث، ليس بثقة ولا مأمون"، وقال ابن أبي حاتم (ت 327هـ): "متروك الحديث"، وقال ابن عدي (ت 365هـ): "ضعيف، بعض أحاديثه مشهورة وعامتها منكرة لم يتابع عليها"، وقال ابن حبّان (ت 354هـ): "يروي الموضوعات عن الأثبات (أي يروي أحاديث موضوعة عن رواة ثقاة)، إتهم بالزندقة"، وقال الحاكم (ت 405هـ): "متروك، إتهم بالزندقة"، وقال ابن حجر (ت 852هـ) بعد إيراد حديث ورد في سنده: "فيه ضعفاء أشدهم سيف"؛ وغير هؤلاء على نفس الرأي.

وهكذا، لعله لم يجز راو على مثل هذه الشهادات بالضعف أو التكذيب والتهمة كسيف بن عمر الراوي الوحيد لقصة عبد الله بن سبأ مؤسس التشيع حسب نظرية المؤامرة اليهودية.

وثمة ملاحظة أخيرة

كيف يمكن لأي مسلم سني، يغار على كرامة الصحابة، أن يرضى بالنيل من كرامة رجال هم في السنام الأعلى من السابقين الذين قال النبي(ص) فيهم ما لم يقله في غيرهم – فعمار بن ياسر «خلط الله الإيمان ما بين قرنه إلى قدمه، وخلط الإيمان بلحمه ودمه» وأبو ذر الغفاري «ما أقلت الخضراء ولا أظلت الغبراء بعد النبيين امرءاً أصدق لهجة من أبي ذر» وزيد بن صوحان الذي أخبر النبي(ص) أن يده تسبقه إلى الجنة وكان عمر وغيره يعظمونه أكبر تعظيم – بهذا الشكل الفظيع حيث يقبل أن يكونوا ألعوبة بيد يهودي متستر بالإسلام يحركهم كيف يشاء إلى درجة إقناعهم بعقائد جديدة لم يعرفوها – على قربهم الشديد من النبي(ص) – من زمان الوحي؟

أفهذا من احترام العقل والعلم، أم هو من شدة التقوى؟

نظرية المؤامرة الفارسية

بخصوص مقتل عثمان قال موسى جار الله (الوشيعة في نقض عقائد الشيعة):

"إنما هي فتنة جاءت من عفاريت اليهود وشياطين الفرس لعبت بغفلة الشيعة للنيل من دين الإسلام ومن دولته" ، وهو قول يلخص النظرة السنية السائدة، أن:

ما حصل لم يكن بسبب مخالفات الخليفة أو ولاته، وإنما هي فتنة؛ الذين كانوا وراء الفتنة هم "عفاريت" اليهود و "شياطين" الفرس، ولعل هذه محاولة لتبرئة اليهود الذين أسلموا واتبعوا نهج السلطة كعبد الله بن سلام وكعب الأحبار، ولتبرئة علماء السنة من الفرس الذين اكتشفت أنه كانوا عماد المذاهب السنية؛ هؤلاء "العفاريت" و"الشياطين" استخدموا قناة الشيعة لتهييج الفتنة؛ كلمته "لعبت بغفلة الشيعة" يراد منه القول أن الصحابة الشيعة كعمار بن ياسر وأبي ذر الذين كانوا في الطرف المعادي للخليفة وأسرته الأموية إنما غفلوا عن فعل العفاريت والشياطين، أو قل "ضحكوا عليهم"؛ الهدف هو النيل من الإسلام ودولته.

في كتابه "نقض الوشيعة" أو "الشيعة بين الحقائق والأوهام" (ص107) رد السيد محسن الأمين بالقول: "ولكننا لا ندري متى أظهر الفرس التشيع انتقاماً من الإسلام وجميع بلاد الفرس في الدولة الإسلامية من أولها أهلها سنيون إلا ما ندر وجميع أجلاء علمائهم ومحدثيهم هم سنيون إلا ما شذ ... ولم ينتشر التشيع في بلاد الفرس إلا في عهد الصفوية وهم من نسل الإمام الكاظم وليسوا فرساً، فمن هم الذين أظهروا التشيع من الفرس انتقاماً من الإسلام وفي أي زمان وجدوا؟"

ثم يقول: "وأين كان الفرس عن هذه الفتن ليكون لهم أثر فيها، وهل ترك عفاريت العرب وشياطينهم مجالاً لعفاريت اليهود وشياطين الفرس في ذلك؟!"

أقول: رحم الله السيد الأمين، فلو اطلع اليوم على ما يقوله العرب، في وسائل الإعلام وشبكة الانترنت، لوجد الحال هو الحال، فجميع مشاكلنا ومصائبنا وفشلنا معلقة على هذين العدوين: اليهود والفرس، فلا نحن تسببنا في شيء، ولا نحن مقصرون في العمل – مع أنهم يقرأون ليل نهار قوله تعالى: ﴿لا يغيّر الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾.

الفرس والتشيع

في كتابه "هوية التشيع" (ص60) يناقش الشيخ أحمد الوائلي رحمه الله مقولة أن التشيع أصله فارسي أو الأثر الكبير للفرس في التشيع ونشأته، ويبطله، اعتماداً على ما يلي:

(أولاً) بأن عقائد الشيعة ميسورة تحت أيدي الباحثين والكتاب في العالم، وإن عقائد الشيعة مصدرها الكتاب والسنة وفقه الشيعة مصدره الكتاب والسنة والإجماع والعقل؛

(ثانياً) بأن الفرس لا يكوّنون إلا جزءًا قليلاً من ناحية الكمّ الشيعي؛

(ثالثاً) أن بذرة التشيع نشأت في مهد العرب في الجزيرة العربية.

عروبة التشيع وشبهة فارسية التشيع

أئمة الشيعة وعلماؤهم وعلماء السنة وعلماؤهم

يذكر الشيخ الوائلي (هوية التشيع ص88): أولاً أن أئمة الشيعة الإثني عشر هم سادة العرب ومن صميمهم فلا يحتاج للكلام في ذلك.

ثم يذكر الرواد من حملة علوم أهل البيت وأسر الشيعة الذين حملوا التشيع وبشروا به ويقول بأنهم من صميم العرب، وذلك ابتداءاً من أقطاب مدرسة الإمام الصادق(ع) مثل: أبان بن تغلب بن رباح الكندي وبيت آل أعين وبيت آل حيان التغلبي وآل عطية وبني دراج وغيرهم. ثم الطبقة التي تلي هؤلاء كالشيخ المفيد محمد بن النعمان والشريف المرتضى علم الهدى والعلامة الحلّي وأسرة آل طاووس ونجم الدين جعفر بن الحسن الهذلي المعروف بالمحقق والشهيد الأول محمد بن مكي والشهيد الثاني زين الدين العاملي.

ثم أصحاب الكتب الحديثية من الشيعة: محمد بن يعقوب الكليني ومحمد بن علي بن الحسين المعروف بإبن بابويه القمّي ومحمد بن الحسن بن علي الطوسي.

بالمقارنة مع ذلك يذكر (هوية التشيع ص94)، إشارة إلى الأصل الفارسي للأئمة السنة وأقطابهم، ويبدأ بأئمة المذاهب: الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي مولى لبني تيم الله ومولده بالكوفة؛ ثم الإمام مالك بن أنس بن مالك، ذهب إلى كونه من موالي بني تيم وليس بعربي كل من ابن عبد البر في كتابه "الإنتقاء" ومحمد بن إسحق الواقدي والسيوطي في "تزيين الممالك"؛ وأما الإمام أحمد بن حنبل فهو العربي الوحيد وينتمي إلى بكر بن وائل.

أما المحدثون فإن البخاري والترمذي بن ماجة والنَّسائي وسليمان السجستاني كلهم أعاجم؛ والعربي الوحيد هو مسلم بن الحجاج النيسابوري (وفيات الأعيان ج1 ص21، والكنى والألقاب ج3 ص207 ومعجم المؤلفين ج12 ص115).

ثم يذكر بأن معظم رواة الأحكام والأخبار ومعظم الفقهاء والمفسرين هم من الفرس، مثلاً مجاهد وعطاء بن أبي رباح وعكرمة وسعيد بن جبير (فجر الإسلام ص191 وص204، ومعجم المؤلفين ج1 ص59).

ثم يذكر غيرهم كالليث بن سعد وهو فارسي من أصفهان، وربيعة الرأي شيخ مالك وهو إبن عبد الرحمن بن فروخ من أهل فارس، وطاووس بن كيسان الفارسي، والبيهقي، ومكحول ومحمد بن سيرين والحسن البصري وغيرهم الكثير (معجم المؤلفين رضا كحالة ج1 ص206، وفجر الإسلام ص241، والكنى والألقاب للقمي ج1 ص6).

أما ما هي أسباب رمي التشيع بالفارسية؟

من أهم الأسباب هو أن بعض المتأخرين أرادوا مهاجمة الشيعة فصوروا أن التشيع فارسي لأن العلاقات العربية الفارسية تدهورت، مع أن الأولين من أعداء الشيعة لم يدرجوا الفارسية في قائمة التهم.

ولكن السبب الأهم يكمن في قوة استدلال الشيعة بأن الخلافة بالنص وليست بالشورى. لما كانت نظرية النص تقف على أرض صلبة أراد البعض أن يبعد هذه النظرية عن إطارها الإسلامي فافترض، أو اتهم، أنها نظرية كان يذهب إليها الفرس.

وأما دور المستشرقين فنبه إليه الشيخ الوائلي أن أهداف كثير منهم: "ضرب وحدة المسلمين، وبعد ذلك تزييف ركائزهم الفكرية. لأجل ذلك تجد كتب المستشرقين تؤكد على هذه النقطة ... وكأن هذا الموضوع مختص بالشيعة فقط أما السنة الفرس فهم محروسون من أن يتدسس إليهم الفكر الفارسي ...!"

كلها رجم بالغيب، أو افتراء بالهوى

وهكذا، وجدت أن هذه الأقوال هي رجم بالغيب بالنسبة لعامة أهل السنة الذين يرددون دون فحص، مع أنه لا يجوز شرعاً لأنه رمي لمئات الملايين من أهل "لا إله إلا الله محمد رسول الله" بأشد الانحراف العقدي لأنه مؤسس من خارج الإسلام، فالله تعالى يقول: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ النور:15 وغيرها من آيات الكتاب المبين التي تحذر من الرمي بالتهم دون تثبّت. كما هو رجم بالغيب بالنسبة للكثير ممن يسمون بالعلماء لأنهم إنما يرددون ما يقوله غيرهم وهؤلاء يقترفون إثماً أشد من العامة. وهي افتراء بالهوى ولاسيما ممن يسمون بالعلماء وهم يعلمون أن هذه الافتراءات غير صحيحة، وأن بعضها، كالتهمة الفارسية، هي بمدرسة أهل السنة أليق وألصق، وبمدرسة أهل البيت(ع) العرب أبعد وأبعد.

أقول صدقاً: أني لم ينقض عجبي، بعد مرور كل هذه السنين على اتباعي مذهب أهل البيت(ع)، من هذا الادعاء العروبي لأهل السنة والتهمة الفارسية ضد

الشيعة، مع أن العالم والجاهل يرى رأي العين من هم أئمة الشيعة، فلا هم يتبعونهم ليتحقق صدق الادعاءات العروبية ولا هم يتوقفون عن اتهام الشيعة ويسد الموضوع.

فمتى بدأ التشيع؟

متى بدأ التشيّع بمعناه الذي غلب على من يتولى علياً وأهل البيت(ع) فقد اختلف في ذلك الباحثون. فمنهم من يقول بأن التشيع هو أول مذهب في الإسلام وأن أربعة من الصحابة لقبوا به: أبو ذر وسلمان والمقداد وعمار، وهو ما مال إليه أحمد أمين بالقول: "وكانت البذرة الأولى للشيعة الجماعة الذين رأوا بعد وفاة النبي(ص) أن أهل بيته أولى الناس أن يخلفوه" (ضحى الإسلام ج3 ص209). ونقل الكثيرون قول الشيخ كاشف الغطاء (أصل الشيعة وأصولها): "إن أول من وضع بذرة التشيع في حقل الإسلام هو نفس صاحب الشريعة الإسلامية، يعني أن بذرة التشيع وضعت مع بذرة الإسلام جنباً إلى جنب وسواء بسواء..." واستمر: "ولم يزل غارسها يتعهدها بالسقي والعناية حتى نمت وازدهرت في حياته ثم أثمرت بعد وفاته، وهذا يجمع بين وجود التشيع في زمن النبي كنظرية بدأت وبين التطبيق العملي في وجود الأصحاب الذين التفوا حول علي بن طالب بعد وفاة النبي(ص)".

ويؤيد ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى ﴿إنَّ الذينَ آمنوا وعَمِلوا الصّالحاتِ أولئكَ هُم خَيرُ البَرِيّة﴾ (البينة:7) بأن هؤلاء هم علي وشيعته كما جاء في تفسير الطبري بأن النبي(ص) وهو يتكلم مع علي: ‹‹أنت يا علي وشيعتك›› (جامع البيان عن تأويل آي القرآن ج30 ص265). وكما أورده الذهبي في (ميزان الاعتدال ج2 ص18) بلفظ: ‹‹أما أنك يا ابن أبي طالب وشيعتك في الجنة››. وأورده الحاكم في (شواهد التنزيل لقواعد التفصيل ج2 ص 357) بلفظ: ‹‹هو أنت وشيعتك، تأتي أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين››.

قول كاشف الغطاء هو المجمع عليه بين الشيعة، وهم يستندون إلى ما رواه الفريقان: "أول الفرق الشيعة، وهي فرقة علي بن أبي طالب، المسمون شيعة علي في زمان النبي(ص)، وبعده، معرفون بانقطاعهم إليه، والقول بإمامته، وكان على رأسهم المقداد بن الأسود، وعمار بن ياسر، وأبو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي، وهم أول

من سموا باسم التشيع من هذه الأمة" (المقالات والفرق لسعد القمي ص15، وفرق الشيعة للنوبختي ص15)؛ وهؤلاء الصحابة الأربعة يسميهم الشيخ المفيد "الأركان الأربعة" (الإختصاص ص3).

هؤلاء الأربعة الكبار فازوا بأرفع الأوسمة من النبي(ص)، فقد روي أنه(ص) قال: "«إن الله أمرني بحب أربعة، وأخبرني أنه يحبهم»، قيل: يا رسول الله سمهم لنا، قال: «علي منهم» يقول ذلك ثلاثاً، «وأبو ذر والمقداد وسلمان» (سنن ابن ماجة ص14، وصحيح الترمذي ج2 ص299، ومجمع الزوائد للهيثمي ج9 ص155، والاستيعاب ج1 ص280، وتهذيب التهذيب للعسقلاني ج10 ص286، وغيرها). ورويت هذه المنزلة الرفيعة لبعض هؤلاء الأبرار بشكل آخر، فقد روي أنه(ص) قال: "إن الجنة تشتاق إلى أربعة: علي بن أبي طالب، وعمار بن ياسر، وسلمان الفارسي، والمقداد بن الأسود" (معجم الطبراني الكبير ج6 ص263). وفي حديث آخر قال(ص): «الجنة تشتاق إلى ثلاثة: علي، وعمار، وسلمان» (سنن الترمذي، باب مناقب سلمان حديث 3797، ومسند أبي يعلى حديث 2780).

أما تفسير آية سورة البينة ﴿إنَّ الذينَ آمنوا وعَمِلوا الصّالحاتِ أولئكَ هُم خَيرُ البَريّة﴾ (البينة:7)، فقد وردت في غير تفسير الطبري. فقد روى السيوطي (الدر المنثور ج8 ص589) فيها عدة روايات: منها ما أخرجه ابن عساكر عن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: "كنا عند النبي(ص)، فأقبل علي(ع) فقال النبي(ص): «والذي نفسي بيده، إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة»، ونزلت ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية﴾، فكان أصحاب النبي(ص) إذا أقبل علي(ع)، قالوا: جاء خير البرية". ومنها ما أخرجه ابن مردويه عن علي(ع) قال: «قال لي رسول الله(ص): ألم تسمع قول الله: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية﴾؟ أنت وشيعتك، وموعدي وموعدكم الحوض إذا جاءت الأمم للحساب، تدعون غرّاً محجلين».

وقد أورد ابن حجر (الصواعق المحرقة ص161 وغيرها) من فضائل أهل البيت(ع) ما أخرجه المحدثون كحديث أم سلمة: "كانت ليلتي، وكان النبي عندي، فأتته فاطمة فتبعها علي (رض) فقال النبي: «يا علي أنت وأصحابك في الجنة، أنت

وشيعتك في الجنة»". وروى أحمد في المناقب قول النبي(ص) لعلي(ع): «أما ترضى أنك معي في الجنة، والحسن والحسين وذريتنا خلف ظهورنا، وأزواجنا خلف ذريتنا، وشيعتنا عن أيماننا وشمائلنا؟»

هذا، وروى ابن حجر رواية جامعة، ابن حجر (الصواعق المحرقة الآية الحادية عشرة في فضائل أهل البيت(ع)»، عن ابن عباس أنه عندما نزلت هذه الآية قال النبي(ص) لعلي(ع): «هو أنت وشيعتك؛ تأتي أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين، ويأتي عدوك غضاباً مقمحين. قال: ومن عدوي؟ قال: من تبرأ منك ولعنك. وخير السابقين إلى ظل العرش يوم القيامة طوبى لهم، قيل: ومن هم يا رسول الله؟ قال: شيعتك يا علي ومحبوك».

هوية التشيع العرقية

قال الشيخ الوائلي رحمه الله (هوية التشيع ص80): "إن العروبة هي المزيج المتكون من الفكر والمشاعر واللغة والتربة".

أما البيئة الجغرافية فإن "مهد التشيع الأول هو الجزيرة العربية لأن شيعة علي(ع) الأوائل هم من الصحابة ...".

وأما اللغة فيقول: "كان الشيعة يقعون عند التصنيف من قسم المتشددين في اعتبار اللغة العربية لغة العبادة ولغة العقود ... لذلك نرى جمهور فقهاء الشيعة يذهبون إلى عدم جواز القراءة في الصلاة والأذان وافتتاح الصلاة بغير اللغة العربية، في حين يذهب كل من أبي حنيفة بصورة مطلقة والشافعية والمالكية بجواز إيقاع الأذان بغير العربية إذا كان المؤذن أعجمياً ويريد أن يؤذن لنفسه أو لجماعة أعاجم مثله (أعلام الفقه على المذاهب الأربعة ج1 ص314)، ... في حين يذهب الشيعة إلى لزوم إيقاع العقد بالعربية اختياراً، وفيما يخص عقد النكاح يجوز الحنفية والمالكية والحنابلة إيقاعه بغير اللغة العربية مع القدرة عليها ... (الأحوال الشخصية لمحمد أبو زهرة ص27)".

وفيما يخص الهوية القومية للخليفة قال بأن المسلمين انقسموا إلى شطرين: "وكان الشيعة من الشطر الذي يؤكد على عروبة الخليفة ... (الفصل بين الملل والنحل ج4 ص89)، في حين ذهب كثير من غير الشيعة إلى عدم اشتراط هذا الشرط...".

أما التاريخ والمصالح المشتركة فإن "الشيعة الذين عددنا أسماءهم جزء من تاريخ الجزيرة العربية ...، وكذلك المصالح المشتركة ..."

رواد التشيع الأوائل

عدد الشيخ الوائلي (هوية التشيع ص33) عدداً من رواد التشيع الأوائل. بالإضافة إلى أبي ذر سلمان وعمار والمقداد فإن الذين ثبت تشيعهم لأمير المؤمنين(ع) منهم: حذيفة بن اليمان صاحب سرّ النبي(ص) الذي اشتهر أن عنده أسماء المنافقين، وخزيمة بن ثابت ذي الشهادتين، والخباب بن الأرت الخزاعي، وأبو سعيد الخدري، وأبو الهيثم بن التيهان، وقيس بن سعد بن عبادة الأنصاري، وأنس بن الحرث أحد الذين استشهدوا مع الإمام الحسين في كربلا ء، وأبو أيوب الأنصاري خالد بن زيد الذي كان بيته مكان إقامة النبي(ص) عند دخوله المدينة قبل بناء المسجد، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وهاشم المرقال فاتح جلولاء، ومالك الأشتر النخعي، والبراء بن عازب الأنصاري، وأبي إبن كعب سيد القراء، وعبادة بن الصامت الأنصاري أحد نقباء الأنصار في بيعة العقبة، وعبد الله بن مسعود من سادات القراء، وأبو الأسود الدؤلي أحد أصحاب أمير المؤمنين والذي أسس علم النحو وهو علم قواعد العربية بأمر من الإمام علي(ع)، وخالد بن سعيد بن بن العاص بن أمية الأموي (أقول: ولكن خمل ذكره مع أنه ثالث أو رابع أو خامس من أسلم، ومع أنه من بني أمية، ولكنه كان من شيعة علي!)، وبشير بن مسعود الأنصاري من البدريين، ورافع بن خديج الأنصاري، وأبو دجانة سماك بن خرشة الأنصاري من أهل بدر (أقول: ومن القلة الثابتة يوم أحد بعد فرار الناس)، وسهل بن حنيف الأنصاري من أهل بدر (أقول: أيضاً من القلة الثابتة يوم أحد بعد فرار الناس)، وأبو رافع مولى رسول الله(ص) ممن بايع في العقبة وفي بيعة الرضوان وهاجر الهجرتين للحبشة مع جعفر بن أبي طالب وإلى المدينة، وأبو قتادة الحارث بن ربعي الأنصاري من أهل بدر، وقرضة بن كعب الأنصاري، وحبيب بن بديل بن ورقاء الخزاعي، وزيد بن أرقم الأنصاري الصحابي الشهير الذي شهد مع النبي(ص) سبع عشرة وقعة، والأصبغ بن نباتة، وأبو حمزة الثمالي ثابت بن دينار، وحبيب بن مظاهر الأسدي (أحد شهداء كربلا ء)، وحكيم بن جبلة العبدي الليثي، وزيد بن

صوحان الليثي، ومسعود بن مالك الأسدي، وأبو الطفيل عامر بن واثلة الليثي، وعبد الله بن حِرام الأنصاري شهيد أحد، وسليمان بن صرد الخزاعي، وعدي بن حاتم الطائي، وعقبة بن عامر السلمي، وهاني بن عروة المذحجي، وعلباء بن الهيثم بن جرير وأبوه الهيثم من قواد الحملة في قتال الفرس في واقعة ذي قار، والمهاجر بن خالد المخزومي وعبيد بن التيهان الأنصاري أول المبايعين للنبي(ص) ليلة العقبة، وأويس القرني الأنصاري، وزياد بن نضر الحارثي، وعبد الله بن سليم العبدي الليثي، وعامر بن قيس الطائي، وأبان بن سعيد بن العاص وهو أخو خالد المذكور أعلاه، وغيرهم الكثير من مختلف القبائل والبطون العربية. (يراجع في ذلك هامش رغبة الآمل ج7 ص130، وأسد الغابة ج1 ص35 وج1 ص61، وفجر الإسلام ص267، والإستيعاب ج1 ص280.)

التشيع لعلي(ع) يسير مع التنويه بمنزلته(ع)

بما أن النبي(ص) قد صدع بمزايا علي(ع) الفريدة وبمكانته العظمى في الإسلام، فلا شك في أن جماعة من الصحابة سيشعرون بضرورة الاصطفاف خلفه(ع)، ولو قلبياً، وإلا فإننا نحكم على جميع الصحابة إما بعدم فهم الكلام العربي المبين، وإما بعدم الاهتمام بأوامر النبي(ص) ونواهيه بشأن العترة وعلي(ع) خاصة، وإما بالوقوف جميعاً بالضد مما يفهمه أي عربي كإصطفاف معاد لعلي(ع)، وهذا لا يمكن أن يقبله عاقل، لأنه من طبيعة الجماعات أن تنقسم إلى أحزاب واتجاهات، ولكن المؤكد أن بعض هؤلاء يلتزمون التزاماً كاملاً أو شبه كامل بما يقوله القادة، فكيف إذا كان خاتم الرسل(ص)، فلا بد أن بعضهم سيذهب مع ما يقول، ومنه التنويه بفضل ابن عمه وربيبه وحبيبه علي(ع)، ما ينتج بالضرورة وجود شيعة لعلي(ع) وإن بالمعنى البسيط، على ما يحصل من بدء الأفكار والعقائد بشكلها المبسط ثم ترد عليها التعقيدات نتيجة الشد والجذب والتحاجج والخصام.

وبما أن دخول الناس في الإسلام تم في 23 سنة، فإن الصحابة كانوا يتنزايدون تدريجياً، قليلاً في العهد المكي ثم بأعداد متزايدة في العهد المدني، حتى كان الدخول الأكبر بعد فتح مكة سنة 8هـ حيث وافت القبائل النبي(ص) في حجة الوداع بعد سنتين بعشرات الألوف بلغت مائة وأربعين ألفاً على بعض الروايات،

ولا شك في أن الشيء نفسه حصل مع بعض هؤلاء فيما يخص منزلة علي(ع) التي سمعوها من النبي(ص) مباشرة أو من أصحابه.

هذا، وصولاً إلى حجة الوداع وخطبة حجة الوداع التي صدع فيها النبي(ص) بحديث الثقلين «فإني قد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبداً: كتاب الله وعترتي أهل بيتي» على رواياته المختلفة، ثم بعدها بأيام تسعة حيث خطب فيهم يوم الغدير ونصّب علياً(ع) إماماً بعده. فلا بد أن البعض، إن لم نقل الكثيرين، قد استجابوا نفسياً لما أمر به النبي(ص) وصاروا شيعة لعلي(ع) بالمعنى البسيط.

فلو لم يستجب لتنويه النبي(ص) بعلي(ع) وأولاده(ع) إلا القليل في هذه الأدوار جميعاً بحيث يصدق عليهم صفة "شيعة علي"، فإنه يكفي للقول أن التشيع بدأ على عهد النبي(ص). بل لو لم يستجب لأمره(ص) يوم الغدير إلا القليل من عشرات الألوف الذين حضروا ذلك اليوم المشهود بحيث يصدق عليهم صفة "شيعة علي" فإنه يكفي للقول أن التشيع بدأ في العهد النبوي، وهذا يسبق بعشرات السنين ما زعمه البعض من بداية التشيع أيام عثمان أو علي(ع) أو الحسن(ع) أو بعد مقتل الحسين(ع).

فإذا ثبت أنه كان بالفعل هناك بعض الصحابة ممن فعل ذلك والتف حول علي(ع)... وإذا ثبت أن هناك البعض من الصحابة ممن لم يلتفت إلى تشيعهم، أو التفت إليه فعتّم عليه، كخالد بن سعيد بن العاص الأموي من الرجال، وأم المؤمنين أم سلمة من النساء، وغيرهما (رض)... فإنه مما لا يبقي مجالاً للشك في أن التشيع لعلي(ع)، بمعناه الأول الأساس، وهو الاعتراف بمنزلته السامية المتفردة التي تجعله الأول بعد النبي(ص) وضرورة الالتفاف حوله ومناصرته والخضوع لأوامره(ع)، بدأ منذ عهد النبي(ص)، بل من أوائل عهده.

حادثة يوم الدار

إن حادثة يوم الدار من أقوى الأدلة على أن التنويه، بل التصريح، بدور علي(ع)، بدأ منذ أوائل العهد المكي. فلقد أجمع المفسرون على أن الآية ﴿وأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقرَبين﴾ (الشعراء:214) نزلت في أوائل العهد المكي تأمر النبي(ص) ببدء النذارة في أقربائه، وقد تناولت روايته ومصادره ودلالاته في الفصل 6، فلتراجع، ولكن يكفي القول أن النبي(ص) أمر علياً(ع) أن يجمع بني عبد المطلب، فقام بذلك في

اليوم الأول فكان أن أفسده أبو لهب، ثم قام بذلك في اليوم الثاني فقال لهم النبي(ص): ‹‹يا بني عبد المطلب إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتكم به – إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصي وخليفتي فيكم؟›› قال علي(ع): ‹‹فأحجم القوم عنها جميعاً، وقلتُ – وإني لأحدثهم سنّاً وأرمصهم عيناً وأعظمهم بطناً وأحمشهم ساقاً – أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه، فأخذ برقبتي ثم قال: إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم إسمعوا له وأطيعوا. فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب قد أمرك أن تسمع لإبنك وتطيع››.

من دلالات الحديث

- أن علياً(ع) تم تعيينه خليفة منذ أول الدعوة؛

- وأن علياً(ع) تم تعيينه خليفة وهو في العاشرة من عمره، وفي أهل النبي(ص) وأصحابه الشباب والرجال والكهول والشيوخ؛

- وأن هناك شيئاً اسمه الوصية: شخص وصي النبي(ص)، وهذا الشخص هو علي(ع).

ترى كيف يتم إخفاء هذا الحديث عن المسلمين وهو يتعلق بآية قرآنية محكمة نزلت في أول الدعوة؟ إن هذا من كتمان الحق بأبشع صوره، إذ يتم محاصرة الحديث عبر القرون بحيث عندما يأتي كاتب في القرن العشرين (محمد حسين هيكل) ليذكره ضمن سيرة النبي(ص) (حياة محمد) تثور الضجة لا تنتهي إلا بحذف الحديث من الطبعات التالية.

فمن الضروري الالتفات إلى أن هذه الحادثة حصلت في مكة المكرمة وفي أول الدعوة، وبالتالي لا بد أن يكون بعض الصحابة من المسلمين السابقين قد استجابوا للأمر الواضح في قوله(ص) ‹‹إسمعوا له وأطيعوا››، وهم من عشيرته الأقربين، ومعهم غير الهاشميين كزيد بن حارثة (شهيد مؤتة) ربيب النبي(ص) ومن أقرب الناس إليه، وخالد بن سعيد بن العاص (أسلم يوم كان عدد المسلمين بعدد أصابع اليد الواحدة، أموي ابن عم عثمان ولكن تشيعه جنى عليه!)؛ فلو لم يكن إلا هؤلاء لثبت بدء التشيع منذ العهد المكي، وبالتالي بان خطأ النظريات الأخرى.

ولكن متى بدأ التسنن؟

بعد أن ثبت لي أن التشيع هو أقدم المذاهب الإسلامية التفت إلى السؤال: متى بدأ التسنن؟ أو متى بدأت المذاهب السنية؟

وإن كان هذا ليس في صلب البحث، إلا أن التأكد من نقطة تشكل الإسلام السني يجيب على ما يلي: هل نشأت تلك المذاهب بموازاة المذهب الشيعي، أم قبله، أم بعده؟ وفي جميع الأحوال هل هناك تأصيل لها من القرآن والسنة أم لا؟

إن عامة الناس يعرفونها كمذاهب فقهية: المذهب الحنفي ورئيسه أبو حنيفة النعمان بن ثابت، ولد سنة 80هـ وتوفي سنة 150هـ؛ المذهب المالكي ورئيسه مالك بن أنس، ولد سنة 93هـ وتوفي سنة 179هـ؛ المذهب الشافعي ورئيسه محمد بن إدريس، ولد سنة 150هـ وتوفي سنة 204هـ؛ المذهب الحنبلي ورئيسه أحمد بن حنبل، ولد سنة 164هـ وتوفي سنة 241هـ. ولكن حتى فيما يخص الأصول، فهذا يعتبر رئيسه أبا الحسن علي بن اسماعيل الأشعري، ولد سنة 260هـ وتوفي سنة 324هـ.

وكما ترى، فإن هؤلاء لم يبدأوا كعلماء إلا بعد مائة عام من العهد النبوي.

يبقى الذين يقولون أنهم "أهل الحديث" أو "السلفيون"، زاعمين أنهم أصح من الآخرين على أساس أنهم يعتمدون مباشرة من الحديث الشريف فلا يأخذون بآراء الرجال ممن جاء بعد عصر الصحابة. ولكن حجتهم مردودة لأمور:

(أولاً) إن الفقه الذين يتبعونه بين حنفي وحنبلي ومالكي وشافعي ولا يخرج عن هذا؛

(ثانياً) والأصول كما عند بعض أهل السنة، بدليل أنهم يقولون أن أبا الحسن الأشعري انتهى إلى ما يقوله أحمد بن حنبل من الوقوف على ظاهر النصوص؛

(ثالثاً) أما حجتهم العامة أنهم على ما كان عليه الصحابة فباطلة، ببساطة لأن تدوين الحديث تأخر حتى انتهى القرن الأول، أي تسعين سنة بعد وفاة النبي(ص)، وبعد وفاة جميع الصحابة (ومعظم التابعين) والفتن والحروب وانتشار الكذب على النبي(ص) مما هو معروف مشهور، وبقي الكذب والوضع قائماً منتشراً حتى جاء علماء الجرح والتعديل بعد ذلك بزمن فوجدوا الأمر أكثر صعوبة وتعقيداً من أن تتم غربلة الأحاديث بشكل تام، حتى ولا شبه تام؛ فكيف يستطيعون الجزم أنهم على ما كان عليه الصحابة؟ ولو فرضنا ذلك، من من الصحابة كانوا على طريقته،

ونحن نعلم الاختلافات فيما بينهم كانت واسعة والتغيير بدأ منذ البداية، حتى عندما جاءت الخلافة إلى علي(ع) وقام يصلي بالناس في البصرة، قال عمران بن حصين: "ذكّرنا هذا الرجل صلاة كنا نصليها مع رسول الله" (البخاري، كتاب الأذان، باب إتمام التكبير في الركوع، حديث 742)؛ فإذا كان هذا حال الصلاة فما بالك بغيرها من أحكام مما انتقل إلينا؟

فالدليل يقطع بأن المذاهب السنية بدأت بعد المذهب الشيعي، وبعشرات أو مئات السنين. وعليه، فإن الباحث – أي باحث – عليه أن يحل الإشكال التالي:

إذا قبل الزعم أن المذهب الشيعي أسسه اليهود أو الفرس، وأن المذاهب السنية تأسست بعد القرن الأول، ترى كيف كان عمل الصحابة والتابعين وتابعيهم منذ وفاة النبي(ص) وحتى بداية تأسيس المذاهب السنية، أي حوالي مائة وخمسين عاماً؟

وإذا كان كل مذهب يقول أنه الحق وأنه أخذه بالاجتهاد عن الصحابة عن النبي(ص)، كيف صارت المذاهب السنية أربعة وبينها من الاختلاف الشيء الكثير؟

بينما لم ينقطع المذهب الشيعي لحظة واحدة

وحده هو المذهب الشيعي الذي يدعي عدم الانفصال يوماً واحداً عن عصر الوحي والتنزيل، وذلك بإيمانه بإمامة علي(ع) الفقهية العقدية – بغض النظر عن إمامته السياسية – وهو الذي بدأت إمامته لحظة وفاة النبي(ص)، وأعلنت، في بيعة عامة شارك فيها عشرات الألوف، بأمر النبي(ص) وترتيبه وتحت سمعه وبصره يوم 18 من ذي الحجة سنة 10هـ؛ ولم يكن هناك حنفي ولا مالكي ولا شافعي ولا حنبلي ولا أشعري ولا غيره.

واستشهد علي(ع) في 21 رمضان سنة 40هـ فاستمرت الإمامة دون انقطاع لحظة واحدة في ولده الحسن(ع)، والذي كان التنويه بإمامته، بنص كلمة "الإمامة" ذاتها، من قبل النبي(ص)؛ ولم يكن هناك حنفي ولا مالكي ولا شافعي ولا حنبلي ولا أشعري ولا غيره.

واستشهد الحسن(ع) في 7 أو 28 صفر سنة 50هـ فاستمرت الإمامة دون انقطاع لحظة واحدة في أخيه الحسين(ع)، والذي كان التنويه بإمامته، بنص كلمة

"الإمامة" ذاتها، من قبل النبي(ص)؛ ولم يكن هناك حنفي ولا مالكي ولا شافعي ولا حنبلي ولا أشعري ولا غيره.

واستشهد الحسين(ع) 10 المحرم سنة 61هـ فاستمرت الإمامة دون انقطاع لحظة واحدة في ولده علي(ع)، والذي كان التنويه بإمامته بنصوص الإثني عشر إماماً ونصوص أخرى تسميه مع باقي الأئمة، من قبل النبي(ص)؛ ولم يكن هناك حنفي ولا مالكي ولا شافعي ولا حنبلي ولا أشعري ولا غيره.

وتوفي السجاد علي بن الحسين(ع) في 12 أو 25 محرم سنة 95هـ فاستمرت الإمامة دون انقطاع لحظة واحدة في ولده محمد(ع)، والذي كان التنويه بإمامته بنصوص الإثني عشر إماماً ونصوص أخرى تسميه مع باقي الأئمة، من قبل النبي(ص)؛ ولم يكن هناك حنفي ولا مالكي ولا شافعي ولا حنبلي ولا أشعري ولا غيره.

وتوفي الباقر محمد بن علي(ع) في 7 ذي الحجة سنة 114هـ فاستمرت الإمامة دون انقطاع لحظة واحدة في ولده جعفر(ع)، والذي كان التنويه بإمامته بنصوص الإثني عشر إماماً ونصوص أخرى تسميه مع باقي الأئمة، من قبل النبي(ص)؛ ولم يكن هناك حنفي ولا مالكي ولا شافعي ولا حنبلي ولا أشعري ولا غيره.

وتوفي الصادق جعفر بن محمد(ع) في 25 شوال سنة 148هـ فاستمرت الإمامة دون انقطاع لحظة واحدة في ولده موسى(ع)، والذي كان التنويه بإمامته بنصوص الإثني عشر إماماً ونصوص أخرى تسميه مع باقي الأئمة، من قبل النبي(ص)؛ ولم يكن هناك ولا شافعي ولا حنبلي ولا أشعري، بل كان هناك أبو حنيفة في آخر أيامه وكان معروفاً بفقهه وبداية ما صار يعرف بعدها بمدرسة الرأي في الكوفة، وكان هناك مالك بن أنس في المدينة ومعروفاً بفقهه حتى طلب منه المنصور وضع كتاب "الموطأ"، ولكن لم يكن هناك شيء اسمه المذهب الحنفي ولا المذهب المالكي لأن الذين قاموا بصياغتهما مذهبين إنما هم طلابهما كالقاضي أبي يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني وعبد العزيز الماجشون ووكيع.

وهكذا استمر المذهب الشيعي يرتوي من علم أئمة أهل البيت(ع) إماماً بعد إمام، دون انقطاع لحظة واحدة، ولمدة تزيد عن مائة عام بعد وفاة الصادق(ع)، في إثنائها برز الإمام الشافعي كأحد تلاميذ الإمام مالك، حيث تنقل بين الحجاز

والعراق ومصر، وبرز بعده الإمام أحمد بن حنبل، وهم في طلب العلم من هذا المعلم إلى ذاك ومن بلد إلى بلد، يغيرون الفتاوى بين حين وآخر حسبما يقودهم إليه الدليل الذي يتوصلون إليه من مصادر للتشريع لم يكونوا قد اطلعوا عليها من قبل وأيضاً بما يقودهم إليه إعمال الفكر المعرض للتغيير كأي فكر غير معصوم.

فقد روي عن أبي حنيفة القول: "لولا السنتان لهلك النعمان" مشيراً إلى السنتين اللتين قضاهما يتعلم من الإمام الصادق(ع) بعد أن نبهه(ع) إلى الخطأ في منهجه...

وعلم الناس كيف تغيرت فتاوى الإمام الشافعي بين الحجاز فالعراق فمصر...

وعلم الناس كلهم أن أبا الحسن الأشعري تنقل في معتقداته، وآرائه المبنية على تغير المعتقدات من القول، من معتقدات المعتزلة ثم إلى معتقدات الكلابية بتأويل النصوص حسب مقتضيات العقل، ثم إلى معتقدات السلفية بالوقوف على النصوص على قول، أو إلى المزج بين هذا وذاك على قول آخر.

وهكذا، تأسست المذاهب الفقهية، وبقيت عرضة للزيادة، وهو الذي حصل بقيام فقهاء آخرين، ولكن لم يسعفهم الحظ، إما بسبب عدم بذل تلاميذهم الجهد في هذا المجال أو بسبب عدم قيامهم هم بنشر آرائهم الفقهية، أو بسبب عدم ميل السلطان إليهم، حتى تم تحديد المذاهب السنية بأربعة من قبل السلطة الحاكمة.

فأين ذلك من الأئمة من آل محمد(ع) الذين كان العلم يتلقونه من النبع الصافي، والذين كان رؤساء المذاهب السنية أنفسهم يقفون بين أيديهم وقوف التلميذ بين يدي أستاذه؟

قال مالك بن أنس عن الصادق(ع): "ما رأت عين ولا سمعت أذن ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمّد الصادق علماً وعبادة وورعاً".

وقال أبو حنيفة عنه(ع): "ما رأيت أحداً أفقه من جعفر بن محمد".

وقال أحمد بن حنبل في علي(ع): "علي من أهل بيت لا يقاس بهم أحد".

وأما الشافعي فقد أظهر مودته لهم(ع) وما يصرح بعلوهم على غيرهم.

العلم الجامع والإمامة الجامعة

إن العلماء الكبار في مدرسة أهل السنة تخصصوا أو برعوا في علم أو علمين، فلا يعرف الناس عن مالك وأبي حنيفة والشافعي إلا أنهم فقهاء، ولا يعرفون عن أحمد بن حنبل إلا أنه فقيه ومحدث، ولا يعرفون عن أبي الحسن الأشعري إلا أنه من علماء الأصول، وهكذا. في حين أن أئمة أهل البيت(ع) قد جمعوا العلوم جميعاً: فهم علماء أصول، وفقهاء، ومحدثون، ومفسرون لكتاب الله، وقل ما شئت من العلوم. وهذا الأمر لم يشكك فيه علماء أهل السنة أنفسهم، فإنهم إذا جاءهم قول جعفر الصادق(ع) مثلاً فإنهم لا يمكن أن يردوه سواء كان في الأصول أو الفقه أو الحديث أو التفسير أو غيره، في حين لو جاءهم قول أبي حنيفة مثلاً فإنهم يرون إن كان في الفقه ليكون قولاً معتداً به على أساس أنه كان فقيهاً كبيراً، أما إذا كان في الحديث فإنه يرد لأن الذي اشتهر عنه تشكيكه في أكثر الأحاديث؛ وهكذا باقي العلماء الكبار في مدرسة أهل السنة.

وحدهم هم أئمة أهل البيت الإثني عشر(ع) الذين جمعوا العلم كله، ولهذا أمرنا الله ورسوله(ص) أن نتبعهم ولا نتقدم عليهم ولا نتأخر عنهم ولا نعلمهم، دون تحديد لعلم دون علم، بل في جميع العلوم الإسلامية.

وبالفعل استجاب بعض المسلمين، منذ عصر الصحابة الأبرار، فالتابعين، فتابعيهم، ثم من جاء بعدهم، لأمر الله ورسوله(ص)، فاتبعوا أئمة أهل البيت(ع) ووالوهم، أي "تشيعوا" لهم، فحققوا صدق كلمة "شيعة" التي صاروا هم أفضل مصداق لها، ثم صاروا المصداق الوحيد لها بعد أن اتبع الآخرون أئمة آخرين، في الدين والدنيا، وتسموا بأسماء أخرى: أهل السنة، أهل الحديث، سلفية الخ، ولم يتخذوا اسم التشيع مطلقاً، فصار إذا قيل عن جماعة أنهم "شيعة" علم الناس كلهم، مسلمين وغير مسلمين، أن المقصود هم المسلمون الذين يتخذون من الأئمة من آل محمد(ص) أئمة وقادة في الدين والدنيا.

الفصل الحادي والعشرون
هل الشيعة على مذهب أهل البيت(ع)؟

التساؤل الأول حول ما قاله العم رحمه اللهّ تعالى

علاقة الشيعة بمذهب أهل البيت(ع)

الدليل النقلي

الدليل العقلي

رجال الحديث الشيعة في إسناد أحاديث أهل السنة

نتيجة البحث

من نتائج الثقة بسلامة الموقف

‹‹في كل خلف من
أمتي عدول من أهل بيتي
ينفون عن هذا الدين
تحريف الضالين
وانتحال المبطلين وتأويل
الجاهلين››
رسول الله(ص)

"أشهد أنكم في
الفروع والأصول على
ما كان عليه الأئمة
من آل الرسول،
وقد أوضحت هذا
الأمر فجعلته جلياً
. . . فالشك فيه خبال
والتشكيك تضليل"
الشيخ سليم البشري

التساؤل الأول حول ما قاله العمّ رحمه اللّه تعالى

عودة لما قاله عمي عبد القادر ماهر (رحمه الله وألحقه بأجداده الطاهرين) ولم أقتنع به:

من أن علياً(ع) هو المقدم على جميع الصحابة، وأنه هو المعين للخلافة بعد النبي(ص) مباشرة، وأن القوم قد "نهبوا" الخلافة منه، وأن أئمة أهل البيت(ع) الذين تؤمن الشيعة الإمامية الإثنا عشرية بإمامتهم هم أئمة الدين حقاً، ولكن الشيعة الإمامية الإثنا عشرية لا يتبعون أهل البيت(ع) حقاً؛ أي أنهم لا يحققون صدق ادعائهم باتباع أهل البيت(ع)، أو التشيع لهم.

يومها تساءلت: إن كان هذا هو الواقع، فمن يتبع أهل البيت(ع) إذاً؟

وبما أني وقفت بين طائفتين: الأولى – التي كنت منها – لا تسمي نفسها شيعة، بل تسمي نفسها بإسم آخر هو "أهل السنة"، والثانية تسمي نفسها "شيعة"، فإني وجدت أن حسم الأمر لا يحتاج إلا إلى البحث:

فيما إذا كانت الطائفة التي كنت منها تتبع أهل البيت(ع) لأنها (أولاً) لا تدعي ذلك أساساً (ثانياً) أعرف، ويعرف جميع أتباعها وغير أتباعها، أنها تتبع أئمة آخرين؛

وفيما إذا كانت الطائفة التي تسمي نفسها "شيعة" صادقة في دعواها أنها تتبع أهل البيت(ع)، أو بشكل أدق تتبع مذهبهم.

علاقة الشيعة بمذهب أهل البيت(ع)

كيف نعرف فيما إذا كان الشيعة يتبعون مذهب أهل البيت(ع) حقاً؟

للجواب على هذا السؤال الحاسم، نتبع – كما في غيره – الدليل النقلي والدليل العقلي:

فأما الدليل النقلي فإنه متوفر لأن التدوين في العلوم الإسلامية المختلفة بدأ عند الشيعة مبكراً، وقبل بدئه عند السنة بفترة عشرات السنين أو أكثر، فيمكن

الجمع بين أسماء الأشخاص ومنزلتهم العلمية مع مذهبهم ليتبين إن كانوا أتباعاً لأئمة أهل البيت(ع) أم لا، ثم يكون استمرار هذا النهج في تلامذتهم تأكيداً على استمرار هذه المدرسة إلى الآن.

وأما الدليل العقلي فيتعلق بمنزلة أهل البيت(ع) كما رويت في كتب أهل السنة المعتبرة، من تفسير وحديث وغيرها، وفيما إذا كان من الضروري وجود أتباع لهم، ومن هم، بين الادعاء والحقيقة. أي أن الدليل العقلي يتأسس هو الآخر على الأدلة النقلية ثم ينظر فيما إذا خلت الأمة ممن امتثل لهذه الأدلة النقلية، أي هل يمكن تصديق ذلك عقلاً أم لا؟

الدليل النقلي

في مخاطباتهما، المعروفة باسم "كتاب المراجعات"، طالب الشيخ سليم البشري (شيخ الأزهر في بداية القرن العشرين) السيد شرف الدين بتقديم الأدلة على صدق ادعاء الشيعة اتباعهم لأهل البيت(ع): "إن بعض المتعصبين عليكم قد يشاغبون في إسناد مذهبكم – في فروع الدين وأصوله – إلى أئمة أهل البيت ... فهل تتفضلون بما يدرأ شغبهم".

أجابه السيد شرف الدين بمراجعة طويلة نذكر منها هنا لقطات تعطي ضوءاً كافياً على هذا:

أن علماء الشيعة بدأوا بتأليف هذه الكتب وهم منذ عهد الإمامة في حين أن كل من قلد الأئمة الأربعة ألّف بعد أن انقضى زمنهم وبعد أن قرر الحكام حصر التقليد فيهم وقصر الإمامة في الفروع عليهم، أما في أيام حياتهم فكانوا كسائر من عاصرهم من الفقهاء والمحدثين، فلم يكن لهم امتياز على من كان في طبقتهم ولذلك لم يكن على عهدهم من يهتم بتدوين أقوالهم كاهتمام الشيعة بتدوين أئمتها المعصومين. وذكر أن الأصول الأربعمائة وهي لأربعمائة مصنف كتبت في أيام الإمام الصادق(ع).

وقال – وهو مهم جداً –: "أما الأئمة الأربعة فليس لهم عند أحد من الناس منزلة أئمة أهل البيت عند شيعتهم، بل لم يكونوا أيام حياتهم بالمنزلة التي

تبوأوها بعد وفاتهم ... ونحن مع ذلك لا نرتاب في أن مذاهبهم إنما هي مذاهب أتباعهم ... لأن أتباعهم أعرف بمذاهبهم، كما أن الشيعة أعرف بمذهب أئمتهم، الذي يدينون الله بالعمل على مقتضاه، ولا تتحقق منهم نية القربة إلى الله بسواه".

وأشار إلى أن البحث يبين بداهة تقديم الشيعة في تدوين العلوم على من سواهم، وأوضح السر في ذلك هو اختلاف الصحابة في إباحة كتابة العلم من عدمها، فقد كرهه عمر بن الخطاب وجماعة آخرون في حين أباحه الإمام علي(ع) والإمام الحسن(ع) وجماعة من الصحابة، وبقي الحال هذا حتى القرن الثاني في آخر عصر التابعين أجمعوا على إباحته، وحينئذ ألّف إبن جريح كتاباً في الآثار عن مجاهد وعطاء بمكة.

أما علي(ع) وشيعته فقد تصدوا لذلك منذ العصر الأول، فكان أول ما فعله علي(ع) هو:

- أنه جمع القرآن مرتباً على حسب النزول وأشار إلى عامه وخاصه ومطلقه ومقيده ومحكمه ومتشابهه وناسخه ومنسوخه وعزائمه ورخصه وسننه وآدابه وأسباب النزول.

- وبعد فراغه من ذلك ألّف للزهراء(ع) كتاباً كان يعرف عند أبنائها بـ "مصحف فاطمة" يتضمن أمثالاً وحكماً ومواعظ وعبراً وأخباراً وغير ذلك. (أقول: وهو الكتاب الذي كان أعداء الشيعة ولا يزالون يستخدمونه للافتراء على الشيعة أن لهم قرآناً آخر، على أساس أن اسمه "مصحف"، مع أن القرآن الكريم لم يسم نفسه مصحفاً، وإنما سمى نفسه قرآناً وفرقاناً وكتاباً وذكراً.)

- ثم ألّف كتاباً في الديات وسمه بـ "الصحيفة"، وقد أورده ابن سعد في كتابه المعروف بالجامع كما أن البخاري ومسلماً يذكران هذه الصحيفة.

وأورد الرواية الهامة رواية الصفار عن عبد الملك أنه قال: "دعا أبو جعفر – أي الباقر – بكتاب علي، فجاء به جعفر مثل فخذ الرجل مطوياً، فإذا فيه... فقال أبو جعفر: ‹‹هذا والله خط علي وإملاء رسول الله(ص)››.

واقتدى بعلي(ع) جماعة من شيعته فألفوا على عهده منهم سلمان وأبو ذر. كما أن منهم:

- أبو رافع مولى رسول الله(ص) وصاحب بيت مال المسلمين على عهد علي(ع)، له كتاب السنن والأحكام والقضايا جمعه من حديث علي(ع) خاصة

- ومنهم علي بن أبي رافع، المولود في عهد النبي(ص) فسماه علياً، له كتاب في فنون الفقه على مذهب أهل البيت وكانوا(ع) يعظمون هذه الكتب ويرجعون شيعتهم إليها

- ومنهم عبيد الله بن أبي رافع كاتب علي(ع) ووليه سمع النبي وروى عنه(ص)، ألّف كتاباً فيمن حضر صفين مع علي(ع) من الصحابة

- ومنهم ربيعة بن سميع، له كتاب في زكاة النعم من حديث علي عن رسول الله(ص)

- ومنهم عبد الله بن الحرّ الفارسي، له كتاب في الحديث

- ومنهم الأصبغ بن نباتة، صاحب علي(ع) روى عهده إلى الأشتر ووصيته إلى ابنه محمد

- ومنهم سليم ابن قيس الهلالي صاحب علي(ع) روى عن سلمان، له كتاب في الإمامة.

ثم أشار إشارة بسيطة إلى أهل الطبقة الثانية طبقة التابعين التي ذكر مصنفاتهم في فهارس العلماء والمؤلفات كفهرست النجاشي وغير ذلك.

ثم ذكر أن الأيام بدأت تصبح أخف وطأة على أهل البيت وشيعتهم في زمان الإمام الباقر(ع) والإمام الصادق(ع) بعد أن بدأ الناس بالاندفاع إلى موالاة الإمام زين العابدين(ع) بعدما رأوا أو عرفوا من الظلم الذي أصاب أهل البيت ولاسيما بعد فاجعة الطف، وبالتالي فقد انتشرت مؤلفات أصحاب الإمامين الصادقين الباقرين ودونت أسماؤهم وأحوالهم في كتب التراجم من حملة العلم عنهما الذين يقاربون الأربعة آلاف ومصنفاتهم تقارب عشرة آلاف كتاب أو تزيد، رواها الأصحاب بالأسانيد الصحيحة.

ثم ذكر بعض الذين كانوا من المبرزين في أصحاب الأئمة بخصوص التأليف في الفقه والحديث وغير ذلك، فذكر منهم أبان بن تغلب الفقيه المفسر اللغوي المشهور الذي عاصر الأئمة الثلاثة وروى عنهم العلوم والأحاديث الكثيرة، حتى قيل أنه روى عن الصادق(ع) ثلاثين ألف حديث. وهذا مما يثبت علاقة هؤلاء

بالأئمة(ع) ما روي أن الإمام الباقر(ع) كان يأمر أبان ابن تغلب بالقول: «إجلس في المسجد وافْتِ الناس فإني أحب أن يرى في شيعتي مثلك». وقال له الصادق(ع): «ناظر أهل المدينة فإني أحب أن يكون مثلك من رواتي ورجالي».

وقال الصادق(ع) لسليم بن حبّة: «إئْتِ أبان بن تغلب فإنه سمع مني حديثاً كثيراً، فما روى لك فاروِهِ عني». ولأبان روايات عن أنس بن مالك وغيره، وقد احتج به مسلم وأصحاب السنن الأربعة، ولم يحتج به البخاري، أسوة بما فعل مع الأئمة الصادق والكاظم والرضا والجواد والحسن العسكري بل ولا الإمام الحسن السبط(ع)، وبالتالي لا يضره ذلك. وذكر بعض كتب "أبان بن تغلب"، فمنها كتاب تفسير غريب القرآن الذي أكثر فيه من شعر العرب شواهد على ما جاء في القرآن، وكتاب الفضائل وكتاب صفين وغيره.

وذكر أبا حمزة الثمالي ثابت بن دينار الذي كان من أصحاب السجاد والصادق والباقر(ع) وله كتاب تفسير القرآن وكتاب النوادر وكتاب الزهد ورسالة الحقوق رواها عن السجاد(ع)، وروى عنه الدعاء الشهير بدعاء السَّحَر الذي يقرأ في أسحار رمضان وليالي الجمع.

وذكر أبا القاسم ابن معاوية العجلي وأبا بصير الأصغر ليث ابن مراد المرادي وأبا الحسن زرارة بن أعين وأبا جعفر محمد ابن مسلم بن رباح الكوفي الثقفي، وهؤلاء الأربعة قد نالوا ربما ما لم ينله أحد من الثناء من الأئمة(ع) حتى قال فيهم الصادق(ع): «هؤلاء أمناء الله على حلاله وحرامه»، وقال: «هؤلاء حفّاظ الدين وأمناء أبي على حلال الله وحرامه، وهم السابقون إلينا في الدنيا والسابقون إلينا في الآخرة»، وقال(ع): «بشّر المخبتين بالجنة» ثم ذكر الأربعة.

وذكر أيضاً هشام بن الحكم من أصحاب الصادق والكاظم(ع) الذي ألّف كتباً كثيرة اشتهر منها تسعة وعشرون كتاباً رويت بالأسانيد في الأصول والفروع في التوحيد والفلسفة العقلية والرد على الزنادقة والملاحدة والقدرية والجبرية والغلاة في علي(ع) وأهل البيت(ع) وفي الرد على الخوارج والناصبة ومنكري الوصية إلى علي(ع). ووصفه بأنه "ممن فتق الكلام في الإمامة، وهذّب المذهب بالنظر، وأنه فاز من الأئمة بثناء عظيم جداً".

وقال بأن التأليف كثر على عهد الكاظم والرضا والجواد والهادي والعسكري(ع) وانتشرت الرواة عنهم وعن رجال الأئمة من آبائهم في البلدان، وذكر مثلاً من تلامذة الجواد(ع) الحسين بن سعيد وأحمد بن أبي نصر البيزنطي وأحمد بن محمد البرقي وشاذان وغيرهم وذكر قول المحقق أن كتبهم منقولة بين الأصحاب. ثم علق السيد شرف الدين بأن كتب البرقي وحدها تربو على مائة كتاب، وأن للحسين بن سعيد ثلاثين كتاباً، ثم أحال الشيخ البشري على كتب التراجم والفهارس للنظر في هؤلاء المؤلفين على مذهب أهل البيت(ع) كالفضل بن شاذان الذي روي أن له مائتي كتاب ومحمد ابن مسعود العياشي الذي له مائتي كتاب أيضاً وغير ذلك العديد من غيرهم.

وذكر انتشار العلم في أيام الإمام الصادق(ع) حيث قال كما ذكر كثيرون ومنهم الشهرستاني في الملل والنحل حيث قال: "وقد أقام بالمدينة مدة يفيد الشيعة المنتمين إليه، ويفيض على الموالين له أسرار العلوم..."

ثم ذكر المؤلفات التي اشتهرت بعد ذلك والتي بدأ تأليفها على أواخر عصر الأئمة وبداية عصر الغيبة وهي الكتب الأربعة: الكافي والتهذيب والاستبصار ومن لا يحضره الفقيه، واصفاً لها بأنها متواترة وأن الكافي وحده فيه ستة عشر ألف ومئة وتسعة وتسعون حديثاً، وأن هذه الكتب هي أكثر مما اشتملت عليه الصحاح الستة بأجمعها (أي صحاح الحديث من طرق أهل السنة).

ثم ختم بالقول: "ومن تتبع أحوال السلف من شيعة آل محمد(ص) واستقصى أصحاب كل من الأئمة التسعة من ذرية الحسين وأحصى مؤلفاتهم المدونة على عهد أئمتهم، واستقرأ الذين رووا عنهم تلك المؤلفات وحملوا عنها حديث آل محمد في فروع الدين وأصوله من ألوف الرجال، ثم ألـمَّ بجملة هذه العلوم في كل طبقة طبقة، يداً عن يد من عصر التسعة المعصومين إلى عصرنا هذا، يحصل له القطع الثابت بتواتر مذهب الأئمة، ولا يرتاب في أن جميع ما ندين الله به من فروع وأصول إنما هو مأخوذ من آل الرسول، لا يرتاب في ذلك إلا مكابر عنيد أو جاهل بليد والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله".

أجابه المرحوم البشري (المراجعة 111: "أشهد أنكم في الفروع والأصول على ما كان عليه الأئمة من آل الرسول، وقد أوضحت هذا الأمر فجعلته جلياً وأظهرت من مكنونه ما كان خفياً، فالشك فيه خبال والتشكيك تضليل. وقد استشففته فراقني إلى الغاية، وتمخّرت ريحه الطيبة فأنعشني قدسيّ مهبّها بشذاه الفيّاح، وكنت – قبل أن أتصل بسببك – على لبس فيكم لما كنت أسمعه من إرجاف المرجفين وإجحاف المجحفين، فلما يسر الله اجتماعنا أويت منك إلى علم هدى ومصباح دجى، وانصرفت عنك مفلحاً منجحاً، فما أعظم نعمة الله بك علي، وما أحسن عائدتك لدي، والحمد لله رب العالمين".

أقول: مراجعات المرحومين شرف الدين والبشري تعرضت إلى التشكيك من جانب وإلى محاولة التفنيد من جانب آخر، وكان مما قيل أن البشري بدا وكأنه يوافق على جميع ما يقوله شرف الدين. وهذا ليس صحيحاً مطلقاً، بدليل اعتراضاته على شرف الدين؛ وقد أوردت، في الفصل 8 حديث الغدير، كيف أن البشري وجد صعوبة في الجمع بين حجج شرف الدين من الكتاب والسنة، وبالخصوص لفظة "المولى" في حديث الغدير «فمن كنت مولاه فعليٌّ مولاه»، وكرامة السلف الصالح وعمل الصحابة، حتى جاءه شرف الدين بتوجيه لعملهم؛ ولم يتنازل البشري عن الموقف السني السائد، فكيف يقال أن قبوله كان دون نقاش؟

على أية حال، المهم هو التدقيق فيما قاله شرف الدين بخصوص مؤلفي الشيعة من أصحاب الأئمة(ع)، بدءاً من أصحاب علي(ع) وهو الإمام الأول للشيعة الإمامية، وصولاً إلى أصحاب الإمام الحسن العسكري(ع) الإمام الحادي عشر، أي على امتداد إمامة أهل البيت(ع) حتى عصر الغيبة بعد قرنين ونصف من انتهاء العهد النبوي – الجمع بين تشيع هؤلاء المذكورين والكتب التي ذكرت، ثم البحث في سبقهم إلى التأليف بحيث يحسم القول بأن ما عليه الشيعة قد جاءهم عبر مسلسل تاريخي توارث الخلف عن السلف المؤلفات حتى وصلت إلى عصرنا هذا، ما يقطع أن ما عليه الشيعة اليوم هو مذهب أهل البيت(ع).

ولأهميته في بحثنا، أعرض الآن على شكل جدول مختصر رواد العلوم وكلهم من الأئمة من آل محمد(ص) وشيعتهم.

	إسم العلم	المؤسس والرواد الشيعة	المؤلَّف	تاريخه
1	الكلام	علي(ع)، معبد الجهني (تلميذ أبي ذر) أبو الأسود الدؤلي أبو مروان الدمشقي كميل بن زياد، سليم بن قيس الهلالي		صحابي، تابعون، القرن 1، تابعي القرن 1
2	تفسير القرآن	علي(ع) وابن مسعود وأبيّ بن كعب، ثم سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب، ثم أبو حمزة الثمالي، ثم الفرّاء	تفسير بسيط، تفسير بسيط، كتاب في التفسير، أول تفسير متكامل	صحابة، تابعون القرن 1، تابعي القرن 1، بداية القرن 3
3	غريب القرآن	أبان بن تغلب	الغريب في القرآن	القرن 2
4	معاني القرآن	أبان بن تغلب	معاني القرآن	القرن 2
5	أحكام القرآن	محمد بن السائب الكلبي	آيات الأحكام	القرن 2
6	إعراب القرآن	أبو الأسود الدؤلي	إعراب وتنقيط وتشكيل المصحف	تابعي القرن 1
7	القراءات	أبان بن تغلب		القرن 2

8	الحديث	أبو رافع مولى النبي(ص)	السنن والأحكام والقضايا	صحابي
9	غريب الحديث	النظر بن شميم المازني	غريب الحديث	القرن 2
10	الفقه	علي بن أبي رافع مولى النبي(ص)	فنون الفقه	تابعي القرن 1
11	أصول الفقه	الباقر(ع) والصادق(ع)، وتلميذاه هشام بن الحكم ويونس بن عبد الرحمن	وضع المناهج والمقاييس	القرنان 1 و 2، القرن 2
12	الفقه المقارن	محمد بن عمر الواقدي	الاختلاف	القرن 2
13	التاريخ	أبان بن عثمان البجلي، ثم محمد بن السائب الكلبي وابنه هشام	في علم التاريخ، في التاريخ وأيضاً في الأنساب الجمهرة في النسب	القرن 2، القرن 2
14	المغازي والسير (النبي(ص))	محمد إبن إسحق	مغازي النبي(ص)	القرن 2/1
15	المغازي والسير (غيرها)	جابر الجعفي	صفين والنهروان ومقتل علي(ع) ومقتل الحسين(ع)	القرن 2/1
16	الأخلاق	علي(ع)، إسماعيل بن مهران السكوني	كتاب إلى الحسن(ع) أو بن الحنفية، صفة المؤمن والفاجر	القرن 1، القرن 2
17	الفلسفة	علي(ع)،	كلام وخطب،	القرن 1،

		ثم أولاده(ع)، ثم هشام بن الحكم	إنتشار الفكر، نقد فلسفة أرسطو	القرن 1 و 2، القرن 2
18	النّحو	علي(ع) أبو الأسود الدؤلي، ثم الخليل الفراهيدي	وضع الأسس وتنقيط المصاحف، كتاب العين	صحابي، تابعي القرن 1، القرن 2
19	التصريف	معاذ بن مسلم الكوفي	تصانيف مختلفة	القرن 2
20	العروض	الفراهيدي	العروض بشكلها النهائي	القرن 2

الدليل العقلي

وهذا يتناول الحقائق البديهية الأولية، وهي:

1- هناك إجماع على اثني عشر إماماً من آل محمد(ص) (ما عدا الثاني عشر وهو لا يضير البحث لأن وفاة الحادي عشر(ع) سنة 260هـ، أي بعد قرنين ونصف من وفاة النبي(ص) ووفاة الأئمة الأربعة، وبعد زمان مما تذهب إليه جميع النظريات حول بدء التشيع، والتي ناقشتها وتوصلت إلى أن التشيع هو أول المذاهب وبفارق زمني كبير)

2- هؤلاء الأئمة(ع) ذوو علم غزير وورع شديد وسيرة عظيمة امتدحوا بما لم يمتدح به غيرهم

3- هناك طائفة من المسلمين تسمى "شيعة أهل البيت" أو "شيعة"، وهم يدّعون أن مذهبهم هو مذهب أسسه أهل البيت(ع) واستمر بشكل متواصل منذ إعلان الإمام الأول علي(ع) إماماً في آخر العهد النبوي

4- المسلمون الآخرون، وهم أهل السنة، لا يدّعون أن مذهبهم هو مذهب أسسه أهل البيت(ع)، بل يصرحون أنه من تأسيس غيرهم.

ثم يسأل: إذا كان أئمة أهل البيت(ع) بدأوا منذ عصر الصحابة، ومنهم ثلاثة من الصحابة، واستمروا على عهد التابعين وتابعي التابعين وما بعدهم، وقد عرفهم الناس جميعاً ممن عاصرهم؛

وإذا كانوا قد عرفوا بالعلم الغزير بحيث وصلت حلقاتهم العلمية في عهد الباقر والصادق(ع) إلى ما لم تصله حلقات غيرهم حتى أن تلاميذ الصادق(ع) بلغوا أربعة آلاف؛

وإذا كان، بحسب طبيعة الأشياء، لا بد للكثير من هؤلاء الألوف أن يكونوا على مذهب أهل البيت(ع) ولا ينتقلوا منه، ثم يقومون بنشره حتى يترسخ في الأمة فلا يمكن إلغاؤه؛

فنأتي اليوم، وما قبل اليوم، ونعاصر ملايين المسلمين الذين يقولون أنهم على مذهب أهل البيت(ع)؛

ونجد اليوم، وما قبل اليوم، غيرهم من المسلمين، وهم أهل السنة، لا يسمون أنفسهم شيعة، ولا يتبعون مذهب أهل البيت(ع) وذلك باعترافهم بأنفسهم؛

فالسؤال الأهم هو:

إذا كان ادعاء الشيعة باطلاً فأين صار مذهب أهل البيت(ع)؟

فإن تجرأ قائل، أو تهرب من الجواب الواضح، وقال بأنه لم يكن هناك مذهب باسم أهل البيت(ع) أصلاً، حينئذ يأتي سؤال: هل يعقل أن الأمة الإسلامية، منذ عصر الصحابة، فالتابعين، فتابعي التابعين، التي يسميها أهل السنة خير القرون، التي يعيش أولئك العلماء الأفذاذ من آل محمد(ص) فيها، وهي ترى رأي العين كيف أن العلماء الآخرين ما بين تلميذ لهم(ع) ومادح مثن عليهم أعظم المدح (وصل إلى حد قول أحمد بن حنبل أن أهل البيت "لا يقاس بهم أحد")، بقضها وقضيضها وخلال خير القرون، تتركهم، وبشكل تام، بحيث لا يعود هناك شيء اسمه مذهب أهل البيت(ع)؟!

فإن أجيب: نعم يمكن هذا، فالسؤال هو: أي أمة هذه التي تترك أعظم علمائها – بغض النظر عن العصمة غير المتفق عليها – وتهمل علومهم وتركض خلف آخرين ممن لا يصلون إليهم وباعتراف أولئك الآخرين؟ هل يمكن أن تكون هذه ﴿خير أمة أخرجت للناس﴾؟ أي أمة هذه التي تترك العدول من آل محمد(ص) الذين أخبرنا النبي(ص) بأنهم في كل خلف من الأمة يحرسون شريعته الهادية «في كل خلف من أمتي عدول من أهل بيتي ينفون عن هذا الدين تحريف الضالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين» وتركض خلف غيرهم؟

أما إذا أجيب: لا يعقل، عدنا إلى السؤال الأول، وهو: ماذا حل بمذهب أهل البيت(ع)؟

فإن أجيب: هناك من يدّعي ذلك، وهم الشيعة، سألنا: وهل يقدمون على ادعائهم أدلة؟

والجواب ما قدمناه فيما سبق من الدليل النقلي على أن الشيعة يتبعون مذهب أهل البيت(ع) الذي لم ينتظر عشرات السنين حتى يتبلور، بل أخذ راية العلم من النبي(ص) إلى علي(ع) إلى الحسنين(ع) إلى الأئمة التالين(ع)، وفي كل زمان كان أصحاب إمام ذلك الزمان يتعلمون منه مذهبه ومذهب آبائه الطاهرين كما تلقوه من النبي(ص) ثم يعلمونه الناس حتى انتشر قبل غيره من المذاهب جميعاً.

رجال الحديث الشيعة في إسناد أحاديث أهل السنة

ولكن، رب قائل يقول: حتى وإن دل الدليل العقلي والنقلي على أن الشيعة الإمامية الإثني عشرية يتبعون أئمة أهل البيت(ع)، إلا أن هذا لا يعني بالضرورة صحة مذهبهم وطريقتهم لأنه من الممكن أن هؤلاء الرجال أنفسهم قد حرّفوا وغيّروا ما وصلهم من أئمة أهل البيت(ع). أيضاً، إن هذا القائل ربما يقول: نحن نسلم بعلو مرتبة أئمة أهل البيت(ع) في العلم والتقوى، ولكننا لا نسلم بكل ما يأتي عنهم لأننا لا نؤمن بعصمتهم، وبالتالي فإن مدرسة أهل السنة وجدت أن الإعراض عن رجال الشيعة في نقل العلوم الإسلامية لا يعني خسارة في هذه العلوم لأننا نقلناها عن طرق أخرى موثقة.

للجواب على هذا، أقول بأنه على العكس من مثل هذا الرأي، فإن مدرسة أهل السنة اعتمدت على روايات الكثيرين من رجال الشيعة المتفق على تشيعهم، وذلك في أصح الكتب عند أهل السنة، وهذا يعني أمرين:

إما أن المحدثين السنة لم يجدوا غضاضة في رواية الشيعي، وهذا يعني توثيق الشيعة بشكل عام، فيرد، حينئذ، على القول بتحريف الشيعة وتغييرهم لما جاءهم من الأئمة(ع)؛

وإما أن المحدثين السنة أرادوا الاستفادة مما روي عن أئمة أهل البيت(ع) فلم يجدوا غير الشيعة في إسناد هذه الأحاديث التي رووها بسندها المتصل إلى الأئمة(ع)، وهذا يرد، حينئذ، على القول بعدم الحاجة إلى علومهم(ع).

وبغض النظر عن التنظير في هذا، فإن واقع الحال يثبت هذا النقل وهذا الاعتماد على مرويات رجال الشيعة.

إن اعتماد المحدثين السنة على رجال الشيعة في سند الأحاديث يمثل أحد الأدلة المهمة جداً في رفع درجة الاعتبار لهؤلاء الرجال من حيث وثاقتهم التي تعني أمرين: العلم والتقوى. ذلك أن الكثير من الشيعة قد ردت أحاديثهم لمجرد أنهم شيعة، بل لمجرد أن فيهم تشيع أو رائحة تشيع كما يعبر البعض. كما أن الكثير من الروايات لم تسلم من الرد لأن "فيها رائحة تشيع"! بمعنى: ربما يكون الحديث صحيحاً من ناحية السند ولكن المتن (أي منطوق الحديث) لا يعجب الباحث لأن فيه "رائحة تشيع"، عندها يلقي بصحة السند عرض الحائط، وربما يكون الحديث صحيحاً من ناحية المتن ولكن في الإسناد رجلاً "فيه تشيع"، عندها يلقي بصحة المتن عرض الحائط... وهكذا يكون البحث العلمي! بل هكذا تكون التقوى في نقل شريعة سيد المرسلين(ص) وأوامره ونواهيه وسننه!

وقد قام السيد شرف الدين (المراجعات المراجعة 16) بتفصيل لمجموعة كبيرة من رجال الشيعة بلغت المائة ممن كانوا محل ثقة في إسناد الحديث عند السنة ليثبت أن محدثي السنة لم يجدوا مشكلة في الاعتماد على روايات الشيعة. وهنا نأخذ أمثلة قليلة جداً لهؤلاء بالخصوص من الذين اشتهر اتهامهم والنيل منهم من المؤلفين الذين كتبوا ضد الشيعة والتشيّع في زماننا الحاضر هذا:

أبان بن تغلب ابن رباح الكوفي. قال الذهبي في ميزانه: "أبان ابن تغلب الكوفي شيعي جلد لكنه صدوق، فلنا صدقه وعليه بدعته". (أقول: بأن كلمة "لكنه صدوق" تشير إلى اعتقاد الذهبي أنه عندما يقول "شيعي جلد" فإن القارئ يتوقع أن يكون الكذب صفة لازمة له فاستثنى فقال "لكنه صدوق"، وهذا من نظرتهم إلى الشيعة) وأكمل الذهبي: "وثّقه أحمد بن حنبل وابن معين وأبو حاتم"؛ وأورده بن عدي وقال: "كان غالياً في التشيّع"؛ وعدّه ممن احتج بهم مسلم وأصحاب السنن أبو داوود والترمذي والنسائي وابن ماجة.

ومن رجال صحيحي البخاري ومسلم إبراهيم بن يزيد ابن عمر النخعي الكوفي الفقيه.

ومنهم اسماعيل بن أدران الأسدي الكوفي الورّاق شيخ البخاري في صحيحه، ذكر الذهبي أن يحيى وأحمد ابن حنبل أخذ عنه وأن البخاري قال: "صدوق".

ومنهم ثابت بن دينار المعروف بأبي حمزة الثمالي، وقد وضع الذهبي رمز الترمذي على اسم أبي حمزة علامة على أنه من رجال أسناده.

ومنهم جابر بن يزيد بن الحارث الجعفي الكوفي الذي وصفه مسلم في أوائل الصحيح عن الجراح "سمعت جابراً يقول: عندي سبعون ألف حديث عن أبي جعفر (أي الباقر) عن النبي(ص)" إلى غير ذلك مما يثبت أنه من كبار الشيعة؛ وكان من رجال الحديث عند النسائي وأبي داوود والترمذي. ونقل عن سفيان القول بأنه"ورع في الحديث"، وأن شعبة قال: "جابر صدوق"، وأن عبد الحكم سمع الشافعي يقول: "قال سفيان الثوري لشعبة: لئن تكلمت في جابر الجعفي لأتكلمن فيك".

ومنهم الحسن بن صالح الهمداني ذكره الذهبي مع أخيه التوأم في ميزانه: "كان أحد الأعلام وفيه بدعة تشيع". وذكره ابن سعد (الطبقات ج6): "كان ثقة صحيح الحديث وكان متشيعاً". وذكر الذهبي أن أبا حاتم قال: "ثقة حافظ متقن"، وإن أبا زرعة قال: "إجتمع فيه إتقان وفقه وعبادة وزهد"، وأن النسائي وثّقه، وأن أبا نعيم – الذي كتب عن ثمانمائة محدث – قال: "ما رأيت أحداً إلا وقد غلط في شيء غير الحسن بن صالح".

ومنهم سليمان بن صرد الخزاعي كبير شيعة العراق والمعروف بأنه كان أمير التوابين من الشيعة الثائرين في الطلب بدم الحسين(ع). وحديثه في صحيح البخاري ومسلم وغيرهما.

ومنهم صعصعة بن صوحان العبدي من مشاهير الشيعة ومن أصحاب علي(ع) شهد معه الجمل هو وأخوه زيد، ومعهم سيحان إبن صوحان وكانت معه الراية يوم الجمل فقتل فأخذها زيد فقتل فأخذها صعصعة. وذكر ابن قتيبة هؤلاء (المعارف ص138) وروى إخبار النبي(ص) أن أحد أصحابه ستسبقه يده إلى الجنة، ما تحقق – كما يبدو – في مقتل زيد هذا في معركة الجمل سنة 36هـ بعد أن قطعت يده يوم جلولاء في فتح العراق سنة 16هـ. أما صعصعة فقد ذكره الذهبي فقال: "ثقة معروف"، ونقل القول بوثاقته عن ابن سعد وعن النسائي.

فلِمَ عدلوا عنهم(ع)؟

فكان من جواب الشيخ البشري بعد أن أيد ما جاء في هذه المراجعة أنه تساءل بما نصه: "آمنا بآيات الله كلها وآيات الله في سيدنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وسائر أهل البيت رضي الله عنهم أكثر مما أوردتموه. فما ندري لماذا عدل هل القبلة عن أئمة أهل البيت فلم يتعبدوا بمذاهبهم في شيء من الأصول والفروع، ولا وقفوا في المسائل الخلافية عند قولهم، ولا كان علماء الأمة يبحثون عن رأيهم، بل كانوا يعارضونهم في المسائل النظرية، ولا يبالون بمخالفتهم، وما برح عوام الأمة خلفاً عن سلف يرجعون في الدين إلى غير أهل البيت بلا نكير، فلو كانت آيات الكتاب وصحاح السنة نصوصاً فيما تقولون ما عدل أهل القبلة عن علماء أهل البيت، ولا ارتضوا بهم بدلاً، لكنهم لم يفهموا من الكتاب والسنة أكثر من الثناء على أهل البيت ووجوب مودتهم واحترامهم، والسلف الصالح أولى بالصواب وأعرف بنفاد السنة والكتاب ﴿فبِهُداهُم اقتَدِه﴾ والسلام".

فأجابه السيد شرف الدين عن هذا التساؤل والنتيجة قائلاً: "وإنما عدل عن أهل البيت في فروع الدين وأصوله ساسة الأمة وأولياء أمورها منذ عدلوا عنهم

بالخلافة فجعلوها بالاختيار مع ثبوت النص بها على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، إذ رأوا أن العرب لا تصبر على أن تكون في بيت مخصوص فتأولوا نصوصها وجعلوها بالانتخاب ليكون لكل حيّ من أحيائهم أمل بها ولو بعد حين، فكانت مرة هنا وأخرى هناك وتارة هنالك، وهبوا بكل ما لديهم من قوة ونشاط إلى تأييد هذا المبدأ والقضاء على كل ما يخالفه، فاضطرتهم الحال إلى التجافي عن مذهب أهل البيت وتأولوا كل ما يدل على وجوب التعبد به من كتاب أو سنة. ولو استسلموا لظواهر الأدلة فرجعوا إلى أهل البيت، وأرجعوا الخاصة والعامة إليهم في فروع الدين وأصوله، لقطعوا على أنفسهم خط الرجعة إلى مبدئهم، ولأصبحوا من أكبر الدعاة إلى أهل البيت، وهذا لا يجتمع مع عزائمهم ولا يتفق مع حزمهم ونشاطهم في سياستهم، ومن أمعن النظر في هذه الشؤون علم أن العدول عن إمامة الأئمة من أهل البيت في المذهب ليس إلا فرعاً عن العدول عن إمامتهم العامة بعد رسول الله(ص)، وأن تأويل الأدلة على إمامتهم الخاصة إنما كان بعد تأويل الأدلة على إمامتهم العامة، لولا ذلك ما التوى عنهم ملتو".

نتيجة البحث

إذاً، إعترف رجال الجرح والتعديل من أئمة الحديث بتشيع كبار أصحاب أئمة أهل البيت(ع)، ومنهم من أصحاب النبي(ص)، واعترفوا بصدقهم وورعهم وضبطهم للحديث فحكموا بوثاقتهم، وأخرج لهم أصحاب كتب الحديث من أهل السنة ومنهم أصحاب ما يسمى بالصحاح الستة ومنها صحيحا البخاري ومسلم.. ما يدل على التالي:

رجال ثقاة عدول في الحديث لهم روايات في أصح الكتب عند أهل السنة، وهم من الشيعة باعتراف أصحاب الكتب و/أو أئمة نقد الحديث الشريف، وهؤلاء الرجال يصرحون بأنهم شيعة على مذهب أهل البيت(ع)...

فالنتيجة الحاسمة هي: أن أولئك الشيعة كانوا على مذهب أهل البيت(ع)...

وبما أن هؤلاء كانوا مدرسة رائدة بدأت منذ العهد النبوي واستمرت دون توقف، وفي كل زمان كان إمام ذلك الزمان من أهل البيت(ع) يرفدها بعلوم آبائه

وأجداده الطاهرين، فتقوى ويشتد عودها ويزداد أتباعها وينتشرون في البلدان، فإن الشيعة منذ نهاية زمان الإمام الحادي عشر الحسن العسكري(ع)، وعصر غيبة الثاني عشر(ع)، مستمرون في نشر علوم أهل البيت(ع)، بأسماء معروفة لعلماء معروفين مشهورين صرح الناس كلهم بتشيعهم، وجادلوهم وناظروهم في مناظرات ثبتت ونشرت وهي بأيدينا اليوم، يعترف بها علماء المدرستين، فإن الشيعة في عصرنا هذا، وما قبله، هم على مذهب أهل بيت محمد(ص) بلا أدنى شك.

وعليه، فإن ما سمعته من عمي (رحمه الله برحمته الواسعة وألحقه بأجداده الطاهرين) لم يكن نتيجة بحث، وإنما كان رأي أتباع مدرسة أهل السنة الذين وقفوا بين أمرين:

الاعتراف بأن الشيعة الإمامية الإثني عشرية هم حقاً على مذهب آل محمد(ص)، ما يعني الاعتراف بأنهم – أي أهل السنة – لا يتبعون آل محمد(ص)،

أو نفي أن تكون الشيعة على مذهب آل محمد(ص)، ما يعني سلبهم من التفوق الواضح على أهل السنة إذ اتبعوا آل محمد(ص) الذين "لا يقاس بهم أحد" حسب قول الإمام أحمد،

فاختاروا أهون الأمرين وهو نفي أن تكون الشيعة على مذهب أهل البيت(ع)، وهو ما تبين لي عدم صحته بالأدلة القاطعة، كما حاولت أن أبينه هنا، والحمد لله رب العالمين.

من نتائج الثقة بسلامة الموقف

في صباح يوم عيد الفطر المبارك من عام 1403هـ (شهر تموز/يوليو 1983م) أديت صلاة العيد في مسجد النقي الكائن في منطقة الدسمة في مدينة الكويت، وكانت أول صلاة عيد لي في مسجد من مساجد الشيعة؛ بعد الصلاة والخطبة توجهت إلى مكتب المسجد لتسليم زكاة الفطر. كان المكتب عبارة عن غرفة طويلة في أحد جانبيها الطويلين مكتبات، أو رفوف للكتب، وكنا نقف في طابور للوصول إلى آخر الغرفة حيث طاولة مكتب يقف عندها بعض الشباب الذين يستلمون المبالغ. وبينما كنت واقفاً صرت أنظر إلى رفوف الكتب وأحاول قراءة

عناوين الكتب التي صفت عليها، فشد انتباهي كتاب من أجزاء عديدة كثيرة، وعندما دققت النظر وجدت أنه كتاب "منهاج السنة" لأحمد عبد الحليم بن تيمية الحرّاني (661-728هـ) المعروف بشيخ الإسلام، واسم الكتاب الكامل هو "منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية" الذي ألفه ابن تيمية رداً على كتاب "منهاج الكرامة في معرفة الإمامة" الذي ألفه الحسن بن يوسف بن المطهر (648-726هـ) المعروف باسم العلامة الحلّي.

دهشت حقاً من وجود كتاب لأحد أشد أعداء الشيعة من علماء المذاهب الأخرى عبر العصور، ولاسيما وأن الكتاب هو في الرد على كتاب لأحد أكبر علماء الشيعة عبر العصور أيضاً؛ وأكثر، أن كتاب ابن تيمية هدفه نقض أدلة العلامة الحلي على إمامة علي(ع) وأهل البيت(ع). ولعل الأمر يصبح ملفتاً أكثر أن هذا الكتاب في مكتبة أهم مسجد شيعي في دولة الكويت على الإطلاق.

فهل أن تلك فلتة؟ أو بادرة شاذة في مكان واحد على أهميته؟

بعد أن فكرت في الموضوع في حينها وجدت أن قراري باتباع مذهب أهل البيت(ع) لم يكن من مطالعة الكتب التي ألفها الشيعة بناء على روايات الأئمة(ع)، سواء في التفسير أو الحديث أو الفقه، وإنما كان نتيجة مطالعة كتب، بعضها ألفها شيعة، في إثبات مذهبهم من مصادر أهل السنة دون الاستناد إلى شيء من مصادر الشيعة؛ وهذا يعني أن مذهب أهل البيت(ع) يقيم أتباعه الدليل عليه من مصادر الآخرين.

مع هذا، فإن وجود كتاب ككتاب ابن تيمية، المعروف بتهجمه على الخصوم من شتى المذاهب حتى ضاق علماء المذاهب السنية ذرعاً به في عصره، مدعاة لطرح السؤال التالي:

ألا يخشى الشيعة، ولاسيما العلماء والقائمون على المساجد والمراكز الإسلامية، من تأثر بعض الشيعة، خصوصاً العوام، بمثل هذه الكتب التي ألفت لنقض عقائد الشيعة نفسها؟

فهل أن ضم كتاب ابن تيمية - الذي ألفه لنقض عقائد الشيعة – في مسجد النقي كان فلتة في مكان واحد، على أهميته؟

بعد الاطلاع أكثر على أحوال الشيعة وجدت أن ما من مسجد للشيعة أو حسينية أو مركز إسلامي إلا ويضم كتباً لأهل السنة، خصوصاً الكتب الأساسية، كصحيحي البخاري ومسلم – على شدة كتمانها لأحاديث دور أهل البيت(ع) –، وكتب التفسير كتفسير ابن كثير – على شدة انحرافه عن حقيقة أهل البيت(ع) في القرآن (ولعل هذا وراء انتشاره الكبير في زماننا) –، وكتب السيرة كسيرة ابن هشام – المنحرفة عن علي(ع) ومواقفه الخالدة (ولعل هذا وراء انتشاره الكبير بحيث تم تناسي باقي كتب السيرة) –.

ثم وجدت الأمر نفسه في المكتبات الشخصية لأفراد من الشيعة يضعون كتباً ألفها أهل السنة جنباً إلى جنب مع كتب ألفها الشيعة.

وبعدها وجدت أن المكتبات التجارية التي يملكها شيعة تبيع كتباً ألفها أهل السنة، في التفسير والحديث والسيرة والعقائد وغيرها، كما تبيع الكتب التي ألفها الشيعة.

بالإضافة، وجدت هذه المكتبات – في المساجد والمراكز والجامعات، وفي البيوت، وفي السوق – تضم كتباً من مؤلفي الطائفة السنية، والطائفة الوهابية، من مختلف اتجاهاتهم الفكرية والسياسية. فليس هناك خطوط حمراء، أو "فيتو"، ضد كتب الأقدمين أو المحدثين، ومن ضمنهم ألد خصوم الشيعة كابن تيمية، أو ضد كتب أهل الإسلام السياسي كالمفكر الكبير سيد قطب وأخيه محمد قطب، أو المفكرين والدعاة الآخرين كمحمد البهي أو عمارة أو العوّا أو القرضاوي وأمثالهم من المعاصرين.

بل وجدت بعضها تضم كتباً مؤلفة خصيصاً لشتم الشيعة والتهجم ليس على عقائدهم وفقههم فحسب بل وعلى أعراضهم وأخلاقهم (مما يحسنه بعض من ينتسب إلى السنة مع أنها إن كانت سنة النبي(ص) فهي أبعد ما تكون عن هذه الأخلاق، ولكنه سلاح الضعيف).

إن هذه الحالة الموجودة عند الشيعة في كل مناطقهم تشير، بل تدل، أنهم واثقون من سلامة موقفهم العقدي بحيث يشعرون أنهم يقفون على أرض صلبة، تحت بناء جذوره ضاربة في أعماق الأرض وعمده عالية قوية، فلا يخشون من مناقشات

الخصوم أو تشكيكهم في عقائدهم أو حججهم. وما ذلك إلا لأنهم، عند المناقشة، يقيمون الدليل على مذهبهم من كتب المخالفين حصراً على الرغم مما في تلك الكتب من كتمان وحذف وبتر وتدليس، في غمط لمنزلة أهل البيت(ع) ومشاركة في الحيف الكبير الذي وقع عليهم ومن خلاله على الأمة كلها. هذه واحدة.

الثانية هي أن هناك احتمالاً قوياً أن يتأثر بعض الشيعة بما يقوله الخصوم ويأتون به من حجج تحاول نقض عقائدهم أو مستندات موقفهم من الإسلام: عقيدة وشريعة وتاريخاً، بل أن هذا مما لا بد منه بحكم طبيعة البشر الذين يتأثرون بما يقرأون بأشكال مختلفة بلحاظ الأمور النفسية والعقلية الذاتية والمؤثرات الخارجية؛ وبما أن وجود كتب الآخرين، ومنها كتب الخصوم المعادية للمذهب الشيعي، في متناول يد الفرد الشيعي الذي يؤم المساجد أو المراكز الإسلامية أو يزور المكتبات التجارية فإنه يمكن القول أن بعض الشيعة سيتأثر قطعاً بما يقرأ في هذه الكتب وربما يترك المذهب الشيعي إلى المذاهب الأخرى، الأمر الذي لا بد أنه حصل مع البعض. فلماذا يترك الشيعة المجال لهذا الاحتمال؟

الجواب هو لأنهم يؤمنون بحرية العقيدة إلى درجة كبيرة بحيث يعتبرون قرار المسلم الشيعي التحول إلى المذهب السني أمراً يخصه هو وحسبما يمليه عليه الدليل، وبالتالي فما المشكلة في أن يتسنن من يريد ويتشيع من يريد، خصوصاً إذا كان هذا قائماً على الدليل والبرهان لا على الضغوط الخارجية من خوف أو طمع.

ثم اطلعت على حقيقة أخرى وهي أن بعض علماء الشيعة، أو طلاب العلوم الدينية، ذهبوا إلى جامعات دينية سنية – كالأزهر الشريف – لطلب العلم، دون خوف منهم ولا من الحوزة الدينية التي يرتبطون بها، من أن يتأثروا ويتحولوا عن التشيع. إن هذه الحقيقة دليل آخر على طريقة المذهب الشيعي في تعامله مع العلم، فهو يأخذه من أي منهل، ويدرس ويدقق ويحلل، فيأخذ ويرفض بناء على الدليل.

وظني أن هؤلاء العلماء والفضلاء والباحثين الذين درسوا في الأزهر الشريف وغيره وجدوا أنهم يزدادون اقتناعاً بمذهب أهل البيت(ع) لما يجدونه من الأدلة عليه من كتب أهل السنة التي لم يكونوا قد اطلعوا عليها، أيضاً لما يلمسونه لمس اليد من الفارق في التعامل مع هذه القضية بالذات: أنهم اطلعوا على ما عند

الآخرين وهم لما يزالون في بلادهم في حين أن الآخرين لم يطلعوا على شيء مما عند الشيعة، فإن كان فهو على الأعم الأغلب عبارة عن تشويه للصورة وافتراءات الكثير منها مدعاة للضحك حقاً.

فإذا جئت إلى الطرف المقابل فاقلب تصب! لا تجد أثراً لكتاب من مؤلفات الشيعة، لا في المعاهد والكليات الدينية أو غيرها، ولا مكتبات المساجد والمراكز الإسلامية، ولا أتوقع وجود شيء منها في المكتبات الشخصية. أما المكتبات التجارية فلا تبيع شيئاً من كتب الشيعة، بل أن البعض منها – وهو ما خبرته بنفسي في بريطانيا – يمتنع عن شراء أي كتاب طالما أن الموزع يبيع، من ضمن ما يبيع، كتباً للشيعة، حتى وإن كانت من قبيل "إقتصادنا" و "فلسفتنا" للمفكر الكبير السيد محمد باقر الصدر مع أن الكتابين ليس فيهما رائحة دعوة إلى التشيع بل فيهما يستفيد السيد الصدر من المدرسة السنية أيضاً، ومع أن الباحثين السنة، إسلاميين وغيرهم، لم يزالوا يثنون على هذين الكتابين بالذات.

وهذا الغياب الكامل عن مؤلفات الشيعة من المكتبات والمؤسسات السنية يدل على أمور:

منها أن هناك عدم مبالاة بما يقوله الشيعة على أساس فكرة الأقلية والأكثرية وطالما أن أهل السنة هم الأكثرية فلماذا يبالون بما عليه الأقلية (وهذا فهم لا يلحظ ما عليه أبناء آدم من ضلال الأكثرية، ولا يلحظ ما جاء في كتاب الله من ذم الأكثرية ومدح الأقلية)؛

ومنها أن حجج الشيعة قوية جداً، وهي تستند إلى كتب أهل السنة، وبالتالي فإن احتمال تأثر القارئ السني والطالب السني بما يقوله الشيعة يعد احتمالاً كبيراً، وعليه الأفضل هو الاستمرار في الطريقة التي سارت عليها الدولة الإسلامية وفقهاؤها وعلماؤها في منع وصول ما يقوله أهل البيت(ع) إلى عامة المسلمين؛

ومنها الخشية على المصالح الشخصية، وهذا عام في جميع البشر، وفي جميع المسلمين سنة وشيعة.

الفصل الثاني والعشرون
العودة إلى الأصل

لماذا " العودة "؟

لماذا " إلى الأصل "؟

" الأصل " متعدد الجوانب

(فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ
حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا
شَجَرَ بَيْنَهُمْ
ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي
أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا
قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)
قرآن كريم

"حكّمنا النبي(ص) بشأن
المرجعية بعده، فقال:
القرآن العترة؛ هذا القرآن
. . . فأين العترة وهم
أهل بيته(ص)؟ إنهم(ع)
الأصل الذي بدأ في
حياته، حتى كان
هناك ثلاثة أئمة منهم"
المؤلف

لماذا " العودة "؟

جميع المسلمين الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر، ما عدا من شذ، يؤمنون بمرجعية كتاب الله؛ وعليه فلا بد أنهم يؤمنون بوجوب الالتزام بآياته، سواء التي تخاطب المسلمين مباشرة: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ . الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ الزمر:17-18، وهو يصف المهتدين الذين يحترمون عقولهم، فابتعدوا عن الطاغوت، ورجعوا إلى الله الحق، فهم في سبيل انتقاء ما يستمعون إليه من أجل الهدف وهو اتباع الأحسن منه، وصولاً إلى الهدف الأسمى رضوان الله تعالى.

أو التي تخاطبهم من خلال المبعوث رحمة للعالمين(ص): ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ النساء:65، وهو حكم من الحق تبارك وتعالى أن حقيقة الإيمان لا يحرزه المسلمون إلا بهذا الشكل: الاحتكام إلى الرسول(ص) فيما اختلفوا فيه، ثم سلامة الصدر من أي ضيق أو رفض لما يحكم به الرسول(ص)، مع التسليم في الخارج بشكل كامل لذلك الحكم النبوي...

ويبدو أن هذا الأمر ليس بالأمر الهين وإلا لما استفتح الحق تعالى الآية الكريمة بقسم مؤكد – حيث أن "لا" أكدت القسم بـ "واو" القسم. كما أن الملفت أنه تعالى لم يستخدم كلمة الألوهية، بل كلمة الربوبية، وهذا يشير إلى نعمه وآلائه على العباد ومنها، ولعلها أعظمها، هذا الرسول الهادي(ص)؛ ويجعل كلمة الربوبية مضافاً للضمير العائد للرسول(ص) الذي تجعله هذه الآية المرجعية المركزية التي ينبغي لمن يريد تحقيق الإيمان بأجلى صوره أن ينقطع فيما يريد الاحتكام إليه وأن يجد نفسه راضية قانعة بما حكم ويجد أفعاله وأقواله الخارجية تعلن التسليم التام...

عندما أذكر الآية الأولى، أو أقرأها، وأنا في بحث حقيقة أهل البيت(ع) وحقيقة مذهبهم(ع) وحقيقة شيعتهم أجد أنه مما لا مفر منه النظر الجاد فيما يرد في

هذا البحث من آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي(ص) ومرويات السيرة وأقوال العلماء والمفسرين والمحدثين والمؤرخين والباحثين من أجل التثبت من القول ومن أحسنه ومما هو من قبيل الأمر والنهي أو من قبيل النصح والإرشاد أو من قبيل الرأي القابل للأخذ والرد، من أجل الوصول إلى تينك الصفتين: ﴿الذين هداهم الله﴾ و ﴿أولو الألباب﴾، ففيهما الفوز الكبير لأنه تعالى يقول: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهتَدِ﴾ الكهف:17 تحققت فيه صفة الهدى، ولأنه تعالى يقول: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُوْلُو الأَلْبَابِ﴾ البقرة:269 فهم وحدهم الذين يذكرون ويفكرون وينظرون ويتعظون.

نفس الشيء عندما أذكر الآية الثانية، أو أقرأها، وأنا في بحث حقيقة أهل البيت(ع) وحقيقة مذهبهم(ع) وحقيقة شيعتهم أجدني أتوجه إلى ما جاء عن النبي(ص) في تفسير الآيات وفي الأوامر والنواهي وفي السيرة العملية، مما جاء في الكتب المعتبرة للعلماء، محتكماً إليه(ص)، من أجل الوصول إلى تحقيق: معرفة حكمه(ص) فيما اختلف فيه حول حقيقة أهل البيت(ع) ودورهم وحول حقيقة مذهبهم(ع) وحول حقيقة شيعتهم، ثم – بعد معرفة الحكم – المصير إلى التسليم الكامل في القول والفعل، مع الراحة الداخلية من سلامة القلب الراضي بحكمه الصحيح قطعاً.

فأنا بين هاتين الآيتين، أفعّل العقل في الخطوة الأولى للاستجابة إلى أمر الله تعالى، في تفاعل مع القلب الذي يحب الله ورسوله(ص)، ثم أفعّل العقل في الخطوة الثانية التي تشرع في البحث وتسير فيه إلى آخر الشوط، وأنا في أثناء هذا أتلمس قلبي كيف يشعر: هل يتقبل ما قامت عليه البراهين القاطعة برضا أم يتقبله بعسر أم لا يتقبله أصلاً؟ وهكذا في رحلة يتفاعل فيها العقل والقلب، في تصاعد مستمر يشتد فيه النظر العقلي كما تشتد فيه العاطفة لما جاء به النبي(ص) وحكم به، وبالتالي المحبة بالاتجاه الذي دفع إليه الاحتكام إليه(ص)، حتى تبدو نعم الله وآلائه أعظم وأعظم بهذه الرحمة المستمرة بعد النبي(ص) في أئمة أهل البيت(ع) الذين هم عدل القرآن الذي أمر بالاحتكام إلى النبي(ص) وإليهم(ع)، فيشتد الحب لله تعالى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلّه﴾ البقرة:165، ولنبيه(ص) ولأوليائه(ع) فيسهل القبول النفسي والرضا القلبي بما ثبت للعقل بالبراهين الحاسمة... وهكذا.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ البقرة:165، فهؤلاء لم تتحقق فيهم الآية الأولى لأنهم لم يجتنبوا الطاغوت وإلا لطغى حب الله تعالى على حب من دونه، بل ليسوا من أولي الألباب فقد روي «أرجحكم عقلاً أشدكم لله حبّاً»، وهؤلاء لم تتحقق فيهم الآية الثانية في الاحتكام إلى النبي(ص) ثم الرضا والتسليم لحكمه...

وآفة كل ذلك "الأنا" أو العلوّ حسب التعبير القرآني ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ النمل:14، فرغم أنهم تيقنوا من الحق إلا أنهم جحدوه وأنكروه، والسبب هو: الظلم، لأنفسهم وللآخرين الذين يتبعونهم وللحقيقة ذاتها حيث ستفقد أنصاراً محتملين يزيدون من انتشارها بدلاً من أعداء يقللون من فرص انتشارها، وعلواً واستكباراً لأن نفوسهم – على ضعتها وضعفها – تجد أنها أعلى من الحق أو من أهل الحق ولاسيما إذا كانوا من الذين ينظرون إليهم نظرة متعالية أصلاً بسبب الجهل أو الافتراء أو الصراعات أو هذه جميعاً.

وحيث أني لا أريد لنفسي أن تغلبني على اتباع الحق، وحيث أني أحترم عقلي، وحيث أني أريد أن أكون أشد حباً لله، وأريد تحقيق الآيتين المتقدمتين وسواهما مما يسير في نفس الاتجاه ولأجل نفس الهدف، فإني لم أجد مجالاً لإدخال التكلفات العقلية لهذا العالم أو ذاك، والنقاشات التي تتهرب من النصوص القرآنية والنبوية الصريحة، بل ووجدت نفسي – ولله الحمد والمنة – منقادة خاضعة راضية سعيدة بما اكتشفت...

مؤكد أن هذا لا يتحقق في يوم أو يومين، بل لا ينبغي أن يكون كذلك لأنه تأثر على السطح سرعان ما يزول مع أول هزة تشكيك، ولكنه من إعمال العقل والرغبة الصادقة في الوصول إلى ما اختلف فيه، فلم أجد، ولن يجد أحد، خيراً من المرجعية النبوية التي أمرت بها السماء ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك...﴾ أنت يا محمد(ص)، لا غيرك سواء سمي عالماً أو شيخ إسلام أو آية الله أو باحثاً كبيراً أو أستاذاً أو ما شئت...

لماذا " إلى الأصل "؟

إن الانقطاع إلى المرجعية النبوية، التي عندها التبيان المعصوم للقرآن الكريم ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ النحل:44 هو ارتباط بعهد الوحي والتنزيل، أي العهد الذي كانت سفارة النبي محمد(ص) إلى الخلق تمارس دورها بشكل يومي بحيث تتفاعل الآيات المنزلة بالوحي مع الأحداث، فآيات تخبر وتحلل وتكشف الأحداث، وأحداث أخرى تهيئ الأرضية لنزول آيات أخرى؛ فلماذا نترك البيان الصافي الخالي من التعقيد الذي صدع به النبي(ص)، الذي وكّل به تبيان الذكر الحكيم، لنأتي إلى أقوال من جاء من بعده من علماء أو مفسرين أو محدثين مهما علت منزلتهم وبان فضلهم، علماً وتقوى؟

لا يمكن أن نحرز الصحة التامة إلا بالارتباط بالمرجعية النبوية، ولكن... هذه المرجعية النبوية أسست لأمر لم يعجب جميع المسلمين، فتصادم مع رغبات البعض، واختلف مع مشاكل عهد النبوة ذاته وعقده – من ثارات وأحقاد ومنافسة –، فتم الالتفاف على ذلك التبيان الصافي المعصوم من النبي(ص)، ليس من أول لحظة توقف فيها الوحي مع توقف ذلك القلب الكبير، وإنما وهو(ص) لا يزال موجوداً بين أظهرهم، فقد وقف(ص) خطيباً وهو يقول: «لقد كثرت عليّ الكذابة»، فتأمل كثرة الكذب بعد رحيله(ص)، وفكر في الكم الهائل من الكذب في فترة تسعين عاماً فصلت بين رحيله(ص) وبين رفع الحظر عن تدوين حديثه(ص) الذي هو التبيان للذكر الحكيم. ويكفيك أن تعلم أنها فترة بدأت ببيعة الفلتة وهجوم على بيت ابنة النبي(ص) ليتلوه نزع ما تحت أيديها من ميراث، ثم ليجعل أمر الخلافة حسبما يشاء الخليفة، بين نص أو شورى سنة أو اختيار عام، وصولاً إلى خلافة ألد أعداء الإسلام من بني أمية، وذلك بعد أقل من نصف قرن فحسب. فترة قتل فيها ثلاثة من خلفاء ما يعرف بالخلافة الراشدة، وقتل حفيدا النبي(ص) سيدا شباب أهل الجنة، وقتل فيها على الملك ما لا يحصى من المسلمين، وانتهكت فيها أعظم الحرمات، فضربت الكعبة المشرفة بالمنجنيق بصخور ونار، واستبيحت المدينة المنورة، واستبيحت النساء، ولم يسلم حتى أهل بيت النبي(ص) الذين تعرضوا للقتل الذريع حتى كادوا أن يستأصلوا تماماً بعد خمسين سنة فقط من وفاته(ص)؛ وارتكب خلفاء النبي(ص) كبائر الذنوب من قتل وزنا وشرب خمر وشهادة

زور وما شئت، واستأثروا بأموال المسلمين، وعاملوا الرعية كأنهم عبيد لهم؛ وهم في كل هذا واعون لضرورة تثبيت حكمهم وتبرير ما يفعلون استناداً إلى شريعته(ص)...

فتصور كم من الأحاديث الكاذبة وضعت لتغطية ذلك كله، وكم من أقوال من يسمون العلماء دبجت ونشرت في تأويلات ما أنزل الله بها من سلطان...

مقابل الوقوف بكل حزم أمام نصوص ذلك المصدر الصافي المعصوم الذي سيفضح هذا النهج المرفوض جملة وتفصيلاً، فكتمت أحاديث، وبترت أخرى، وحرّفت ثالثة، وكذّبت رابعة، وصولاً إلى عدم تسجيل بل مسح كامل لفئة خامسة...

والأمة تنشأ على هذا، ويدخل فيها أقوام جدد لا يعرفون العربية، ولا يستطيعون التدخل فيما يقوله القوم الذين جاءوهم بالدين، فاتبعوا ما وجدوه، ثم زادوا عليه، حتى اختلط الحابل بالنابل، وصار الحديث الواضح الصحيح الذي أنقذته السماء من كل تلك الهجمة بحاجة إلى شروح وشروح وجهود وجهود من أجل الرد على التأويلات الفاسدة التي تناضل من أجل دفعه عن مراميه الأصلية... في حين صار الحديث الواضح الكذب الذي كتبته يد الأرض المتمكنة الفاسدة هو المعتمد الذي يحتاج هو الآخر إلى جهود مضنية من أجل تبيان وضعه ومخالفته لما بينته المرجعية النبوية...

مع كل ذلك: يستمر رفض تلك الجهود التي تصب في مصلحة التبيان الصحيح، ويستمر قبول الجهود التي تصب في مصلحة التأويل الفاسد.. ويقف المسلمون حائرين بين هذين..

ولكن: هل أن الأمر ملتبس إلى هذا الحد، بحيث لا يمكن الوصول إلى الحق وسط هذا الضباب الكثيف؟ لو قلنا ذلك فهذا معناه أن السماء قد خذلت الأرض، وهذا لا يمكن قبوله. فإنه بعد هذه المسيرة الطويلة المباركة لآلاف الأنبياء والمرسلين(ع) والسماء ترفد الأرض بمبعوث إثر مبعوث، في مسيرة تكاملية تصاعدية، تأخذ بيد البشر إلى الحق والهدى والصلاح والخير، هل يعقل أن تأتي السماء بعد كل هذا وتترك الأرض دون أعلام واضحة ومنار هدى؟ ومتى هذا – عند الوصول إلى القمة في هذه المسيرة: بعثة سيد المرسلين(ص) بالكتاب المعصوم المحفوظ الذي أرادته السماء الدستور المتكامل للأرض؟

إذاً، مؤكد أن الوصول إلى الحق ممكن وإن كان وسط هذه الغابة من الأكاذيب والافتراءات والعلم الذي يدافعه الجهل، بل الجهل الذي يلبس لباس العلم، وإلا لانقطعت حجة الله على العباد ولتساوى اتباع الحق واتباع الباطل.

ولكن، إذا كان هذا لا يمكن لأن السماء ضمنت الحفاظ على الشريعة، وهو ما يؤمن به جميع المسلمين، فكيف يكون مع هذا التناقض الذي بدأ منذ عصر الوحي من خلال الكذابة التي كثرت على عهده(ص)، ومن خلال اعتراضات البعض التي وصلت إلى حد منعه(ص) من كتابة ما يريد في آخر عهده بالدنيا؟

إذا كان من ضمان الحفاظ على الشريعة هو المرجعية المعصومة، وكانت هذه هي المرجعية النبوية على عهد النبي(ص)، فهل يعقل أن تترك الأمة – بتياراتها المتناقضة وبعض مسلميها حديثي العهد بالدين والبعض الآخر أعداء الدين الذين ما أسلموا إلا طمعاً بالدين الذي سيطر أو خوفاً من العقاب المستحق – مع الكتاب العزيز لوحده والذي هو بحاجة قطعاً للمفسر المحيط بجميع جوانبه؟

وهكذا، كان لا بد من استمرار المرجعية المعصومة، وإن كان في رجال ليسوا أنبياء لانتهاء النبوة بالنبي محمد(ص)، فإن الله تعالى لا يعجزه أن يعصم بشراً حتى وإن لم يكن نبياً! فإنما العصمة النبوية من أجل ضمان التبليغ الصحيح مائة بالمائة ومن أجل اطمئنان الأتباع إلى صحة جميع ما يأتي به النبي الذي يتبعونه...

وهكذا، وجدت أن هذا المعين الصافي المرتبط بالسماء، النبي(ص) الذي يتلقى الوحي الذي اكتمل بالقرآن الكريم كما نعرفه، استمر في مجموعة كريمة طيبة من أقرب الناس إلى ذلك النبي(ص)، قرباً نَسَبِيّاً ونفسياً ومواقف أعلنتها السماء في مناسبات عديدة، اقترنت بالتنزيل الصريح أحياناً كما اقترنت بالتبيان النبوي للتنزيل أحياناً أخرى...

وهكذا، استمرت المرجعية "الأصل" بالأئمة(ع)، ليحملوا ذات الرسالة، التي دستورها الكتاب العزيز، الذي حفظته السماء من التلاعب فبقي موجوداً، والتي حفّاظها وحرّاسها – بعد غياب المرجعية النبوية – هم أئمة أهل البيت(ع) الذين استمروا لقرنين ونصف بعد النبي(ص) (حتى غيبة الثاني عشر منهم)، وهي فترة امتدت لأطول من فترة حظر تدوين الحديث النبوي، وأطول من فترة الخلافة الأولى،

وفترة الدولة الأولى، وأكثر من مائة سنة من بداية الدولة الثانية، لتستوعب جميع تلك الأحداث والتناقضات، وإن كان من خلال تضحيات هائلة لا نظير لها من قبل تلك المرجعية الإمامية وأتباعها...

إن المسلم الذي يريد أن يحرز دينه لا يشك لحظة أن عليه أن يتبع الحق أينما وجده، ومتى ما وجده، فلا يدع الاتجاهات – من مدارس ومذاهب وآراء – التي أسست بعيداً عن الأوامر والتوجيهات الواضحة للمرجعية الأصل، المتمثلة بالكتاب العزيز والنبي(ص) المبين لآياته وأحكامه، أن توقفه عن القبول بالاتجاه الذي يقطع به الدليل الحاسم أنه من تأسيس المرجعية الأصل. وهذا الذي حصل معي.

إن مرجعية آل محمد(ص) جزء لا يتجزأ من المرجعية "الأصل"، وذلك لمعادلة بسيطة:

القرآن الكريم هو الوحي المنزل على النبي(ص)، فماذا يقول القرآن عن مرجعية النبي(ص)؟

القرآن يأمرنا باتباع ما يأتينا من النبي(ص) وأن نحكّمه في الخصومة والنزاع؟

حكّمنا النبي(ص) بشأن المرجعية بعده، فقال: (1) القرآن (2) العترة؛

هذا القرآن بين أيدي جميع المسلمين، فأين العترة وهم آل محمد(ص)؟

إنهم(ع) الأصل الذي بدأ في حياته، حتى كان هناك ثلاثة أئمة منهم مع أنه يكفي واحد كي يدلنا على من بعده؛

والآخرون؟ رجال مشخصون، وممدوحون بشكل لا نظير له من معاصريهم، الذين كان بعضهم منافساً لهم، ومن سلاطين أزمانهم، الذين كانوا يضطهدونهم بكل الأشكال حتى القتل، ثم من الأمة جمعاء، في حالة فريدة لا نظير لها: أشخاص تحبهم أكثرية الأمة حباً تعتبره من الدين ولكن لا تعرف لماذا!

لكني، ولله الحمد والمنة، عرفت لماذا، فهُم:

الاستمرارية للمرجعية النبوية "الأصل" التي انتهت في الحياة وبقيت في الآثار؛

في استمرارية متلازمة مع المرجعية القرآنية "الأصل" التي بقيت بين أيدينا.

فهذا يعلن عن هذه، وهذه تحفظ هذا وتنشره وتبينه وتحرسه.

" الأصل " متعدد الجوانب

هذا "الأصل" في المرجعية التي استمرت بعد النبي(ص)، المتمثلة بأئمة أهل البيت(ع)، متعدد الجوانب:

فمن غير الجانب الأول، "أصل التلقي من النبي المرسل(ص) المرتبط بالسماء مباشرة"...

هناك الجانب الثاني، وهو "الأصل في السبق على جميع المذاهب والاتجاهات الإسلامية الأخرى"، ما يعني أنه يمثل المدرسة الأقرب إلى عهد الوحي والتنزيل من غيرها، بل بدأت منذ عهد الوحي والتنزيل، كما ثبت لي وبينته في الباب الرابع من الكتاب، المدرسة التي كان طلابها يقفون شامخين أمام رؤساء المذاهب الأخرى فما بالك بمؤسسيها(ع)؛

وهناك الجانب الثالث، وهو "الأصل في انبثاق العلوم الإسلامية"، أي ما قامت عليه المذاهب الإسلامية جميعها وما قامت عليه الحضارة الإسلامية التي نشأت من ذلك الدين، والذي ثبت لي، ثم أشرت إليه في الباب الرابع من الكتاب؛

وهناك الجانب الرابع، وهو "الأصل في العلاقة النَسَبِيّة للمؤلف"، أي العلاقة ببعض أولئك الأئمة(ع)، ما يجعل الذهاب طلباً للعلم والهدى بعيداً عنهم – بعد أن بان علوهم على الآخرين طرّاً – أمراً مدعاة للتساؤل، إن لم يكن مدعاة للتهمة بالحمق أو اتباع الهوى أو الاثنين معاً. إن أئمة أهل البيت(ع) ليسوا أناساً طيبين تقاة من ذرية النبي(ص) علينا مودتهم فحسب، بل هم أصحاب مذهب فقهي، بل مدرسة إسلامية متكاملة في علومها: تفسير وحديث وفقه وسيرة، بل هم أهل السيرة التي ينبغي اتباعها، وهم أهل اللغة والنحو والأدب، وهم أهل الأطر الأخلاقية والإنسانية... وكل هذا وهم لم يجلسوا إلى حلقة معلم أو شيخ كما هو حال غيرهم، بل كان حديثهم «سمعت أبي عن أبيه عن جده... عن رسول الله» و «لو كنا نحدثكم برأينا وهوانا لكنا من الهالكين، ولكنا نحدثكم بأحاديث نكنزها عن رسول الله»، اصطفاء من الله لهم، ورحمة ونعمة من الله لنا... ولعله سبحانه أراد تنبيه الأمة إلى هؤلاء الصفوة فجعل الصلاة عليهم فرضاً في صلاة الفريضة مرات

كل يوم، فضيلة لم يجعلها لغيرهم، إذ قرنهم بنبيه وصفيه(ص)... فلينظر من تشرفوا بهذا النسب الشريف إلى أجدادهم الطاهرين ليروا إن كانوا أجدر بالاتباع من غيرهم أم لا، فإن كانوا الأجدر ليسألوا أنفسهم: علام نترك مثل هؤلاء الأجداد الأفذاذ ونحن لا نجد في الأمة أفضل منهم (أولئكَ آبائي فجئِني بمثلهم)؟؛

وهناك الجانب الخامس، وهو "الأصل العربي"، وهو انتماء يعتز به العربي، وهذا الأصل الإمامي يقوم على أشرف العرب دون منازع، بيت المصطفى(ص) القائل «... ثم خلق الخلق، فاختار من الخلق بني آدم، واختار من بني آدم العرب، واختار من العرب مضر، واختار من مضر قريشاً، واختار من قريش بني هاشم، واختارني من بني هاشم، فأنا من خيار إلى خيار...»، فهم(ع) من هذا البيت المختار، فمن غير المعقول أن أذهب يميناً وشمالاً، إلى عرب وغير عرب مهما بلغوا من العلم، وفي متناول يدي علم سادة العرب والعجم؛

وأخيراً، هناك الجانب السادس، وهو "الأصل العراقي"، وهو الموقع المتميز للعراق عند أهل البيت(ع)، والذي يمثل مع الحجاز – وهو الموقع الأول والرسمي لانطلاق تلك المرجعية وانتشارها وبقاء أجداث البعض من أفرادها(ع) – الموقع الثاني الذي صار مناراً للعلم والدين، ومهوى أفئدة المسلمين، وهذا الأصل أعتز به كوني عراقياً وأشعر بالمنزلة الفريدة لهذا البلد، في تاريخه العريق، ودوره المستقبلي الذي أشارت إليه الروايات المتظافرة...

لكل هذه الجوانب، فإني أعتقد أن اتباعي لمذهب أهل البيت(ع) يمثل "العودة إلى الأصل" في جوانبه: المرجعية الأصيلة، والسبق المذهبي، والنشأة العلمية والحضارية، والعلاقة النسبية، والأصل العربي، والموقع العراقي...

عند النظر إلى هذه الجوانب جميعاً لعلي أجد أن أي موقف آخر غير الذي اتخذته سيكون مدعاة للتساؤل، على أقل تقدير، لأنه، وإن كان ولا يزال سباحة ضد التيار الخارجي، إلا أنه سباحة مع التيار الداخلي، تيار العقل والقلب.

خاتمة

كما أوضحت في المقدمة أن الغاية من الكتاب هي: أنها تجربة إنسانية وجدتها تستحق التسجيل، وأن الكتابة فيها تحدث بنعمة الله، وأن في الكتاب فوائد لمن يريد، وأنه سيكون مقدمة لدعوة أصحاب الأصل العلوي الذين يتبعون المذاهب الأخرى للانفتاح على مذهب أجدادهم الطاهرين(ع).

وأتمنى أن يسهم الكتاب في تحقيق الفائدة منه، لا سيما المساهمة في إطفاء نار الفتنة الطائفية التي ما أن تبرد قليلاً حتى ينفخ فيها أعداء الأمة – الداخليون والخارجيون –، وذلك من خلال توضيح عقائد شيعة أهل البيت(ع) الذين كانوا ولم يزالوا هدف الهجوم الظالم لهؤلاء الأعداء، الأمر الذي من شأنه أن يحصن الناس من أن يقعوا فريسة الخداع، والذي يؤدي إلى تفاعل إيجابي من قبل الشيعة أنفسهم، وصولاً إلى الجو الأخوي الذي لا يتأثر مطلقاً بالاختلافات، بل ولا يحولها إلى خلافات، ولاسيما عند من وضعوا مصالح الأمة نصب أعينهم وتعاملوا مع الناس، كل الناس، بمنطق الإنسان لا بمنطق الأنداد والخصوم.

روي عن النبي(ص) أنه قال: «في كل ذات كبد رطبة أجر»، وأنه قال: «في كل ذي كبد رطبة صدقة»، أي أن عمل الخير يشمل جميع الحيوانات الأعلى من الحشرات ونحوها، ما يعطي صورة للهدي المحمدي في رحمته التي تشمل هذه المخلوقات، فكيف بالإنسان. وقال تلميذه الأول علي(ع): «الناس إثنان: إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق». فهذه هي النظرة الإسلامية للمخلوقات، أفلا تحتم على المسلم – الذي يتبع المصطفى(ص) – النظر إلى شيعة آل محمد(ص) نظرة إنسانية، لا نظرة العداء التي تصدق كل تهمة حتى التي لا يقبلها عقل، والتي تبحث عن كل سقطة حتى التي ليست من أصول الدين ولا فروعه والتي يوجد مثلها عنده هو.

بل يحاول أن ينظر نظرة المسلم لأخيه المسلم «لا يظلمه ولا يسلمه» فـ «المسلمون ذمة واحدة يسعى بهم أدناهم» كما ورد في الأحاديث، نظرة ناظر بعقله لا بعواطفه، نظرة ناظر بما يطلع عليه هو لا بما يقال له، نظرة ناظر إلى ما يقوله أصحاب الشأن أنفسهم لا ما يقوله غيرهم عنهم. بهذا، سيكون أقرب أن يطلع على حقيقة ما يقولون ويفعلون، ثم يفهم ما يقولون ويفعلون، ومن ثم يتفهم ما يقولون ويفعلون.

فإن وجد عقله لا يقتنع بما يقول أو نفسه حرجة مما يقول هذا المتبع لأهل البيت(ع)، فليكن أقل الاعتبارات – حينئذ – أنه لا يتبع أناساً من خارج الأمة، ولا ممن طرأوا على الإسلام بعد حين، ولا ممن اختلفت فيهم الأقوال، بل يتبع أشخاصاً معروفين في القلب من الأمة، ممن أسس أساسها وبنى بنيانها وشاد أركانها، واتفقت عليهم الأقوال – أقلها المدح والثناء على علمهم وتقواهم وأعلاها الاعتراف بإمامتهم وتقدمهم على الجميع...

عندها يستطيع أن ينطلق، على الصعيد الشخصي والعائلي والمجتمعي والأممي، ليتعاون مع هذا المسلم الذي يتبع مذهب أهل البيت(ع)، بمحبة وتفهم، لا ببغض وعداوة، لما فيه مصلحة الطرفين، ما يصب – ولو قليلاً – في مصلحة الأمة.

وسيكون من دواعي السرور الحقيقي حصول ردود فعل إيجابية من القراء – علماء وباحثين وعامة وغيرهم – من أي شكل كان طالما يسهم في إثراء البحث والنقاش والنظر في الأدلة والشبهات؛ وأعني بردود الفعل الإيجابية تلك التي تنطلق من رغبات صادقة في السؤال والبحث والنظر وإعمال العقل، لا التي تبحث عن سقطة هنا وخطأ هناك من أجل التهجم، فهذه لا تحقق شيئاً لا لي ولا لأصحابها. وسأكون مسروراً بالشبهات الجديدة والملاحظات الصعبة أكثر من الشبهات المكررة والملاحظات البسيطة وذلك من أجل تحقيق فوائد أخرى، وهو شيء عايشته طوال هذه السنين حيث وجدت نور الحق يشتد سطوعاً كلما أثيرت شبهات وملاحظات تتحدى النصوص لأنها تدفع الباحث للنظر من زوايا أخرى وبشكل أكثر عمقاً، ما يؤدي في أحيان كثيرة إلى وضع اليد على حقائق غفلنا عنها ويفتح أمامنا آفاقاً جديدة رائعة متينة البنيان تجعل المادة موضوع البحث تتجدد.

عزيزي القارئ: إذا وجدت الكتاب نافعاً أرجو أن تعمل على نفع الآخرين به بإعطائه لمحبي الاطلاع، ولاسيما من الذين يلقون الشبهات على مذهب أهل البيت(ع) أو الذين يمارسون الهجوم على شيعة أهل البيت(ع) سواء من يفعلون ذلك كفعل أو كرد فعل – من نتاج العقل أو العاطفة –، من أجل أن تتضح بعض الحقائق ويعود النفع على الجميع.

ملحق

(الفصل الخامس) الآيات في حق أهل البيت(ع)

(الفصل السادس) الأحاديث في حق أهل البيت(ع)

(الفصل السابع) خطبة الزهراء(ع) الكاملة

من كلام الزهراء(ع) مع نساء المهاجرين والأنصار

(الفصل الثامن) حديث الغدير وبيعة الغدير

(الفصل الخامس) الآيات في حق أهل البيت(ع)

هذه إضافات لما لم أذكره في الفصل الخامس.

أولاً: آية التطهير

﴿إنَّما يُرِيدُ اللّهُ لِيُذهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهلَ البَيتِ وَيُطَهِّرَكُم تَطهِيراً﴾ الأحزاب:33

السيوطي في الدر المنثور ج5 ص198، الإمام أحمد في مسنده ج3 ص229، الواحدي في أسباب النزول ص267، إبن جرير في التفسير الكبير، الطبراني أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ج9 ص167 وغيرها، الحاكم المستدرك ج3 ص133، البيهقي ج2 ص149، مسلم في صحيحه ج2 ص331، إبن كثير في تفسيره ج3 ص484، كنز العمال ج7 ص103، الترمذي ج2 ص308، وغير هؤلاء كثير.

ثانياً: آية الولاية

﴿إنّما وَليُّكُم اللهُ ورسولُهُ والَّذينَ آمنوا الَّذينَ يُقيمُونَ الصَّلاةَ ويؤتُونَ الزَّكاةَ وهُم راكِعون﴾ المائدة:55

وأما المفسرون فقد ذكر الفخر الرازي في المجلد 3 ص417 من التفسير الكبير نزولها في علي بن أبي طالب من أكثر من طريق. ومثل ذلك الزمخشري في تفسيره الكشاف ج1 ص422، وأبو بكر الرازي الحنفي في كتاب أحكام القرآن المجلد 2 ص543، وإبن حجر العسقلاني في كتاب الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ص56، والقرطبي في كتاب الجامع لأحكام القرآن ج6 ص221.

ومن المتأخرين شهاب الدين الألوسي في المجلد 6 ص149 من تفسير روح المعاني، ورشيد رضا في ج6 ص442 من تفسير المنار.

وغير هؤلاء آخرون ذكروا نزول الآية في أمير المؤمنين(ع) عدّ منهم العلامة الأميني في كتابه الغدير ج3 ص156 ستة وستين من علماء السنة ذكروا الحديث ونزول الآية في علي(ع).

ثالثاً: آية المودة

﴿قُلْ لا أسألُكُم عَلَيهِ أَجْراً إلاّ المَوَدَّةَ في القُربى﴾ الشورى:23

ومن روى نزولها في مودة أهل البيت علي وفاطمة والحسنين:

الزمخشري في تفسير الكشاف ج2 ص339، الرازي في تفسيره، وهامش تفسير الرازي ج7 ص 665، البغوي في تفسيره، والثعلبي في تفسيره، الإمام أحمد في

المناقب، والحاكم في المستدرك ج3 ص172، وإبن أبي حاتم رواية 18472 ورواية 18477، وروى البخاري في ج6 ص129 تحديد القربى بأنهم قربى آل محمد، والطبراني في المعجم الأوسط وفي المعجم الكبير ج3 ص47 رواية 2641 و ج11 ص350، رواه الهيثمي في المجمع ج7 ص103 و ج9 ص168، وآخرون غيرهم كمحب الدين الطبري في ذخائر العقبى، والنيسابوري في تفسيره، والنسفي في تفسيره ج4 ص99، وأبو حيان في تفسيره ج7 ص516، وكثير غيرهم.

رابعاً: آية المباهلة

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَـاذِبِينَ﴾ آل عمران:61

أجمع المفسرون والمحدثون والمؤرخون عليها وعلى أشخاصها(ع) وذكرها منهم:

مسلم في صحيحه ج7 ص120 ذكر فيه تعداد سعد بن أبي وقاص المباهلة كإحدى فضائل علي(ع)، والإمام أحمد في مسنده ج1 ص185، والطبري في تفسيره ج3 ص192، والسيوطي في الدر المنثور ج2 ص38، والواحدي في أسباب النزول ص47، والحاكم في المستدرك ج3 ص150، والفخر الرازي في ج8 ص85 من تفسيره، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن ج3 ص104، وابن حجر العسقلاني في الإصابة ج2 ص503، وآخرون غيرهم كثير.

(الفصل السادس) الأحاديث في حق أهل البيت(ع)

(1) حديث الثقلين

بالإضافة إلى المصادر المذكورة في الفصل السادس، فقد أخرج حديث الثقلين المفسرون والمحدثون كما في مسند أحمد ج3 ص17 وص26 وص57 عن أبي سعيد الخدري، والمسند أيضاً ج4 ص367 عن زيد بن أرقم، والترمذي ج2 ص308 أخرجه عن رواية جابر بن عبد الله الأنصاري، وذكره الترمذي من حديث زيد بن أرقم، والحاكم (إضافة إلى أعلاه) في ج3 ص148 وص532 وقال أنه صحيح على شرط الشيخين (أي البخاري ومسلم)، والبيهقي في سننه ج10 ص114، وابن كثير في تفسيره ج3 ص486، وأبو نعيم في حلية الأولياء ج1 ص355، وإبن الأثير في أُسد

الغابة ج2 ص12 وج3 ص147، وإبن الجوزي في تذكرة الخواص الباب الثاني عشر ص332، والثعلبي في كتاب الكشف والبيان في تفسير آية الإعتصام وتفسير آية الثقلان، والفخر الرازي في ج3 ص18 من تفسيره في تفسير آية الإعتصام، وكذا تفسير النيسابوري ج1 ص349، وإبن كثير في تفسير آية المودة في ج4 ص113، وأيضاً ج3 ص485 تفسير آية التطهير، وكثيرون غيرهم.

وقد روى الحديث عدد من الصحابة: علي بن أبي طالب، والحسن بن علي، وجابر بن عبد الله الانصاري، وابن عباس، وزيد بن ارقم، وابو سعيد الخدري، وابو ذر، وزيد بن ثابت، وحذيفة بن اليمان، وحذيفة ابن أسيد، وجبير بن مطعم، وسلمان الفارسي. كما ذكر صحابة آخرون من ضمن من شهد لعلي(ع) أنهم سمعوا النبي(ص) يقول مقالته (ومن ضمنها حديث الثقلين) يوم غدير خم، منهم خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، وسهل بن سعد الساعدي، وعدي بن حاتم الطائي، وعقبة بن عامر، وأبو ايوب الانصاري، وابو الهيثم بن التيهان.

(2) حديث الإثني عشر خليفة

عن داود بن هند، عن الشعبي، عن جابر بن سمرة قال: سمعت النبي(ص) يقول: «يكون لهذه الأمة اثنا عشر خليفة» (مسند أحمد ج5 ص106). وقد روى الإمام أحمد في مسنده النص على الخلفاء الإثني عشر من أربع وثلاثين طريقاً: المجلد الخامس ص86 حديث واحد، ص87 حديثان، ص89 حديث واحد، ص90 ثلاثة أحاديث، ص92 حديثان، ص93 ثلاثة أحاديث، ص94 حديث واحد، ص95 حديث واحد، ص96 حديثان، ص97 حديث واحد، ص98 أربعة أحاديث، ص99 ثلاثة أحاديث، ص100 حديث واحد، ص101 حديثان، ص106 حديثان، ص107 حديثان، ص108 حديث واحد.

وذكروا أن الروايات الصحيحة بلغت ما يقرب من 20: 3 صحيح البخاري، و 9 صحيح مسلم، و 3 سنن أبي داود، و 1 صحيح الترمذي، و 3 مسند الحميدي شيخ البخاري.

(3) حديث المنزلة

مصادر حديث المنزلة: صحيح البخاري ج3 ص54 باب غزوة تبوك و ج2 ص185 كتاب بدء الخلق، وصحيح مسلم في ج2 ص236 فضل الصحابة – فضائل

علي، وصحيح الترمذي في سننه ج2 ص301، وسنن ابن ماجة ج1 ص12 (رواية 112)، ومسند أحمد ج1 ص98 وص118 وص119 و ج6 ص369، ومجمع الهيثمي ج9 من ص109 وغيرها، ومستدرك الحاكم ج3 ص109، والاستيعاب لابن عبد البر ج2 ص473، وخصائص النسائي ص7 وص15، وسيرة إبن هشام ج2 ص520، وتاريخ إبن عساكر ج4 ص196، وأسد الغابة لابن الأثير ج4 ص26، وتاريخ بغداد ج11 ص432، وتذكرة الحفاظ للذهبي ج2 ص95، وطبقات ابن سعد ج3 ص24، وكثيرون غير هؤلاء من المحدثين والمؤرخين.

(الفصل السابع) خطبة الزهراء(ع) الكاملة

وهي الخطبة التي ألقتها في مسجد أبيها رسول الله(ص) بعد وفاته(ص) في محضر من الخليفة أبي بكر والمسلمين، وذلك بعد أن دفع زوجها علي(ع) عن خلافة النبي(ص) وبعد أن سحبت منها بساتين "فدك" وهي التي غنمها النبي(ص) من اليهود دون قتال فكانت مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب وكانت خالصة له(ص) فأعطاها لابنته فاطمة(ع) فكانت تحت يديها حتى وفاته(ص) فنزعها الخليفة منها، ونزع منها خمس خيبر فهو مما أفاء الله على رسوله(ص) فأوضحته آية الخمس، وسحب منها أي ميراث آخر، وبعد أن أعلن الخليفة أنها لا ترث أباها(ص) لأن الأنبياء لا يورثون بل أن جميع ما يتركونه صدقة، وأن الخليفة هو يتولى الإنفاق عليها وعلى آل محمد(ص) حسب حاجتهم فقط. وهنا تجدر ملاحظة هامة، وهي أنه لا الزهراء(ع) ولا أحد من أهل البيت(ع) يزن الدنيا بمثقال حبة من خردل بحيث يمكن أن يظن ظان أن منازعتها(ع) كانت من أجل المال، فهي على نهج أبيها(ص) الذي كتب الله له الغنائم التي يحصل عليها دون قتال والله تعالى يعلم أنه(ص) سوف ينفقها كلها في سبيل الله ولن يأكل منها إلا ما يسد الرمق (روي عن أم سلمة (رض) أنه كان يمضي الشهر ولا تنفخ نار طبخ في بيوت أزواج النبي(ص) من زهده(ص)، فكانت الزهراء(ع) تنفق غلة فدك في سبيل الله تعالى، ولكنها حقها الذي كتبه الله تعالى لها، سواء كملكية ثابتة منذ عهد النبي(ص) أو كإرث لها من أبيها(ص). وقد أفردت في الباب الأول الفصل السابع للزهراء(ع) أتناول فيه بعض فضائلها العظيمة وأيضاً موضوع فدك ونزاعها مع الخليفة الأول ومناقشات العلماء في ذلك، فليراجع.

فيما يلي (أ) مصادر الخطبة (ب) نص الخطبة (مع تغيير في علامات الفصل وأقواس الآيات القرآنية) (ت) تعليقات عليها (أضفت أرقاماً ليسهل التعليق).

مصادر الخطبة

"بلاغات النساء" إبن طيفور أحمد بن أبي طاهر (204-280هـ)؛ الرواة: زيد بن علي بن الحسين بن علي(ع)

"علل الشرائع" الشيخ الصدوق (305-381هـ)؛ الرواة: عن زينب بنت علي(ع)، وعن زيد بن علي الشهيد عن عمته زينب بنت علي عن أمها فاطمة الزهراء(ع)، وعن أحمد بن محمد بن جابر عن زينب بنت علي(ع)

"الشافي في الإمامة" السيد المرتضى (355-436هـ)؛ الرواة: عروة بن الزبير عن أم المؤمنين عائشة

"الإحتجاج" (ج1 ص132) الطبرسي (ت 620هـ)؛ الرواة: عبد الله بن الحسن عن آبائه

"شرح نهج البلاغة" (ج16 الكتاب45 من نهج البلاغة ج3) إبن أبي الحديد (586-656هـ)؛ الرواة: تعليق في شرحه لرسالة الإمام علي(ع) إلى عثمان بن حنيف التي يذكر فيها فدكاً، ويرويها عن كتاب "السقيفة" لأحمد بن عبد العزيز الجوهري بعدة طرق عن الأمامين الباقر والصادق(ع) وعن زينب بنت علي(ع) وعن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن(ع)

"الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف" (ص247) السيد ابن طاووس (589-664هـ)؛ الرواة: عن الزهري عن أم المؤمنين عائشة

"كشف الغمة" (ج1 ص497) علي بن عيسى الأربلي (ت 693هـ)، يروي عن "السقيفة" لعبد العزيز الجوهري (ت 323هـ)

وهناك إشارات إلى الخطبة أو بعضها في مصادر عديدة مثل "مروج الذهب ومعادن الجوهر" للمسعودي، و "لسان العرب" لإبن منظور، و "أعلام النساء" لعمر كحالة.

ونقل ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة عن السيد المرتضى أنه قال: "وأخبرنا أبو عبد الله المرزباني عن علي بن هارون عن عبيد الله بن أحمد عن أبيه قال ذكرت لأبي الحسين زيد (الشهيد) بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) كلام فاطمة عند منع أبي بكر إياها فدك وقلت له: إن هؤلاء يزعمون أنه مصنوع وأنه من كلام أبي العيناء، لأن الكلام منسوق البلاغة".

فقال لي: "رأيت مشائخ آل أبي طالب يروونه عن آبائهم، ويعلمونه أولادهم، وقد حدثني أبي عن جدي يبلغ بها فاطمة على هذه الحكاية، وقد رواه مشائخ الشيعة وتدارسوه قبل أن يوجد جدُّ أبي العيناء. وقد حدَّث الحسين بن علوان عن عطية العوفي أنه سمع عبد الله بن الحسن بن الحسن يذكر عن أبيه هذا الكلام".

ثم قال أبو الحسين زيد: "وكيف ينكرون هذا من كلام فاطمة وهم يروون من كلام عائشة عند موت أبيها ما هو أعجب من كلام فاطمة ويحققونه لولا عداوتهم لنا أهل البيت!!"

نص الخطبة

روى عبد الله بن الحسن باسناده عن آبائه، أنه: "لما أجمع أبوبكر وعمر على منع فاطمة عليها السلام فدكاً وبلغها ذلك لاثت خمارها على رأسها واشتملت بجلبابها وأقبلت في لمة من حفدتها ونساء قومها تطأ ذيولها، ما تخرم مشيتها مشية رسول الله(ص)، حتى دخلت على أبي بكر وهو في حشد من المهاجرين والأنصار وغيرهم، فنيطت دونها ملاءة، فجلست، ثم أنَّت أنَّةً أجهش القوم لها بالبكاء، فأرتج المجلس، ثم أمهلت هنيهة، حتى إذا سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم افتتحت الكلام بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله(ص)، فعاد القوم في بكائهم، فلما أمسكوا عادت في كلامها فقالت(ع):

(1) «الحمد لله على ما أنعم وله الشكر على ما ألهم والثناء بما قدم، من عموم نعم ابتداها وسبوغ آلاء أسداها وتمام منن أولاها، جم عن الإحصاء عددها ونأى عن الجزاء أمدها وتفاوت عن الإدراك أبدها، وندبهم لاستزادتها بالشكر لاتصالها واستحمد إلى الخلائق بإجزالها وثنى بالندب إلى أمثالها؛

(2) وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له كلمة جعل الإخلاص تأويلها وضمن القلوب موصولها وأنار في التفكر معقولها، الممتنع من الأبصار رؤيته ومن الألسن صفته ومن الأوهام كيفيته، ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها كونها بقدرته وذرأها بمشيته، من غير حاجة منه إلى تكوينها ولا فائدة له في تصويرها إلا تثبيتاً لحكمته وتنبيهاً على طاعته وإظهاراً لقدرته تعبداً لبريته وإعزازاً لدعوته، ثم جعل الثواب على طاعته ووضع العقاب على معصيته ذيادة لعباده من نقمته وحياشة لهم إلى جنته؛

(3) وأشهد أن أبي محمداً عبده ورسوله اختاره قبل أن أرسله وسماه قبل أن اجتباه واصطفاه قبل أن ابتعثه، إذ الخلائق بالغيب مكنونة وبستر الأهاويل مصونة وبنهاية العدم مقرونة، علماً من الله تعالى بمآيل الأمور وإحاطة بحوادث الدهور ومعرفة بمواقع الأمور، ابتعثه الله إتماماً لأمره وعزيمة على إمضاء حكمه وإنفاذاً لمقادير رحمته، فرأى الأمم فرقاً في أديانها عكفاً على نيرانها عابدة لأوثانها منكرة لله مع عرفانها، فأنار الله بأبي محمد(ص) ظلمها وكشف عن القلوب بهمها وجلى عن الأبصار غممها، وقام في الناس بالهداية فأنقذهم من الغواية وبصرهم من العماية وهداهم إلى الدين القويم ودعاهم إلى الطريق المستقيم، ثم قبضه الله إليه قبض رأفة واختيار ورغبة وإيثار، فمحمد(ص) من تعب هذه الدار في راحة قد حف بالملائكة الأبرار ورضوان الرب الغفار ومجاورة الملك الجبار، صلى الله على أبي نبيه وأمينه وخيرته من الخلق وصفيه، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته».

(4) ثم التفتت إلى أهل المجلس وقالت: «أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه وحملة دينه ووحيه وأمناء الله على أنفسكم وبلغاءه إلى الأمم، زعيم حق له فيكم وعهد قدمه إليكم وبقية استخلفها عليكم: كتاب الله الناطق والقرآن الصادق والنور الساطع والضياء اللامع، بينة بصائره منكشفة سرائره منجلية ظواهره مغتبطة به أشياعه قائداً إلى الرضوان اتباعه مؤد إلى النجاة استماعه، به تنال حجج الله المنورة وعزائمه المفسرة ومحارمه المحذرة وبيناته الجالية وبراهينه الكافية وفضائله المندوبة ورخصه الموهوبة وشرائعه المكتوبة؛

(5) فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشرك، والصلاة تنزيهاً لكم عن الكبر، والزكاة تزكية للنفس، ونماء في الرزق، والصيام تثبيتاً للإخلاص، والحج تشييداً للدين، والعدل تنسيقاً للقلوب، وطاعتنا نظاماً للملة، وإمامتنا أماناً للفرقة، والجهاد عزاً للإسلام، والصبر معونة على استيجاب الأجر، والأمر بالمعروف مصلحة للعامة، وبر الوالدين وقاية من السخط، وصلة الأرحام منسأة في العمر ومنماة للعدد، والقصاص حقناً للدماء، والوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة، وتوفية المكاييل والموازين تغييراً للبخس، والنهي عن شرب الخمر تنزيهاً عن الرجس، واجتناب القذف حجاباً عن اللعنة، وترك السرقة إيجاباً للعفة، وحرم الله الشرك إخلاصاً له بالربوبية؛

(6) ﴿فَاتَّقُوا اللّهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إلاّ وَأَنتُمْ مُسلِمُون﴾، وأطيعوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه فإنه ﴿إِنَّما يَخشى اللّهَ مِنْ عِبادِهِ العُلَماءُ﴾››.

(7) ثم قالت: ‹‹أيها الناس: إعلموا أني فاطمة وأبي محمد(ص)، أقول عوداً وبدواً ولا أقول ما أقول غلطاً ولا أفعل ما أفعل شططاً، ﴿لَقَد جاءَكُمْ رَسُولُ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيكُمْ بِالْمُؤمِنِينَ رَؤُفُ رَحِيمُ﴾ فإن تعزوه وتعرفوه تجدوه أبي دون نسائكم وأخا ابن عمي دون رجالكم، ولنعم المعزى إليه(ص)؛

(8) فبلغ الرسالة صادعاً بالنذارة مائلاً عن مدرجة المشركين ضارباً ثبجهم آخذاً بأكظامهم داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة يجف الأصنام وينكث الهام، حتى انهزم الجمع وولوا الدبر حتى تفرى الليل عن صبحه وأسفر الحق عن محضه ونطق زعيم الدين وخرست شقاشق الشياطين وطاح وشيظ النفاق وانحلت عقد الكفر والشقاق وفهتم بكلمة الإخلاص في نفر من البيض الخماص؛

(9) وكنتم على شفا حفرة من النار مذقة الشارب ونهزة الطامع وقبسة العجلان وموطئ الأقدام، تشربون الطرق وتقتاتون القد، أذلة خاسئين تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم، فأنقذكم الله تبارك وتعالى بمحمد(ص)، بعد اللتيا والتي وبعد أن مني ببهم الرجال وذؤبان العرب ومردة أهل الكتاب، كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله، أو نجم قرن الشيطان أو فغرت فاغرة من المشركين قذف أخاه في لهواتها فلا ينكفئ حتى يطأ جناحها بأخمصه ويخمد لهبها بسيفه، مكدوداً في ذات الله مجتهداً في أمر الله قريباً من رسول الله سيداً في أولياء الله

مشمراً ناصحاً مجداً كادحاً لا تأخذه في الله لومة لائم، وأنتم في رفاهية من العيش وادعون فاكهون آمنون، تتربصون بنا الدوائر وتتوكفون الأخبار وتنكصون عند النزال وتفرون من القتال؛

(10) فلما اختار الله لنبيه دار أنبيائه ومأوى أصفيائه ظهر فيكم حسكة النفاق وسمل جلباب الدين ونطق كاظم الغاوين ونبغ خامل الأقلين وهدر فنيق المبطلين، فخطر في عرصاتكم وأطلع الشيطان رأسه من مغرزه هاتفاً بكم فألفاكم لدعوته مستجيبين وللعزة فيه ملاحظين، ثم استنهضكم فوجدكم خفافاً وأحمشكم فألفاكم غضاباً، فوسمتم غير إبلكم ووردتم غير مشربكم، هذا والعهد قريب والكلم رحيب والجرح لما يندمل والرسول لما يقبر، ابتداراً زعمتم خوف الفتنة – ﴿أَلا فِي الفِتنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالكافِرِين﴾››؛

(11) فهيهات منكم وكيف بكم؟ وأنى تؤفكون؟ وكتاب الله بين أظهركم أموره ظاهرة وأحكامه زاهرة وأعلامه باهرة وزواجره لائحة وأوامره واضحة وقد خلفتموه وراء ظهوركم، أرغبة عنه تريدون؟ أم بغيره تحكمون؟ بئس للظالمين بدلاً، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيرَ الإِسلامِ دِيناً فَلَنْ يُقبَلَ مِنهُ وَهُوَ في الآخِرَةِ مِنَ الخاسِرِين﴾››؛

(12) ثم لم تلبثوا إلا ريث أن تسكن نفرتها ويسلس قيادها، ثم أخذتم تورون وقدتها وتهيجون جمرتها وتستجيبون لهتاف الشيطان الغوي وإطفاء أنوار الدين الجلي وإهمال سنن النبي الصفي، تشربون حسواً في ارتغاء وتمشون لأهله وولده في الخمرة والضراء، ونصبر منكم على مثل حز المدى ووخز السنان في الحشا؛

(13) وأنتم الآن تزعمون أن لا إرث لنا! ﴿أَفَحُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ يَبغُونَ وَمَنْ أَحسَنُ مِنَ اللّهِ حُكماً لِقَومٍ يُوقِنُون﴾؛

(14) أفلا تعلمون؟ بلى، قد تجلى لكم كالشمس الضاحية أني ابنته أيها المسلمون. أأغلب على إرثي يا ابن أبي قحافة؟! أفي كتاب الله ترث أباك ولا أرث أبي؟! لقد جئت شيئا فرياً! أفعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم إذ يقول ﴿وَوَرِثَ سُلَيمانُ داوُدَ﴾؟ وقال فيما اقتص من خبر يحيى بن زكريا إذ قال ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعقُوبَ﴾؟ وقال ﴿وَأُولُوا الأَرحامِ بَعضُهُمْ أَولى بِبَعضٍ فِي كِتابِ اللّهِ﴾؟ وقال ﴿يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي

أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثلُ حَظِّ الأُنثَيَينِ﴾؟ وقال ﴿إِنْ تَرَكَ خَيراً الوَصِيَّةُ لِلوالِدَينِ وَالأَقرَبِينَ بِالمَعرُوفِ حَقًّا عَلَى المُتَّقِينَ﴾؟ وزعمتم أن لا حظوة لي ولا إرث من أبي ولا رحم بيننا! أفخصكم الله بآية أخرج أبي منها؟ أم هل تقولون إن أهل ملتين لا يتوارثان؟ أولست أنا وأبي من أهل ملة واحدة؟! أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي؟

(15) فدونكها مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك! فنعم الحكم الله والزعيم محمد والموعد القيامة وعند الساعة يخسر المبطلون، ولا ينفعكم إذ تندمون، ولكل نبأ مستقر ﴿فَسَوفَ تَعلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخزِيهِ وَيَحُلُّ عَلَيهِ عَذابٌ مُقِيمٌ﴾».

(16) ثم رمت بطرفها نحو الأنصار فقالت: «يا معشر النقيبة وأعضاد الملة وحضنة الإسلام: ما هذه الغميزة في حقي والسنة عن ظلامتي؟ أما كان رسول الله(ص) أبي يقول: المرء يحفظ في ولده؟ سرعان ما أحدثتم وعجلان ذا إهالة، ولكم طاقة بما أحاول وقوة على ما أطلب وأزاول؛

(17) أتقولون مات محمد(ص)؟ فخطب جليل استوسع وهنه واستنهر فتقه وانفتق رتقه وأظلمت الأرض لغيبته وكسفت الشمس والقمر وانتثرت النجوم لمصيبته وأكدت الآمال وخشعت الجبال وأضيع الحريم وأزيلت الحرمة عند مماته، فتلك والله النازلة الكبرى والمصيبة العظمى لا مثلها نازلة ولا بائقة عاجلة، أعلن بها كتاب الله جل ثناؤه في أفنيتكم وفي ممساكم ومصبحكم يهتف في أفنيتكم هتافاً وصراخاً وتلاوة وألحاناً، ولقبله ما حل بأنبياء الله ورسله حكم فصل وقضاء حتم ﴿وَما مُحَمَّدٌ إِلاّ رَسُولٌ قَد خَلَتْ مِنْ قَبلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ ماتَ أَو قُتِلَ انقَلَبتُمْ عَلى أَعقابِكُمْ وَمَنْ يَنقَلِبْ عَلى عَقِبَيهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيئاً وَسَيَجزِي اللَّهُ الشّاكِرِينَ﴾؛

(18) إيها بني قيلة: أأهضم تراث أبي وأنتم بمرأى مني ومسمع ومنتدى ومجمع تلبسكم الدعوة وتشملكم الخبرة وأنتم ذوو العدد والعدة والأداة والقوة وعندكم السلاح والجنة؟ توافيكم الدعوة فلا تجيبون وتأتيكم الصرخة فلا تغيثون؟ أنتم موصوفون بالكفاح معروفون بالخير والصلاح، والنخبة التي انتخبت والخيرة التي اختيرت لنا أهل البيت، قاتلتم العرب وتحملتم الكد والتعب وناطحتم الأمم وكافحتم البهم، لا نبرح أو تبرحون نأمركم فتأتمرون، حتى إذا دارت بنا رحى

الإسلام ودر حلب الأيام وخضعت ثغرة الشرك وسكنت فورة الإفك وخمدت نيران الكفر وهدأت دعوة الهرج واستوسق نظام الدين فأنى حزتم بعد البيان وأسررتم بعد الإعلان ونكصتم بعد الإقدام وأشركتم بعد الإيمان؟! بؤساً لقوم ﴿نَكَثُوا أَيمانَهُم مِنْ بَعدِ عَهدِهِم وَهَمُّوا بِإِخراجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَؤُوكُم أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخشَونَهُم فَاللّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخشَوهُ إِنْ كُنتُم مُؤمِنِين﴾؛

(19) ألا وقد أرى أن قد أخلدتم إلى الخفض وأبعدتم من هو أحق بالبسط والقبض، وخلوتم بالدعة ونجوتم بالضيق من السعة، فمججتم ما وعيتم ودسعتم الذي تسوغتم، فـ ﴿إِنْ تَكفُروا أنتُم وَمَنْ في الأَرضِ جَميعاً فَإِنَّ اللّهَ لَغَنِيٌّ حَميدُ﴾؛

(20) ألا وقد قلت ما قلت هذا على معرفة مني بالجذلة التي خامرتكم والغدرة التي استشعرتها قلوبكم، ولكنها فيضة النفس ونفثة الغيظ وخور القناة وبثة الصدر وتقدمة الحجة، فدونكموها فاحتقبوها دبرة الظهر نقبة الخف باقية العار موسومة بغضب الجبار وشنار الأبد، موصولة بنار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة، فبعين الله ما تفعلون ﴿وَسَيَعلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُون﴾، وأنا ابنة نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فاعملوا إنا عاملون ﴿وَانتَظِرُوا إِنّا مُنتَظِرُونَ﴾».

(21) فأجابها أبو بكر عبد الله بن عثمان وقال: يا بنت رسول الله: لقد كان أبوك بالمؤمنين عطوفاً كريماً رؤوفاً رحيماً وعلى الكافرين عذاباً أليماً وعقاباً عظيماً، إن عزوناه وجدناه أباك دون النساء وأخا إلفك دون الأخلاء، آثره على كل حميم وساعده في كل أمر جسيم، لا يحبكم إلا سعيد ولا يبغضكم إلا شقي بعيد، فأنتم عترة رسول الله الطيبون الخيرة المنتجبون على الخير أدلتنا وإلى الجنة مسالكنا؛

(22) وأنت يا خيرة النساء وابنة خير الأنبياء صادقة في قولك سابقة في وفور عقلك، غير مردودة عن حقك ولا مصدودة عن صدقك، والله ما عدوت رأي رسول الله ولا عملت إلا بإذنه، والرائد لا يكذب أهله وإني أشهد الله وكفى به شهيداً أني سمعت رسول الله(ص) يقول «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ذهباً ولا فضة ولا داراً ولا عقاراً، وإنما نورث الكتاب والحكمة والعلم والنبوة، وما كان لنا من طعمة فلولي الأمر بعدنا أن يحكم فيه بحكمه» وقد جعلنا ما حاولته في الكراع والسلاح يقاتل بها المسلمون ويجاهدون.

(23) فقالت(ع): ‹‹سبحان الله! ما كان أبي رسول الله(ص) عن كتاب الله صادفاً ولا لأحكامه مخالفاً بل كان يتبع أثره ويقفو سوره، أفتجمعون إلى الغدر اعتلالاً عليه بالزور؟! وهذا بعد وفاته شبيه بما بغي له من الغوائل في حياته – هذا كتاب الله حكماً عدلاً وناطقاً فصلاً يقول ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعقُوبَ﴾ ويقول ﴿وَوَرِثَ سُلَيمانُ داوُدَ﴾، وبين عز وجل فيما وزع من الأقساط وشرع من الفرائض والميراث وأباح من حظ الذكران والإناث ما أزاح به علة المبطلين وأزال التظني والشبهات في الغابرين، كلا! ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمراً فَصَبرٌ جَميلٌ وَاللّهُ الُمستَعانُ عَلَى ما تَصِفُون﴾››.

(24) فقال أبو بكر: صدق الله ورسوله، وصدقت ابنته معدن الحكمة وموطن الهدى والرحمة وركن الدين وعين الحجة، لا أبعد صوابك ولا أنكر خطابك – هؤلاء المسلمون بيني وبينك قلدوني ما تقلدت وباتفاق منهم أخذت ما أخذت، غير مكابر ولا مستبد ولا مستأثر وهم بذلك شهود!

(25) فالتفتت فاطمة(ع) إلى الناس وقالت: ‹‹معاشر المسلمين المسرعة إلى قيل الباطل المغضية على الفعل القبيح الخاسر: أفلا تتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها؟ كلا بل ران على قلوبكم ما أسأتم من أعمالكم فأخذ بسمعكم وأبصاركم، ولبئس ما تأولتم وساء ما به أشرتم وشر ما منه اغتصبتم، لتجدن والله محمله ثقيلاً وغبه وبيلاً إذا كشف لكم الغطاء وبان بإورائه الضراء وبدا لكم من ربكم ما لم تكونوا تحتسبون ﴿وَخَسِرَ هُنالِكَ المُبطِلُون﴾››.

(26) ثم عطفت على قبر النبي(ص) وقالت:

قَد كـانَ بَعـدَكَ أنبـاءٌ وهَنبَثَةٌ ... لَوكُنتَ شاهِدَها لَمْ تَكثُرِ الخُطُبُ
إنـّا فَقَـدناكَ فَقْـدَ الأرضِ وابلها ... واَختَلَّ قَومُكَ فَاشهَدهُمْ ولا تَغبُ
قـد كـانَ جبريـلُ بالآياتِ يُؤنِسُنا ... فغابَ عنّا فَكُـلُّ الخَيـرِ مُحتَجَبُ
وكُنتَ بَـدراً ونُـوراً يُستَضاءُ بِهِ ... عَليكَ يَنزِلُ مِنْ ذِي العِـزَّةِ الكُتُبُ
تَجَهَّمَتْنـا رِجـالٌ واستُخِفَّ بِنـا ... إذْ غِبْتَ عَنّا فَنَحنُ اليـومَ نُغتَصَبُ
فَسوفَ نَبكِيكَ ما عِشنا وَما بَقِيَتْ ... مِنّا العُيـونُ بِتَهمالٍ لَها سُكُـبُ››".

وفي رواية السيد المرتضى زيادة أبيات:

ضاقَتْ عَلَيَّ بلادي بَعدما رَحُبَتْ وسِيمَ سِبْطاكَ خَسْفاً فيهِ لِي نَصَبُ
فَليتَ قبلَكَ كانَ الموتُ صادَفَنا لَمّا نُعِيتَ وحالَتْ دُونَكَ الكُتُبُ
تَجَهَّمَتْنا رجالٌ واسْتُخِفَّ بنِا مُذْ غِبْتَ عَنّا وكُلُّ الإرْثِ قد غَصَبُوا

وأن الراوي قال: "فما رأينا يوماً أكثر باكياً أو باكية من ذلك اليوم".

تعليقات على الخطبة

(1) تبدأ بالحمد والثناء على الله تعالى، ثم تذكرهم بوعده سبحانه أن الشكر يأتي بالزيادة.

(2) كلمة التوحيد، وتثبيت أنه ﴿ليس كمثله شيء﴾، وتشير إلى الحكمة من الثواب والعقاب.

(3) الشهادة له(ص) بالنبوة والتذكير بالعلاقة الخاصة لها وحدها به(ص)، واصطفاءه قبل الخلق.

(4) تذكرهم بمسؤوليتهم الكبرى في حمل الرسالة وبالقرآن الذي هو صلتهم بالله ورسوله(ص).

(5) هذه الفقرة لا علاقة لها بالنزاع مع الخليفة، وإنما فقرة تبين الحكمة من الشرائع الإسلامية – تبينها في اختصار معجز لا يخرج إلا ممن ولدها(ص):

الإيمان يزكي النفس من الشرك لأنه يخلص العبد من علائق الدنيا

الصلاة تجعل العبد يقف بين يدي مولاه بكل خضوع، ما يرغم أنف النفس المتكبرة

الزكاة لعلها تطهر النفس بالانفصال عن الممتلكات التي ترهقها، ثم تنمي الرزق بلطف الله من جهة وبما تصنعه في الدورة الاقتصادية في المجتمع من جهة أخرى

الامتناع عما تحبه وما اعتادت عليه النفس وفيه قوام البدن والعقل

الحج يشيد الدين في نفس الفرد بما نعرفه من آثار الحج على الكبر والرغبات والرفاهية، وفي المجتمع بما يجعله للحاج من منزلة عند الناس كونه لبى نداء

إبراهيم(ع)، وفي الأمة بما يذيبه من طبقية وطائفية وغير ذلك مما يقسمها، وفي العالم بما يمنحه للأمة من مشهد قوة عند الأمم

العدل يعطي المظلوم حقه فيزيل ما في قلبه، وفيه أثر استباقي لمنع المشاكل وتنافر القلوب

طاعة أهل البيت(ع) هي التي تنشئ النظام العام، لأن عندهم(ع) العلم والعصمة المطلوبة لإجراء السياسات ما يحقق للمجتمع المسيرة الصحيحة التي لا تنحرف إلى الفوضى

إمامة أهل البيت(ع) تحقق وتركز وتديم الوحدة الإسلامية وبدونها تتفرق الأمة أحزاباً وشيعاً، فإن أهل البيت(ع) لم يختلف عليهم أحد فلو ائتمت الأمة بهم تحققت الوحدة

الجهاد هنا الجهاد الأصغر، أي القتال في سبيل الله، وهذا يحقق العز للدين من ناحيتين: تقوية وتوسعة الدولة الإسلامية، وجعل الدولة مهابة بحيث لا يذلها الآخرون

الصبر على الشدائد والمصائب من أبواب التعرض للأجر، ربما لأنها تعني صدق التوحيد حيث تهون النوازل لأن الدنيا تهون في عين العبد الذي كبر المولى في عينه، وربما لأنها تعني صدق التوكل على الله في الكروب، وربما لأنها تعني عدم الغفلة عن مفهوم الابتلاء

الأمر بالمعروف يحقق الخير بالأمر مباشرة، وفي بعض موارده نهي عن المنكر بشكل غير مباشر

بر الوالدين يقي من سخط الله لمنزلتهما المتأتية من جهودهما وتضحياتهما وإيثارهما

صلة الأرحام تحقق أمرين: زيادة في العمر، ربما لأن العمر متعلق بأصل وجود الإنسان بدءاً من الرحم فكأن العبد يعطي لمن رفده بالحياة فيستحق الزيادة منه، وزيادة في العدد، ربما لأن الله تعالى يثيب عليه بزيادة في الولد أو بتقوية الأسرة الأكبر من الأقارب والعشيرة الأقربين

القصاص يحقن الدماء لأنه يمنع من الثأر والثأر المتبادل، كما يشكل رادعاً عن الجريمة

الوفاء بالنذر يعلن صدق العبد أولاً، وطاعته للشريعة ثانياً، فيمن عليه ربه بالغفران

توفية المكاييل والموازين يغير ظلم البائع للمشتري إلى عدل، وهي حالة منتشرة بحيث وصفت(ع) توفية المكيال بأنه يغير البخس وكأن البخس صار الأصل في السوق

النهي عن شرب الخمر يخلص من القذارة المادية والمعنوية لآثاره على الجسد والعقل والنفس

إجتناب قذف الناس بالصفات السيئة والتهم يمنع من الطرد من رحمة الله تعالى

ترك السرقة كأنه استجابة من الإنسان لمتطلبات عفة اليد وتنزهها عن الحرام

تحريم الشرك يقطع الطريق أمام الأرباب المزيفة، ويعلن إخلاص الإيمان للمولى عز وجل

(6) تعظهم بالتقوى والتمسك بالدين، وبطاعة الله في الأمر والنهي، وتربط حسن استجابتهم بالعلم، لأن الطاعة، وخشية الله على حقيقتها، إنما تكون بالتفقه في الدين.

(7) تذكرهم مجدداً بالعلاقة النسبية معه(ص)، وتضيف العلاقة الخاصة لزوجها(ع) به(ص)، من الناحيتين: النسبية "ابن عمي" والأخوة التي جعلها النبي(ص) لعلي(ع) خاصة.

(8) تعدد جهاده(ص) حتى انتصر الحق وانخفض صوت الكفر والنفاق وأعلنت كلمة التوحيد، وهو(ص) يقوم بذلك مع جماعة من الزهّاد، لعلهم أهل بيته(ص) والخلص من أصحابه.

(9) تذكرهم بما كانوا عليه من أسوأ الأحوال، وكيف أن الله أنقذهم بالنبي(ص)؛ بعد عناد ورفض شديد من أشرار العرب وأهل الكتاب؛ وكان(ص) يصول عليهم بأخيه علي(ع) الذي كان(ص) يقذفه في "فم الأسد" فلا يرجع إلا وقد أخمد حربهم، وهو في ذلك يكد ويجاهد في حين أن المخاطبين – وتعني البعض ممن تعرف ذلك منهم – في أمن ودعة، تتهمهم بانتظار أن تدور الدائرة على أهل الحق، وبكل الأحوال كانوا ينكصون ويفرون في الحرب.

(10) تتهمهم بظهور النفاق وبعلو صوت الخاملين، والإسراع إلى نداء الشيطان، مع أنه(ص) كان لتوه معهم وجرح فراقه لم يندمل؛ ثم ترد عذرهم أنهم خافوا الفتنة بالآية الكريمة أن ما حصل هو عكس ما اعتذروا به؛ وهذا أول دليل على أنها(ع) إنما جاءت بالأساس لفضح موقفهم في قضية خلافة أبي بكر لأن قولهم "خشينا الفتنة" كان حولها لا حول الميراث.

(11) تقرعهم بالتساؤل كيف يكون ما حصل من زعماء الفتنة ومن استجابوا لهم مع أن القرآن بين أيديهم، فهل يريدون الحكم بغيره فكأنه اتخاذ غير الإسلام ديناً!

(12) وتتهمهم أنهم انتظروا هدوء عاصفة المعارضة لبيعة أبي بكر كي يبدأوا بالحلقة الثانية من مسلسل الانحراف، وفي كله يتعاملون مع أهل البيت(ع) بالسوء؛ وهذا دليل ثان على أن المقصود من هجومها(ع) عليهم إنما هو البيعة وليس الميراث.

(13) تقول: وكأن كل ما فعلتم لم يكفكم فجئتم الآن تريدون أخذ الميراث منا! وهذا دليل ثالث على أن أصل المنازعة ليس الميراث لأنها أتت بقضية الميراث كظلم مضاف إلى الظلم الأول الأساس؛ تعلن أن هذا هو من حكم الجاهلية، ربما لأن البعض فيها كان لا يورث البنات، وربما لأنهم صدفوا عن الحكم في كتاب الله فكأنما يريدون العودة إلى الجاهلية.

(14) هل هناك شك أنها(ع) ابنته(ص)؟ إذاً، كيف تغلب على إرثها؟ وهنا توجه الخطاب إلى الخليفة مباشرة، مستخدمة أقل الألفاظ موادعة "يا ابن أبي قحافة"، وتسأله سؤالاً استنكارياً كيف يرث أباه ولا ترث هي أباها(ص)؟ وتستمر باستنكارها تركهم الآيات الواضحة في القرآن التي تثبت وراثة الأنبياء(ع) والآيات الأخرى التي تثبت عمومية الإرث بحيث تشمل النبي(ص)، فهل أن الآيات خصصها لهم، وأن أنهم يقولون أنها ليست على ملة أبيها(ص) – وهو مؤلم حقاً –، أو كانوا أعلم بعموم الآيات وتخصيصها من أبيها(ص) الذي أنزلت عليه وابن عمها علي(ع) وهو باب مدينة العلم؟ (راجع الباب 1 الفصل 7.)

(15) ثم تعلن ترك ميراثها كملكية قطعت غصباً من صاحبتها(ع) لتلقى الغاصب في المحشر! حيث الحاكم هو الله والشاهد بالآيات وتشريعاتها أبوها(ص)؛ وتهدده بالنتيجة.

(16) إتجهت تقيم الحجة على الأنصار، فذكرتهم بمكانتهم في الإسلام، فهم السند وأهل الدار، وتساءلت عن موقفهم السلبي من الظلم الذي وقع عليها – مع قدرتهم على نصرتها –، وتذكرهم بقوله(ص) ‹‹المرءُ يُحفَظُ في ولده›› في إدامة العلاقة مع الميت تكون مع ولده.

(17) هل أن موته(ص) مبرر لموقفهم السلبي؟ نعم هو مصيبة كبرى، ديست معها حرمة أهله(ص)، لكنها مصيبة أخبرهم الله بها في آية تقرعهم بأن موقفهم منها موقف الانقلاب على الأعقاب.

(18) تستمر بتقريع الأنصار كيف تهضم حقوقها أمام أعينهم ويسمعون دعوتها فيخذلونها مع تمكنهم من نصرتها؟ هذا مع أنهم أهل الجهاد والصلاح والخير والقوم الذين اصطفاهم الله لنصرة أهل البيت(ع)، وتذكرهم بحسن بلائهم في الإسلام، حتى إذا استقر الأمر للدين وانطفأت نيران الكفر تتغير أحوالهم ومواقفهم من الإيمان والإقدام إلى السكوت والكلام بالسر – وهو دليل الضعف والجبن –، وحتى الشرك! تنهي تقريعها بالآية الكريمة التي تثبت نكث العهد من قوم لا ينبغي للأنصار أن يخشوهم لأن هذا يخدش في إيمانهم.

(19) ثم تقول بأنهم اختاروا الأسهل وتركوا صاحب الحق – وهو علي(ع) – ولكن هذا هو الخروج من سعة علي(ع) إلى ضيق الآخرين، وقد وجدوا ما قبلوا به ممجوجاً إلى درجة القيء! وتنهي بتقريعهم بالآية التي تؤكد أن الخسارة إنما تلحق بهم.

(20) تؤكد أن قولها لهم ليس لأن عندها أملاً فيهم، ولكنه فيضان الشعور بالظلم في داخل النفس فتكلمت، ونفثت بعض غيظها مما جرى عليها، ولكن أيضاً إقامة الحجة عليهم كي لا يقولوا لم نعلم. والنتيجة موقف عار أبدي، في إطار غضب الله تعالى، وآيات الكتاب العزيز تهدد الظالمين بسوء المنقلب، فليفعلوا ما يفعلون ولتفعل هي وأهل بيتها ما يفعلون.

(21) عندها، أجاب أبو بكر بكلام يذكرنا بكلامه مع الأنصار يوم السقيفة، كيف سحب البساط من تحت أقدامهم بكلماته التي اختارها بعناية، فهو يخاطبها(ع) بتأكيد ما أرادت التذكير به من العلاقة النسبية لها بالنبي(ص)، ولكن هذا النبي(ص) كان رؤوفاً كريماً مع المؤمنين، فينبغي أن تكون هي(ع) كذلك؛ ويؤكد أنه(ص) أبوها دون النساء (وفيه دليل على أنها البنت الوحيدة له(ص))، كما يؤكد أخوته(ص) لعلي(ع) دون غيره، وعلى جهاده(ع) العظيم، بل ويؤكد أن من يبغضهم إنما هو شقي؛ ويؤكد أن عترة النبي(ص) هم الدالون على الخير والمسالك إلى الجنة (وهذه لا تكون إلا لقيادتهم للأمة، أي إمامتهم(ع)، أو هكذا أفهم).

(22) ويستمر بمخاطبتها بأنها "خير النساء"، وأنها صادقة في قولها ومتقدمة في عقلها، وأنه لا يردها عن حقها أو صدقها، ولكن... ولكن إنما قام بما علمه هو من "رأي" النبي(ص) – وتجدر ملاحظة وصف فعل النبي(ص) أنه "رأي" وهو ما لا يقوله علماء المسلمين ولا عامتهم لأنه(ص) لا يفعل شيئاً في أمر الشريعة من قبيل الرأي، وإنما يتبع الوحي، وهذا القول من أبي بكر كان من أجل أن يجعل المسألة اجتهاداً من النبي(ص)؛ ويستشهد الله أنه سمع النبي(ص) يقول أن الأنبياء(ع) لا يورَثُون، أو لا يُوَرِّثُون.

(23) ولكنها(ع) ردت كلامه بتكرار وضوح القرآن في ميراث الأنبياء(ع) وغيرها من أحكام الميراث التي تشمل الجميع، وأن زعم أن النبي(ص) قال ذلك الحديث يعني أنه(ص) أعرض عن كتاب الله، وهذا يضيف قول الزور إلى الغدر الذي جاءوا به! بل وترميه بأن موقفه شبيه بالمؤامرات التي كانت تحاك ضده(ص)؛ ثم تقطع أن موقفهم هو مغرض (سولت لهم أنفسهم).

(24) هنا أجابها بنفس طريقته الهادئة، التي ربما تبدو لغير اللبيب أنها طريقة العم الحاني الصبور في قبالة هجوم الشابة الغاضبة، فلم يكذبها، بل على العكس أعلن أنها صادقة، بل وصفها(ع) بأنها جوهر الحكمة ومقر الهدى والرحمة وركن الدين والبرهان بذاته، وأنه لا ينكر ما تقول... ولكنه طلب شهادة المسلمين فإنهم هم الذين قلدوه الخلافة واتفقوا على أخذ ما أخذ منها، فهو لا يستبد ولا يستأثر وهم الشهود! وهنا ملاحظتان: الأولى أن الزهراء(ع) طلبت التحاكم إلى القرآن «هذا كتاب الله حكماً عدلاً وناطقاً فصلاً» في حين يجيبها بطلب التحاكم إلى المسلمين "هؤلاء المسلمين بين وبينك"، وهذا غريب لأنه لا يوجد مسلم يرى مرجعية المسلمين أعلى من مرجعية القرآن، ولكن الخليفة وجد أن التحاكم إلى القرآن سيؤدي إلى رجوعه عن فعله وهو ما لم يرده (وإن روي أنه رجع وكتب لفاطمة(ع) صكاً بفدك والميراث ولكن صاحبه مزقه)؛ الثانية أنه يقول الشيء ونقيضه – يقول أنه يصدقها فيما تقول، وهو الاستبداد عليها، ويقول أنه لم يستبد عليها في نفس الوقت!

(25) هنا، وجدت(ع) أن المزيد من الكلام لم يعد يجدي نفعاً لأن الخليفة مصر على رأيه، وهو يصوغه بطريقة لينة دبلوماسية، حتى أنه رمى الكرة في ملعب الناس يطلب جعلهم شهوداً، والناس ساكتون ما يعني إما الموافقة على كلامه وإما أنهم على الحال التي وصفتهم(ع) من الضعف والرضا بالسلامة، لذا، أتمت الخطبة بتحذير المسلمين مما وقعوا فيه وما ينتظرهم في المستقبل نتيجة تركهم كتاب الله والرين الذي أصاب قلوبهم، وأنهم سيجدون تحمل عاقبته ثقيلاً ونتائجه سيئة عندما تنكشف الحجب ويظهر الله تعالى لهم ما لم يكونوا يحتسبون.

(26) لم يبق إلا التوجه إلى الذي كان حامياً لها، فصارت تخبره(ص)، شعراً، بما جرى عليها.

أخيراً، أردد ما قاله الشاعر يصف الزهراء(ع) في موقفها وكلماتها هذه:

تَعِظِ النّاسَ فِي أَتَمِّ خِطابٍ حكَـتِ المُصطَفى بهِ وَحَكاها

سلام اللّه عليها.

من كلام الزهراء(ع) مع نساء المهاجرين والأنصار

وهي نصوص من كلام لها مع نساء المهاجرين والأنصار اللواتي زرنها بعدما ردت عن مالها وإرثها، ثم اشتد وجعها؛ وقد قرأت روايات ثلاث بينهما اختلاف في الطول وبعض الألفاظ ولكن بنفس الأقسام العامة، أذكر هنا رواية كتاب "الاحتجاج" لأبي منصور أحمد بن علي الطبرسي ص146 (أضفت أرقاماً ليسهل التعليق).

قال سويد بن غفلة (سويد بن غفلة الجعفي "أدرك الجاهلية كبيرا وأسلم في حياة رسول(ص) ولم يره، وأدى صدقته إلى مصدق النبي(ص) ثم قدم المدينة فوصل يوم دفن النبي(ص) وكان مولده عام الفيل وسكن الكوفة" (أسد الغابة»: "لما مرضت فاطمة (عليها السلام) المرضة التي توفيت فيها اجتمع إليها نساء المهاجرين والأنصار يعدنها، فقلن لها: كيف أصبحت من علتك يا ابنة رسول الله؟ فحمدت الله وصلت على أبيها (صلى الله عليه وآله) ثم قالت:

(1) ‹‹أصبحت والله عائفة لدنياكن، قالية لرجالكن، لفظتهم بعد أن عجمتهم وشنأتهم بعد أن سبرتهم، فقبحاً لفلول الحد واللعب بعد الجد، وقرع الصفاة وصدع القناة، وخطل الآراء، وزلل الأهواء، وبئس ﴿ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون﴾. لا جرم لقد قلدتهم ربقتها، وحملتهم أوقتها، وشننت عليهم غارها، فجدعاً وعقرًا وبعداً للقوم الظالمين.

(2) ويحهم، أنى زعزعوها عن رواسي الرسالة، وقواعد النبوة والدلالة، ومهبط الروح الأمين، والطبين بأمور الدنيا والدين، ﴿ألا ذلك هو الخسران المبين﴾. وما الذي نقموا من أبي الحسن؟ نقموا منه والله نكير سيفه، وقلة مبالاته بحتفه، وشدة وطأته، ونكال وقعته، وتنمره في ذات الله.

(3) وتالله لو مالوا عن المحجة اللائحة، وزالوا عن قبول الحجة الواضحة لردهم إليها، وحملهم عليها، ولسار بهم سيراً سجحاً لا يكلم خشاشه، ولا يكل سائره، ولا يمل راكبه، ولأوردهم منهلاً نميراً صافياً روياً تطفح ضفتاه، ولا يترنق جانباه ولأصدرهم بطاناً، ونصح لهم سراً وإعلاناً، ولم يكن يحلي من الغنى بطائل، ولا يحظي من الدنيا بنائل، غير ري الناهل وشبعة الكافل، ولبان لهم الزاهد من الراغب والصادق من الكاذب، ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾، ﴿والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين﴾.

(4) ألا هلم فاستمع، وما عشت أراك الدهر عجباً، وإن تعجب فعجب قولهم، ليت شعري إلى أي سناد استندوا وعلى أي عماد اعتمدوا، وبأية عروة تمسكوا، وعلى أيه ذرية أقدموا واحتنكوا؟ ﴿لبئس المولى ولبئس العشير﴾، و ﴿بئس للظالمين بدلاً﴾؛ استبدلوا والله الذنابى بالقوادم، والعجز بالكاهل، فرغماً لمعاطس قوم ﴿يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾؛ ويحهم، ﴿أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون؟﴾

(5) أما لعمري لقد لقحت، فنظرة ريثما تنتج، ثم احتلبوا ملء القعب دماً عبيطاً وذعافاً مبيداً، هنالك يخسر المبطلون، ويعرف التالون غب ما أسس الأولون،

ثم طيبوا عن دنياكم أنفساً، واطمئنوا للفتنة جأشاً، وأبشروا بسيف صارم وسطوة معتد غاشم، وبهرج شامل، واستبداد من الظالمين يدع فيئكم زهيداً وجمعكم حصيداً، فيا حسرة لكم، وأنى بكم، وقد ﴿عميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون؟﴾"

(6) قال سويد بن غفلة: "فأعادت النساء قولها(ع) على رجالهن، فجاء إليها قوم من وجوه المهاجرين والأنصار معتذرين، وقالوا: يا سيدة النساء، لو كان أبو الحسن ذكر لنا هذا الأمر من قبل أن نبرم العهد، ونحكم العقد، لما عدلنا إلى غيره، فقالت(ع): ‹‹إليكم عني، فلا عذر بعد تعذيركم، ولا أمر بعد تقصيركم››".

تعليقات على كلامها(ع)

(1) لم تعد تحترم رجال المهاجرين والأنصار بعدما اختبرتهم فبان ضعفهم وعدم استمرارهم في النهج، وخضوعهم للرأي الخطأ والهوى؛ وقد عرضوا أنفسهم لسخط الله تعالى.

(2) تتساءل مستنكرة كيف أبعدوا الخلافة عن مواقع النبوة والوحي، والعارف الكامل بالدين والدنيا – تعني علياً(ع) – فإن هذا هو الخسارة الكبرى. ثم تتساءل عن الذي لم يعجبهم في علي(ع)، وتجيب أنه ما فعله بالكافرين وبيعه نفسه لله وشدة ما أوقعه في أعداء الله. وهذا دليل على أن النزاع هو حول الخلافة لا الميراث.

(3) تقسم كيف كانت ستكون الحال لو أنهم بايعوا علياً(ع): ما كان سيقبل انحرافاً، بل كان سيسير فيهم السيرة التي لا يكل منها ولا يمل، ولأفاضت عليهم من بركاته الخير الكثير، ولنصحهم، ولم يأكل من دنياهم إلا حد الكفاف، ولبان لهم زهده الحقيقي من زهد من يدعي وصدقه من كذب غيره – مستشهدة في ذلك بآيات الكتاب.

(4) تصف ما اعتذروا به من مبررات وحجج بالقول العجب، أي لا يصدق، فتتساءل عن الذي أسسوا عليه موقفهم، كما تنبه إلى عظيم ما جاءوا به لأنه اعتداء على أعظم ذرية لأعظم نبي(ص)، فهم بئس الأولياء وبئس الأصحاب، واستبدال، علي(ع) بغيره هو استبدال الأعلى بالأدنى؛ الذين يستحقون التوبيخ

يظنون أنهم أحسنوا الصنع بينما هم المفسدون، لأنهم قدموا الذي يحتاج هو نفسه إلى من يهديه على الذي يهدي إلى الحق – وهو علي(ع) –.

(5) تخبرهم بما حصل: إنها الفتنة، التي تلقحت بما فعل بعضهم ووافق عليه آخرون وسكت عنه الباقون، ولكنها – كأي انحراف – تحتاج إلى وقت حتى تنتج ثمرتها، وهو القتل الذريع الذي سيحصل فيهم، ثم سيعرف الذين يأتون بعدهم – وهم جميع المسلمين من ذلك اليوم وإلى يومنا هذا وفيما سيأتي – مغبة ما أسسه أولئك الذين سلبوا علياً(ع) حقه ودفعوا خلافة النبي(ص) عن مكانها الصحيح؛ وتخبرهم – بسخرية – عن أحوال دنياهم والفتن التي سيغرقون فيها وعتداء الغاشمين والظالمين المستبدين الذين سيفقرونهم ويقتلونهم؛ تتحسر عليهم، ولكن ما بيدها حيلة وهم الذين رفضوا هدى علي(ع) وأهل البيت(ع).

(6) أتى بعضهم إليها بعدما وصلهم تقريعها وتهديدها بما ستؤول إليه أحوالهم، دنيا وآخرة، ولكن... ولكن باعتذار رمى باللوم على علي(ع) نفسه! فلو أنه(ع) قال لهم ما قالته هي(ع) لهم لما تركوه إلى غيره! بل وهناك توقيت أيضاً: كان يجب أن يقول(ع) لهم هذه الكلمات قبل أن يبايعوا أبا بكر! وهذا – برأيي – عذر أقبح من ذنب، لأنه لم يكتف بالظلم والمشاركة فيه بل ورماه على المظلوم نفسه! أما هي(ع) فقد أجابتهم وأحسنت – كما هو شأنها في جميع ما قالته – إذ ردت كلامهم ومحاولتهم الاعتذار، فإنه لا ينفع الاعتذار مع هكذا فعل واضح البطلان إزاء الحق الواضح، ولا ينفع الأمر بعد التقصير منهم، فإنه لا يرجى منهم الاستجابة إلى الأمر بعد هكذا تقصير، بل كيف سيستجيبون وهم يقولون أن العهد قد أبرم والعقد قد أحكم؟! والعجيب أنهم وجدوا بيعتهم للخليفة أشد إبراماً وإحكاماً من بيعتهم لله ورسوله(ص) وهي بيعة على السمع والطاعة وعدم المخالفة وعدم طاعة المخلوقين إذا تعارضت معها؛ فهل يعقل أنهم – وهم على هذا الوضع من خطل الرأي وضعف الموقف – سيقومون بشيء يعيد الأمر إلى نصابه؟ لذا، ردتهم الزهراء(ع) لعلمها بهذا.

(الفصل الثامن) حديث الغدير وبيعة الغدير

إليك قائمة بالمصادر من كتب أهل السنة لم أذكرها في الفصل الثامن:

1 -إبن كثير : تفسير القرآن ج2 ص15/ ط. بيروت

2 -محمد رشيد رضا : المنار ج6 ص464/ ط. بيروت

3 -أحمد بن حنبل : العلل ومعرفة الرجال ج3 ص262/ ط. الرياض

4 -السيوطي : الجامع الصغير ج2 ص66/ط. بيروت

5 -النسائي : السنن ج5 ص130/ ط. بيروت

6 -الطبراني : المعجم الأوسط ج3 ص69/ ط. الرياض

7 -البغوي : مصابيح السنة ج4 ص172/ ط. بيروت

8 -العيني : عمدة القاري شرح صحيح البخاري ج18 ص206/ ط. بيروت

9 -الذهبي : التلخيص ج3 ص109/ ط. بيروت

10 - البيهقي : الاعتقاد على مذهب السلف 217/ ط. بيروت

11 - السيوطي : الحاوي للفتاوى ج1 ص106/ ط. بيروت

12 - النسائي : خصائص علي عليه السلام ص43/ ط. إيران

13 - السيوطي : الدر المنثور ج2 ص293/ ط. بيروت

14 - النسائي : فضائل الصحابة ص15/ ط. بيروت

15 - الذهبي : ميزان الاعتدال ج3 ص294/ ط. بيروت

16 - الطبري : الرياض النظرة في مناقب العشرة ج3 ص127/ ط. بيروت

17 - الخوارزمي : المناقب ص156/ ط. قم

18 - إبن المغازلي : المناقب ص31/ ط. بيروت

19 - البلاذري : أنساب الأشراف ج2 ص111/ بيروت

20 - إبن طلحة الشافعي : مطالب السؤول ص4/مخطوط

21 - القندوزي : ينابيع المودة ج1 ص33/ ط. النجف

22 - المناوي : فيض القدير ج4 ص358/ ط. بيروت

23 - الشبلنجي : نور الأبصار ص78/ ط. المكتبة الشعبية

24 - إبن الصباغ المالكي : الفصول المهمة ص40/ ط. بيروت

25 - الطبري : ذخائر العقبى ص67/ ط.القاهرة

26 - المناوي : كنوز الحقائق ج2 ص118/ ط. بيروت
27 - السيوطي : تاريخ الخلفاء ص169/ ط. مصر
28 - إبن خلدون : المقدمة ص246/ ط. بيروت
29 - إبن كثير : البداية والنهاية ج5 ص209/ ط. بيروت
30 - إبن عبد ربه : الاستيعاب ج3 ص1098/ ط. بيروت

موقع غدير خم

إن "غدير خم" مكان معروف يقع الآن في بداية وادي الجحفة على يسار طريق الحجاج القادمين من المدينة المنورة، وعلى مسافة حوالي 183 كم من المدينة المنورة. والوصول إليه عبر طريقين:

الأول – طريق الجحفة، ويبعد بضعة كيلومترات من ميقات الجحفة

الثاني – طريق رابغ، ويبعد حوالي 26 كم عن غدير خم

رد شبهات حول حديث وبيعة الغدير

سأتناول الشبهات التي أوردها الشيخ محمد رضا المظفر في كتابه "السقيفة" بدءاً من ص172، وأذكر اختصار إجاباته على بعضها، وإجابتي على البعض الآخر (وذلك بعد كلمة "أقول:").

الشبهة الأولى: أن حديث الغدير لم يؤمن بصحته جميع المسلمين وأن بعض من آمن بصحته فسره بشكل مخالف لتفسير الشيعة وذلك بالنظر إلى دلالة كلمة "المولى"، أي قول النبي(ص): ‹‹من كنت مولاه فهذا علي مولاه››؛ أيضاً أن الحديث لم يروه البخاري ومسلم.

الجواب على الشبهة: أولاً: أن عدم رواية البخاري ومسلم لحديث الغدير لا يضر به كحديث مستفيض بل متواتر وذلك لأن الحاكم استدركه عليهما في المستدرك ج3 ص109 وج4 ص381 وقال بأنه صحيح على شرطي البخاري ومسلم، وكذلك في كنز العمال ج6 ص390. وكم من الأحاديث الصحيحة على شرطيهما ولكنهما تركاها. كما إنهما لم يرويا ولا حديثاً واحداً عن الإمام جعفر الصادق(ع) الذي كان أوثق فقهاء عصره وأعلمهم، إن لم يكن إماماً كما يعتقد

الشيعة، بل لم يرو البخاري ومسلم أي حديث عن أبنائه الأئمة من الكاظم(ع) وبعده. هذا في الوقت الذي رويا عن الكثير من المجهولين بل والمطعون في عدالتهم.

الشبهة الثانية: لو أن النبي(ص) أمر بكتابة الحديث كما أمر بكتابة القرآن لما اختلف الناس فيه.

الجواب على الشبهة: بأنه(ص) لم يأمر بتدوين الحديث عموماً لأنه يكفي أنه ترك لنا الثقل الأصغر وهم عترته مما سيتكفل بإخراج الأحاديث الصحيحة، أما بالذهاب خلف "حسبنا كتاب الله" فهو الذي سيؤدي إلى الاختلاف لأنه لو كان القرآن يكفي لما قرنه النبي(ص) بالثقل الآخر.

الشبهة الثالثة: أن أمراً بهذه الأهمية أما كان ينبغي أن ينزل في القرآن بشكل صريح؟

الجواب على الشبهة: أقول: إن هناك آيات كثيرة أعلنت مقام علي(ع) ودوره، أولاً. ثانياً، لأن الله يعلم ماذا كانوا سيفعلون بأي آية صريحة. وفي الواقع، لو تأملنا في البدائل القرآنية الممكنة، مثلاً أن يقول "علي هو الإمام" أو "علي هو الولي"، سنجد أن أي ذكر صريح كان يمكن تأويله بخلاف ما جاء في الآيات النازلة في علي(ع) دون أن تسمّيه. ولنأخذ أمثلة:

آية الولاية: لو قال "إنما وليكم الله ورسوله وعلي" لقالوا "نعم هو ولينا فهو يحبنا ونحن نحبه إلى آخر الكلام الذي قالوه ويقولونه بخصوص حديث الغدير «من كنت مولاه فعلي مولاه».

آية المباهلة: لو قال "فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وعلياً وأنفسكم" لانتهت أعظم فضيلة لعلي(ع) بتقليده وسام "نفس النبي(ص)"، ولربما قالوا بأن الأمر بدعوة أقربائه القريبين هو لتأكيد صدقه لأنه لا يضحي بهم، وبذا لانتهت فضيلة فاطمة والحسنين(ع) أيضاً.

آية المودة: لو قال "قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في علي وفاطمة وأولادهما" لقالوا: "كلنا نحبهم وهذا لا خلاف عليه".

وهكذا في جميع الآيات النازلة في علي(ع).

ولو أخذنا ما اقترحه ذلك الشيخ الوهابي على الفضائيات أن ينزل قرآن فيه "علي هو الإمام"، لقال هو نفسه: "نعم إن علياً هو الإمام ونحن نعترف به بعد أبي

بكر وعمر وعثمان". فلو قيل: ماذا لو كانت الآية المقترحة "علي هو الإمام بعد النبي مباشرة" لقال هو نفسه: "نعم هو إمامنا بعد النبي لأنه من جملة الصحابة الكبار الذين نقتدي بهم جميعاً ونأخذ عنهم الأحكام". فلو قيل: ماذا لو كانت الآية المقترحة "علي لا غيره هو الإمام بعد النبي مباشرة" فلربما أورد قول عمر "لا أبقاني الله لمعضلة ليس فيها أبو الحسن". مهما قلت، سيقول أن علياً(ع) طالما رضي بخلافة من تقدمه فإن الآيات المقترحة لا تهم، وهذا ما قالته المعتزلة قديماً ويقوله الشيعة الزيدية دائماً.

إذاً، فالله أعلم بإنزال الآيات في علي(ع) وآل محمد(ص) بالشكل الذي يمنع التلاعب، كما يجعلها حجة بيد شيعة علي(ع)، وإن بوجود كيد الشيطان بمحاولة صرف الآيات عن سبب نزولها أو عن دلالاتها. ولكن كيد الشيطان كان ضعيفاً وبقيت وستبقى الحجة مع علي(ع) وشيعته أبد الدهر.

الشبهة الرابعة: وهذا من أهم ما أثير حول حديث الغدير وهو كيف يحصل هذا الارتداد عن حديث الغدير من قبل سبعين ألفاً أو أكثر ممن سمع الحديث مع أن المدة الفاصلة بين يوم الغدير وبين وفاة النبي(ص) مدة قصيرة لا يمكن أن يحصل فيها هذا التناسي أو النسيان؟

الجواب على الشبهة: أقول:

(أولاً) بخصوص العدد: لم يكن في المدينة من عشرات الألوف الذين حضروا بيعة الغدير إلا عشرة بالمائة أو ما يقرب من ذلك وهم أهل المدينة الذين كانوا في الغدير، لأنه من الواضح أن المدينة لم تخرج عن بكرة أبيها لأداء حجة الوداع مع النبي(ص)، وبالتالي فإن العدد الهائل الذين حضروا الغدير ليس وارداً في المقام. هؤلاء العشرة بالمائة من أهل المدينة على قسمين رئيسيين: المهاجرون والأنصار؛ وأكثر الأنصار يريدون علياً(ع) ولكن لضعفهم أمام المهاجرين وإن عددهم، وهم الأكثر بالطبع، لم يشكل ثقلاً في الميزان كما يتوقع، لأسباب منها تمكن أبي بكر وصاحبيه من سحب البساط من تحت أقدام الحاضرين منهم في السقيفة، وهم يمثلون ألوف الأنصار كونهم رؤساءهم؛ وأما المهاجرون فكان حالهم بين منافس لعلي(ع) ومناوئ له؛ وفي الفريقين، جماعة من المنافقين وجماعة ممن في قلوبهم مرض – بنص القرآن – والمنافق لا يمكن إلا أن يكون ضد ما يريده الله ورسوله(ص) والذي في قلبه

مرض أنى له أن يكون مع علي(ع)؟ إن جميع هؤلاء، المؤمنين والمنافقين والذين في قلوبهم مرض، وجدوا أن في مسألة صغر سن علي(ع) وكراهية قريش لخلافة بني هاشم ما يخرج الإعراض عن بيعتهم في الغدير إخراجاً مشروعاً.

(ثانياً) بخصوص فكرة البيعة: ما أن تحصل بيعة لأحد فلا يمكن بعدها العودة عنها حتى ولو كانت بيعة باطلة، وذلك لتحكم المفاهيم العشائرية في أفراد مجتمع المدينة المنورة وغيرهم بشكل كامل، وكان إسلام معظمهم حديثاً جداً لا يمكنه انتزاع فكرة البيعة النافذة حتى ولو كانت مقابل بيعة للنبي(ص)، لأن بيعة النبي(ص) بيعة لقائد الدين بينما البيعة الأخرى هي بيعة رئيس العشيرة، وإذا كان المجتمع العربي اليوم، ولاسيما خارج المدن الرئيسية، لا يزال يراعي المفاهيم العشائرية إلى درجة مراقبة بعضها بدرجة أشد من مراقبة المفاهيم الإسلامية عند التعارض، فكيف يكون الحال في أول الدعوة الإسلامية وجميع المسلمين هم ممن عاش فترة في الشرك، اللهم إلا أن نصدق أنهم كانوا ما أن يسلموا حتى يتحولوا إلى ما يشبه الملائكة، وهو ما لا يمكن قبوله بحال من الأحوال لأنه لا الطبيعة البشرية تقبله ولا الحوادث التاريخية تؤيده.

(ثالثاً) بخصوص إمكانية حصول الفشل العام: أن القرآن الكريم أثبت في آية، تتلى وستظل تتلى، أنه من الممكن تماماً أن يفشل جميع الصحابة في العمل بأمر إلهي صريح نزل في القرآن، وذلك مع آية المناجاة ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنوا إذا ناجَيتُم الرَّسُولَ فَقدِّموا بَينَ يَدَي نَجواكُم صَدَقَة﴾ (المجادلة:12) فإن المفسرين أجمعوا أنه لم يعمل بها إلا الإمام علي(ع) – وهو حديث لم يروه الشيخان البخاري ومسلم ولكن الحاكم استدركه عليهما بشرطهما في ج2 ص482. وبعد ما امتنع جميع الصحابة إلا علي(ع) عن العمل بها نزلت الآية بعدها ﴿أَأَشفَقْتُم أَنْ تُقَدِّموا بَينَ يَدَي نَجْواكُم صَدَقات، فَإِذْ لَمْ تفعَلُوا وَتابَ اللّهُ عَلَيكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَأَطِيعُوا اللّهَ وَرَسُولَهُ، وَاللّهُ خَبِيرٌ بِما تَعمَلُون﴾ (المجادلة:13). وقد صرحوا بذلك في موقع "المكتبة الإسلامية" على شبكة الانترنت بقولهم هكذا:

"وقد قيل: إنه لم يعمل بهذه الآية قبل نسخها سوى علي بن أبي طالب(رض).

قال ابن أبي نجيح، عن مجاهد قال: نهوا عن مناجاة النبي(ص) حتى يتصدقوا، فلم يناجه إلا علي بن أبي طالب، قدم ديناراً صدقة تصدق به، ثم ناجى النبي(ص)

فسأله عن عشر خصال، ثم أنزلت الرخصة. وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد، قال علي(رض): آية في كتاب الله عز وجل لم يعمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي، كان عندي دينار فصرفته بعشرة دراهم، فكنت إذا ناجيت رسول الله(ص) تصدقت بدرهم، فنسخت ولم يعمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي، ثم تلا هذه الآية..."

وقد ظنوا أن بتصديرهم الكلام بكلمة "وقد قيل" أنهم يضعفون الموقف العلوي الفريد، ولكن هيهات لهم ذلك، بل أن كلامهم أكد لي أن التفسير لا مهرب منه فلجأوا إلى هذه الألاعيب.

الشبهة الخامسة: حول قول الشيعة بأن تدبير النبي(ص) بتأمير الشاب أسامة بن زيد في جيش فيه وجوه المهاجرين لكي يبعدهم عن المدينة ولكي يهيء المسلمين لقبول قاعدة الكفاية، أو لكي تخلو المدينة ممن ينافس علياً(ع)، فإنه أشبه بتدبير الضعفاء لأنه من الممكن أنهم إذا علموا بوفاة النبي(ص) سيرجعون ويهاجمون المدينة وخصوصاً أنه ليس في عنقهم بيعة لعلي(ع) ويحتلون المدينة بالقوة ويفسدون ذلك التدبير.

الجواب على الشبهة: إنه(ص) إنما فعل ذلك بعد أن علم إصرارهم على المخالفة وتأكد ذلك من تباطئهم في التحرك وطعنهم في تأمير أسامة ونجاحهم في تعطيل البعث حتى توفي النبي(ص).

الشبهة السادسة: شكك البعث في أصل حادثة رزية يوم الخميس وبأن النبي(ص) طلب دواة وكتف ليكتب لهم الكتاب الذي يؤمنهم من الضلال وذلك لأنه من غير المعقول أن يتمكن عمر من منع النبي(ص) أن يكتب. وليس هناك من داع لكتابة هذا الحديث طالما كان قد نصّ على إمامته في يوم الغدير قبل ذلك بأسابيع قليلة؛ ويقولون لو أن عمر والذين معه حاولوا منع النبي(ص) من الكتابة وقالوا "حسبنا كتاب الله" كان ذلك أدعى أن يصرّ النبي(ص) على كتابة الكتاب.

الجواب على الشبهة: إن عمر ألقى شبهة إمكانية تعرضه(ص) لحالة الهذيان وبالتالي كان سيثير الخلاف أبد الدهر: هل كان(ص) يهذي عندما أمر بهذا وبغيره من الأوامر؟ وبالتالي كان سيبطل مفعول الكتاب حتى وإن كتبه، بل إن الكتاب المفترض لمنع الضلال سيكون سبباً له وللخلاف.

الشبهة السابعة: حول قول علي(ع) بخصوص بيعة أبي بكر: ‹‹إحتجّوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة›› أو قوله(ع) لأبي بكر: ‹‹أفسدت علينا أمرنا ولم تستشر ولم ترعَ لنا حقاً›› لا يدل إلا أنه(ع) كان يرى نفسه أحق بالخلافة وليس دليلاً على نص موجود عليه. ويشككون في أن الأمة التي هي خير أمة أخرجت للناس تعلم أن علياً(ع) إمامها ومع ذلك تدير ظهرها لكل ذلك من أجل أبي بكر وعمر فقط، أو أن يكون بغض علي(ع) قد بلغ بهم حدّاً هوّن عليهم دخول النار.

الجواب على الشبهة: أقول: إن القول بأن أقوال علي(ع) لا يبدو منها نص واضح في خلافته هو من نفس نمط فعل النبي(ص) عدم كتابة الكتاب يوم الخميس السابق لوفاته – أرواحنا فداه – وذلك لأن شبهة الهذيان أو الهجر قد ألقيت عليه فلو كتب الكتاب فإن القوم لن يجدوا مفراً من استخدامها لإلقاء الشك في الكتاب وبالتالي كان سيؤدي إلى إلقاء الشك في جميع ما سيروى عنه(ص) من أحاديث وأفعال وتقريرات التي تشكل السنة النبوية المطهرة، فإن علياً(ع) حرصاً منه على النصوص المقدسة والتي توّجت في يوم الغدير تجنب استخدامها في التحاجج مع أبي بكر مخافة أن يقوموا بتفسيرها تفسيراً آخر، وهو الذي فعله علماء مدرستهم فيما بعد على كل حال ما يثبت أنه كان سيحصل وما يثبت صحة ما ارتآه أمير المؤمنين(ع) بنظرته الثاقبة، وربما بأمر رسول الله(ص)، فإنه(ع) صرح بمثل هذا ‹‹قال لي رسول الله(ص): إن اجتمعوا عليك إفعل ما أمرتك، وإلا فالصق كلكلك بالأرض؛ فلما تفرقوا عني جررت على المكروه ذيلي، وأغضيت على القذى جفني، وألصقت بالأرض كلكلي›› (شرح نهج البلاغة ج20 الحكمة 736) وبالتالي فإن النبي(ص) هو الذي أمره بعدم المجازفة بالنصوص الشريفة.

الشبهة الثامنة: حول موقف علي(ع) من قوله: ‹‹فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً›› بأن تباطؤه عنهم وعن البيعة لهم والوقوف بجانبهم بشكل كامل هو أيضاً يؤدي إلى الثلم أو الهدم للإسلام.

الجواب على الشبهة: لا يوجد أي تناقض، لأنه بعدم مقاتلته لهم عندما لم يجد أنصاراً يعني أنه سالمهم ثم أمسك نصرته عنهم ولكن لمّا رأى أن الإسلام في خطر وجد أن من واجبه ألا يبقى على حالة المقاومة السلبية فقام بنصرة الإسلام لا هؤلاء الأمراء الذين دفعوه عن حقه.

الشبهة التاسعة: عدم ورود ذكر علي(ع) في الحروب على عهد الشيخين لا يدل على عدم تعاونه معهما وإلا فأين الحروب التي اشترك فيها عمر وعثمان وطلحة والزبير في زمن أبي بكر؟

الجواب على الشبهة: أقول: الفارق شاسع بين علي(ع) والآخرين بخصوص الحاجة في الحروب، فإنه(ع) كان بطل المسلمين دون منازع وسبق الآخرين سبقاً بعيداً حتى قال(ص): «لولا سيف علي ومال خديجة ما قام للإسلام عمود ولا اخضر للإيمان عود» فالحاجة إليه في فتح العراق وفارس والشام وغيرها لا غنى عنها، وبذا فعدم اشتراكه يدل على موقف واضح إزاء القوم. أما طلحة والزبير فلعل الشيخين لم يريدا اشتراكهما لمنعهما من التمكن، ولاسيما أن الزبير كان من حزب علي(ع) وقتها. أما أبو بكر وعمر وعثمان فالأفضل السكوت عن هذا لأنه لم يعرف لأي منهم بلاء في غزوات النبي(ص)، بل كان هروبهم هو الذي روي في أكثر من وقعة.